دراسات أندلسية
في الأدب والتاريخ والفلسفة

حرر بعضها ، وترجم البعض الآخر

دكتور الطاهر أحمد مكي
أستاذ الأدب
كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة
١٩٨٧

دار المعارف

● الطبعة الأولى:
جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ
مايو ١٩٨٠ م
● الطبعة الثانية:
صفر ١٤٠٤ هـ
ديسمبر ١٩٨٣ م
● الطبعة الثالثة:
جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ
يناير ١٩٨٧ م

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهداء

إلى طالباتى وطلابى فى كلية دار العلوم ،

وإليهم فى قسمى اللغة العربية فى كليتى الآداب والتربية فى جامعة الزقازيق ،

إلى الذين تخرجوا منهم ومن لايزالون على الطريق ،

وإلى أهلى ورفاقى وأصدقائى وزملائى ...

عرفانًا باقيًا بما غمرونى من مشاعرهم الدافئة ، وعواطفهم الكريمة الصادقة ، إبان وحدتى مصابًا ، فكانوا العزاء والسلوى ، والأنيس والسمير ، والعضد والساعد ، ومع نبل مواساتهم اجتزت المحنة إلى بر السلامة والأمان .

إليهم جميعًا ... شاكرًا ومقدرًا وممنونًا

○ كلمة :

يضم هذا الكتاب مجموعة متفرقة من الدراسات ، ولكنها تتلاقى فى موضوعها ، فهى تدور حول الأندلس ، حضارته وأدبه وفكره وتاريخه ، بعضها حرره المؤلف ، والبعض الآخر ، وهو الأقل ، ترجمه لعدد من كبار المستشرقين الإسبان ، وهم شركاؤنا فى هذا التراث ، ويكتبون - فى جملتهم - بروح موضوعى حين يعرضون له ، قدر ما تسمح لهم به ظروفهم .

بعض الدراسات التى قمت بها نشر فى عدد من المجلات المتخصصة ، فى مصر أو فى بقية العالم العربى ، وآثرت جمعها فى كتاب لأن المجلات بحكم طبيعتها ، ونتيجة ما انتهى إليه العالم العربى من فرقة محزنة ، وقطيعة مدمرة ، إذا بلغت قطرًا منه لا تبلغ الآخر ، وينتهى وجودها بعد صدورها بأيام ، ولكن الكتاب أفضل قدرًا ، فهو ينتظر الراغب لسنوات ، ومن يطلبه يجده ، وإذا نفد يعاد طبعه ، ورغم كل المصائب لاتزال العلاقة بين الشعوب العربية بعامة ، وبين المثقفين منهم بخاصة ، تسير فى طريقها نحو الوحدة ولا صلة لها بالسياسات الرسمية ، وهى قصيرة النظر ، وتقوم على الأنانية المفرطة ، إنهم يتلاقون ويتفاهمون ، يحاورون ويتناقشون ، يتفقون ويختلفون ، ولكنهم فى نهاية المطاف أبناء أمة واحدة ، وأخوة متحابون ، رغم كل الضواغط الظاهرة والخفية ، لأن الغاية واحدة والهدف مشترك ، وإن اختلفت الوسائل وتباينت وجهات النظر .

قد تختلف المناهج فى دراسة عنها فى أخرى ، تبعًا لاختلاف اللحظة ، وتباين النظرة ، وقد يعرض للفكرة الواحدة ، مجملة أو مفصلة ، كاتبان أو أكثر ، وقد ترد فى دراستين ، فيصبح معنا أكثر من وجهة نظر ، فى انتظار من يرجح بإحداهما ، أو يضيف إليها جديدًا ، فى ضوء ما يجد كل يوم ، من مخطوطات لم تنشر من قبل ، ووثائق اكتشفت حديثا ، وقد تتكامل الدراسات فيما بينها ، فتمس إحداهما جانبًا من الموضوع ، وتمس الثانية

جانبًا آخر ، وبالجملة فإن هذه الدراسات تقدم فى مجموعها صورة متكاملة لبعض جوانب الحياة الفكرية فى إسبانيا ، أيام كانت تتحدث العربية وتدين بالإسلام .

أما المستشرقون الذين اخترت لهم بعض دراساتهم فأربعة :

خوليان ريبيرا : Julian Ribera (١٨٥٨ – ١٩٣٤) ، وكان أمة وحده فى عالم الأندلسيات ، لم يكن مجرد مستشرق فحسب ، وإنما كان باحثًا عظيما ، ومؤرخًا قديرا للثقافة الإسلامية ، ومفكرًا أصيلا ، وأستاذًا بكل ما تحمل الكلمة من جلال ، رغم الظروف القاسية التى عمل فيها ، فجل مصادر الأندلس على أيامه كانت مخطوطة ، والمطبوع منها أسوأ من المخطوط ، وقليل جدًا منها كان يبلغ إسبانيا . وقد اخترت له دراستين ، أولاهما دراسة موازنة بين كتابى : **تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، وكتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول** ، وفيها يقدم المثل واضحًا للباحث المقتدر فى تحليل النصوص واستنطاقها ، والوصول إلى هوية المؤلف المجهول ، ملامحه وصفاته وأصوله ومعتقده وموطنه ، وإن جهلنا اسمه ، ولا أهمية لهذا فى تقويم محتوى الكتاب . وكانت دراسته الثانية عن « **الأصول العربية لفلسفة رايموند لوليو** » وهى الأولى فيما أعلم ، وحسبك به رائدًا فى هذا المجال .

وأما الثانى فهو **ميجيل أسين بلاثيوس** Miguel Asin Palacios (١٨٧١ – ١٩٤٣) ، وهو تلميذ خوليان ريبيرا ، ومنه تسلم الراية ، ووقف حياته على دراسة الفلسفة الإسلامية بعامة ، وفى الأندلس بخاصة ، وكان دوره فيها عظيما ورائعًا : ترجم روائعها إلى الإسبانية ، ونشر عددًا من مخطوطاتها المجهولة ، وتتبع روافد العطاء والأخذ بينها وبين الفلسفة الأوروبية ، ولا يدانيه فى عمق تمكنه منها أحد من المستشرقين . غير أننا يجب أن نضع فى الاعتبار دائما أنه كان راهباً من رجال الكنيسة الكاثوليكية فى إسبانيا ، وفى أظلم أيامها ، يخضع نشاطه ودراساته وكل ما ينشر لرقابة الكنيسة مسبقًا ، وموافقتها بدءًا ، وهو بحكم وضعه ملزم بخدمة أهدافها ، كما يتلقاها من رؤسائه ، ولا حرية له فى رفض مايطلب منه أو تركه أو انتقاده ، ومن ثم فحين نجد بين تعابيره ، وهو قليل ، مالا ترتاح إليه نفوسنا دينيًا ، أو علميًا ، فلنعذره ، فلغيرنا كان يكتب ، وربما من أجل هذا القليل سمحوا له

بالنشر ، والجليل الذى أبدعه فى هذا المجال يشفع له ، ويجعله دائمًا موضع الإحترام والتقدير منا . وقد اخترت له دراسة قيمة عن زاهد المرية « **أبو العباس بن العريف وكتابه محاسن المجالس** » وهو صوفى مجهول بيننا ، رغم أن كتابه سبق أن طبع فى القاهرة منذ خمسة وثمانين عاما ، وقام بلاثيوس نفسه بطبع الكتاب بالعربية ، وترجمه إلى اللغة الإسبانية فى مدريد عام ١٩٣١م . وهو لا يقف عند الزاهد وحده ، وإنما يلقى بعض الضوء على الحياة الثقافية فى مدينة ألمرية ، وازدهرت حينًا وتنوعت ، ولو أن التاريخ جار عليها ، فلم يعطها من العناية ما أعطى قرطبة أو إشبيلية أو غرناطة أو حتى طليطلة .

وكانت الدراسة الثالثة للعالم الجليل **أنخل جونثالث بالنثيا** Angel Gonzalez Palencia (١٨٨٩ – ١٩٤٩) ، صاحب الكتاب الرائع عن الأدب الأندلسى ، والدراسات المهمة عن المستعربين فى طليطلة ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ودراسات أخرى كثيرة ، تتميز بالدقة والعمق ، والأصالة والموضوعية ، واخترت له دراسة عن « **الشعر العربى وتأثيره فى الشعر الأوربى** » ، وهو بحث مركز ، وملهم ومستنير ، ويفتح أمام الراغب فى هذا المجال احتمالات كثيرة ، ويضىء له ، فى طريقه ، جوانب عديدة .

ولكى تكون صورة الحياة الفكرية فى مدينة ألمرية واضحة لدينا ، بعض الشىء على الأقل ، اخترت دراسة عن شاعرها **ابن خاتمة** ، للمستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة **سوليداد خيبرت** Soledad Gibert ، وهى أستاذة الأدب العربى فى كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية ، وفيها تخرجت ، ومنها حصلت على الدكتوراه ، ثم عملت حتى أعوام قليلة خلت أستاذة بكلية الآداب فى جامعة برشلونه ، وتخصصت فى دراسة الحياة الفكرية والأدبية فى مدينة ألمرية ، ووقفت جهدها على تتبع النشاطات الثقافية المختلفة فى هذا الثغر الأندلسى الهام ، خلال القرون الثلاثة الأخيرة من حياة الإسلام الإسبانى . وقد حققت ديوان ابن خاتمة ، وترجمته إلى اللغة الإسبانية ، وقدمت للترجمة بدراسة ممتازة عنه ، وعربتُ هذه المقدمة لما تتسم به من عمق التناول ، ومنهجية البحث ، وأناة فى حل مشكلاته ، وصبر دءوب على تتبع قضاياه ، وصدق وإخلاص جديرين بكل تقدير

وإجلال . ولها إلى جانب هذا أبحاث أخرى عن ابن خاتمة نفسه ، وعن غيره من العلماء الذين ارتبطوا به بسبب أو بآخر.

أما منهجى فى التعريب فعرضت له أكثر من مرة فيما نشرت من أعمال أخرى ، وحسبى أن أشير هنا إلى أننى التزمت الأمانة فى النقل ، وحرصت على الأصل نصًا وروحًا ، ولم أتدخل معلقًا أو معقبًا إلا فى حالات قليلة حين تستدعى الضرورة العلمية هذا ، وجل هذه التعليقات جاءت فى الهامش تعريفًا بأعلام أوربية لايعرف القارئ العربى المتوسط الثقافة عنها شيئًا ، ومهما يكن فقد أشرت إلى ما أضفته فى كل الحالات صراحة ، أو وضعته بين معقوفتين .

وبعد ، فأدع هذه الدراسات تواجه القارئ بنفسها ، ليقول فيها رأيه ، وغاية أملى أن يرضى عنها ، وأن يحس معها أنه عرف جديدا ، وتعلم شيئًا ، وتذوق جمالا ، ولم يضع وقته عبثًا .

وإن جاءت دون مايتمنى فبحسبى أننى ما أبقيت من جهدى شيئًا . وعند الله المثوبة ، وبه التوفيق ، ومنه الهداية .

الطاهر أحمد مكى

٣٩ شارع المراغى – العجوزة
القاهرة الكبرى
١٠ من ذى الحجة ١٣٩٩ هـ
٣١ من أكتوبر ١٩٧٩ م

الأندلس

تاريخ اسم وتطوره

مع أول جماعة من المسلمين وطئت أرض إسبانيا تهيأ التاريخ لمرحلة جديدة فى سيره : العرب يفتحون أوربا . وفى جانب منها ، لاتينى وكاثوليكى ، يستقر الإسلام ، وتعلو كلمة الله ، وتصبح العربية لسانا ، وعلى بطحاء شبه الجزيرة تتعايش أجناس من البشر واللغات والعقائد ، وفى ظل الإسلام يتنفس الناس جميعًا جوًا سمحًا جميلا ، من اليسر والإخاء والمساواة ، لم يعد الملوك مردة جبارين ، متعتهم القهر ، ولعبتهم الإذلال ، ولم يعد المستضعفون فى الأرض رقيقًا يصنع الرفاهية دون أن يشارك فيها ، ويذلل صعاب الحياة دون أن يأخذ بحظه منها . لقد أدار المجتمع مع الإسلام وبعون منه ظهره للأمس ، وما هو غير صالح من عاداته وتقاليده ونظمه ، ليواجه غدًا متفائلا ، أخف أثقالا ، وأطيب عيشا ، وكان من بين الجديد الذى جاء به الإسلام اسم لشبه الجزيرة لم تعرفه من قبل : **الأندلس** .

كان الفاتحون المسلمون أول من أطلق اسم **الأندلس** على هذا الجانب من الأرض ، أما قبلهم فعرف اسمين مختلفين . أطلق عليه الإغريق لفظ **إيبريا** Iberia ، وكان يقصد به فى البدء منطقة **ولبة** Huelva [1] ثم أصبح يطلق على كل المنطقة الممتدة شرقًا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، واتسع مدلولها حتى أصبحت تطلق على كل شبه

---

(١) تطلق ولبة الآن على مقاطعة كبيرة تتاخم مقاطعتى أشبيلية وقادس من الشرق ، والبرتغال من الغرب ، وشمالها مقاطعة بطليوس . ويمر فيها نهر صغير يسمى النهر الأحمر Rio Tinto ، ونهر آخر يسمى أوديل Odiel ويصبان متقاربين فى خليج واسع ، تتناثر فيه عدة جزر صغيرة ، أكبرها جزيرة شلطيش ، وبين المصبين ، على رأس يفصل بينهما ، تقع ولبة الحالية . وهى ميناء كبير ، ومركز هام لصيد الأسماك ، وقاعدة المقاطعة التى تحمل اسمها ، وهى موطن أسرة ابن حزم العالم الأندلسى العظيم ، وخرجت من دار الإسلام نهائيًا عام ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م ، على يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

الجزيرة[٢] ، ونجد اللفظ مستخدمًا لأول مرة فى مؤلفـــات Hecartee de Milet وهو مؤرخ وجغرافى إغريقى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد[٣] ، ونلتقى باللفظ أيضًا عند المؤرخ اليونانى **هيرودوت** ، وعاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ويأتى المؤرخ الإغريقى **بوليبيوس** ، وكان فى شبه الجزيرة نفسها خلال الثلث الأخير من القرن الثانى قبل الميلاد ، فيلقى على مفهوم اللفظ مزيدًا من الوضوح : « يطلق اسم إيبريا Iberia على الجزء الواقع على البحر الأبيض ، ابتداء من أعمدة هرقلوس (مضيق جبل طارق الآن) ، أما الجزء الواقع على الأطلنطى فليس له اسم يعرف به ، لأنه اكتشف منذ قريب » . وجاء بعده المؤرخ **استرابون** ، وعاش فى نهاية القرن الأول الميلادى ، فاستخدم اللفظ يريد به كل شبه الجزيرة . وقد ظل الكتاب الإغريق يستخدمون هذا اللفظ ومشتقاته ، حتى أولئكم الذين كانوا يعيشون فى بيئات لاتينية خالصة [٤] .

وهى حقيقة لم يغفل عنها الجغرافيون العرب القدامى ، يقول **أبو عبيد البكرى** ، المتوفى عام ٤٨٧هـ=١٠٩٤م ، وهو أعظم جغرافى عرفه الأندلس ، فى كتابه : « **المسالك والممالك** » ، ويتميز بالدقة والوضوح والبعد عن الأساطير ووصلنا فى جانب منه وضاع الباقى [٥] : « يذكر أن اسمها فى القديم إبارية Iberia ، من وادى إبره » [٦] . وجاء من بعده مواطنه **الحميرى** ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، المتوفى عام

---

(٢) Antonio Garcia Y Bellido : Vienticinco Estampas de la Espana Antigua, P. 208, Madrid, 1967.

(٣) دائرة المعارف الأسبانية ، مادة Iberia

(٤) Antonio Garcia: Op. cit, P. 206 ss.

(٥) وصلنا من كتاب أبى عبيد البكرى : « المسالك والممالك » الجزء الخاص بأفريقيا ، وبدأ المستشرق الفرنسى كترمير ، المتوفى عام ١٨٥٧ م بترجمته إلى اللغة الفرنسية وأتم الترجمة أستاذه ومواطنه البارون دى ساسى ، المتوفى عام ١٨٣٨ م ، ونشر الأصل العربى فى سنة ١٩١١ ، والترجمة الفرنسية فى سنة ١٩١٣ ، وعثر ليفى بروفنسال على الجانب المتصل باسبانيا ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن على الحجى أخيرا بعنوان : « جغرافية الأندلس وأوربا » ، عام ١٣٨٧ هـ=١٩٦٨ م .

(٦) أبو عبيدة البكرى : المسالك والممالك ، ص ٥٨ ، طبعة عبد الرحمن حجى .

٨٦٦هـ - ١٤٦١م ، فنقل عنه هذا النص دون زيادة ، فى كتابه : « **الروض المعطار فى خبر الأقطار** » (٧) .

والاسم الثانى **إسبانيا** Ispania ، وأطلقه عليها الإغريق أيضا ، أو على الأقل أول ما نلتقى به فى كتاباتهم ، ولو أن أصل الكلمة يجب أن نبحث عنه فى لغة قوم أقدم من اليونان . ويرى الكاتب **بوتشارت** Bochart فى كتابه « **الجغرافية المقدسة** » وصدر فى **مدريد** عام ١٧١٢م ، أن الاسم مشتق من الكلمة الفينيقية سبان Span بمعنى بلاد الأرانب ، لأن شبه الجزيرة كان غنيًا بهذا النوع من الحيوان . وإحدى العملات القديمة التى وصلتنا من عصر الإمبراطور **أدريانو** Adriano (٧٦ - ١٣٨م) تمثل إسبانيا فى شكل أم جالسة بين قدميها أرانب (٨) ، وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون أن يقدموا له بديلا . نعم ، هناك من يرى أن الكلمة ربما كانت من أصل سلتى ، وأن أصلها فى هذه اللغة هو نفس أصل الكلمة الألمانية Spann ، ومعناها الوادى أو المدخل أو المفتاح ، ولكنه افتراض أبعد عن التصور من افتراض الأصل الفينيقى . وقد استخدم الإغريق شكلا ثانيا للكلمة هو Spania (٩) ، وكان الكاتب اليونانى Artemadoro أول من استخدمها (١٠) . ويشير **الحميرى** أيضا إلى هذه الحقيقة فيقول : « اسم الأندلس فى اللغة اليونانية إشبانيا » (١١)

وقد استخدم الرومان الكلمة اليونانية Spania بعد أن زادوا عليها حرف H فى البدء فأصبحت Hispania وفى واحد من ثلاثة كتب افتتح بها تاريخ الأدب

---

(٧) ص ٢ ، من طبعة القاهرة .

(٨) Antonio Garcia: Op. cit., p. 214 ss.

(٩) Antonio Ramos-Oliveira: Historia de Espana, tomo I, P. 261, México, 1952.

(١٠) دائرة المعارف الإسبانية . مادة Epsana . Dozy: Recherches, Epsana 2 edi., Vol. I, p. 310.

(١١) الحميرى ، الروض المعطار . ص ١ .

● عثر على هذا الكتاب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال . وانتخب منه المادة الخاصة بالأندلس . وترجمه إلى الفرنسية مع تعليقات ضافية وفهارس وافية . ونشر القسم العربى بعنوان : « صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٣٧ . ومما يذكر أن الكتاب وقع فى يد المقريزى ، المؤرخ المصرى الشهير ، فاختصره فى مجلد صغير .

اللاتينى ، أى فى اللحظة التى بدأت فيها اللاتينية تصبح لغة أدبية ومكتوبة ، نلتقى بهذا الاسم الذى سوف يحمله شبه الجزيرة بين العالم الغربى ، إلى أن يهبطها **طارق بن زياد** وجنده الفاتحون ، فى قصائد الشاعر اللاتينى **أنيوس** Ennius (٢٣٩ – ١٦٩ق . م) ، ولا نمضى غير قليل حتى نلتقى باللفظ شائعًا فى كتابات كل المؤرخين والشعراء الرومانيين ، وترد كثيرًا فى قصائد الشاعر الرومانى **تيتو ليفيو** ، وعاش من عام ٥٩ قبل الميلاد إلى عام ١٧ الميلادى . وإلى جانب هذا اللفظ استخدم الرومان شكلا آخر له على نحو قليل وهو Spania ، ومنه اشتقت كلمة إسبانيا Espana الحديثة .

أما **هيسبيريا** Hesperia وترد أحيانا فى بعض المصادر الإغريقية مرادًا بها شبه الجزيرة نفسها ، فلا يقف مفهومها عند شبه جزيرة إيبيريا فحسب ، وإنما تعنى فى اللغة الشاعرية كل الأراضى التى تقع غربًا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

تلك هى أسماء شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامى ، وتبقى معنا كلمة الأندلس ومعها سوف تدخل التاريخ بعده .

* * *

لم يعرف العرب قبل الفتح كلمة **الأندلس** ، وبتعبير **ياقوت** فى **معجم البلدان** : « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم ، وإنما عرفتها العرب فى الإسلام » . وباستثناء الإشارات العارضة والنادرة الواردة فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لاتعرف أيضا كلمة « إسبانيا » ولا تتحدث عنها ، والمؤلفون العرب عدا قلة يقولون **بلاد الأندلس** . فمن أين أخذ العرب هذا الاسم ؟

كان المستشرق الهولندى رينهارت **دوزى** ، المتوفى عام ١٨٨٣ ، أول من طرح المشكلة ، وحاول أن يجد لها تفسيرًا علميًا ، وهو التفسير نفسه الذى قبله **سيبولد** محرر مادة أندلس فى دائرة المعارف الإسلامية ، وتوسع فيه شيئًا . كلاهما يرى أن « أندلس » أخذت من لفظ Wandalucia ، وهى صيغة ربما أطلقت على إقليم **باطقة** Bética الذى احتله **الوندال** على امتداد عشرين عامًا تقريبًا ، من ٤٠٩ م . ويشمل منطقة واسعة فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة يخترقها نهر الوادى الكبير ، وربما أطلق أيضا على ثغر Traducta

الذى عبر منه الوندال فى طريقهم إلى أفريقيا ، ويظن أن موقعه حاليًا مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras ، ويفهم من الروايات العربية أن موقعه نفس المكان الذى حط فيه **أبو زرعة طريف** رحاله مستطلعًا ، وهو المكان الذى حمل اسمه إلى الأبد ، فعرف باسم جزيرة طريف Tarifa [١٢] ، غير أن تحديد المكان بالدقة : هل هو مدينة الجزيرة الخضراء ، أو جزيرة طريف ، أو الصخرة التى حملت اسم طارق ، مازال موضع خلاف شديد ، ولكنه خلاف لاتترتب عليه أية نتائج عملية ، لأن المواضع الثلاثة تكاد تكون متصلة .

ووفقًا لهذه النظرية فإن الفاتحين المسلمين من العرب والبربر أطلقوا اسم الإقليم أو المدينة التى هبطوا فيها لأول مرة على شبه الجزيرة كلها ، بل وعلى مادان لهم من ولايات فى جنوب فرنسا ، مثل سبتمانية ونربون ، وهذا التدرج فى التسمية تدعمه رواية للحميرى يقول فيها : « إن شبه الجزيرة فى القديم كان يسمى ايبريا ، ثم سميت بعد ذلك باطقة ، ثم سميت إشبانيا ، اسم رجل ملكها فى القديم ، أو الإشبان الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس ، أخذًا من اسم الأندليش الذين سكنوها » [١٣] . لكن الرواية العربية ، وهى متأخرة بالنسبة إلى الفتح ، وبإزاء تسمية غامضة تحاول أن تجد لها تفسيرًا ، لاتقف عند التاريخ الخالص وحده ، وإنما تضرب فى بيداء الأسطورة على غير هدى ، والحق أن أكثر ما نجد ذلك فى كتب التاريخ ، وأقل مانجده عند الجغرافيين .

فهى سميت بالأندلس لأن الأندلس بن طوبال بن يافث ابن نوح أول من سكنها ، أو أنه الأندلس بن يافث مباشرة دون عبور بطوبال ، ولتصبح القصة أكثر ثقلا ، وتجد لها من قلوب الناس مكانًا ، وإن لم يكن لها من فكر العقلاء نصيب ، فإن سبت بن يافث ، أخو الأندلس بن يافث ، عبر المضيق إلى أفريقيا ، ونزل بالعدوة المقابلة للأندلس ، وحط رحاله فى مكان نُسب إليه ، وحملت المدينة التى نزلها اسمه ، فكانت مدينة سبتة Ceuta ، ولا تزال قائمة عامرة حتى يومنا هذا .

---

(١٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة أندلس .

(١٣) الحميرى : الروض المعطار ـ ص ٢ .

وتضطرب الأسطورة فتجعل من الأندلس اسمًا سابقًا لاسم إسبانيا ، وتجعل من هذا اسم ملك اجتاح شبه الجزيرة وملكها وعمرها ، هو : إشبان بن طيطش ، ولا يجد القاص معنى يفهمه لكلمة إشبانيا ، فيوشيها بشيء من التوابل تجعل من القصة شيئًا ذا نكهة ومذاق : « وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان ، لأن مولده كان بها ، وأنه استحال فى لسان العجم فأصبح إشبان» (١٤) ، وهو استنتاج ذكى تدعمه قوانين اللغات ، فالهاء حرف غير منطوق فى اللاتينية والسين والشين والصاد متقاربة المخارج ، ويحل أحدهما مكان الأخر ، ولما كانت اللاتينية ، والإسبانية تبعًا ، لاتعرف صوت الصاد ، فإنها تستعيض عنه عند نقل كلمة أجنبية إليها بأقرب الأصوات إليه مخرجا ، وهو الشين أو السين ، غير أن هذه الإشارة وإن اتسمت بالذكاء ، يقف التاريخ منها فى الجانب المقابل ، ذلك أن المؤرخين العرب اعتمدوا فى هذه القضية ، وتطورها قديم موغل فى القدم ، على الرواية الشفهية وحدها ، يلتقطونها قصصًا من أفواه خيرة العامة ، أو حكايات من رجال الدين ، فى بلد كان غداة الفتح متواضع الثقافة ، لايعرف التدوين كتابة فى الورق ، أو حفرًا على الصخر ، إلا نادرًا ، فاختلطت عليهم الأمور ، ووقعوا فى الخطأ حين أسرفوا على انفسهم فى الاستنتاج . لأن كلمة أصبهان Saphan ، التى يشيرون إليها ، فينيقية الأصل ، ويظن فعلا أن كلمة إسبانيا مشتقة منها (١٥) ولكن لاصلة لها بكلمة « أصبهان » اسم المدينة الفارسية ، ولقد اختلط عليهم الأمر ، فمضوا مع القصة إلى نهايتها : الملك اسمه أصبهان ، لأنه ولد فى هذه المدينة ، وباسمه سمى شبه الجزيرة لأنه ملكها ، واستحال فى لغة العجم إلى إشبان . إن اسم إسبانيا أقدم بكثير من مجئ أصبهان إلى الحياة .

ويمضى **المقّرى** فى « **نفح الطيب** » ، نقلا عن ابن **حيان** فى « **المقتبس** » : « ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على إشبان المذكور ، وهو يحرث الأرض بفدن له أيام

---

(١٤) انظر :

- الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢ .
- أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك ، ص ٥٨ .
- المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٤٢ ، طبعة محيى الدين .

(١٥) Antonio Garcia: Op. Cit., p. 218.

حراثته ، فقال له : ياإشبان ، إنك لذو شان ، وسوف يخطيك زمان ، ويعليك سلطان ..» [١٦] ، ويمضى الحوار بينهما فى حديث مسجوع مصنوع أشبه بسجع الكهان . ثم دعا له الخضر بالخير ، وبشره بالملك . ولئن كان الخضر فى عالم الأساطير يتحدث بكل اللغات ، إلا أن الراوى لم يقل لنا هنا بأيّها تحدّث إلى هذا الشيخ إشبان .

ومع إشبان هذا تستطيع أن تمضى لحظات ممتعة ، رفقة خيال خصيب ، فهو أحد الذين ملكوا الدنيا– فيما زعموا– (والاحتراز من المقّرى !) ، استوت له الأندلس بأسرها ، ودانت له بكاملها ، واتخذ إشبيلية دار ملكه ، واستغلظ سلطانه فى الأرض ، وكثرت جموعه فعظم عتوه ، وغزا إيليا ، وهى بيت المقدس الشريف ، بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها من إشبيلية فى السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس .

لقد أورد المقّرى فى الجزء الأول من تاريخه فيضًا من هذه الروايات وليست كلها صنعة قاص ، وإنما فيها تاريخ حقيقى كثير ، مضطرب نعم ، ومتداخل دون شك ، ولكنه مادة خصبة وأساسية لفترة تفتقد المؤرخ والتاريخ .

ويحتاط ابن حيان المؤرخ الأندلسى الجليل لنفسه ، فذكر أنه ينقلها عن رواة العجم ، وكانوا يتداولونها شفاها ، وهذا التداول الشفوى هو مصدر الخلط والاضطراب ، وحين كانت تصطدم مع موازينه فى الرواية ، ومنهجه فى التمحيص ، ويراها سبيله الوحيد لمعرفة شىء عن تاريخ الأندلس القديم ، يوردها ويعتذر لنفسه ، والحق أن هذه الأساطير لاتختص بها المؤلفات العربية وحدها ، وإن أوهم بعض المستشرقين بذلك ، إذ نلتقى بها ، كثيرة وتثير الضحك ، فى المؤلفات الإسبانية المسيحية التى كتبت فى اللغة اللاتينية ، أو فى اللغة القشتالية القديمة ، فنجدها فى : «مدونة تاريخ إسبانيا العام» ، والتى أمر ألفونسو العاشر ، الملقب بالحكيم ، بكتابتها ، تأليفًا فى جانب منها ، ونقلا عن العربية فى جوانب أخرى ، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، ونجدها فى مؤلفات رودريجو خمينث

---

(١٦) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ص ١٣٤ .

مطران طليطلة ، وعاش فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أيضًا . وفى مؤلفات أخرى كتبت فى هذا القرن أو بعده ، وتعكس قصة غزو بيت المقدس وقتل اليهود وأسرهم طابع الصراع العنيف الذى كان قائما بين اليهود والكاثوليك فى الأندلس ، قبل مجئ المسلمين ، وخلال حكمهم ، وبعد دولة المسلمين هناك .

* * *

ومهما يكن من أمر فقد انتشر اسم الأندلس سريعًا بعد الفتح الإسلامى ، وشاع استخدامه فى كتب التاريخ والجغرافية والرحلات والوثائق ، ومحا من المدوّنات وذواكر الناس كلمة إسبانيا تمامًا ، وحين كانت دولة الإسلام تشمل كل شبه جزيرة إيبريا تقريبا ، وقسما من جنوب فرنسا ، كان لفظ الأندلس يطلق عليها جميعًا ، غير أن الأمر لم يستمر على هذا النحو وبدأت حركة المقاومة الكاثوليكية تشتد فى الشمال من الأندلس ، منذ القرن العاشر الميلادى ، وتجد من البابا فى روما ، ومن بقية الكاثوليك فى العالم ، عونًا وتشجيعًا ، وأخذت الدولة الإسلامية تتآكل شيئًا فشيئًا ، حتى انحسرت فى القرن الثالث عشر الميلادى داخل إقليم ضيق ممتد على الساحل ، من جبل طارق حتى مدينة ألمرية ، ويمتد داخلا فى العمق حتى سلسلة جبال رندة وجبال إلبيرة ، ويرى معظم الباحثين من المحدثين ، وجلهم من المستشرقين والإسبان ، أن اسم الأندلس كان مرتبطًا بالدولة الإسلامية وحدها ، مهما كان امتدادها ، يتسع معها ويضيق ، ويجد هذا الرأى سنده فى أن المدونات الإسلامية درجت على أن تطلق على الدويلات الكاثوليكية المختلفة التى قامت فى الشمال من شبه الجزيرة أسماء مختلفة ، غالبًا ما تكون المقاطعة التى يملكها الحاكم مثل : نبرة وأرجون وقشتالة وأشتورياش والبرتقال ، وتسميهم النصارى أحيانًا والروم أحيانًا أخرى .

ولكنى لا أقبل هذا الرأى على إطلاقه ، ذلك أننا نجد **على بن موسى** من بنى سعيد ، المتوفى عام ٦٧٣هـ = ١٢٧٤م . ومكمل تصنيف كتاب : «**المغرب فى حلى المغرب**» يضمن كتابه جزءا خص به الأندلس المسيحى ، سماه : «**كتاب لحظة المريب فيما بقى من جزيرة الأندلس لعباد الصليب**» أى أنه يمتد بالتسمية فيجعلها تشمل تلك الدويلات المسيحية

التى تكونت على حساب الدولة الإسلامية ، وانتزعت منها عددا من المدن الكبرى والهامة .

وفيما أرى ، يجب التفرقة بين المصادر العربية الأولى حين تشير إلى هذه الدويلات ، أو الشبيهة بها ، التى قامت فى الشمال ، وتكونت فى وقت مبكر على الطرف الثانى من شبه الجزيرة ، على أرض لم تتأصل فيها الحضارة الإسلامية يومًا ، وإن مر بها المسلمون من حين لآخر غازين أو عابرين أو ملاحقين لجيوش المسيحيين ، ومن ثم لم يرها المؤرخون الأول جزءا من الأندلس الإسلامى ، وبين المصادر المتأخرة حين اتسعت هذه الدول ، وقوى شأنها ، على حساب الأندلس الإسلامى ، فضمت إليها مدنًا ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، ونفقت سوق الأدب ، وعمرت بالمعاهد والمساجد وشغلت عقول الناس واحتلت من قلوبهم مكانًا غاليًا مثل طليطلة وشنترين وبلنسية وسرقسطة ، ثم إشبيلية وقرطبة ومرسية أخيرًا ، فاعتبروها أندلسًا وإن كانت فى قبضة الكاثوليك .

يقول **ابن سعيد** : « وأعظم الملوك الذين توارثوا المملكة عند النصارى بالأندلس وقسموا بلادها أربعة : أذفونش ، وهو مالك قشتالة ، وهى أعمال فى جهة طليطلة إلى البحر المحيط ، كانت قاعدتها قبل أن تصير لهم طليطلة مدينة غليسية ، وهى على البحر المحيط . ثم البرجلونى (نسبة إلى برشلونة) وهو ملك شرق الأندلس ، ويقال لمملكته أرغون ، لأنه كان فى مدينة أرغون حتى ملك طرطوشة وبرجلونة (= برشلونة) وغيرها ، ثم الببوج وهو فى بلاد الشمال مجاور لبطليوس ، وقاعدته ليون ، ثم ابن الريق ، وهو ملك جليقية ، وهى فى الشمال والغرب من الأندلس ، كانت قاعدته مدينة شانت ياقوه ، وهى عظيمة إلى نهاية ، فيها معدن الذهب ، وقد صارت له أشبونة وغيرها من بلاد الإسلام [١٧] » .

وتقسيمات **ابن سعيد** دقيقة وصحيحة فى مجملها ، ولكنها تحتاج إلى فضل بيان فى بعض الألفاظ ، فعاصمة قشتالة قبل أن يستولى أذفونش Alfonso على طليطلة كانت

---

(١٧) بنو سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ٢ ص ٤٧٣ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة بلا تاريخ .

مدينة برغش Burgos ولم تكن غاليسية Galicia وفى وسط المملكة وليست على البحر المحيط ، وغاليسية وتكتب فى المصادر العربية الأولى جليقية اسم مقاطعة فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة وليست اسم مدينة (١٨) . وأرغون ليست مدينة ، وإنما اسم إقطاعية سوف تصبح دويلة ، ثم مقاطعة من مملكة ، ثم محافظة فى إسبانيا الحديثة ، والاسم مأخوذ من نهر كان يمر بها (١٩) .

بقى أن أشير إلى أن المؤرخين المسلمين ، فيما قرأت ، لم يطلقوا أبداً اسم إسبانيا على الأندلس الإسلامى ، أو على ما تبقى منه فى يد الكاثوليك ، أو استولوا عليه عنوة فيما بعد من المسلمين . كذلك فإن المدونات الكاثوليكية وهى متأخرة وقليلة ، وكتب جلها رجال الدين فى اللغة اللاتينية ، لا تطلق على الجانب الإسلامى اسم الأندلس إلا قليلا ، وإنما تتحدث فقط عن العرب والمسلمين ، ويرى **سيبولد** فى دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أندلس : « أن نصارى إسبانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلا تامًا ، وكانوا يطلقون على الجزء العربى الجنوبى الاسم القديم إسبانيا Hispania أو Spania أما موطنهم الشمالى فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل : أشتورياش وليون وقشتالة وأرجون » وهى فكرة تحتاج إلى إعادة تحرير ، فالحق أن المسلمين هم الذين أطلقوا أولا هذه الأسماء على الدويلات المسيحية التى قامت فى الشمال ، وهى تسمى فى نشأتها دويلات تجوزا ، لأنها كانت مجرد إقطاعيات يقوم عليها إقطاعى حاكم ومالك ، يسمى نفسه أميرًا أو ملكا أو نبيلا ، وقد سبقت المدونات العربية فى ذلك أية مدونة مسيحية .

أما القول بأن نصارى الشمال كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلا تامًا ، فدعوى كبيرة تحتاج إلى بيان . ينبغى أولا أن نفرق بين المعرفة والتدوين ، فلا أظن أن ملوك الشمال حين كانوا يهبطون قرطبة الإسلامية إلتماسا للعلاج عند كبار أطبائها ، أو الطلاب المسيحيين حين كانوا ينزلونها طلبًا للعلم عند شيوخها ، وفى معاهدها ، كانوا يجهلون أنهم فى عاصمة دولة تسمى الأندلس . ولا أعتقد أن المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين فى دولتهم وعرفوا

---

(١٨) Antonio Cavanilles: Historia de Espana, tomo II, p. 79 ss., Madrid, 1861.

(١٩) Antonio Ramos: Op. cit., P. 386

باسم المستعربين Los Mozarabes لأنهم اتخذوا العربية لسانًا ، يتحدثون بها ، ويقولون الشعر فيها ، ثم هاجروا إلى الممالك المسيحية فى الشمال يعملون خبراء أو مترجمين ينقلون أفضل ماعرفوا ، كانوا يجهلون هم ، أو الذين يستخدمونهم ، أنهم قادمون من عند الأندلسيين ، وهم – رغم كاثوليكيتهم – يتكلمون لغتهم ، ويحتذون عاداتهم ، ثقاليد وملبسًا وأنماط حياة . ونتجاهل الواقع حين نتصور أن المترجمين الذين عكفوا فى مدينة طليطلة ، على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى ، ينقلون التراث الإسلامى من العربية إلى اللاتينية ، ثم إلى القشتالية فيما بعد ، وقد أصبحت المدينة عاصمة قشتالة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس من المسلمين عام ١٠٨٥م ، كانوا يجهلون أن شبه الجزيرة يسمى بلاد الأندلس ، أو الأندلس فحسب ، فى مؤلفات المسلمين . وأما أن المسيحيين كانوا يسمونها إسبانيا فذلك مقصور على الكتب المدونة ، وكتابها دون استثناء لغتهم اللاتينية ، وجلهم من رجال الدين ، وهم بحكم ثقافتهم الدينية واللغوية المحافظة ، إن لم نقل المتعصبة والجامدة ، يتمسكون بالقديم ويقفون عند مفردات اللغة اللاتينية لايتجاوزونها إلى لفظ آخر لم تعرفه . وكانت اللاتينية تعرف لفظى Spania, Hispania وتجهل لفظ الأندلس لأنه جديد مستحدث . وهم عندما كانوا يستخدمون التسمية اللاتينية كانوا يعنون بها شبه الجزيرة كله ، سواء فى ذلك الأراضى الإسلامية أو التى فى حوزة الكاثوليك . فإذا اتصل الأمر بالمسلمين وحدهم سموها : المسلمين Los Moros أو المحمديين أو الأفريقيين أو العرب فى القليل .

* * *

يوجد اسم « الأندلس » فى أقدم المصادر الجغرافية والتاريخية التى لدينا ، وأقدمها يعود إلى مطلع القرن التاسع ، أى أن بين الفتح الإسلامى وتدوين وقائعه فترة تبلغ المائة عام ، أزيد أو أنقص قليلا ، فهل جاء هذا الاسم مع التدوين أم عرفه المسلمون قبله ، وفى أى عام ؟

لاتوجد وثائق أو نصوص تعيننا على هذا التحديد ، غير أننا إذا لجأنا إلى المسكوكات لانجد الاسم فى العملة التى ضربت أيام الفتح نفسه ، ويظن أن موسى بن نصير أمر بسكها

أيام أن كان محاصرًا لمدينة ماردة Mérida ، وصنعت من ذهب متوسط الجودة ، وأقدم مايوجد منها دينار مثير يوجد فى مكتبة باريس الوطنية ، ويعود إلى عام ٩٣ للهجرة ، الموافق لعام ٧١١ ميلادية وعلى وجهه كتابة باللغة اللاتينية ، ويستخدم التاريخين الهجرى والميلادى ، وهما يتطابقان أحيانًا ويختلفان أحيانا أخرى ، وفى هذا الدينار نجدهما متوافقين ، وصورة الكتابة على الوجه الذى يحمل التاريخ جاءت على هذا النحو : ANN XCIII He INDCXI وفى العام التالى ، ٩٤ هـ – ٧١٢م ، ضُربتْ دنانير أخرى وصلنا عدد كبير منها ، وفى سنة ٩٥ هـ – ٧١٢م ضُربَ نوعان آخران من الدنانير ، وهى أندر وجودًا الآن من دنانير العام الذى سبقه ، وفى هذه الدنانير كلها استخدم العرب الاسم اللاتينى لشبه الجزيرة ، وهو كلمة إسبانيا [٢٠] .

ويلحظ الدارس لهذه المسكوكات أن المسلمين نهجوا فى كتابتهم اللاتينية نفس الطريقة التى يتبعونها فى اللغة العربية ، فكتبوا الحروف الساكنة فحسب وأسقطوا حروف اللين ، مما يعنى أن كاتبها كان مسلمًا يعرف العربية وشيئًا محدودا من اللغة اللاتينية .

ونفتقد بعد ذلك عملات جديدة ، إلى أن يجئ الحر بن عبد الرحمن الثقفى واليًا على الأندلس ، فيأمر فى عام ٩٨هـ – ٧١٦م بضرب عملة جديدة تحمل لأول مرة لغة مزدوجة ، النص اللاتينى على وجه ، وترجمته العربية على الوجه الآخر ، وجاءت كلمات النص اللاتينى على الصورة التالية : Feritus Solidus in Spania anno XCVII ويقول النص العربى المقابل له : « ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ثمان وتسعين » . وهذا الدينار أقدم وثيقة بين أيدينا نجد فيها الاسم اللاتينى إسبانيا Spania مترجما إلى اللفظ العربى « الأندلس »[٢١] . ويثير هذا الدينار إلى جانب ذلك ، عددًا من الملاحظات . فنحن نجده على غير ماتعودنا فى العملات السابقة يحمل الكتابة اللاتينية كاملة ، بحروفها الساكنة واللينة ، وأنهم رسموا الكلمات اللاتينية على نحو ما سمعوها ، وليس كما تقتضيه قواعد اللغة ، واقتصرت فى الكتابة على التاريخ الهجرى وحده ، سواء فى ذلك الوجه الذى

---

(٢٠) Catalogue de la Voix. No. 128. Saavedra: Invasion arabe en Espagne, P. 108.

(٢١) Casto M. del Rivero: La Moneda Arabigo-espanolo, P. 4 ss., Madrid, 1933.

كتب فى اللغة العربية أو الوجه الآخر الذى كتب فى اللغة اللاتينية ، وأن ثمة فارقا بين التاريخين فى النص العربى والنص اللاتينى ، فالنص الأول يحمل تاريخ ٩٨هـ ، بينما يحمل النص الثانى تاريخ ٩٧ هـ وإذا كان الفارق فى هذا الدينار لايتجاوز العام ، فهو يتسع فى دنانير أخرى حتى يبلغ ، أحيانًا ، ثلاث سنوات ، وفى عدد منها أخطاء فى النص العربى ، مثلا نجد الجملة مكتوبة على النحو التالى : « سنة مان وتسعين » بدلا من ثمان ، و« ضرب هذا الدينار بالأند ثمان وسنة تسعين » وذلك يعنى أن القائمين على هذه الصناعة لم يكونوا متمكنين لا من اللغة اللاتينية ولا من اللغة العربية ، أو بتعبير أدق لم يكونوا عربًا من المشرق ، ولم يكونوا إسبانًا من أهل شبه الجزيرة ، وفيما يبدو لى كانوا بربرا من الذين دخلوا الإسلام حديثا ، وحظهم من كلتا اللغتين محدود .

إذن أول استخدام رسمى لاسم « الأندلس » يعود إلى عام ٩٨هـ ، أى بعد ستة أعوام من بدء الفتح ، لكن ذلك لايعنى بأية حال أن استخدام المسلمين لهذا الاسم بدأ فى العام نفسه . لأن استخدام اسم ما فى عمله رسمية يعنى أن يكون الاسم المستخدم شائعا ومعروفا بين الناس ، إن لم يكن عند الجميع فبين الكثرة الغالبة التى ضرب لها على الأقل ، وأنا أرجح أن اسم « بلاد الأندلس » كان معروفا للكثرة الغالبة من المسلمين الوافدين من المغرب ، ممن ينحدرون من أصول بربرية ، ليس بعد الفتح فحسب ، وإنما عشيته أيضا ، وحتى قبله بزمن طويل على ما سنعرض بعد قليل ، ولم يستخدم فى الدنانير التى ضربها **موسى بن نصير** لأنها لم تستخدم العربية إطلاقًا ، وجاءت تقليدًا أمينًا لدنانير لقيها فى أفريقية – تونس الحالية – جرى الناس على التعامل بها منذ أيام هرقل ، إبان احتلال الرومان لقرطاجة .

ليس ثمة شك فى أن اسم **الأندلس** يرتبط **بالوندال** على نحو ما ، تتفق فى ذلك المصادر العربية والأجنبية ، وهى قبائل جرمانية غازية هبطت جنوب إسبانيا الشرقى لفترة قصيرة ، فعاثوا فى الأرض فسادًا ، ودمروا فى طريقهم كل شىء ، ثم عبروا المضيق إلى شمال أفريقية فاستقروا فيه زمنًا ، ولم يكونوا هنا بأحسن حالا مما كانوا عليه هناك ، فتركوا فى

حياة الناس وذوا كرهم أسوأ الأثر . فالذين اشتق منهم الاسم إذن معروفون للإسبان الذين فى شبه الجزيرة ، ومعروفون أكثر لسكان شمال أفريقيا ، ولم يكن هؤلاء يعرفون عن الغزاة الجدد إلا أنهم قادمون من وراء المضيق ، وأن الأرض التى قدموا منها هى بلاد الوندال .

والباحثون المحدثون من العرب يرون أن اسم الأندلس قد أخذه العرب من كلمة فندلس Vandalos أما كيف تم ذلك دون أن يخضع لأى قانون صوتى أو لغوى عربى معروف فلم يقف عنده أحد . وإذا بحثناه علميًا ، وتأملناه مليا ، وجدنا أن كلمة الوندال لها صورتان : واحدة جرمانية والأخرى لاتينية . أما الجرمانية فهى Wandalos والحرف الأول منها ينطق فيما يشبه الواو فى اللغة العربية ومن ثم يجب أن ينطق جمعها وندلس ، وانقلاب الواو همزة لاتعرفه العربية فى مثل كلمة أندلس . وإذا قيل أن العرب أخذوها عن اللغة المتكلمة فى الأندلس ، فإن هذه الكلمة الجرمانية يجب أن تكون قد انتقلت إلى لاتينية إسبانيا العامية طبقًا لقوانينها الصوتية ، فتصبح Guándaluz لأن الإسبانية درجت على أن **تحول حرف** W الأجنبى إلى Gu هكذا صنعت مع المفردات الألمانية ، فكلمة Wilhem أصبحت فى الإسبانية Guillem ، ومع المفردات العربية فكلمة وادى الرمل أصبحت Guadarrama وإذا قلنا إن العرب عرفوا اللفظ فى صورته اللاتينية Vandalos فيجب أن ينتقل إلى العربية فى صورة بندلس ، ولم يحدث كذلك أن انقلبت الباء همزة فى اللغة العربية ، إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة أمر بعيد الاحتمال .

لكن الذى أراه أن شمال أفريقيا كان يعرف إسبانيا تمامًا ، وهى منهم على مرأى البصر ، فى الفترة التى سبقت الفتح باسم « بلاد الأندلس » ، أى البلاد التى جاء منها الوندال ، وقد ارتبط هؤلاء فى مخيلة الناس بقسوتهم وجبروتهم ، وعاشوا فى أذهانهم شيئًا مرعبًا . وأن التسمية شاعت فى كل شمال إفريقية ، وأصبحت تطلق على الجانب الآخر المقابل لطنجة من شبه جزيرة إيبريا ، حتى بعد أن آل حكم شبه الجزيرة إلى القوط ، وحين جاء الإسلام إلى شمال أفريقيا فاتحًا عرف العرب ، أو سمعوا على الأقل ، اسم الأندلس يقصد به إسبانيا ، قبل أن يعبروا إليها المضيق فاتحين . عرفوا ذلك الاسم عن

طريق البربر أولا ، وهو افتراض يدعمه أن المدونات العربية الأولى التى عرضت لأحداث الفتح كثيرا ما تتحدث عن « بلاد الأندلس » ، ولا تذكر كلمة الأندلس مفردة إلا فى القليل .

صحيح أن المصادر القديمة ، عربية ولاتينية وإسبانية ، سكتت عن العلاقات الجارية بين البلاد القائمة على جانبى مضيق جبل طارق تحت أى اسم وجدت ، حتى وقع فى الوهم أنهما لم يكونا على صلة ، رغم أن جانبًا من شمال أفريقيا ، يشمل منطقة سبتة وما حولها ، كان يتبع إسبانيا سياسيا ، مباشرة أو فى شكل حماية ، وشجع المسلمين على فتح شبه الجزيرة . وكان **ابن الرقيق القيروانى** أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم ، الوحيد الذى ألمح فى كتابه : « **تاريخ أفريقية والمغرب** » إلى شىء من هذا ، يقول : « فعزم **طارق** على غزو الأندلس واستنفر البربر ، فجعل **إليان** يحمل البربر فى مراكب التجار التى تختلف إلى الأندلس ، ولايشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم » (٢٢)

ويرى المؤرخ الإسبانى المعاصر **أنتونيو غرسية** أن المعرفة بين الضفتين موغلة فى القدم ، وأن تبادل الحكم بينهما يمثل دورة تاريخية : « نحن نعرف منذ المدرسة الابتدائية أن العرب اقتحموا الجزيرة عام ٧١١م ، ولكن أحدًا لم يؤكد لنا أن هذا الغزو ليس إلا تكرارًا لظاهرة تأخذ طابع عامل يتكرر فى تاريخنا . فقبل العرب جاء الإبرون ، ربما أواسط الألف الثانى قبل الميلاد ، وفى القرن الثانى الميلادى كان ثمة غزو آخر ، ودارس مرحلة ما قبل التاريخ يمكن أن يضيف إلى هذين المثالين أمثلة كثيرة معتمدا على بقايا الأشياء الصناعية المتخلفة فى إسبانيا وشمال أفريقيا ، وبالقطع يمكن القول بأن مضيق جبل طارق لم يكن أبدًا ، ولن يكون يومًا مضيقا يفصل ، ومجرى ماء يباعد ، بل على النقيض هو طريق

---

(٢٢) كان هذا الكتاب ضائعا . وعثر على مخطوطته غير كاملة العالم المغربى الجليل الأستاذ محمد المنونى فى خزانة الرباط . لا تحمل أية نسبة أو إشارة إلى مؤلفها . وكان هو الذى اهتدى بالمقارنة إلى أنها لابن الرقيق ، وقدم وصفا لها فى مجلة المغرب . العدد ٦ و ٧ . لعام ١٩٦٥ . ولدى نصها مكتوبا بالآلة الكاتبة . وقد نشر النص الأستاذ التونسى المنجى الكعبى . فى مدينة تونس . ولما يقع فى يدى .

يوحِّد ويقارب . ولقد عبر الوندال إسبانيا إلى أفريقيا خلال هذا المضيق ، ومنه أيضًا جاءنا العرب عبر شمال أفريقيا ، وسلك المرابطون والموحدون نفس الطريق ، ولست أدرى ما إذا كنا سنحكم من جديد برجال يأتون من شمال أفريقيا ، وإذا اعتقدنا أن ماهو حادث الآن سيستمر دائما نكون كمن يرى التاريخ بعين النملة ، ويقيسه بمقياس حياتها الخادع » (٢٣)

أضف إلى هذا أن تطور الاسم إلى الصيغة التى عرف بها فى اللغة العربية يتفق ، على نحو ما ، مع اتجاهات اللغة البربرية ، فنحن نجد فى هذه اللغة عددا من الأسماء تضاف إليها الواو بدءا فى حالة الجر ، وتجرد منها فى الحالات الأخرى فمثلا كلمة Adu ، وتعنى عاصفة ، تصبح فى حالة الجر Wadu وكلمة Aman بمعنى ماء ، تصبح Waman وكلمة Ass بمعنى اليوم تصبح Wass و ayyur بمعنى القمر تصبح wayyur . وهم يقولون مثلا : Fkid Aman أعطنى ماء ، فإذا قالوا أعطنى قليلا من الماء أصبحت Fkid imik waman ألا يمكن الافتراض إذن بأن البربر تصوروا أن كلمة Wandalus الجرمانية جاءتهم فى صورة الجر ، فاشتقوا منها اسمًا فى حالة الرفع ، هو على قواعد لغتهم ، ودون أى استثناء ، يصبح أندلس Andalus ، أى أن كلمة Andalus تكون بالنسبة لكلمة Wandalus فى البربرية ، ما تكونه كلمة Aman مرفوعة بالنسبة لكلمة Waman مجرورة (٢٤) . وجاء العرب من المشرق فالتقطوها من أفواه البربر ، فهى إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية أو الجرمانية أو اللاتينية المتكلمة فى إسبانيا مباشرة ، وبذلك يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا ، إن غياب حرف W أو V من كلمة أندلس لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء هذا الفهم .

* * *

لم يذهب الاسم بسقوط دولة الإسلام فى الأندلس وإنما بقى فى إسبانيا الحديثة بعد أن أخذ صورة أندلسيا Andalucia . ويطلق تقريبا على مايسميه أبناء سعيد فى

---

(٢٣) Antonio Garcia: op. cit . P. 184.

(٢٤) Wyrchl Werner. Sobre la historia de un nombre.

كتابهم «المغرب فى حلى المغرب» موسطة الأندلس، أى على المنطقة التى تشمل محافظات: ألمرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقادس وولبة. وقبل ذلك عبرت التسمية مضيق جبل طارق مع ثلاثمائة أسرة قرطبية نفاها **الحكم الأول** خلال ثورة الربض الشهيرة، فاتجهوا نحو **فاس** واستقروا فيها، وأطلقوا على حيهم اسم الاندلس، وعرفوا هم بالأندلسيين، وما زالوا به يعرفون. وكذلك أدت كثرة الوافدين من الأندلسيين على **القاهرة** فى طريقهم إلى الحج، أو طلبا للعلم، أو بحثا عن الرزق، إلى أن تكون لهم **بالفسطاط** محلة يطلق عليها اسم الأندلس، تضم رحبة ومسجدا ومصلى، وضم إليها مع الزمن رباط للعجائز المنقطعات الصالحات، وآخر للأرامل العابدات، وبستان مثمر. ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حمله معهم المسلمون الذين أكرهوا على الخروج من الأندلس بعد انتصار الكاثوليك هناك إلى الأمكنة الإسلامية التى لاذوا بها، فى تونس أو الجزائر أو المغرب.

وقبل ذلك وبعده، بقى اسم « **الأندلس** » فى أعماق كافة المسلمين جوهرًا مشعًا، يبعث التأمل والإعجاب، ويحرك الشجى والندم، ويثير الأسى والحسرة على الدوام!

الأندلس : تاريخ اسم وتطوره

للعالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر

كتب الدكتور الطاهر أحمد مكى فى عدد الثقافة (٢٢ - يولية ١٩٧٥) ، كلمة جيدة عن « الأندلس : تاريخ اسمه وتطوره » ذكر فيها أن الباحثين المحدثين من العرب ، يرون أن اسم « الأندلس » ، أخذه العرب من كلمة Vandalos وهم « الوندال » وأن كتابتها بالجرمانية Wandal وجمعها Wandalos وأن الحرف الأول منها وهو W وينطق بما يشبه الواو فى اللغة العربية ، فيكون نطق هذا الجمع بالعربية « وندلس » ، ثم قال :

« وانقلاب الواو همزة لاتعرفه اللغة العربية أبدًا » ثم عقب على ذلك بقوله : « إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة ، أمر بعيد الاحتمال » . فمن أجل ذلك ، بحث لها عن مدخل فانتهى إلى أن هذا اللفظ قد انتقل إلى العربية عن طريق اللغة البربرية ، ثم أفاض فى توجيه دخول هذا اللفظ إلى البربرية وعن افتراض تحوله فى اللسان البربرى من الواو إلى الهمزة طبقًا للقواعد الصوتية فى اللغة البربرية ، ثم ختم ذلك بقوله : « فهى إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو اللاتينية المتكلمة فى إسبانية مباشرة . وبذلك يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا ، فإن غياب حرف V أو W من كلمة أندلس ، لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء هذا الفهم » .

كان الدكتور الطاهر فى غنى عن كل ما كتبه عن اللغة البربرية ، وعن اتجاهاتها الصوتية ، وعن افتراض ما افترضه فى تحول الواو فى اللغة البربرية ، بيد أن الذى حمله

على ارتكاب هذا الطريق البعيد ، هو ما اعتقده اعتقادًا جازمًا ، من أن « انقلاب الواو همزة لاتعرفه اللغة العربية أبدًا » . والأمر فى الحقيقة على خلاف ما اعتقد ، وذلك أن قلب الواو همزة قياس مطرد فى العربية بلا شك .

وتلخيص القول فى ذلك : أن « الواو » إذا كانت فى أول الكلمة ، فلها ثلاثة وجوه : أما مضمومة وإما مكسورة وإما مفتوحة ، فإذا كانت الواو مضمومة ، فيكاد يكون قياسًا مطردا فى العربية أن تقلب الواو همزة ، فمن ذلك فى القرآن العظيم ، فى سورة المرسلات : « وإذا الرسل أقتت » وهى من « الوقت » وقرأ أبو عمرو وابن وردان : « وإذا الرسل وقتت » بواو مضمومة الأصل ، وقالوا فى « وجوه » جمع « وجه » « أوجوه » وغيرها كثير .

وإذا كانت الواو الأولى مكسورة ، فقياس مطرد أيضا أن تقلب همزة ، نحو قولهم فى « وسادة » « أسادة » وفى « وشاح » « أشاح » وغيرهما كثير أيضا .

وأما إذا كانت الواو الأولى مفتوحة ، وهو الذى عندنا هنا فى « وندلس » و« أندلس » ، فقلب الواو المفتوحة قليل فى العربية ، وليس قياسًا مطردا ومع ذلك فهو كثير أيضا على الوجهين أى أن تقلب الواو الأولى المفتوحة همزة ، وأن تقلب الهمزة المفتوحة واوا . وذلك نحو قولنا « وحد » فتقول « أحد » بفتحتين ، وهو من « الوحدة » بلا ريب ، وقولهم أيضا : « إمرأة وناة » ، أى كسول ، بطيئة القيام فيها فتور من طول النعمة ، فقالوا : « امرأة أناة » ، وقالوا للجبل الصغير « وجم » بالواو ، فقالوا فيه « أجم » وقالوا : « وسن الرجل » و« أسن » ، إذا غشى عليه من نتن ريح البئر ، وقالوا : « وكدت العهد » و« أكدته » ، وقالوا « ولته حقه » و« ألته حقه » أى نقصه حقه ، وقالوا : « ورخت الكتاب » ، و« أرخته » ، وقالوا « ورشت بين القوم ، وأرشت بينهم » ، أى أفسدت ما بينهم وحرشت بعضهم على بعض ، وقالوا : « ماوبهت له ، وما أبهت له » أى مافطنت له ، أو ما باليت به لقلته وتفاهته ، وقالوا « وج » وهو اسم بلدة الطائف بالحجاز و« أج » بفتح الهمزة ، وقالوا « وجه ، أجه » لوجه الإنسان ، وغير هذا كثير ، فضلا عن قلب الواو همزة إذا كانت فى وسط الكلمة أو فى طرفها .

وإذن فالأمر على خلاف ما يعتقد الدكتور الطاهر ، من إنكاره قلب الواو همزة ، وأن العربية لا تعرف هذا القلب أبدًا .

وإذن فأقرب شيء إلى الاحتمال ، هو ما رآه الدكتور الطاهر بعيد الاحتمال ، أن يكون لفظ « وندلس » قد دخل إلى العربية دخولا مباشرًا بقلب الواو الأولى المفتوحة همزة . والذى ألجأ سلفنا الفاتحين من العرب أصحاب اللسان العربى إلى إبدال الواو الأولى المفتوحة همزة ، أنها جاءت بعدها نون ساكنة ، ومخرج الواو من طرف الشفتين ، ومخرج النون الساكنة من الخياشيم ، فثقل ذلك على ألسنتهم لقرب المخرجين ، ولا رتداد النفس من الشفتين عكسا إلى الخياشيم ، ولأن الواو المفتوحة أخفى من الواو المضمومة والمكسورة فى النطق ، ولأن الهواء المندفع من الحلق عند نطق الواو المفتوحة آت من عند مخرج الهمزة فى أقصى الحلق ، فمن أجل ذلك كله آثروا أن يقلبوها همزة صريحة من أقصى الحلق ، ليندفع هواؤها إلى مخرج النون الساكنة من الخياشيم سهلا بلا مؤونة على أداة النطق .

ولهذه الأسباب نفسها ، رأيت أصحاب اللسان العربى فيما استظهرته وتتبعته قد كرهوا أن تجتمع الواو والنون متجاورتين فى أول الكلمة الواحدة من عربيتهم ، وتكون الواو أصلا فى الكلمة ، والنون التى تليها أصلا أيضا فى الكلمة .

وإذن ، فالذى لاشك فيه ، هو أن لفظ « وندلس » ، قد دخل اللسان العربى مباشرة ، بعد إخضاعه للقانون الصوتى العربى ، ليدخل بعد أن يصقله الذوق العربى دخولا سهلا ساريًا على أصول لغته .

وللأخ الدكتور الطاهر أجزل الشكر على الفوائد الكثيرة التى تضمنها مقاله عن « الأندلس » .

○ ولى تعليق قصير :

كتبت مقالى عن لفظ الأندلس وتطوره وتاريخه وأنا بعيد عن القاهرة ، وجاء تعليق العالم الجليل الأستاذ محمود شاكر عليه فى العدد التالى من الثقافة (العدد ٢٣ ، السنة

الثانية ، أغسطس ١٩٧٥) ، وأنا بعيد عنها أيضا . كنت فى الأندلس نفسه لبعض المراجعات التاريخية والأدبية ، أقوم بها هناك فى موقع الأحداث نفسها ، أطلالا ومهابط وبشرا ، ولم أقرأ التعليق إلا بعد شهور طالت من نشره ، ففاتتنى فرصة أن أزجى إليه الشكر صادقا وعميقًا على ماصوّب وصحّح وأفاد . ولما حاولت ذلك بشخصى ، وما أكثر ماحاولت ، كنت أجده حين يتاح لى الوقت ، وما أقل ما يتاح ، خارج القاهرة على سفر أيضا ، ولعل تعليقى هذا يقوم بالسفارة عنى ، فى أن يحمل للأستاذ الفاضل الذى تعلمنا منه الكثير المفيد ، فتية نقرأ له ، وشبابًا نتابع ذوده عن الإسلام والعروبة فى حزم وصلابة واستنارة ، طالما ذكرتنى بعالم الأندلس العظيم ابن حزم القرطبى ، إجلال من عرفه على البعد وتقديره ، وأكبره عن طريق الحرف .

إن الحياة فى تطورها تميل إلى الأسهل دوامًا ، ويؤثر الإنسان فى مواقفه مايتطلب جهدًا أقل ، ويقوى أو يضعف ، ويشتد أو يسهل ، من قواه ما يقتضيه هذا التطور ، والشىء نفسه يقال عن الكلمات أيضا ، وهو ما ندرسه تحت قواعد الإعلال والإبدال والإدغام وغيرها ، وإذا استثنينا الكلمات التى ضاعت عبر الزمن ، وأدلتنا عليها ظنية ، مستمدة من استنطاق ماوصلنا ، كسقوط ضمير المثنى المتكلم وميل العربية المعاصرة إلى تجاوزه فى حالتى الغائب والمخاطب ، فإن حالات الإبدال ، إذا لم تكن من صنع الجدل الصرفى المجرد ، وصلتنا فيها الكلمة على صورتيها ، أو صورها ، الحرف فيها مبدلا وقبل أن يبدل ، وهو ما نفتقده فى لفظ أندلس تماما ، لأن الأصل وهو « وندلس » ، لم يصلنا بهذه الصورة فى أية وثيقة ، هذا إذا لم تكن صورته الأخرى ، وهى « بندلس Vandalos » ، هى التى كانت مستعملة وشائعة فى إسبانيا لأنها صورته اللاتينية ، وكان الأندلس لحظة الفتح لاتينيا كله ، فى لغته على الأقل .

وعملية الإبدال ، كما أشار أستاذنا بحق ، ليست فى واقعها إلا ظاهرة صوتية من الميل إلى الأسهل ، وهو أمر لايتم بين عشية وضحاها ، وإنما يحتاج إلى وقت تستخدم فيه الصورة الأولى ، ثم تثقل مع الزمن ، أو حتى اللوهلة الأولى ، فنجد من يبدل من حروفها ما ثقل عليه ، فطرة لا صناعة ، مستخدما بدلا منها ماخف فى لفظه ، ولطف على أذنه ،

وتتجاور الصيغتان زمنا يقصر أو يطول ، واحدة على لسانه وآخرين ، والأخرى فى أفواه الكثيرين من معاصريه ، هو يتكلم بما أحب ، وهم يتحدثون بماتلقوا ، ثم تبدأ الصورة الثانية فى الذيوع والانتشار ، وترسل بالأولى إلى زوايا النسيان ، لتصبح تاريخا يدرسه اللغويون .

ومثل هذا الأمر لانجده فى لفظ « الأندلس » ، لأننا نلتقى بها مدونة على هذه الصورة بعد ست سنوات من الفتح فحسب ، وهى سنوات جد قليلة ، ولاتقدم مناخًا ملائما لمثل هذا التطور على أرض الأندلس نفسها ، ولا حتى فى المغرب ، لأن حركة التعريب فى كليهما ، كانت فى خطاها الأولى ، لقد رافقت اللغة العربية الإسلام فى مده ، ولكنها كانت تجىء فى مؤخرته ، ووراءه وعلى خطوات منه .

لهذا قلت : لمايزل فى نفسى من الأمر شىء ، وكم وددت أن تكون كلمة أستاذنا الجليل هى الفاصلة ، إذن لقرت بها عينى راضيًا وشاكرًا ، وإلى أن نبلغ هذا القول الفصل ، أو الأرجح ، سأظل عند فرضى فى أن لفظ الأندلس ، دخل إلى اللغة البربرية أولا ، وعنها أخذه العرب وتلقوه .

تاريخ افتتاح الأندلس

لابن القوطية

وكتاب أخبار مجموعة

لمؤلف مجهول

دراسة موازنة

● نشر المستشرق الأسبانى الكبير خوليان ريبيرا هذه الدراسة مقدمة لكتاب « افتتاح الأندلس » عندما ترجمه إلى الأسبانية ، ونشره مجمع التاريخ الملكى ، فى سلسلة الكتب التاريخية والجغرافية التى تولى نشرها ، وكان ترتيب هذا الكتاب الثانى بينها ، ونشر فى مدريد عام ١٩٢٦ . ثم أعيد نشر هذه الدراسة وحدها مرة أخرى فى كتاب « نبذ ومقالات » ويتضمن أهم دراسات هذا المستشرق الأسبانى العظيم ، فى الجزء الأول منه ، الصفحات ٤٣٥ ، ٤٥٦ ، مدريد ، ١٩٢٨ . وعنوانها فيه : « ابن القوطية وكتابه » ، واخترت لها العنوان الوارد أعلاه ، لأنى رأيته أكثر دلالة على المحتوى .

لو استطعنا الآن أن ننتقل تصورًا إلى المكان والزمان الذى عاش فيه ابن القوطية ، وتعرفنا إلى الصفات الخارجية لشخصه فحسب ، وأدركنا الجو الاجتماعى الذى أحاط به ، ربما كونا عنه ، وعن المجتمع الذى عاش فيه ، فكرة خادعة إلى حدما .

يمكن أن نزور هذه الشخصية المسلمة التى حملت اسم محمد ، فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى ضيعته الجميلة التى كان يملكها فى واد مورف ، تتناثر على بساطه بيوت ريفية مطمئنة ، تحت سفح جبل العروس الحالم ، وحوله تنتشر قصور ضخمة فخيمة ، فقد أصبح من المظاهر الأرستقراطية ، منذ أسس **عبدالرحمن**

الناصر الحى الملكى الرائع ، الذى حمل اسم **الزهراء** ، أن يملك الشخص ضيعة فى هذه النواحى .

ذات أصيل هبط صاحبنا **محمد** ، فى ملابسه الشرقية الفضفاضة المهيبة ، من ضيعته إلى المدينة ، ممتطيًا صهوة جواده ، فصادفه أبو بكر **ابن هذيل** ، متوجها إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة أيضا فحياه ببيت من الشعر :

من أين أقبلتَ يامن لا شبيه له ومن هو الشمسُ والدنيا له فلكْ

فتبسم صاحبنا ، وأجاب على البديهة :

من منزلٍ تُعجب النسّاكَ خلوته وفيه سترٌ على الفتّاك إنْ فتكوا

ولم يتمالك ابن هذيل نفسه ، فقبل يد ابن القوطية إعجابا ، ودعا له ، فقد كان تلميذه ، واحتفظ لشيخه بإجلال وقور .

وفى الحق كان صاحبنا **محمد** واحدا من كبار علماء المسلمين فى **قرطبة** ، واسع المعرفة مهابا ، « عالما بالنحو ، حافظًا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره لايشق غباره ، ولا يلحق شأوه » ، ولا يبلغون حتى موطىء نعله بتعبير النقاد فى عصره . وفيما يتصل بهذه العلوم ألف كتبا كانت مادة الدرس فى كثير من معاهد العلم لقرون طويلة ، ونشرت فى وقتنا هذا بين أمهات كتب التراث [1] .

« وكان جيد الشعر ، صحيح الألفاظ ، حسن المطالع والمقاطع ، إلا إنه تركه ورفضه » وكان فقيهًا متمكنًا ، واسع العلم بالحديث والسنة ، ولكنه تربويًا لم يسر فى تدريسها على مناهج الفقهاء فى عصره ، فاتهموه بأنه « لم يكن بالضابط لرواية فى الحديث

---

(١) الترجمة الموسعة والدقيقة لأبى بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ، **المعروف بابن القوطية** ، توجد عند : ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٣١٦ ، طبعة كوديرا ، (و ١٣١٨ ، فى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦) .

وانظر ترجمته ، وأخبارا عنه ، وعن مؤلفاته فى : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، تأليف بونس بويجبس ، ص ٨٣ .

وللوقوف على استمرار تدريس كتبه انظر : ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، المجلد العاشر من المكتبة العربية الأسبانية ، نشر كوديرا وريبيرا ، ص ٣٣٤ .

وقد نشر كتاب الأفعال لابن القوطية اجناسيو جويدى فى ليدن ، مكتبه بريل عام ١٨٩٤ . (ونشره فى القاهرة أستاذى المرحوم الدكتور فؤاد حسنين) .

والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى لا على اللفظ ، وكثيرا ما كان يقرأ عليه مالا رواية له فيه ، على جهة التصحيح » ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من العباد النساك . وقد « طال عمره ، فسمع منه الناس طبقة بعد طبقة ، وروى عنه جماعة من الشيوخ ، والكهول ، ممن ولى القضاء ، وقدم إلى الشورى ، وتصرف فى الخطط ، من أبناء الملوك وغيرهم » .

إذا حكمنا على هذا الفقيه الوقور من خلال الظاهر فحسب ، دراسة ودينا ، ولغة وملبسا ، مال بنا الظن إلى أنه ينتمى إلى أسرة ذات أصول عربية خالصة ، وحينئذ نقع فى الخطأ : إن هذا الفقيه الوقور الذى يتردد على المسجد الجامع يوميًا ، يصلى خاشعًا ، ويلقى دروسه فى اللغة العربية متمكنًا ويدرس الفقه فى زمن **عبدالرحمن الناصر** العظيم ، ينحدر مباشرة من أسرة **غيطشة** الملكية القوطية ، وهو طراز يقدم لنا المثل ، ونستطيع من خلاله أن نوجز ملامح الحضارة الأندلسية ، أو الإسبانية ، سمها كيف شئت . يمكن أن نقول عنه أنه مؤرخ عربى ، فقد كتب مؤلفاته فى اللغة العربية ، ولكن الكنية التى يحملها : **ابن القوطية** ، تعنى أن الجانب الإسبانى من شخصه لم يذهب تماما . فهو وآخرون كثيرون على شاكلته ، يمثلون قمة الثقافة العربية فى شبه الجزيرة الإيبرية ، يمكن أن ندعوهم عربا ، كما نطلق لفظ لاتينى على كثيرين من المؤلفين الإسبان الذين يكتبون فى اللغة اللاتينية ، دون أن يعنى ذلك أنهم تخلوا عن إسبانيتهم ، لا لأنهم ولدوا على أرض إسبانيا فحسب ، ولكن لأن الدم الإسبانى يتدفق عبر عروقهم .

والشيء نفسه كان يجرى فى عروق **ابن القوطية** وأسهم فى تكوين فكره ، ومن الضرورى أن نضع هذا العنصر فى حسباننا عند تفسيرنا لجانب كبير من محتوى مدونته التاريخية ، التى وصلت إلينا تحمل اسمه .

فى هذه الفترة ، من ذلك العصر ، وصلتنا مدونتان رئيسيتان : **أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية** ، وإحداهما تؤكد ما فى الآخر ، تكملها على نحو ما ، وقد خبر المستشرق الهولندى **رينهارت دوزى** كلتا المدونتين جيدًا ، وأفاد منهما كثيرًا ، ومع ذلك يبدو لى أنه لم

يستطع تحديد العصر الذى ألفت فيه المدونة الأولى [٢]

وقد ذكر **لفونتى القنطرة** فى الصفحة السادسة من مقدمته للطبعة التى نشرها من **أخبار مجموعة**، محتذيًا فى ذلك خطى دوزى، أن مؤلف هذا الكتاب يجب أن يكون قد عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى.

وهذا الرأى يعتمد أساسًا فيما يبدو، على الفقرة التالية من[١] **أخبار مجموعة**: «وكان رأيه (أى عمر بن عبدالعزيز) انتقال أهلها منها، لانقطاعهم عن المسلمين، وليت الله كان أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله».

ويرى دوزى أن هذه العبارة لا يمكن أن يتفوه بها إلا مسلم عاش فى القرن الحادى عشر.

ليس من السهل على المؤرخ دائمًا أن يتخلى عن وجهة نظره الذاتية عندما يدرس الشخصيات التاريخية التى يعرض لها. وفى الحالة التى نحن بصددها لا يجب أن ننسى أن إمكانيات كاتب مسلم، عاش فى الأندلس فى تلك الأيام البعيدة، ليست نفس إمكانيات مؤرخ للأحداث يعيش فى شمال أوربا بعد ذلك بعشرة قرون.

فى كل العصور، وحتى فى أفضل الأيام بالنسبة لأية جماعة اجتماعية، ثمة أفراد يمكن للمؤرخ أن يصفهم بأنهم أشرار إذا لم يكونوا على وفاق معه، أو مع أسرته، أو مع طبقته، وأعتقد أن المؤرخ الذى فاض بتلك المشاعر الحزينة، كان يعيش فيما نعتبره الآن أفضل أيام الخلافة الأموية فى الأندلس، أى فى عصر **عبدالرحمن الناصر**.

لكى ندرك على نحو أوضح المنظور التاريخى الذى كان أمام مؤلف مدونة «أخبار مجموعة»، وكتب تلك الفقرة المتشائمة، علينا أن نبحث عن المؤلف الذى حرر هذه المدونة.

إذا توقفنا قليلا فى **أخبار مجموعة** وجدنا أنها مجموعة من المذكرات والفقرات التاريخية، سجلها صاحبها شيئًا فشيئًا دون أن يقصد إلى ربط الحوادث ربطًا منهجيًا أو يرتبها تاريخيًا، وهو فى روايته يتجاوز أحداثًا وقعت ثم يعود إليها، مثلا بعد أن يذكر

(٢) البيان المغرب، جـ١، ص ١٠، طبعة دوزى.

مغامرة **عبدالرحمن الداخل** ، والنهاية التعسة لبنى أمية فى المشرق يعود إلى ولاية **أبى الخطار** فى إسبانيا ، وثمة فقرات يبدو أنها أضيفت إلى النص الأصلى فيما بعد ، دون أن تكون لها صلة بما كان يهتم به الكاتب الأول .

ولست أشك فى أن أشخاصًا عديدين أسهموا فى تأليف **أخبار مجموعة** ، يختلفون ثقافة وفكرًا وزمنا وذوقًا ، ويمكن أن نتعرف إليهم من خلال المواد المتباينة التى يوردونها ، والأفكار ووجهات النظر التى يعبرون عنها ، وحتى من خلال الأسلوب الشخصى لكل واحد منهم : أحيانا نجد الرواية مطولة مفككة ، حافلة بالتفاصيل ، كتلك التى كتبها أولئك الذين بدأوا تحرير هذه الأخبار ، وأحيانا أخرى مركزة موجزة مقتضبة . وبعض الذين أسهموا فى الكتاب يميلون إلى أخبار الحروب وأحداث السياسة ، دون غيرها ، ويعتبرون ماعداها تافها . والبعض الآخر يميلون إلى شئون الدين ، وقضايا الفقة والأخلاق ، لا يهمهم أو يستلفت انتباهم ماعداها . ومن الواجب أن نشير إلى أنهم جميعا يصدرون عن اتجاه متشابه ، من عصبية قبلية ، أو وحدة طبقية ، كما لو كانوا كلهم ينتمون إلى أسرة واحدة ، أو قبيلة بعينها .

أول هؤلاء الذين أسهموا فى تحرير الكتاب لابد أن يكون **رجل حرب** لأنه لا يقف باهتمامه عند الحملات الحربية خاصة فحسب ، وإنما يعرض لما يستخدم فيها من ذكاء وحيلة ، والحاجة إلى الأدلاء الذين يقودون الجيش إلى مواطن الضعف فى جبهة العدو ، واستخدام الجواسيس الذين يعرفون عورات البلد ، ويدرك مواقف الفتح الخطرة ، ووسائل الوقاية والأمن التى تتخذ فى المدن المفتوحة ، وأن من الضرورى أن يتبين الفاتحون الصديق من العدو ، بل ويتوقف طويلا عند أعداد الجنود ، والوضع الذى يأخذونه فى المعارك ، ويصف ذلك كله دون أن يلجأ إلى الأساطير والمبالغات ، ويشرح التحركات الفنية فى القتال ، من المفاجآت والأحداث الحربية الأخرى ، كما لو كان خبيرا واسع التجربة والدربة ، ويعتمد فى معرفته على العلم والتقاليد العسكرية ، وليس على كلام العامة وشائعاتهم .

وهو سياسى أيضا . يردّ الأحداث إلى أسبابها الحقيقية ، ويستخف بأقاويل العامة ،

ويحتقر الناس المرفهين ، ويدير ظهره للعسكريين الذين يجهلون واقع الأشياء ، ويورد مفاوضات **عبدالرحمن الداخل** السياسية فى تفصيل حافل ، يشى بأنه شهد بشخصه بعض تلك الأحداث .

وهو قرطبى ، يتحدث عن الأمكنة فى قرطبة ، كمن شهدها رأى العين ، ويعرف ماطرأ عليها من تغيير فى البناء ، أو المآل ، أو الاسم ، كالمساجد والمقابر ، ويقدم لنا تفسيرا لما أصابها من التغيير .

وهو عربى ، شريف النسب ، من قبيلة قريش ، يحفظ من الذاكرة أسماء القبائل العربية الكثيرة ، وروابط الصداقة التى تجمع بين كل قبيلة وأخرى ، وعلى علم تام بالمحالفات أو العداوات القائمة بين الأسر المختلفة يهتم كثيرًا بالأنساب والأسر الشريفة ، والمناصب التى تتولاها ، ويعجبه من رجال الطبقة الدنيا تقديرهم الموالى ، رغم أنه لاتجرى فى عروقهم دماء عربية ، وحين يسمى أحدا ينتسب فى قبيلة قريش يلزم نفسه بأن يشير إلى البطن أو الفخذ الذى ينتمى إليه . وإذا جهل بعض تفصيلات النسب ، وهو قليلا ما يحدث ، يعترف به كعيب فيه ويعتذر عنه . ويحلو له أن يسجل الاحترام الذى عليه أن يحتفظ به إزاء قبيلة قريش ومواليها ، ويدعو غيره إلى توقير الأشراف ، ويبقى على كل واحد فى مستوى طبقته ، وينصحه ألا يدعى لنفسه من الشرف أكثر مما يستحق ، ويحتفظ بالرتب ، ويعين المناصب العليا لكبار القوم ، ويرى أن الانتماء فى قبيلة قريش يفتح الطريق أمام امتيازات كثيرة ، بما فيها ألا تتعرض حياتهم للاعتداء عليها أبدا .

وأخيرًا ، وهو من **البيت الأموى** ، يشير إلى الأمويين كلهم تقريبا ، قبل أن يجئ العباسيون إلى الحكم فى المشرق ، ويهتم بذكر الأحداث التى قام بها أفراد يرتبطون بأسرته . وفى الحملات الحربية يشير بوضوح إلى الأمكنة التى شغلها أمويون ، ويسجل حتى أتفه الأعمال التى قام بها بعضهم ، ويورد نماذج من الأدب والاحترام التى يحتفظ بها صغارهم لكبارهم ، ويطنب فى ذكر أفراد الأسرة الأموية الذين دخلوا إسبانيا بعد مجئ **عبدالرحمن الداخل** ، ويأتى على أخبارهم تفصيلا .

وكاتب فى مثل هذه الحال ، لا يستبعد منه ، فى ضوء خبرته المباشرة ، وثقافته الحربية

والسياسية ، أن يقدم لنا مدونة مفصلة ودقيقة إلى حد بعيد ، تبدأ من الفتح وتمتد حتى ارتقاء **هشام الأول** عرش الإمارة .

وبعد هذا القسم ، فيما يليه من المدونة ، سوف تتغير الصورة تمامًا ، سوف تختلف طريقة الكتابة كلية واختيار المادة التاريخية أيضا ، ولم تعد الحملات الحربية ، ولا الموضوعات العسكرية ، تعنى الذين كتبوا هذا الجانب من المدونة . وإذا عرضوا لها مرة ، جاء حديثهم عنها خاليًا من التفصيلات التقنية ، كما يفعل غير المختصين من الكتاب ، وحتى الموضوعات السياسية لا تسترعى انتباههم ، وإنما تركز اهتمامهم ، على نحو واضح **بالموضوعات الدينية** إذا تحدثوا عن الأمراء لا تعنيهم البطولات ، وإنما يعرضون لهم بطريقة تجريدية ، يذكرون مميزاتهم الثقافية ، وفضائلهم الخلقية ، ويشيرون إلى ما هم عليه من خشوع وتقوى ، ويتحدثون عن أدبهم وحبهم للفقهاء ، ويضمنون حديثهم عن الحكومة الصالحة المواعظ الخلقية وأبيات الشعر . مما يوحى بأن **كاتب هذا الجانب من المدونة فقيه أديب ينتسب فى قبيلة قريش** ، يحتفظ بين أوراق أسرته بخطابات قديمة ، كوثائق عائلية ، عليه كفقيه أن يواصلها . ونعرف بعضًا من أمثال هؤلاء الفقهاء القرشيين ، ويرد فى الخاطر فقيه منهم ، كان يتمتع بشعبية واسعة ، وشهرة علمية فياضة ، ودرج القرطبيون على أن ينادوه فى لقبه الرومانثى : ابن الشبنسية Sepancia [٣]

فى أى عصر عاش ، أو كتب ، الفقيه الذى حرر الجزء الأخير من مجموعة الأخبار التاريخية هذه ، والتى حملت اسم **« أخبار مجموعة »** ؟

أنا أعتقد أنه عاش فى **عصر عبد الرحمن الناصر** ، حيث تتوقف الرواية ، وتلك الأيام التى تحدث عنها المؤرخ كأيام مجيفة ، بل وتعيسة يُرثى لها ، وشهدت احتضار القوة العربية ، ليست عقبة تحول دون هذا الرأى .

كل فرد ، كما سبق أن قلنا ، تبدو له الأيام سيئة وحتى تعسة ، حين تقع لشخصه أو أسرته أو قومه أحداث غير مرضية ، ومن ثم هناك من يتحدث بسوء حتى عن أفضل الأيام

---

(٣) ابن الأبار ، الترجمة رقم ٢٦٩٥ ، فى الجزء الذى نشره مركز الدراسات التاريخية ، من تكملة الصلة ، مدريد ١٩١٥ .

التي تمر بها أمته ، وأذكر بهذه المناسبة أن **الخشنى** [٤] يحدثنا عن قاض من **قرطبة** فى **عهد عبدالرحمن الناصر** عرض لتلك الأيام فوصفها « بفساد الزمان ، واختيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التى لاتتبين له حقيقتها ، ولا يُكشف له وجهها » . وعندما تحدث الخشنى نفسه عن هذا القاضى ، وصفه بأن « مذاهبه محمودة ، وسيرته حسنه ، وهديه جميلا ، وكان له من الوقار والإخبات ما بذّ به أهل زمانه ، وفات فيه أهل عصره » . ثم يضيف : إن هذه الصفات الأندلسية تلاشت فى أيام **عبدالرحمن الناصر** . وفيها نجد كثيرًا من السادة الذين احتفظوا بطابعهم اللاتينى ، ومن ثم فهم ليسوا عربًا ، واصلوا ثوراتهم حتى ذلك الوقت ، ثم استنزلوا من حصونهم ، وأصبحوا معاهدين ، وأصحاب نفوذ فى قرطبة ، وأباحوا لأنفسهم رخصًا لايرتضيها قانون الدولة الإسلامى ، وبلغ الأمر حد أن اسم شخص إسبانى ، ينحدر من أب وأم لاتينيين ، رنّ فى عاصمة الخلافة الإسلامية ، كمرشح لمنصب قاضى الجماعة فأثار استنكار المسلمين الطيبين بعنف .

أى فقيه تقى من قبيلة قريش الشريفة لا ينفعل فكريًا بالأحداث السياسية فى عهد عبدالرحمن الناصر ، حين يرى اللاتينيين أصبحوا سادة ، ويدفعون الأشراف العرب الأصلاء ، وكانوا حتى هذه اللحظة يسيرون السياسة القرطبية ، إلى مكان ثانوى مغمور ، خامل الذكر؟ ويرى الأسر الإسبانية الحديثة العراقة ، وليس فى عروقها نقطة من دم عربى ، تخلف القرشيين فى المناصب السياسية والحربية فى إمبراطورية بنى أمية ؟

مثل هذه الأيام ، فيما يرى أى قرشى ، بالغة الخطر على مستقبل الجماعة الإسلامية ، وينبىء بنهاية حكمها فى شبه الجزيرة إنها أسوأ ما يمكن أن يتصور من الأيام !

والحق أن **الفقيه الشريف** الذى كتب هذا الجانب من المدونة كان واقعًا تحت هذا التأثير ، ودليلنا عليه موقفه من **عبدالرحمن الناصر** فيما يتصل بهذه القضية ، فبعد أن أتى على الانتصارات الشخصية العظيمة التى حققها الخليفة أضاف ، وأصاب فى ذلك كبد الحقيقة : « ولكنه – عفا الله عنه – مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغناء واستمد بغير الكفاءة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال ، **كنجدة الحيرى** وأصحابه

(٤) تاريخ قضاة قرطبة ، ونصه العربى وترجمته إلى الأسبانية ، وقام بها خوليان ريبيرا نشرا فى مدريد عام ١٩١٤

الأوغاد . فقلده عسكره ، وفوض إليه جليل أموره ، وألجأ أكابر الأجناد ، ووجوه القواد ، والوزراء من العرب وغيرهم ، إلى الخضوع له ، والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال **نجدة** حال مثله فى غيه واستخفافه ، وركاكة عقلة » (٥)

ألا يبدو لنا الآن من الوضوح بمكان ، أن **قرشيا** من أيام **عبدالرحمن الناصر** ، يتحدث عن ذلك العهد فى تشاؤم ؟!

ولأن الذين حرروا **أخبار مجموعة** : ينحدرون من أسرة عربية قرشية شريفة ، ليس لنا أن نعجب من احتقارهم للطبقة الدنيا من عامة الناس ، وبخاصة السكان الأصليين الذين ينحدرون من أصول إسبانية ، ولقد انصرفت عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وحدهم . ووجهوا جل اهتمامهم إلى القرشيين من بينهم ، وإلى البيت الأموى من بين القرشيين بخاصة . أما العناصر الاجتماعية الأخرى فلا تحتل من الكتاب إلا مكانا منزويًا حقيرًا ، ويجئ الحديث عنها فى إشارات عابرة وذلك أكبر نقص يؤخذ على الكتاب .

* * *

أما كتاب ابن القوطية ، على نحو ما وصلنا ، فعلى العكس من ذلك ، ونشك فيما إذا كان ابن القوطية نفسه مؤلفه المباشر ، وكتبه قاصدًا . فهو ليس كتابًا انتظمت أقسامه ، وارتبطت منهجيًا ، كعمل أدبى لمؤلف واسع العلم ، غزير الثقافة ، وهو ما كان عليه ابن القوطية فيما يقول المؤرخون . ولكنه مجموعة من الأخبار القصار ، دونها بعض من كان يحضر دروسه من المولعين بالأخبار ، فجاء لوحات جزئية ، لا رابط بينها أحيانًا ، أو روايات منفصلة لأحداث تاريخية ، ليست من إنشاء ابن القوطية نفسه ، وإنما حررها أحد سامعيه ، فهو يقول مثلا : « قال لى ابن القوطية » . وتتخلل الروايات أساطير شعبية ذات روح شاعرى ، وتقوم على أساس من التاريخ ، ولا يؤلف بينها رابط قوى ، ولا يجمعها تناسق خاص ، ويورد أحيانًا ، كما يحدث فى آخر الكتاب ، روايات ملفقة تمامًا ، أقرب إلى أن تكون ثرثرة .

هذه الإشارات تجعلنا نعتقد أن ابن القوطية لم يحرر هذا الكتاب شخصيا ، وإنما هى

---

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١٣٥ من الترجمة ، وص ١٥٥ فى النص العربى .

نقاط نقلها أحد تلاميذه من دروس عديدة له ، حاول فيها أن يعرض مايعرف من تاريخ إسبانيا ، أو مجموعة من الأخبار التاريخية كان يحتفظ بها بعض أبنائه أو أحفاده ، ثم تولوا ترتيبها على النحو الذى وصلتنا عليه .

وثمة إشارات أخرى تومئ إلى أن **ابن القوطية** لم يؤلف هذا الكتاب بهدف أن يكتب عملا أدبيًا ينسب إليه .

فابن الفرضى المؤرخ ، صاحب التراجم المعروف ، وتتلمذ شخصيا على **ابن القوطية** ، يحدثنا عن نفسه أنه اختلف عدة أعوام إلى الدروس الأدبية التى كان يلقيها ابن القوطية فى مدينة **قرطبة** ، وقد أعجب به ، وأثنى عليه كأستاذ عظيم ، وعاش ابن الفرضى بعد ابن القوطية ستة وثلاثين عامًا [٦] ، فلو كان ابن الفرضى يعرف أن لابن القوطية هذا الكتاب محررا ، أما كان يغتنم الفرصة ليفيد منه فى كتابه « **تاريخ علماء الأندلس** » ، أو على الأقل أن يشير إليه ولو مرة واحدة ، كما ذكر مؤلفات : عبدالملك بن حبيب ، والرازى ، والخشنى ، وآخرين ؟ ، إنه لم يذكر كتاب ابن القوطية هذا ولا مرة واحدة إذا شئت ، والترجمة التى خصه بها ، وهى أكمل ترجمة له وصلتنا ، تتحدث عن مؤلفاته فى النحو واللغة فحسب ، وإلى جانب ذلك ، كان ابن الفرضى على علم تام بأن ابن القوطية ينطوى على حب عميق لمادة التاريخ ، فهو يحدثنا عنه قائلا : « وكان حافظًا لأخبار الأندلس ، مليًا برواية سير أمرائها ، وأحوال فقهائها وشعرائها ، يملى ذلك عن ظهر قلب » . ولكنه لايذكر لنا صراحة أنه كتب أية مدونة ، أو ألف أى كتاب خاص عن تاريخ الأندلس . وذلك فيما أرى ، دليل على أنه فى حياة **ابن القوطية** ، وحتى سنوات بعد وفاته ، لم يكن الكتاب الذى يحمل اسمه قد عرف طريقه إلى الجمهور .

غير أن الاهتمام بالعلم والأدب ظل قويا فى نطاق أسرة **ابن القوطية** . فقد سار ابنه المسمى **عمر** ، ويكنى **أبا حفص** ، فى الطريق نفسه ، فكان أديبًا شاعرًا ، وروى عن أبيه وغيره [٧] وكان من سلالته **عبد الملك** ، ويكنى **أبا الوليد** ، ويعرف **بابن القوطية أيضا** .

(٦) توفى ابن القوطية عام ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م .

(٧) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٤٩ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٨٥٤ من طبعة القاهرة) .

« متصرفًا فى العلوم من الفقه والعربية والحساب ، محسنا لعقد الوثائق ، بصيرًا بعللها ، راوية للأخبار ، حافظًا للآداب ، وروايته للعلوم واسعة ، وشيوخه كثيرون بقرطبة وإشبيلية ، وروى عن عمه **أبى بكر** »[٨] ، أى **ابن القوطية** صاحبنا ، وأحد هذين ، أو أى تلميذ آخر ، يجب أن يكون قد حرر **تاريخ افتتاح الأندلس** ، على النحو الذى وصلنا عليه .

ومع ذلك ، ورغم أن ابن القوطية لم يكن هو الذى حرر الكتاب شخصيًا ، فإن المادة التى تضمنها وتنسب إليه ، تتفق تمامًا مع كل مانعرف عن شخصه وجنسه وأسرته وتربيته وثقافته ، وما إلى ذلك ، وليس ثمة شك على الإطلاق فيما يتصل بها .

فالمؤرخون ، حتى دون قصد منهم ، ينقلون إلينا وجهة نظرهم الشخصية ، يروون ما يهمهم أكثر ، ويضعون عليه ظلالا تعكس حالتهم النفسية ، **ومحتوى تاريخ افتتاح الأندلس يتفق تماما مع نفسية ابن القوطية** .

هو فقيه من قرطبة ، ولكنه واسع الأفق ، أديب عميق ، واسع الثقافة ، يجرى فيه جانب من الدم العربى ، فهو مولى بنى أميه ، ولكنه من جانب آخر ، يتحرك فى أعماقه إنسانًا ويغلى روح إسبانى ، وشرف أسرة نبيلة ، تنتمى إلى الأسرة القوطية المالكة .

وهو مسلم مخلص ، تربى فى وسط دينى شديد المحافظة ، ودرس مبادئ أشد المذاهب الإسلامية سنية ، ودافع عن اتجاه تاريخى خلقى تستشفه خلال كتابه ، ومؤداه أن الذين يعملون الطيب ، والصالحين والاتقياء ، يتلقون الثواب فى الدنيا ، وأن الأشرار والسيئين ينالهم العقاب فى الدنيا أيضا ، فضلا عما ينتظرهم فى الآخرة .

والملوك الصالحون هم الذين يقربون الفقهاء والعلماء من رجال الدين ، وبهذا يصبحون سعداء ويسعدون رعاياهم ، ولكنه مع ذلك لم يكن متشددًا ولا متعصبًا ، ويورد أخبار زرياب فى ود ، رغم أنه كان موسيقيا ، ولا يتردد فى رواية السنة على نحو قد لا يرتضيه منهج المحافظين على أيامه .

ولأنه كان مسلمًا صادق الإيمان لم يكن لديه ما يخجل منه فيما يتصل بموقف أفراد

(٨) المصدر السابق ، الترجمة رقم ٧٦٥ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٧٧٠ ، طبعة القاهرة) .

أسرته الذين ساعدوا حملة الفتح الإسلامى ، بل ويمكن القول إنه غالى فى الخدمات التى قدمها أسلافه إلى العرب ، فى تواطئهم الخائن ضد الشعب الإسبانى ، وإنه كمؤمن صادق الإيمان يعتبر أن الفتح الإسلامى هبة إلهية لإنقاذ البشرية .

وقد ارتبطت أسرته بالولاء لبنى أمية ، لأن جدته **سارة القوطية** ، حفيدة غيطشة ، ذهبت إلى دمشق ، تشكو إلى الخليفة **سليمان بن عبدالملك ظلامة** أصابتها من أحد مواليها المسلمين ، فأنصفها (وزوجها من عيسى بن مزاحم ، الذى قدم الأندلس معها ، وسكنا إشبيلية) ، ومن ثم كان صاحبنا **ابن القوطية** يعتبر ملوك الأندلس الأمويين موالى له ، ولهذا السبب أيضا ، فإن اهتماماته وآراءه التاريخية تتفق فى هذا الجانب مع آراء وأفكار مؤلفى **أخبار مجموعة** وكانوا أمويين أيضا . فهم وابن القوطية ، يتفقون فى كتابيهما على احتقار **موسى ابن نصير ولذريق** ، ويعتبران هذا الأخير غاصبًا ومتكبرا وفارغًا ، ومستخفًا بالتقاليد الدينية ، ومغتصبا للنساء ، ومرتكبا لرذائل وآثام أخرى كثيرة . وفيما يرون جميعا فإن **موسى ابن نصير** ، وعزله الأمويون السوريون ظلما وبطريقة مخجلة ، مثل واضح للطموح المبتذل ، وقد حقد على **طارق** القائد المحظوظ الذى عهد إليه بفتح إسبانيا ، ضربه كعبد حقير ، اختصم معه حول رِجْل المائدة ، وبما أن **موسى وابنه** انسجما مع **أسرة لذريق** ، وحتى ارتبطا عائليا ، فإن **الأمويين** أتباع **غيطشة** كرهوا **موسى** ومواليه ، **ولذريق وأتباعه** وعاقبوهم وفى هذا يتفق **أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية** .

ولكن هناك ، كما أشرنا من قبل ، اختلافا جوهريا بين محتوى الكتابين ، مصدره اختلاف سلالة مؤلفيهما . **فالقرشيون** الذين ألفوا **أخبار مجموعة** يظهرون احتقارا كبيرًا نحو العنصر الأصلى من السكان ، قلما يعرضون لهم ، ولا يكادون يهتمون تقريبًا بغير البطولات العربية ، والقرشيون من بين هؤلاء بخاصة ، والأمويون من بين القرشيين على نحو أخص . فى حين أن ابن **القوطية** ، ويحس بالدم الإسبانى يتدفق عبر عروقه ، احتفظ فى أعماقه بشرف جنسه حيًا ، فأدخل فى كتابه العديد من الروايات التى تعرض لموقف العنصر الإسبانى ، من سكان البلد الأصليين .

ومسألة الشرف هذه تفاقمت للغاية فى الأيام التى سبقت **ابن القوطية** ، وبخاصة فى

عهد الأمير **عبدالله** ، حين كانت كل العناصر الاجتماعية فى إسبانيا الإسلامية تضطرب بعنف ، لغياب القوة المركزية التى تسيطر عليها .

وفى بلد ،كشبه الجزيرة يومها ، يتعايش الناس من أجناس مختلفة ، وأديان متباينة : مسلمون ومسيحيون ويهود ، وعرب وقوط ورومانيون وغيرهم ، وقبائل وأسر ظلت حتى ذلك الوقت تحتفظ فى قوة بخلافاتها القبلية والعائلية ، من عرب وجرمان ، ليس من الغريب فى النضال الاجتماعى ، أن يشتد الزهو بالانتماء إلى هذه القبيلة أو تلك ، وإلى هذه الأسرة أو الأخرى ، وإلى هذا الدين بعينه . فالمسلمون يحتقرون اليهود والمسيحيين ، يتجنبون الاتصال بهم أو الاحتكاك بهم ، والذين ينحدرون من أسر شريفة يحتقرون العامة والذين فى أدنى سُلّم الحياة ، وينفرون من التعامل معهم .

غير أن التعايش أمر لا مفر منه ، وضرورات الحياة فى أحايين كثيرة تضطر الجميع إلى التسامح ، وفى بعض الحالات إلى التلاقى والتعاون ، ومن ثم انتقلت مسألة الشرف إلى أوساط أخرى ، وأخذت طابعا مختلفا ، طابعًا معنويًا لا صلة له بالجنس أو الأسرة .

نعم ، أصبح الإحساس بالكرامة الشخصية شديدا ، وأصبح الشخص الذى حقق شيئا من الهيبة الاجتماعية يعتقد أنه أهين إذا وجد نفسه مضطرًا إلى أن يتعاون مع شخصية أخرى من طبقة أدنى ، وصار السلوك الخلقى المحمود يُكسب صاحبه قيمة وثقة . وإذا ميز أناس موقرون شخصًا ، أو نعتوه بأنه كريم ارتفع بهذا العمل وحده فى التقدير الاجتماعى . وإذا ارتكب شخص من أشراف قريش فاحشة ، فإن قاضى قرطبة يمكن أن يعزره ويذله ، ولا يتوقف تقدير المرء على سلوكه الشخصى فحسب ، وإنما يتأثر أيضا بموقف الأسرة نفسها فهو ينعكس على مكانة أفرادها ، فالموقف السيء لابن يؤدى إلى تعزير الأب أحيانا . وقد اضطر قاض فى قرطبة إلى أن يستعفى من منصبه بسبب مجون ابنه . وعندما بلغ ابن أحد القضاة سنًا متقدمة ، أدى ذلك إلى الشك بأن الأب لم يعد كامل الأهلية ، ومن يطلب ، أو يرجو لنفسه منصبًا عامًا ، يوصف مسلكه هذا ، أحيانا ، بأنه غير كريم .

هذا الإحساس الخلقى ، الموسوس والقوى ، فى الشعب الأندلسى ، أدى إلى تكوين

جماعات سياسية مختارة ، تقود الشعب بآرائها ، وتحتفظ فى الوقت نفسه باحترام كامل لأمرائه .

إنه إحساس مدنى راق ، هيأ إلى جانب ظروف أخرى سياسية واجتماعية لإمبراطورية الأمويين فى الأندلس أن تبلغ أوج عظمتها على يد **عبدالرحمن الناصر**.

وليس ثمة شك فى أن **ابن القوطية** تأثر بهذا الجو المعنوى ، وأحس بكل هذه الدوافع التى تجعل مواطنيه يرتفعون به مرتبة عالية متميزة فى درسه ، واعتدال سلوكه ، وسلامة تدينه ، واحترام نسبه العربى والقوطى ، وقد روى لنا الأحداث التى أسهمت فيها أسرته ودورها فى القضايا العامة ، ولأن دم عنصرين يجرى فى عروقه ، فقد خدم الاثنين فى مدونته .

نجد فى **كتاب ابن القوطية** عددا من الأساطير ذات الطابع القومى كانت تتداول شفاها بين المسلمين القوميين الإسبان[٩] ، وتعكس فى تضاعيفها دون قصد ، وعلى نحو واضح ، غلبة العنصر الأصلى من السكان على أيامه ، وهو يروى الوقائع دون أن يموه أو يشوه قاصدًا .

وقد وجد **ابن القوطية** نفسه ، دون أن يقع ذلك فى خاطره ، مرتبطًا بقومية بعض الفرق التى شاعت فى الأندلس ، ولكن فى اعتدال ، مدفوعا إليها بثقافته المالكية ، وعلاقاته بالأسرة الأموية ، وروايته **لأرطباس** مع **الصميل بن حاتم** ، **وميمون العابد** ، وهى رواية زهاد قوميين ربما تفرعت عن اتجاهات شيعية تظهر لنا العرب فى صور الجهلة المبتذلين ، وتصور لنا أرطباس القوطى رجلا عظيم المواهب ، حميد الأخلاق ، وحتى ممتازًا فى صلاته الاجتماعية .

ويورد مؤلفنا فى كتابه عدة روايات ذات طابع ملحمى ، تتميز بأنها قصيرة ، عن أزهى أيام إسبانيا الإقطاعية فروسية ، وتشمل الفترة التى تمتد من **عصر الأمير محمد** إلى عصر **الأمير عبدالله** ، وفيها ازدهر الشعر الملحمى على يد الشاعر **تميم بن علقمة** ، وكان

---

(٩) جانب كبير من روايات ابن القوطية يعتمد على الرواية الشفوية ، سمعها من أساتذته الأسبان ، إلى جانب بعض آخر منها أخذه من كتاب عبد الملك بن حبيب ، والمنظومة التاريخية للشاعر تميم بن علقمة ، وضاعت ولم تصلنا .

متزوجًا من ابنة كونت مسيحي فى الأندلس ، وفى هذا الوفد نفسه كان **بنو قسي** فى **أرجون** ، وهم إسبان اعتنقوا الإسلام ، وتعودوا أن يلهبوا روحهم المقاتل حماسة بإنشاد أشعار **عنترة بن شداد** .

ولم يكن **ابن القوطية** سعيدًا بسلوك المتمردين على البيت الأموى ، ومع ذلك كان يُسر برواية أخبار قصصية ، كأخبار **الشاعر غريب** ، الداهية المتعصب لقومه من أهل **طليطلة** ، وعن وقائع **مروان الجليقى** بناحية **بطليوس** وأعمال إزراق فى **وادى الحجارة** ، وأخبار عمر **بن حفصون** وغيرها . ويبدو السخط الشعبى فى بعضها واضحًا ، دون قناع ولا تخفف ، ويحدد من خلال الأساطير العقاب الذى سيوقعه الله بالعاصين ، فبعد مذبحة وجوه **طليطلة** الغادرة ، « حين أتى القتل منهم إلى خمسة آلاف وثلاثة مائة ونيف ، وأثبت **عبدالرحمن بصره** فى السيف ، فلم تزل به غمزة فى عينه إلى أن مات » .

الاتجاه القومى المعتدل طابع كتاب **ابن القوطية** ، ويجعل له قيمة كبيرة ، فقد ضمنه أخبار بقية عناصر السكان المسلمين من غير العرب ، الذين أهملهم المؤرخون الآخرون تمامًا ، وبذلك جعل محتوى كتب التاريخ العربى أشمل مادة وأدق تسجيلا .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فإن بعض العناصر ، وبهم تكمل الصورة التاريخية لإسبانيا الإسلامية ، تبقى أخبارهم غامضة ، أو تجئ على استحياء بين الوضوح والإبهام وهى صورة القوميين المناهضين للحكم الأموى والذين وقفوا فى وجه العرب ، متأثرين بمبادئ الشيعة الوافدة من فارس(١٠) ، وأنبتت التمرد ، وظلت مبادئها نابضة حية فى مؤلفات الصوفية أحيانا ، وأهمل كذلك الجماعات المسيحية واليهودية ، والحق أن كل المدونات التاريخية احتقرت أخبارهم ، فصمتت عنهم تمامًا .

وقد وفق **بشكوال جيانجوس** فى أن يلحق بنهاية كتاب **ابن القوطية** عدة نصوص

---

(١٠) وصلتنا أساطير كثيرة نلحظ فيها التأثير الفارسى ، وتأثير الشرق الأقصى ، مثل حادث تيودمير ، والبيت المغلق فى طليطلة وغيرها .

تاريخية[١١] ذات أهمية ، وبخاصة مانقله عن **ابن قتيبة**[١٢] ، ولو أنها فى الحقيقة تتضمن حوادث لم تقع فى إسبانيا ، وإنما حدثت فى المشرق وتتصل **بموسى بن نصير** بعد أن غادر شبه جزيرة إيبريا ، وعلى الرغم من أنها أساطير ترد فيها الوقائع التاريخية مشوهة ، إلا أنها تبين لنا إلى حد ما نظرة المشارقة إلى الأندلس لحظة الفتح ، ونحتاج معها إلى أن ننعم النظر فى بعض الشخصيات وفى بعض الأحداث ، وحاول مؤرخو البيت الأموى وأتباع **غيطشة** غمط تاريخهم كل ما كان ذلك ممكنا .

ينعكس الانطباع الذى أحدثته فتوحات **موسى** الكبرى فى المشرق ، بطريقة جيدة للغاية ، فى الأساطير التى أوردها **ابن القوطية** ، ومن المؤكد أن المسلمين هناك قد اعترتهم الدهشة ، واجتاحتهم الحماسة ، عندما عرفوا السرعة التى اتسعت بها الإمبراطورية الإسلامية . فلم تمض اثنتان وتسعون عامًا على الهجرة حتى بلغ الإسلام شواطىء بحر الظلمات ، نهاية الأرض المعروفة فى ذلك الحين ، ثم عبر المضيق ، وانتشر فى جانب لا بأس به من أوربا ، وفى فورة الحماسة صيغت أروع الأقاصيص خيالا وأطرفها ، وأشدها مبالغة ، غالوا فى تقدير الثروات والكنوز التى وجدها المسلمون فى إسبانيا ، كما لو كانت دورادو El Dorado [١٣] المسلمين .

هذه المبالغات المفرطة لابد أنها أثارت الشكوك حول سلوك **موسى بن نصير** قائد الحملة ، وشاع الظن بأنه احتفظ لنفسه بالجانب الأكبر من هذه الكنوز ، لأنه لم يدخل فى خزائن الدولة القدر المناسب ، والذى تستحقه شرعًا من هذه الثروات الأسطورية ، وتبريرا لهذا الشك اخترعوا أساطير تقول إن كنوز ملوك كثيرين أصبحت فى حوزته ، وتيجانهم وأحزمتهم الذهبية ، وأقدار لاتحصى من الجواهر واليواقيت ، والطنافس

---

(١١) وقد ترجمتها أيضا مع الكتاب ، والذى كتبت هذه الدراسة مقدمة له .

(١٢) ترجمها فى كتابه «تاريخ الدول الإسلامية فى أسبانيا The History of The Mohammedan in Spain ، جـ١ ص ٥٠ وما بعدها من الملحق والجزء الثانى ص ٣ وما بعدها .

(١٣) الدورادو : بلد بالغ الثراء على نحو لا يقدر ، ولا وجود له إلا فى مخيلة أصحابه ، وتصور الغزاة الأوروبيون لأمريكا اللاتينية أنه يوجد فى أمريكا الوسطى فأخذوا يبحثون عنه عبثا .

(المترجم)

المنسوجة بالذهب والفضة والجواهر ، والأثاث المصنوع من أغلى المواد ، وإلى غير ذلك كثير .

وفضلا عن ذلك ، أصبح هذا القائد المسلم وأسرته يحكمون مساحات شاسعة جدًا من الإمبراطورية الإسلامية ، من تونس إلى المغرب وإسبانيا ، وشاعت الأخبار عن معاملته الحسنة ، وإنسجامه مع الملوك الغرباء الذين خضعوا له ، حتى أن أحد أبنائه تزوج من أرملة ملك إسبانيا ، فأثار ذلك كله شكوك **الخليفة** الأموى بأن **موسى** يمكن أن يستقل بالأمر لنفسه .

حينئذ قرر **الخليفة** قلقا ومتوجسًا ومندفعًا ، أن يدعوه إلى المشرق وأن يعزله ، على حين اعتقد **موسى** ، وقد أصبح هرمًا تقدمت به السن ، أن ماضيه فى خدمة المسلمين ، وولاءه للخليفة ، يجعله يحظى بالاحترام ، ويتيح له أن يمضى فى وطنه شيخوخة هادئة ، فأذعن للأمر ، ترك إسبانيا ، وعرض نفسه فى بلاط الخليفة .

وقد برهن استقبال **موسى** ، ومسلك الخليفة إزاءه ، والتدبير المرعب والنجس باغتيال ابنه **عبدالعزيز** ، المتزوج من أرملة **لذريق** ، على ما كان ينتظر هذا القائد العظيم ، ولا يطاوله فى عظمته الحربية غير **هرنان كورتس** Hernan Cortés (١٤) من جحود وقلة عرفان من خلافة دمشق ، جزاء قيادته الماهرة ووطنيته الصادقة ، وولائه لخليفته وأمته .

وكل هذه الأشياء التى يرويها لنا ابن القوطية ، مختلطة بالأساطير ، تجعل من النظرة التاريخية عند **أخبار مجموعة** ، وعند **ابن القوطية** ، أكثر اتساعا ، وتساعدنا على أن نفهم بوضوح أشد خفايا الأحداث الكبرى فى التاريخ .

ورغم تعدد الروايات التى أوردها فثمة شك فيما يتصل بالتفصيلات التى تضمنتها ، والتى يمكن مناقشتها وبيان جانب الضعف فيها ، مثل التفاهة التى تقص كيف أن **طارق بن زياد** احتفظ بأحد أرجل المائدة التى عثر عليها فى طليطلة ، وأن ذلك لم يحدث ، وعن حقيقة خوليان ، وغير ذلك من التفاصيل ، والذين يهتمون بدراسة تركيب الظواهر

---

(١٤) من قواد أسبانيا العظام فى غزوها لأمريكا اللاتينية لحظة اكتشافها ، وعلى يده تم اكتشاف المكسيك وفتحه ، توفى عام ١٥٤٧ . (المترجم)

الاجتماعية والسياسية فحسب ، سوف يجدون فى هذه المدونات التى ينشرها المجمع الملكى التاريخى ، تفسيرات واضحة عن العناصر التى كانت تتكون منها إمبراطورية بنى أمية فى إسبانيا الإسلامية ، والتى استمرت زمنًا طويلا .

ويمكن القول بأن خروج **موسى** إلى المشرق ، واغتيال ابنه المتزوج من أرملة **لذريق** ، أدى بالضرورة إلى تغييرات عظيمة فى العلاقات السياسية الإسبانية ، لقد استعيض عن موالى موسى ، والأسبان من أتباع لذريق ، بأناس من العرب أكثر ولاء لبنى أمية ، مثل جند الشام ، وبأسبان من أنصار غيطشة ، وكان هؤلاء قد انسجموا سريعا مع أمويى المشرق ، وبهم ربطوا مصيرهم .

ولقد حانت لحظة عابرة ، عندما أصبح **يوسف الفهرى** واليًا على إسبانيا . وبدا قدرها متأرجحًا غير مؤكد ، حينئذ بدأت الأساطير التاريخية تقدم لنا **أرطباس** . من أتباع **غيطشة** ، يجلس على كرسى أشبه بعرش ، يحيط به الرؤساء العرب فى شبه جزيرة إيبريا ، يحضرون عنده ، ويسألونه شيئا من سخائه الملكى .

وعندما أزاح **العباسيون** فى المشرق **بنى أمية** عن الخلافة ، لم يمكن لأولئك فى شبه الجزيرة من يعتمدون على ولائه غير القليل ، فإسبانيا بعيدة عن الكفاح المجيد الذى اضطلعت به الأسرة الجديدة التى تولت الخلافة وأثار إعجاب الكثير من المسلمين ، فاهتبل الفرصة أحد أبناء الأسرة الأموية ووجد الظرف مواتيا لكى ينشئ هنا فى الأندلس مملكة مستقلة ، واستطاع أن يحظى بمساعدة موالى أسرته ، والعنصر الإسبانى من السكان الأصليين ، وكان يتمتع ساعتها بنفوذ وهيبة كبيرين ، وتقدم لنا الروايات التاريخية **عبدالرحمن الداخل** فى نزهاته عبر شبه الجزيرة يصحبه **أرطباس** ، قمة حزب غيطشة ، ولقد حدثت دون شك خلافات خطيرة بين الاثنين . وتجرأ عبد الرحمن الداخل فقبض إقطاعيات أرطباس ، ولكنهما انسجما أخيرا ، واسترد أرطباس كرامته كاملة كرئيس للنصارى فى الأندلس ، واغتنم أتباع غيطشه الظرف تماما ليحصل كل واحد منهم على مايستطيع من المراتب .

وقد بقى **أحفاد غيطشة** ، من ناحية الأب ، على عقيدتهم الدينية المسيحية ، دون أدنى

شك ، واحتفظوا بمكانتهم الاجتماعية فى نطاق التنظيم المسيحى ، وأمكنهم أن يحتفظوا بها بعد الفتح العربى ، وتولوا مراكز دينية سامية ، فأصبح أحد أبناء **سارة** – **مثلا** – **مطران إشبيلية** ، وشغلوا مناصب قضائية وسياسية هامة فكان منهم **قاضى العجم فى طليطلة** ، وقومس الأندلس ، أما الأحفاد الذين انحدروا من ناحية الأم ، أى أبناء **سارة القوطية** وأحفادهم ، فقد أصبحوا مسلمين ضرورة ، بحكم الشريعة الإسلامية ، وذلك أن **سارة القوطية** عندما أحست بالمعاملة السيئة التى يلقاها عمها **أرطباس** ولما فى المرأة من ضعف ، ذهبت إلى **الخليفة الأموى فى دمشق** ، فبحث لها هذا عن زوج مسلم أوصى به **عبدالرحمن بن معاوية** ، أمير الأندلس فيما بعد . وقد آثرت السلالة التى انحدرت من **سارة** أن تتخذ مسرورة من اسم أمهم المسيحية لقبا لهم ، وفضلته على أسماء آبائهم المسلمين ، ويقول **ابن القوطية** إن احفاد **سارة** كانوا ، فى نطاق المجموعة الإسلامية ، يتمتعون بمكانة ممتازة وبهيبة بيِّنة ، لم يتمتع بها أولاد أزواجها من نساء أخريات .

إن اتباع **غيطشة** يستطيعون أن يفخروا بأنهم ساعدوا على سقوط **إسبانيا** فى عهد **موسى** ، وبأنهم اسهموا أيضا ، لصالحهم الشخصى ، فى تدعيم الإمبراطورة الإسلامية فى العصور التالية . وفى عصر عبدالرحمن الناصر ، وعاش ابن القوطية أيامه ، وكتب مدونته ، كان دم**غيطشة** لما يزل يتدفق حارًا فى صدور المسلمين .

القصيدة التي فجّرت ثورة

مع أول القرن الثامن الميلادى جاء العرب إلى الأندلس ، ومع نهاية القرن العاشر أصبح بهم دولة مرهوبة الجانب ، مركزية السلطة ، يسودها الأمن ، وتفيض بالخير : الحقول خضراء زاهية ، والبيوت أنيقة مريحة ، والحمامات كثيرة ونظيفة ، وأنظمة الرى دقيقة ومحكمة والأقوات موفورة بأرخص الأسعار ، ويتحرك الناس فى صحة بادية وملابس نظيفة ، وانكمش الفقر أو تلاشى .

وقد صنع هذا المجد عربيان عظيمان ، كان الأول خليفة ، **وهو عبد الرحمن الناصر** ، وكان الثانى حاجبا أو رئيسا للوزارة فى لغتنا المعاصرة ، **وهو المنصور بن أبى عامر**.

وكما تكون إنجازات العباقرة عظيمة تجىء أخطاؤهم من نفس المستوى .

وكان الخطأ الذى وقع فيه الاثنان ، والتبعة على الأول أكثر ، لأنه الذى بدأ والثانى سار على طريقه ، أنهما لينفردا بالأمر ، ويتمكنا من السلطة ، أتيا على النفوذ العربى تماماً ، استغنيا عن أبناء البيوتات ، وأذلاّ كبار الرجال فيها ، واستعاضا عنهم بولاء الرقيق من الصقالبة ، والنازحين من الأفارقة ، وأولئك ولاؤهم مأجور ، وهؤلاء إحساسهم بالوطن واهن ، ولم يكن للقاعدة العريضة من الجماهير دور طليعى على أيامهم ، ولا قبلها ، لا فى الأندلس ولا فى غيره ، نعم كانوا مادة مهيأة للثورة ، حين يبلغ السوء مبلغة ، وتنحدر الحال إلى قدر لا يحتمل ، ويجىء الزعيم المنتظر ليقودها ، فى الحال تلبى نداءه ، وتصطف وراءه ، وتمضى معه بلا تردد إلى نهاية الطريق .

حين توفى **المنصور بن أبى عامر** خلفه ابنه من بعده ، وكان دون أبيه قدرة وموهبة ، ولم يبق غير سنوات قليلة ثم لحق به ، وكانت هذه السنوات القليلة كافية لكى يتجمع كل أولئك الذين يريدون أن ينقضوا على السلطة ، يريدونها لهم ، أو لأناس يرضون عنهم ، وتحول الأمر إلى فوضى ، وكل الذين فى الأندلس بدأوا يتقاتلون لغير سبب ، أو لسبب

أنانى مفرط فى الأنانية ، يهجمون ويرتدون ، وخلال التقدم والانسحاب يدمرون وينهبون ، حتى عاد كل شىء أسود قاتما فى العين وفى الأمل ، وخرائب وانقاضًا فى الواقع وفى الحياة ، وماتت الضمائر فى النفوس ، وانحلت عقدة الولاء للجماعة ، واستبيحت كل الحرمات ، وانقض كل خوّان على جانب من الدولة ، وأعلن نفسه أميرًا ، ووسط هذه المصائب تميزت طائفتان – إن كان مثل هذا يعد تميزا – هما : **الفقهاء** يقدمون لكل حادث فتوى ، ولكل جريمة مبررًا ، وفى خدمة الأقوى دائما ، **والشعراء** يتغنون بمن يدفع أكثر ، ولمن يقدم رفاهية أعظم ، وتحول الفن الجميل والنبيل على أيديهم إلى سلعة تباع وتشترى ، وغرقوا فى الأنانية فأخذوا يدورون حول أنفسهم غزلا وخمرا ومديحًا ! وفى جو كهذا أمسك الخيِّرون بأنفسهم ، وتواروا خجلا ، أو هاجروا إلى أرض بعيدة ، أو دفعوا الثمن معاناة وسجنا وقتلا .

واهتزت السلطة المركزية ، وتهاوت الخلافة ، وسطا على أمجادها مجموعة من السفهاء ، وقام على أنقاضها قرابة ثلاثين من الأمراء ، يتقاتلون طمعًا ، ويتدافعون حول أشبار ، ويعلنون الحرب من أجل أمتار ، ويدفعون كلهم الجزية للعدو الرابض على الحدود وهم صغار ، ولم يكن بأقوى منهم لو اتحدوا .

وقد ورثوا فى كل مكان ذهبوا إليه أمجاد الأمس الباذخة ، ولم يضيفوا إليها جديدا ، ومضوا يبعثرون فيها بلا حساب ، شأن السفيه حين يتلقى ثروة لم يبذل فيها جهدًا ، ولا كلفته مشقة ، وتحول الأندلس على امتداده العريض إلى مجتمع مستهلك ، ينفق فى بذخ دون أن ينتج شيئًا أو شيئًا قليلا لا أهمية له ، ونفق المجتمع بأولئك الذين يستطيعون أن يدغدغوا عواطف المستهلكين ببيت رقيق من الشعر ، أو بوصلة جميلة من الغناء ، أو بلحن موسيقى آسر ، أو بحركة راقصة فاتنة ، « وفاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ماهو مقبول عرفًا وعادة ، ولم يعد حب المرأة رغم شيوعه ويسره كافيًا ليوقف اندفاعهم ، من أى وسط كانوا ، وإلى أية طبقة انتموا ، نحو اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعى » (١)

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٥٠ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

كان هؤلاء الأمراء ، أو الملوك الصغار ، على عهد الطوائف ، كما يسمون تاريخًا ، ينتمون إلى شتى العناصر التى استوطنت الأندلس ، وتميز كل أمير منهم بمزاج خاص ، « فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير ، وابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده فى الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع . أما الشعر فكان أمرًا مشتركا بينهم جميعا ، يلقى منهم كل رعاية ، ولكن عناية بنى عباد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل ، وفى أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر ، وكان البربر أصحاب السلطان فى جنوبى الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود ، وقل وفود العناصر المشرقية على الأندلس ، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تأليف مجموعات فى جيد الكلام من نظم ونثر ، ومضى الناس فى نظم الموشحات ، ولكن أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرض شعر حديث على طريقة القدماء ، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات ، لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء ! ، حتى قال القزوينى : إن أى فلاح يحرث بأثوار فى شلب يرتجل ماشئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات . ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولا وعرضًا ، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلات ، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر ، وتُدرج أسماؤهم فى سجلات الدواوين ، وتُخلع عليهم وظائف التدريس » (٢) .

ومن بين هؤلاء جميعا يهمنا أن نقف عند بنى زيرى الصنهاجيين ، وكانت غرناطة من نصيبهم ، وكانوا فيها الأمراء والقادة .

* * *

جاء الصنهاجيون إلى الأندلس بعد خلاف وفتن ومعارك جرت بينهم فى أفريقية ، فكتبوا إلى المنصور بن أبى عامر يستأذنونه فى الجواز إلى الأندلس للجهاد فى سبيل الله ، فأذن لهم . وعبروا بزعامة زاوى بن زيرى . فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلا حسنًا ،

(٢) Emilio Garcia Gomez: Poemas arabigo andaluces, P. 32, 4 ed. madrid 1959 – Angel Gonzales Palencia: Historia de la Lateratura arabigo-espanola, 2ed., P. 66, Barcelona, 1945.

واتخذهم جندا له وعونًا ، ونظمهم مع **زناته** وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم فى أواخر أيامه ، وفى أيام ولديه **عبد الملك وعبد الرحمن** ، ورجحت كفتهم فى الجيش ، وحين سقطت الدولة العامرية شاركوا فى الفتن التى تلتها غنما وغرما ، ولعبوا دورًا بارزًا فى تدمير قرطبة ، خلال ماعرف بفتنة البربر عام ٤٠٣هـ – ١٠١٣م ، فقد اقتحموها فى مناظر مروعة من العبث والسفك والنهب وأتوا على مدينة الزهراء الرائعة الجمال بأكملها ، وقد رأى الخليفة **المستعين** أن يفرق البربر فى الكور والثغور ، تخفيفًا لضغطهم على العاصمة ، فأقطع قبيلة **صنهاجة** وزعماءها من **بنى زيرى** ولاية إلبيرة .

ولما رأت **صنهاجة** تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، عزموا على الرحيل عن الأندلس ، والجواز إلى العدوة ، ولكن أهل **إلبيرة** ، وكانوا فى بسطة من الرزق والثروة ، وسعة من الأرض وخصبها ونمائها ، دعوهم إلى البقاء معهم ، ومشاركتهم مايملكون ، على أن يتولوا الدفاع عنهم ، وقبل **زيرى** وقومه دعوتهم ، وطابت لهم الإقامة فيها ، وتعلقوا بها ، وقر رأيهم على الدفاع عنها ، ثم رأوها لا تصلح للدفاع ، فابتنوا فى البسيط الواقع على مقربة منها مدينة جديدة ينزلون بها ، وتكون معقلهم ، وهكذا قامت مدينة **غرناطة** ، على حين خربت إلبيرة ، وعفت ربوعها ولفها النسيان ، ونمت المدينة الجديدة سريعًا ، وأصبحت العاصمة ، وسوف تكون آخر مدينة تسقط فى يد الأعداء (٣)

على أن **زاوى** قرر العودة إلى أفريقية ، على الرغم من معارضة ولده ووجوه قومه ، وخرج عن غرناطة فى أهله وأمواله مستخلفًا عليها بعض شيوخ قبيلته ، ثم سعى **ابن أبى زمنين** قاضى غرناطة فى أن يعين **حبوس بن ماكسن** ابن أخى زيرى ، واليًا على غرناطة ، ويشيد **ابن حيان** ، وعاصر هذا العهد ، بخلال حبوس ، وأنه على قسوته «يصغى إلى الأدب» وينتمى فى العرب ، للأثر المقفو فى قومه صنهاجة ، وكان وقورًا حليمًا ، فظا مهيبًا ، نزر الكلام قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ، شجاعًا حسن

---

(٣) عبد الله آخر ملوك بنى زيرى : كتاب التبيان ، ونشره ليفى بروفنسال بعنوان : مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٨ وما بعدها ، دار المعارف ، سلسلة ذخائر العرب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ .

الفروسية ، جبارًا متكبرًا ، واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له فى كل ذلك أخبار مأثورة »[٤]

أصعب ما واجه أمير غرناطة أن يجد وزيرًا أول صالحا ، فى مستوى وزراء جيرانه من الأمراء ، أديبا قادرا على تحرير الرسائل التى يبعث بها الأمير فى لغة عربية راقية ، مسجوعة وذات أسلوب بليغ ، ولم يكن يثق فى قومه البربر ، فهم يعرفون جيدًا كيف يقاتلون ، ويستولون على المدن ، وينهبونها أو يحرقونها عند الضرورة ، ولكنهم عاجزون عن الكتابة فى لغة عربية فصيحة . وهو يخاف العرب ، وقد تكون لهم مصلحة فى بيعه وخداعه ، فبدأ يبحث عن بغيته فى مكان آخر ، حتى لو كان من خارج غرناطة .

وقد تذكّر أن الرسائل التى يرفعها إليه وزيره **أبو القاسم بن العريف** نقية اللغة ، عالية الأسلوب ، مصيبة الأفكار ، لا يدانيها شىء فيما يأتيه من رسائل أخرى ، وكاتبها خير من يصلح لهذه المهمة ، وحين باح بإعجابه بها للوزير صارحه هذا : إنها من عمل كاتبى ، **يهودى يدعى صمويل** .

ولما توفى ابن العريف أقام حبوس أكبر أبنائه مقامه ، وكان فى الابن صبوة لايحسن معها تحمل المسئولية ، فكر به صمويل ، ولزم خدمة الأمير وصار متى غاب ولد أبى القاسم يحضر صمويل ، فإذا سأل عنه حبوس يقول اليهودى معتذرًا فى الظاهر ، ومطالبًا فى لحن من القول : « ولد أبى القاسم ، كما ترى ، صبى يؤثر الراحة ، وأنت جدير بالإغضاء عليه ، وإقامة عذره ، وأنا عبده أنوب منابه ، فرنى بما شئت يتهيأ لك ذلك ، فلم يزل على هذا أبدا ، حتى ظهرت خدمته ، وتمكن منه » .

* * *

اسمه **صمويل هاليفى** ، وينادونه **ابن النغرلة** ويسمى فى المصادر الأندلسية **اسماعيل** ، **أو إشموال** ، **ويكنى بإبراهيم** ، وأهله من ماردة وولد فى قرطبة ، وتخصص صغيرا فى الدراسات التلمودية على يد **أبى حنوك بن موسى** الرئيس الروحى للطائفة اليهودية فى عاصمة الخلافة ، ثم توجه راغبًا إلى دراسة الأدب العربى وكل ألوان الثقافة الأخرى التى

(٤) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٤٠٤ .

كانت شائعة فى أيامه ، فدرس الفلسفة مع **أبى زكريا يحيى** بن داود ، وشمل الأستاذ تلميذه برعاية ملحوظة تجاوزت الدرس والتحصيل إلى المعاونة على مواجهة الحياة ، وتعلم من اللغات العبرية والكلدية واللاتينية إلى جانب العربية لغته الأولى ، وفى ماعدا ذلك لم يكن فى حياته العادية غير مجرد عطار فى قرطبة ، فلما اقتحمها البربر مع المستعين عام ١٠١٣م ، وأتوا على المدينة ، غادرها إلى مالقة ليمارس المهنة نفسها .

جاء حانوت **ابن النغرلة** إلى جانب قلعة يمتلكها أبو القاسم بن العريف وزير حبوس ، ومالبث أن اشتهر بين زبائنه بأنه أديب وشاعر ، وبدأ الناس ، غير المثقفين ، يترددون عليه ليكتب شكاواهم ، ويحرر لهم رسائلهم إلى الوزير أو الأمير ومع المران والاستمرار اكتسب خبرة فائقة ، فجاءت رسائله آية فى البلاغة العربية بمقاييس ذلك العصر . ولما ذهب ابن العريف إلى مالقة سأل عن الرجل الذى يكتب لمواطنيه هذه الرسائل الجميلة ، ولما عرف أنه يهودى يبيع العطارة فى حانوت متواضع ، عرض عليه أن يستخدمه كاتبًا له ، وتنبأ له بمكانة مرموقة إلى جانب الأمير نفسه ، فى مستقبل غير بعيد ، ثم صحبه معه إلى غرناطة ، ولما حانت الفرصة تحدث عنه إلى الأمير على نحوما أشرنا .

ومن المؤكد أن أمير غرناطة وجد فيه إلى جانب مواهبه الأدبية ، وقلة خطره على مستقبله الشخصى والسياسى ، أشياء أخرى ليس بأقلها قيمة مهارة اليهود فى جمع المال ، وتنظيم الضرائب ، وكثرتهم فى غرناطة ، والإفادة من المكانة الممتازة التى تتمتع بها الجالية اليهودية الكبيرة فى عالم التجارة والاقتصاد والسفارات . صحيح أن الرجل يهودى ، ولم يحدث فى أية مملكة إسلامية أخرى ، أو حتى غير إسلامية ، أن حكمها يهودى بدرجة رئيس للوزراء ، رغم أن يهودا كثيرين بلغوا مكانة اجتماعية عالية فى الدولة الإسلامية ، ونالوا حظوة أثيرة لدى حكامها ، وأصبحوا لهم بطانة ومقربين ، رغم ماطبع عليه المسلمون من تسامح على امتداد كل العصور الوسطى ، وشهرت بالتعصب الدينى . وربما يسر هذا الأمر أن جالية يهودية قوية النفوذ ، كثيرة العدد ، كانت تسكن غرناطة ، حتى أن بعض المصادر القديمة تنسبها إليهم فيقال « غرناطة اليهود » ، وفى ظل الجو السمح الذى ساد الحياة فى الأندلس لم يعيشوا بمعزل عن أهلها فى الحياة العامة ، وإن اتخذوا لهم أحياء

خاصة بهم أحيانًا ، وإن شئت الدقة كانت خاصة بالفقراء منهم ، فخلق ذلك لونًا من الود بينهم وبين بقية العناصر الأخرى ، من عرب وبربر وأندلسيين من أصل أسبانى ، دون أن يهبط هذا بالعرب عما اختاروا لأنفسهم من قمة اجتماعية ، ودون أن يرتفع باليهود إلى حيث اختار العرب أن يكونوا ، وهى منزلة ارتضتها لهم بقية العناصر الأخرى طواعية لسابقتهم فى الإسلام ، أو لدورهم فى الفتح ، أو وجدت نفسها مكرهة عليها بحكم ضواغط الحياة الاجتماعية .

كان **صمويل** رجل دولة ممتازا ، ذكيا وداهية ، معارفه واسعة ، وتجاربه متعددة ، عاقلا وهادئا ، يتحدث قليلا ، ويفكر كثيرا ، وهى صفة رائعة لدبلوماسى مقتدر ، نهّاز للفرص ، يتسرب إلى هدفه كالميكروب ، ويندس إلى أعماق الرجال خفية ، ليتعرف إلى أهوائهم ونزواتهم ويتحكم فيهم من خلالها ، مزهو بنفسه ، يظنه من يراه يتجول فى قاعات الحمراء الواسعة أنه ولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، يتكلم فى أناقة وبراعة ومداهنة ويملك قدرة فائقة على أن يكون ودودًا وآسرًا ، ملهم فى اللحظات الحرجة ، ومقنع بأفكاره دائما ، ليست له غطرسة الدخيل ، ولا عجرفة الغنى ، طيب ولطيف مع كل العالم ، ويحترم نفسه فى غير ادعاء ، ولا يخجل من أصله المتواضع ، ولا يحاول أن يخفيه ، بل كان يفتخر به ، ويواجه بسيطًا ومعطيًا المثل لمن يحاول أن يذكره به ، وكل ذلك شيء نادر بين من رفعهم الحظ ، ووضع بين أياديهم مقادير البشر (٥)

منذ اللحظة الأولى بدأ **صمويل** يتحرك على محاور متعددة : أن يكسب ثقة الأمير ، وأن يعزله عن بقية مواطنيه ، وأن ينال رضا جمهرة الناس من عرب وبربر ، جندًا ومثقفين ، وأخيرًا ، وأولا إذا شئت ، أن يمكن لليهود فى الدولة الجديدة .

ولكى يحقق غايته مع عامة المواطنين لم يكن يبادر أحدًا بشر ، ويلقى السوءة ببسمة ، ويمثل دور العطوف فى مقابل قسوة الأمير ، يحكى المؤرخون - مثلا - أنه تعود ان يمر صحبة الأمير أمام صاحب حانوت قريب من القصر ، فكان العطار يشبع صمويل شتائم

---

(٥) Jose Amador de los Rios: Historia Social, Politica y religiosa de los Judios de Espana y Portugal, P 117 ss . madrid 1960.

وسبابا ، فغضب الأمير من هذه الجرأة ، وأمر صمويل أن يعاقبه بقطع لسانه ، ولكن الوزير اليهودى لم ينفذ أمر الأمير ، ولا فكر فى ذلك ، وطلب من رجاله أن يوافوه بتقرير عن حالة العطار ، فلما جاءه تبين له أن التاجر يتعثر فى حياته الاقتصادية ، تطوقه الديون وعلى وشك الإفلاس ، فأرسل له مبلغًا كبيرًا من المال ليواجه مشكلاته ، ويتخلص من ديونه ، ويعاود تجارته مطمئنًا ، وبعد قليل مر الأمير . وبصحبته صمويل كالعادة ، بباب العطار ، فأغرقه هذا بالدعوات الطيبات وعجب الأمير ، وغضب من وزيره : ألم أقل لك اقطع لسانه ، فلماذا لم تنفذ أمرى ؟! . وأجاب صمويل : لقد نفذته يامولاى ، لقد قطعت لسانه الشرير ، ووضعت له مكانه لسانًا طيبًا .

غير أن أوضح مافى حياته السياسية والأدبية إعلانه صراحة أنه حامى اليهود ، وعلى نحوما اتجه اليهود قديما إلى مصر ، ليجدوا الأمن والرعاية فى ظل يوسف وزير فرعون بدأت قوافل يهود الأندلس تتجه نحو غرناطة ، وبخاصة بعد هجوم البربر على قرطبة وتخريبها عام ١٠١٣م ، فأحسن استقبالهم ولم يقف بجهده عند تيسير ضروريات الحياة لهم ، وإنما يتعهد أبناءهم ، وبخاصة الفقراء منهم ، تعليما وتربية ، وبدأ بهم نهضة ثقافية عبرية واسعة ، « وكان عنده من العلم بشريعة اليهود والمعرفة بالانتصار لها والذب عنها مالم يكن عند أحد من أهل الأندلس » (٦) وقد حرر أكثر من عشرين مؤلفًا تتصل بنحو اللغة العبرية فحسب ، وله رسالة رد فيها على **أبى مروان بن جناح** اليهودى فى كتابه نحو اللغة العبرية ، وكان شاعرا فى العبرية يتكئ فى معانى قصائده على « نشيد الأنشاد » والمزامير ، والأمثال ، والجامعة . وغيرها من أسفار التوراة (٧) . ومتأثرًا بطريقة **الحكم الثانى** فى قرطبة كان فى خدمته نساخ كثيرون ينسخون له التلمود والمشنا ، ويهديها إلى تلاميذه الذين لا يستطيعون شراءها ، بل ويرسلها إلى الراغبين من اليهود فى بقية مدن الأندلس ، أو خارجها فى شمال أفريقيا وصقلية وبيت المقدس وبغداد والقاهرة . وأدى هذا بداهة إلى تأصيل الدراسات العبرية فى الأندلس ، ورفع المستوى الثقافى ليهود غرناطة ، وبالتالى

---

(٦) صاعد القاضى الطليطلى : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ ، طبعة القاهرة .

(٧) Alegandro Diez Macho: Mose Ibn Ezra, P. 143 Barcelona 1953.

جعلهم أكثر إعدادًا لتولى الوظائف العامة بكفاءة . واستخدم سلطانه الواسع فعلا فى التمكين لهم فى كثير من الشئون الإدارية والمالية ، فاكتسبوا الجاه فى أيامه واستطالوا على المسلمين [٨] ، وبلغ الأمر أن عين الشاعر **موسى بن عزرا** على خطة الشرطة ، أو المسئول عن الأمن بلغتنا المعاصرة ، وهى أهم الخطط وأخطرها فى الأندلس ، ومن ثم فإن يهود غرناطة أرادوا أن يبرهنوا على امتنانهم وعرفانهم ، فقلدوه عام ١٠٢٧م رتبة الناجد Ha – Nagid ، أى رئيس اليهود أو أميرهم فى غرناطة [٩]

توفى **حبوس** عام ١٠٣٨م ، بعد أن سار بين قومه بأجمل سيرة ، وأعدل طريقة ، وصرف أحكامه أجمع إلى قضاة البلاد ، وتعفف عن كل شىء ، وجمدت يده عن الحرام والأموال ، فأحبه الناس ، وأمنت معه السبل ، وقل الفساد ، وارتفع الجور [١٠] .

مات **حبوس** وترك ولدين ، **أكبرهما باديس** ، **والأصغر يدعى بلقين** ، وقد مال بعض البربر وجانب كبير من اليهود إلى هذا الأخير ، على حين آثر العرب ، وجانب من اليهود بينهم صمويل ، الأبن الأكبر ، وأوشكت غرناطة أن تواجه حربًا أهلية ، فاستخدم صمويل كل ذكائه ومواهبه لكى يجعل بلقين يتنازل عن المطالبة بالعرش راضيا ، وعلانية ، وتقدم فحلف يمين الولاء لأخيه ، وسار أتباعه على خطاه . وفتح هذا النصر طريقه إلى قلب باديس منذ اللحظة الأولى ، واحتل منه مكانة ونفوذًا أكبر مما كان له إلى جوار أبيه .

كانت بداية **باديس** فى أعوامه الأولى مشجعة ، عدلا ورفقا وتحببًا إلى المواطنين ، ثم أخذ يزداد مع الأيام قساوة وغدرًا وحبًا للدماء ، وإسرافًا فى السكر ، لا يكاد يفيق منه ، وبدأ الناس يشكون ويتهامسون ، وأخيرا بدأوا يتآمرون ، وكلما اكتشف مؤامرة وأطاح برؤوس أصحابها ازداد ضعفا أمام صمويل . واختلت أعصابه ، فأصبح يهيج بلاسبب ،

---

(٨) ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ١ ص ٤٤٦ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ .

(٩) دوزى ، تاريخ مسلمى الأندلس ، المجلد الثانى ، الجزء الرابع ، الصفحة ٣٠٥ ، الترجمة الأسبانية ، الطبعة الأولى ، بونس ايرس ١٩٤٦ .

(١٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٥ .

يشق أثوابه ، ويهجر شرابه ، ويجفو ملاذه ، ويتصور الرعية توشك أن تنقض عليه ، فيقرر أن يفتك بها أولا ، واختار أن يكون ذلك فى يوم جمعة ، وأسر بالأمر إلى وزيره صمويل ، فنهاه عن ذلك وخطأ رأيه ، « وسأله الأناة ومحض الروية ، وقال له : هبك وصلت إلى إرادتك ممن بحضرتك ، على مافى استباحتهم من الخطر ، فأنى تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك وبسائط أعمالك ؟ أتراهم يطمئنون إلى الذهول عن مصائبهم ، والاستقرار فى موضعهم ؟ ما أراهم إلا سيوفًا ينتظمون عليك فى جموع ، يغرقونك فى لججها أنت وجندك » (١١)

ولكن هذه الكلمات بكل ما فيها من فطنة لم تؤد إلى أية نتيجة فى تفكير باديس ، وطلب من الوزير أن يحتفظ بالأمر سرا ، وأعطى الأوامر بتنفيذ الخطة فى يوم الجمعة ، وفى ذلك اليوم كان على الجنود أن يجتمعوا بكل أسلحتهم ، بحجة القيام بعرض عسكرى .

ولكن صمويل لم يسكت أمام هول المأساة ، كان يعرف أنها ستعصف بباديس ، وستنهى نفوذه ، إن لم تطح برأسه ، على أقل تقدير ، فدس « نسوانًا إلى معارف لهن من زعماء المسلمين بغرناطة ، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم ويأمرهم بإخفاء أنفسهم ، وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة ، ولم يأته إلا نفر من عامتهم ، اقتدوا بمن أتاه من مشيخة البربر وأغفال القادمين . وجاء الخبر إلى باديس ، والجيش فى السلاح حول قصره ، فساءه وفت فى عضده ، ولم يداخله شك فى أن سره قد ظهر ، وأنكر صمويل التهمة ورد : من ينكر على الناس الحذر ، وأنت عبأت كل جيشك ، ولست على سفر ، ولاعدو وثب إليك ، ومن هنا حدّس القوم أنك تريدهم . فأعد نظرك ياسيدى وأشكر الله بدل أن تغضب ، لأنهم عرفوا نيتك ولم يثوروا . فخذ الأمر بنفس هادئة ، وسيجىء اليوم الذى تعرف فيه أن الحق كان معى ، فتحمد رأيى ، وعاقبة نصحى ، ولم يقتنع باديس بما قال وزيره ، ثم طابت نفسه بعد لأى حين سمع الرأى نفسه من شيخ بربرى (١٢) .

وحدث ماجعل **باديس** يصبح أسير إرادة **صمويل** . فقد اتفق جماعة على قتل باديس

---

(١١) الإحاطة ، جـ١ ص ٤٤٥ .

(١٢) المصدر السابق ص ٤٤٦ .

وإقامه **يدير بن حباسة** مكانه ، وأشركوا **صمويل** معهم فى الأمر ، فقبل فكرتهم ، واجتمعوا فى منزله ، « وتقدم إلى باديس وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال له : « ليس الخبر كالعيان ، اسمع بأذنك ، وع بقلبك ؟» ، وهو بموضع مرتفع على البيت الذى يرومون عملهم فيه ، وأبو إبراهيم فى ذلك كلّه يقول عند محاورتهم كالمخاطب للبارئ : « يامن يَرى ولا يُرى » ! ، وهو يعنى بذلك باديس الذى يراهم ولا يرونه » [١٣] .

رأى باديس فى صمويل عوضًا عن بنى عمه ، ذميًا لا تشره نفسه إلى ولاية ، ولا يتداخل مع أمراء آخرين حوله ، ثم استغنى به فى طلب الأموال ، فأحكم جمعها من الجباة ، وقسا فى حسابهم ، وكان يرى أن بيت المال ، وإقامة أود الدولة أولى بها منهم ، وحين **مات صمويل** عام ١٠٥٥ كانت غرناطة من كبريات دول الطوائف وأقواها . وقد حزنت عليه الجالية اليهودية حزنًا عميقا ، ورأت فى ذهابه بداية متاعب تبرق فى قادم حياتهم . كان صمويل شيئًا كبيرًا بالنسبة لهم جميعا ، على غير خلاف بينهم . وكان للآخرين إنسانًا يمكن التفاهم معه فى لحظات الشدة ، وما كان أكثرها فى دول تلك الأيام ! ، ويصفه المؤرخ الجليل **ابن حيان** ، وكان معاصرًا له : « وكان هذا اللعين فى ذاته ، على مازوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علمًا وحلمًا وفهما ، وذكاء ودماثه وركانة ودهاء ، ومكرًا وملكًا لنفسه ، وبسطًا من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومداراة لعدوه ، وإسلالا لحقودهم بحلمه ، ناهيك من رجل كتب بالقلمين ، واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربى ، ونظر فيه ، وقرأ كتبه ، وطالع أصوله ، فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربى ، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتزكية لدين الإسلام ، وذكر فضائله مايريده ، ولايقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام »[١٤]

* * *

خلف صمويل ابنه **يوسف** ، وأعده ليكون وزيرًا من بعده ، لباديس أو لمن يخلفه ،

---

(١٣) مذكرات الأمير عبد الله : ص ٣١ .

(١٤) الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٤٦ .

فأحسن تربيته ، وحمله على مطالعة الكتب وجمع إليه المعلمين والأدباء ، يعلمونه ويدارسونه . وأعلقه بصناعة الكتابة ، وشغل فى حياة والده مكانه فى المدرسة العبرية التى أنشأها يدرِّس التلمود ، وكان إلى جانب ذلك جميل الوجه ، حاد الذهن ، « لم يعرف ذل اليهودية ولاقدر الذمة » (١٥) ، ويزيد ابن ابسام ، فى كتابه الذخيرة وشهد أحداث العصر ، ما يمس أخلاقه الخاصة فيقول عنه : إنه كان « غلامًا وضيا ، ومركبا - زعموا - وطيا ، وكان لمن اعتنى يومئذ بالغلمان فتنة . حتى كان يقال إنه وإنه » ، ويصفه فى مكان آخر صراحة بأنه كان « مأبونا » (١٦) ، ولم يرد الخبر فى مصادر أخرى . فيما أعرف ، غير أن ابن حزم وشهر بالموضوعية ، وبالشجاعة العقلية فى ايراد الأخبار ، ولعله نقله عن ابن حيان المؤرخ ، ولم يكن يتردد فى ذكر أية معايب ، يذكرها صراحة دون مواربة ، وفى جرأة دون تردد (١٧) .

وقد اصطنع لنفسه و« لم يعرف ذل اليهود ولا قدر الذمة »(١٨) ، كل ماعرف من الترف على أيامه ، فكسف أبهة الأمير وأخمل أمجاد صنهاجة ، فإذا مضى إلى جانب باديس لم يفرق الناس بين الرئيس والمرءوس ولم يعرفوا الأمير من الوزير (١٩) .

والحق أن باديس مال فى البدء إلى **على بن القروى** ، وقال له : التزم خدمة مملكتنا فأنت أحق بها . فأبى ذلك **على** ، وأكد عليه يوسف بن صمويل فأطباه بالأموال الجسيمة ، واسترضاه بالكلام المعسول ، يقول له : « ليس أرغب إلا أن أكون عبدك وتربيتك ، ولك الأمر ، وأنا كاتب بين يديك ، وأقوم بنفقتك كلها ، ولو كان أهلك عدد الحصى » ، فطمع علىّ فى قوله ، وكلم السلطان فى ذلك ، وقال له : « إن أبقيت على ولد أبى إبراهيم ناصحك ، فأرجو ذلك لولدى من بعدى ، وأنا المشرف عليه » ففعل

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

(١٦) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ٢٦٩ .

(١٧) لمعرفة قيمة كتاب الذخيرة ومصادره ، انظر . د . الطاهر أحمد مكى ، دراسة فى مصادر الأدب ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣ .

(١٨) الإحاطة ، جـ١ ص ٤٤٧ .

(١٩) الذخيرة ، ص ٢٧٠ .

السلطان ما قال ، وقدمه على العمال والجبايات .

وأظهر **يوسف** للسلطان نصائح كثيرة حظى بها عنده . وتبرمك على علىّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس مالم يسأل به عن علىّ ولا عن أحد من خلق الله . وكان فيما قال للأمير : « إن الذى يأخذ علىّ أنت أولى به . والرجل كثير الأولاد والضعف ، ويذهب مالك إن لم تحمنى وتعضدنى ، وهو متى تملأ طمع فى ملكك . وأنا رجل ذمى لاهمة لى إلا خدمتك ، وجمع الدراهم لبيت مالك » . فوثق الرئيس بقوله ، وقاس عليه بعقله ، ومنع منه عليًّا وجميع الناس (٢٠) .

وشيئًا فشيئًا تمكن **يوسف** من باديس تمامًا ، وأعانه عليه أن السن تقدمت به ، واشتغل بالشرب أكثر الوقت ، لا يكاد يصحو من سكر ، ودس عليه يوسف عيونه فى قصره ، من نساء وفتيان ، غمرهم بإحسانه ، فهم يحصون على الأمير حركاته ، وخفقات قلبه ، ينقلونها إليه (٢١) .

كان يوسف يفتقد، رغم ذكائه، الكثير من صفات أبيه، لا يعرف كيف يصطنع الناس حوله ، متغطرس مزهو ، أساء إلى مواطنيه جميعًا من العرب والبربر ، وحتى إلى عقلاء اليهود أنفسهم ، وأغرى بهم الأمير يصادر أموالهم أو يشتريها بثمن بخس ، ووضع اليهود فى كل المراكز الاقتصادية الكبرى والهامة ، من الأشراف على جباية الضرائب ، والتصدير والاستيراد ، وتنمية ثروات الأمير ، وفى البلاط ، ووجدها هؤلاء فرصة سنحت لكى يجمعوا الأموال ، ويبتنوا العقار ، دون أن يراعوا فى صنعها عدلا ولا ذمة ، فلما رأى وزراء الدولة ، وابنا القروى تمكّن اليهودى عند السلطان ، وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، وأجمع رأيهم على الحيلولة بين الأمير واليهودى ، فتحدثوا إلى **بلقين بن باديس** وكانوا ندماءه لا يفارقونه ، وقالوا له : إن الأموال التى يغنم اليهودى ويستأثر بها ، أنت أحق بها وأولى وقد أخملك وأخمل الدولة أجمع . ولو أنك قتلته لم يقل لك أبوك شيئًا فى ذلك وما عسى أن يصنع بابنه ؟ وسعوا بالوشاية بين بلقين بن

---

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٣٧ و ٣٨ .

(٢١) الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .

باديس وبين يوسف ، وكان بلقين غرا قليل التجارب ، فقرر أن يقتل يوسف ، وتحدث بذلك لمن حوله ، دون أن يسارع بالأمر ولا تكتم بغيته ، وأدرك اليهودى تغير بلقين عليه ، رغم ما كان يظهر من المودة ومن تردده على داره ومشاطرته الشراب ، فقرر أن يتخلص منه ، وذات يوم دعاه مع خاصته وصحبه إلى مجلس شراب حافل ودس له السم فى الكأس ، ولم يخرج عنه حتى قذف كل مافى جوفه ، واستلقى على الأرض ، ولم يستطع المشى إلى منزله إلا عن مشقة ، ولبث يومين يجود بنفسه حتى مات [٢٢] . وفزع باديس لمهلك ولده . ولكن يوسف أقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل باديس منهم عدة وفر الباقون [٢٣] .

وبينما خاصة المجتمع يتململون من سيطرة اليهود على مرافق الدولة ، وأعيان الناس ، أو الطبقة الوسطى فى لغتنا الحديثة ، ضائقون بالضرائب ومن وجود يهودى على رأس الحكومة ، وعامة الناس يتعرضون لأقسى المظالم من كل جانب ، طمحت آمال **يوسف** إلى ماهو أكثر من قدرته ، فقرر أن يتخلى عن **باديس** ، وأن يسلم الإمارة لجاره **ابن صمادح أمير المرية** ، ثم تكون له مع هذا جولة يخلص فيها منه ، لتخلص له غرناطة مملكة مستقلة خالصة لليهود وحدهم . وبدأ الناس يتهامسون سرًا وفى صوت خفيض بأحلام الوزير ، خوفًا من بطشة ، وطلبًا للسلامة ، وأخيرا وقع يوسف فى الخطأ القاتل الذى أدناه من نهايته ، حين اقتحم على عامة المسلمين مشاعرهم الدينية ، فبدأ أولا يطعن فى كل الملل والأديان ، يمس اليهودية فى رفق ، ويتجاوزها عجلا ليركز مطاعنه فى الإسلام ، يسخر من مبادئه ، ويزعم أنه قادر على أن يجىء بقرآن مثله ، وقد تصدى له ابن حزم العظيم فى رسالة أتى فيها على كل ترهاته [٢٤]

---

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٤١ .

(٢٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٣ ص ٢٦٥ .

(٢٤) انظر : الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ٩٨ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

ومع هذه الوقعة كان الألم والغيظ والرغبة فى والثأر تضطرم فى نفوس الناس كافة . وفى انتظار من يشعل الثقاب .

وجاء من يشعله !

يمكن القول أن غرناطة تحت حكم بنى زيرى كانت أفريقية أكثر منها أندلسية ، تشبه أن تكون جزيرة بربرية تطوقها بحار من الإمارات العربية . مدينة جافية لمّا تنضج ، أبعد ماتكون عما ستصبح عليه حين ينتهى بها المآل أخيرا إلى أيدى العرب ، ولقد برهن العالم الإسبانى المتخصص فى الآثار طريس بلباس Torrés Balbâs على غيبة الفن التشكيلى والمعمار فى المدينة لأن صغار ملوك البربر وهم جبناء وبخلاء ، لم يشيدوا غير سور متين باق حتى أيامنا هذه ، كهيكل عظمى للمدينة ، وآثروا أن يكدسوا الأموال التى استولى عليها المرابطون فيما بعد .

وامتد الجدب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفى بلد يرتوى بالشعر ، ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة على امتداد القرن الحادى عشر خارج المهابط التى يتردد عليها الشعراء ، ولم يحدث أبدا أن أيا من كبار الشعراء خارجها فكر أن يرتحل إليها ، ليمدح عبثًا أمراءها البربر ، أو وزراءها اليهود ، وأما الشعراء الذين فيها فكان عليهم أما أن يخضعوا أو يرحلوا .

كان **المنفتل** ، أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة ، رأس الاتجاه الأول ، فوقف شعره على مدح **صمويل** ، وابنه من بعده . وغالى فى مديحه . فارتفع بهما إلى مرتبة الأنبياء . وفضل بهما موسى نفسه ، وجعلهما أكرم الناس شرقًا وغربًا . وأنه بينهم على دينهم . فإذا التقى مع قومه آمن به سرًا :

ومن يكُ موسى منهمُ ثم صنْوه	فقل فيهمُ ماشئتَ لم تبلغ العُشْرا
فكم لهم فى الأرض من آية تُرى	وكم لهم فى الناس من نعمة تترى
أجامعَ شَمْل المجدِ وهو مشتَّتٌ	ومطلقَ شخص الجود وهو من الأسرى
فضَلتَ كرام الناس شرْقا ومغربا	كما فضل العقيانُ بالخطر القطرا

فضَلتَ كرام الناس شرْقا ومغربا   كما فضل العقيان بالخطر القطرا
وقد فزتَ بالدنيا ونلتَ بك المنى   وأطمعُ أنْ ألقى بك الفوز فى الأخرى
أدينُ بدين السبت جهرًا لديكمْ   وإنْ كنتُ فى قومى أدينُ به سرًّا
وقد كان موسى خائفًا مترقبًّا   فقيرًا وأمنتَ المخافة والفقرا

والقليل من شعره الذى أورده ابن بسام - فى كتابه « **الذخيرة** » . فى غير مدح صمويل وابنه ، يومىء إلى شاعرية جيدة مقتدرة ، متفننة . ذات جوانب متعددة . ولكن المؤرخين عقابًا له ، واستصغارًا لشأنه . أهملوا الإشارة إليه إلا عرضًا . واكتفوا من شعره بالقليل . يقول ابن بسام ، معلقًا على بعض شعره : « وهذا القصيد اندرج له من الغلو فيه . مالا أثبته ولا أرويه . وأبعد الله المنفتل . فيما نظم فيه وفصل . وقبحه وقبح ما أمّل » [٢٥]

وكان **السميسر** خلف بن فرج الإلبيرى . يمثل الاتجاه الثانى خير تمثيل . والحق أن هذا الشاعر « كان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره » ، وله من زمنه موقف رافض . حين رأى اختلال القيم ، وزهوة الباطل . وغلبة الصغار . وعجزه عن التغيير . فأدار ظهره لكل ماحوله ، وجاء شعره رافضًا بكل ماتعنيه الكلمة فى عصرنا الحديث . سخر مما يعظم الناس ، وهجا من يمدحون . واحتقر ما يكبرون ، وجاء هجوه لهم مفحشًا ونقده قاسيًا . فأهمله المؤرخون خوفًا ممن هجاهم . يقول ابن بسام مشيرا إلى مذهبه هذا « وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره . من القدح فى أهل عصره . صنت الكتاب عن ذكره » [٢٦] .

كان داعية ثورة حين استطاب الناس المتع واللذاذة . وخلدوا إلى الدعة والراحة . وآثروا الأمن والسلامة . غيره يمدح الملوك وهو يصرخ بأعلى صوته :

نادِ الملوكَ وقلْ لهم   ماذا الذى أحدثتمُ
أسلمتمُ الإسلامَ فى   أسرِ العدا وقعدتمُ
وجبَ القيامُ عليكمُ   إذ بالنصارى قمتمُ

---

(٢٥) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ٢٦٦

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٣٧٢ .

لا تنكروا شق العصا فعصا النبي شققتم

وبقي في غرناطة موزع القلب والعقل ، بين ما يؤمن به وما يرى تحت بصره ، بين ما يريد أن يفعل وبين قلة حيلته ، وتخيل كل من يعرفونه يسألون عن السبب :

قالوا أتسكنُ بلدة نفسُ العزيز بها تهون !
فأجبتهم بتأوه كيف الخلاصُ بما يكون !
غرناطةٌ مثوى الجنين يَلَذُّ ظُلمَتَهُ الجنين

ثم استجمع أمره ، وقال كلمته في حكام غرناطة ، ساخرة قاسية ، بسيطة موجعة :

رأيتُ آدمَ في نومي فقلت له : أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسلٌ منك قال : إذًا حواءُ طالقةٌ إنْ صح ما زعموا

قالها ، وخلّف غرناطة وراءه ، هاجر إلى حيث لا يرى وزيرًا يهوديا يتحكم في مصائر قومه .

الشاعر الوحيد ذو الأهمية في غرناطة بني زيري لم يكن بالطبيعة شاعرًا يتغنى بالحب ، أو الخمر ، أو بالترف المصقول ، كما عند بقية ملوك الطوائف ، بل ولا شاعر بلاط مداحًا ، وإنما كان صدى لواقع المدينة ، كان شاعر المعارضة والزهد والسياسة ومناهضة نفوذ اليهود ، ذلك الشاعر هو : أبو إسحاق الإلبيري[٢٧] .

اسمه كاملا : **إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ، ولقبه الإلبيري ، وكنيته أبو إسحاق**

صمت المؤرخون بعامة ، لسبب غير واضح ، عن أبي إسحاق ، ولا نجد له ذكرًا إلا في أربعة مصادر ، رغم أنه أحدث ثورة بالغة الأثر على ما سنعرف . ترجم له **القاضي عياض** ، المتوفى عام ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م ، في نهاية كتابه « **ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك** » . وخصه **الضبي** ، المتوفى عام ٥٩٩ - ١٢٠٢ م ، بأقل من سطرين . في كتابه « **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** » ، ذكر فيها

---

(٢٧) اميليو غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، ص ٩٢ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

اسمه ، وأنه : « فقيه فاضل زاهد عارف كثير الشعر فى ذم الدنيا ، مجيد فى ذلك » .

وترجم له **ابن الأبار**، المتوفى عام ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م ، فى كتابه « **تكملة الصلة** » .

ونعرف أن **ابن الزبير**، المتوفى عام ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م ، ترجم له فى مؤلفه « **صلة الصلة** » ، ولكن المخطوطة الوحيدة التى نعرفها لهذا الكتاب ، والتى نشرها ليفى بروفنسال فى الرباط عام ١٩٣٨ م ، مبتورة من الأول ، ولا يضم محتواها الترجمة المتصلة بشاعرنا ، والتى يجب أن تكون فى بدء الكتاب . أما **المقرى التلمسانى** ، المتوفى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، فأشار إليه ، فى موسوعته الكبيرة « **نفح الطيب** » ، فى ستة مواطن ، أورد له فيها أبياتًا منقولة عن ديوانه ، وبعض منها لم يرد فى مخطوطة الديوان الوحيد التى بين أيدينا ، والتى توجد فى مكتبة الإسكوريال ، وقد نشرها **إميليو غرسية غومث** فى مدريد عام ١٩٤٤ م ، وجاء المقرّى بخبر وحيد قصير حول قصيدة أبى إسحاق المتصلة باليهود ، ثم أورد أبياتا منها .

لا نعرف تاريخ مولد أبى إسحاق ، ولكننا نعرف أنه توفى قريبًا من نهاية عام ٤٥٩ هـ - ١٠٦٧ م ، وأنه عاش باعترافه حياة تجاوزت الستين عامًا بكثير :

فقد وفَّيتُها ستين حَوْلا ونادتنى ورائى هل أمامُ

وفى ضوء ذلك نستطيع أن نفترض أنه جاء إلى الحياة مع نهاية القرن العاشر الميلادى ، فى أسرة عربية عريقة تنتمى إلى قبيلة تجيب المشهورة ، ومن الواضح أن نسبته إلى إلبيرة تعنى أنه ولد فيها .

ويقص علينا مترجموه أن له شيوخًا كثيرين ، ولكنهم لا يذكرون من بينهم إلا واحدًا : **ابن أبى زمنين** ، أبو عبد الله بن محمد ، قاضى غرناطة الشهير ، المتوفى ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م ، ونبغ فى دراسة الفقه ، وألف مدونته وعرف بتصانيفه فى الوعظ والزهد وأخبار الصالحين ، وكان يقول شعرًا يغلب عليه طابع التديّن وشىء من التشاؤم[٢٨] . وسنرى فيما بعد أن الطالب كان معجبًا بأستاذه فروى عنه كتبه ، واحتذى منهجه فى أشعاره .

(٢٨) Angel Gonzales Palencia: Historia de la literatura arabigo espanola, P. 61.

ويغلب على الظن أن أبا إسحاق ترك إلبيرة إلى غرناطة عاصمة بني زيرى الجديدة ، بعد أن تهدمت الأولى ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، خلال القتال الذى دار بين الصنهاجيين وأعدائهم ، وأنه شهد انسحاب **زاوى بن زيرى** إلى أفريقية ، ورأى شيخه ابن أبى زمنين ، زعيم البلدة وكبير فقهائها يلعب دوراً هاماً فى هذه الأحداث ، فكان فى وداع زاوى حين ركب البحر من ثغر المنكب فى طريقه إلى القيروان ، وبمبادرة منه وضغط تولى حبوس الإمارة مكانه[٢٩] .

وعمل **أبو إسحاق** فيما بعد كاتباً **لأبى الحسن بن توبة** قاضى غرناطة ، وكان قد عينه فى هذا المنصب باديس بن حبوس ، بعد أن تولى العرش فى عام ٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م ، ونال بوصفه قاضياً ومصلحاً ومعمراً شهرة واسعة فى غرناطة ، فأنشأ منبر المسجد الجامع فى المدينة ، والمسجد المتصل بالقبلة ، وجسراً على نهر الدارو لا تزال أطلاله باقية حتى اليوم ، ويحمل اسم قنطرة القاضى ، وأمر بضرب شاعر يدعى أبا بكر بن الحاج ، والطواف به فى الأسواق لأنه اجترأ على هجاء ابن توبة ، وجماعة من الفقهاء . ونعرف من مقطوعة فى الديوان أن أبا إسحاق رافق ابن توبة فى مهمة إلى المرية ، لدى أبى جعفر ، أحمد بن عباس بن أبى زكريا الأنصارى ، وزير زهير العامرى ، وتمت الرحلة فى نفس العام الذى تولى فيه باديس العرش ، لأنه سوف يقتل جعفراً هذا بيده ، بعد شهور من توليه[٣٠] . وقد مدح أبو إسحاق رئيسه بقصيدتين ، إحداهما أكيدا ، والأخرى ظنا راجحاً ، ولم يمدح أحداً غيره[٣١] .

كان أبو إسحاق يعمل كاتباً للقاضى ، ولا ينبغى أن نفهم من كلمة كاتب ما يفهم منها فى عالم الإدارة اليوم ، لأنها تتسع لما هو أكثر من تسجيل أحكام القاضى ، فهو - إذا شئت - شريكه فى الرأى ، وأمينه ومساعده . ونائبه إذا تخلف أو غاب . ويقوم فى الوقت ذاته بتدريس مؤلفات شيخه ابن أبى زمنين . ورواية شعره نفسه . وكان حريصاً

---

(٢٩) الاحاطة ، جـ١ ص ٤٨٤ .

(٣٠) الاحاطة ، جـ١ ص ٢٦٨ .

(٣١) جاءت الأولى تحت رقم ٢٢ ، والثانية تحت رقم ٢٨ ، فى ديوانه العربى نشره غرسية غومث .

على التدريس لأنه المجال الوحيد الذى يستطيع فيه أن يلتقى بناشئة غرناطة ، وأن يتحدث إليهم عن المظالم حولهم ، وعن طغيان اليهود فى كل ناحية ، دون هجوم مباشر يثير حفيظتهم ، أو يغرى به الوزير . وكان بحكم مهنته فقيهًا ، ولانتمائه إلى أسرة عربية عريقة غير راض عن سيطرتهم على الحياة السياسية والاقتصادية ، وهى مشاعر من المؤكد أنها اجتاحت أعماقه شابًا ، وأخفاها زمنًا ، دون أن يتوقف عن إثارة الذين حوله ، والإعداد للثورة ، وتغيير الأوضاع الجائرة . ووجد فى رئيسه ابن توبة القاضى حماية وكبحا ، وفى صمويل الوزير إغضاء وحلما ، فلما توفى الأول فى ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، والثانى فى ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦ م ، واجه جامحا ووحيدًا الوزير اليهودى الجديد ، ولم يكن على شىء من مداراة أبيه ، وفاضت بأبى إسحاق مشاعره فنفاه باديس بضغط من وزيره اليهودى خارج غرناطة ، فتركها واستقر فى ضواحى مدينة إلبيرة الخربة ، فى زاوية تسمى رابطة العُقاب ، وهناك نظم قصيدتين ، مطلع الأولى :

ألفتُ العُقاب حذار العِقابْ وعفتُ الموارد خوْف الذئاب

ومطلع القصيدة الثانية :

ألا حيِّ العُقاب وقاطنيه وقلْ أهلاً به وبزائريه

ويبدو أنه أمل فى رفاقه من الفقهاء خيرًا ، من الانتصار له ، ورفع الغبن عنه ، والسعى لعودته ، ولكن أمله فيهم لم يصدق . ونفهم من شعره أن موقفهم منه لم يكن سلبيًا فحسب ، وإنما بينهم – ولعلهم الأكثرية – من تقرّب بإيذائه ، وجارى أعداءه ، ودس عليه عند الحاكمين . ويعبر أبو إسحاق عن ألمه من هذا الموقف ، فى بيت من الشعر ينضح مرارة :

وكمْ ذئبٍ يجاوره ولكنْ رأيتُ الذئبَ أسلم من فقيه

وتوالت الأحداث سراعا ، وفارق أبو إسحاق إلبيرة إلى غرناطة العاصمة فى تاريخ نجهله ، ووجدها فى قمة الغليان والاضطراب ، فالعرب والبربر فى استياء بالغ من يوسف ابن صمويل ، وينسبون إليه أقسى النوايا رعبًا ، وهو بحماقاته يدفعهم إلى المزيد من الكراهية والتطرف وكان وقود الثورة معدًا ، وفى حاجة إلى من يشعل النار فحسب ،

وأشعلها أبو إسحاق بقصيدة عظيمة ، دخلت ، ودخل معها ، التاريخ من أوسع الأبواب ! .

لا يعرف العالم العربى أبا اسحاق إلا قليلا ، والقلة التى تعرفه تراه شاعرًا زاهدًا فحسب ، ولكن شهرته العالمية تعود فى المقام الأول إلى قصيدته التى توجه بها إلى بربر صنهاجة ، يحرضهم على **يوسف بن صمويل** ، وزير **باديس بن حبوس** . « والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا فى القليل النادر أن أبياتًا من الشعر لعبت دورًا سياسيًا مباشرًا فى التاريخ السياسى لأمة من الأمم ، فكهربت العزائم ، ودفعت بها فى سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف إلى القتل ، كالدور الذى لعبته هذه القصيدة »(٣٢) .

توجه أبو إسحاق بقصيدته إلى كل القوى التى يتكون منها المجتمع الغرناطى: بربر صنهاجة ، والأمير وهو منهم ، ورئيسهم كقبيلة فى الوقت نفسه ، وجنود الجيش وهم من بربر أفريقية ، ثم عامة المسلمين من بقية الأجناس الأخرى ، وقد آثر فى البدء أن يتحدث إلى القبيلة ، فالبربر حانقون على اليهود فعلا ، وبقليل من المديح لهم ، وبسط ما كان عليه اليهود وما انتهى إليه حالهم ، سوف يصبحون من الثائرين .

وهو يتحدث إليهم من القلب ، فى لغة متواضعة ، ونغم هادىء ، وإرادة مخلصة ، ويشهدهم جميعًا ، وهم الأجواد الشجعان ، على أن سيدهم ، أمير غرناطة ، ارتكب خطأ فادحًا : تخير وزيره كافرًا ، ولم يكرهه أحد على ذلك ، وفى المسلمين أكفاء لهذا المنصب ، ويمكن أن يركن إلى واحد منهم ، وقد أدى موقفه هذا إلى اعتزاز اليهود وزهوهم ، ومعه حققوا كل مآربهم ، وأكثر مما أملوا ، ولم يكن ذلك لمهارة فيهم ، وإنما لغفلة من المسلمين :

ألا قُلْ لصنهاجةَ أجمعينْ بدور الندىّ وأُسْدِ العرينْ
لقد زلّ سيدكم زلّةً تقرّ بها أعينُ الشامتين

(٣٢) غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص١٣٤ ، الطبعة الثالثة ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

تخيَّــرَ كــاتبَــه كــافـرًا ولو شاءَ كان من المسلمين
فعزَّ اليهودُ به وانتخوا وتاهُوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهمْ وجازوا المدى فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلمٍ فاضل قانتٍ لأرذل قردٍ من المشركين
وما كان ذاك من سَعيهم ولكنّ منّا يقوم المعين

ويسأل عامة البربر منكرًا : أما كان خيرًا له أن يعاملهم على نحو ما كان يعاملهم خيرة الأمراء قبله ، فيعود بهم حيث يستأهلون أن يكونوا : باعة جوالين ، عليهم صغار وذلة ، وحول المزابل يبحثون عن بقايا خرق يصنعون منها أكفانا لموتاهم ، ساعتها لن يستخفوا بالصالحين من المسلمين ، ولن يطاولوا أعيان القوم راجلين أو جالسين :

فهلّا اقتدى فيهمُ بالأُلَى من القادةِ الخيرةِ المتقينْ
وأنـزلهم حيثُ يستأهلـو ن وردّهم أسفلَ السافلين
وطـافوا لـديـنـا بأخراجهم عليهم صغارٌ وذلٌ وهون
وقمّوا المزابلَ عن خرقة مـلـوّنـة لـدثـارِ الـدفين
ولم يسـتـخـفـوا بـأعلامـنـا ولم يستطيلوا على الصالحين
ولا جالسوهم وهمْ هجنةٌ ولا واكبوهم مع الأقربين

وبعد حواره مع البربر توجه بالحديث إلى باديس ، مصدر طغيان اليهود ونفوذهم ، ولم يكن يطمع فى أكثر من أن يجعل منه شخصًا محايدًا حين تشتعل الثورة ضد اليهود ، فهو يصفه بالذكاء ، والقدرة على النفاذ إلى بواطن الأمور ، وأنه ابن ملوك ماجدين ، وسباق إلى الخير دائمًا :

أباديسُ أنت امرؤٌ حاذقٌ تصيب بظنك نفس اليقين
وأن لك السبقَ بين الورى كما أنت من جِلّةِ السابقين

ويعتب على باديس فى رفق : كيف خفى عليه حال اليهود ، وقد أصبحوا أعيانا ، وانفردوا به ، على حين أنهم فى غير غرناطة ضعفاء مهانين ، فبغّضوه إلى شعبه ، وحالوا دون رقيه ، إنه يبنى وهم يهدمون :

فكيف اختفتْ عنك أعيانُهم وفى الأرض تضربُ منها القرون
وكيف تحبُّ فراخَ الزنا وهم بغّضوك إلى العالمين
وكيف يتمُّ لك المرتقى إذا كنت تبنى وهم يهدمون
تأمَّلْ بعينيك أقطارَها تجدْهمْ كلابا بها خاسئين
وكيف انفردت بتقريبهم وهم فى البلاد من المبعدين

ومن الحديث إلى البربر ، وعتاب الأمير ، إلى الإثارة وتهيئة النفوس للثورة . وطريقه إليها أن يصف ما وجد عليه اليهود حين هبط غرناطة : لقد قسموا بينهم المناصب ، ويتولون جباية الضرائب ، ويلبسون أفخر الملابس وعندهم — وهم الخونة — تنتهى أسرار الدولة ، إذا سرق غيرهم درهمًا عوقب عليه ، وأُقصى عن وظيفته ، ويسرقون الأموال الطائلة فيزدادون من الأمير قربا ، ومن السلطة تمكنا :

وإنِّى احتللتُ بغرناطةَ فكنتُ أراهم بها عابثين
وقد قسَّموها وأعمالها فمنهم بكلِّ مكانٍ لعين
وهم يقبضون جباياتِها وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيعَ الكسا وأنتمْ لأوضعها لابسون
وهم أمناكم على سركم وكيف يكون خئونٌ أمين
ويأكل غيرهم درهمًا فيُقصى ، ويُدْنون إذ يأكلون

ويعزف للأمير على إيقاع دينى ، ويلمح إلى ما اتبع اليهود من وسائل للسيطرة عليه ، فقد ناهضوه إلى ربه ، فلم ينكر ذلك عليهم ، ولا منعهم منه ، وهم أغرقوه فى المتع الحسية ، وأسكروه بها ، فما يسمع معها ولا يبصر :

وقد ناهضوكم إلى ربكم فما تمنعون ولا تُنكرون
وقد لابسوكم بأسمارهم فما تسمعون ولا تبصرون

ويتجاوز الجانب الدينى ، إلى ما يمسه شخصيا ، يثير فيه روح الغيرة . فاليهود يأكلون خير ما فى غرناطة ، وقصر الوزير رئيسهم يطاول قصر الأمير ، صفاء رخام وغناء حدائق ، والمسلمون واقفون ببابه ، ينتظرون قضاء حوائجهم ، ويضحك منهم ومن دينهم :

وهـم يـذبحون بأسواقـهـا وأنتم لأطـرافـهـا آكـلـون
ورخَّـمَ قـردُهـم دارَه وأجرى إليها نمير العيون
فصـارت حـوائجنا عنـده ونحن على بابه قائمون
ويضحك منّا ومن ديننا فإنّا إلى ربنا راجعون

وكان باديس نهما إلى المال بخيلا ، فأثار فيه الرغبة إلى المزيد من الثراء ، ودعاه إلى أخذ أموالهم فهو أحق بها ، والاستيلاء على قصورهم وفيها كل طريف وتالد :

ولو قلتَ فى ماله إنّه كمالك كنتَ من الصادقين
فبـادرْ إلى ذبحِهِ قربـةً وضحِّ به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغطَ عن رهطه فقد كنزوا كلَّ علقٍ ثمينَ
وفرِّقْ عداهم وخذْ مالهم فـأنت أحقُّ بمايجمـعـون

ثم يقدم تبريرًا خلقيًا وفقهيًا له ، ولكل ثائر ، فقد نكث اليهود العهد ، وخانوا الأمانة ، وتجاوزوا حد الذمة ، وأخذوا ما ليس لهم ، وكانوا البادئين بالعدوان ، فليس فى قتلهم أى غدر :

ولا تحسبنْ قـتـلهم غدرةً بل الغدرُ فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تُلام على الناكثين
وكيف تكونُ لهم ذِمَّةٌ ونحن خمولٌ وهم ظاهرون
ونحن الأذلّة من بينهم كأنا أسأنا وهم محسنون

حتى إذا انتهى من عرض قضيته بكل جوانبها ، ختم قصيدته مطمئنًا إلى النصر ، متفائلا بالفوز ، لأن الله مع قومه :

وراقب إلاهَكَ فى حزبه فحزبُ الإله همُ الغالبون

اعتمد أبو إسحاق على أدوات كثيرة لكى يحقق الغاية من قصيدته ، كان يعرف أن الجنود ، وهم الذين اصطفاهم أصلا بالحديث ، من بربر صنهاجة ، ولعل بعضهم جاء إلى غرناطة من قريب ، وهؤلاء الأفارقة ليسوا مهيئين للأشعار الرقيقة ، وحظهم من العربية متواضع ، وكل ما يستطيعونه أن يدركوا الغاية منها فحسب ، وكل نصيبهم من

المعجم اللغوى العربى الألفاظ ذات الدلالة الدينية ، « ومع ذلك فليس مهمًا : سوف يبتعد الشاعر فى هذه المناسبة عن الكلمات الغامضة ، والبحور المعقدة ، وعن الرموز الشعرية ، وعن الأوصاف والأقوال المكرورة فى مصنع الشعراء . فليأخذ من العربية أشد الكلمات قوة وصلابة ، الألفاظ التى يمكن أن يفهمها كل مسلم قادر على قراءة القرآن ، وأن يجمعها فى تراكيب سهلة غير معقدة ، وأن يرمى بها فى مقاطع عادية ومؤثرة ، كالخطوة العسكرية ، وأن تكون فى بحر المتقارب . والأفكار ؟ . . لا شىء أكثر مما هو ضرورى : الإشارات القرآنية التى تجعل من الله شريكًا فيما يمكن أن يحدث . ولكن فى مقابل هذا ، جاء بكثير من الصور الدقيقة : هؤلاء اليهود الذين كانوا من قبل يبحثون فى الزبالة عن خرقة مهترئة يكفنون بها موتاهم ، أصبحوا الآن يقتسمون غرناطة وأعمالها فيما بينهم ، يقبضون الجبايات ، ويتأنقون فى اللباس ، ويذبحون فى الأسواق ، ورخّم يوسف قردهم داره ، ويردف كل قولة مما سبق بنقيضها الملائم لها : وأنتم السادة الصالحون ترتدون وضيع الثياب ، أنتم المساكين الجوعى ، وهم يسرقونكم ، وأنتم على أبوابهم تتسولون » ويذكر الملك فى خشونة غير صريحة بأن يحترم مبادئ القرآن الكريم ، ولكنه يثير العامة ، ويدفع بهم إلى القتل والنهب [٣٣] .

رفع أبو إسحاق قصيدته إلى باديس فلم يرتح منها ، وكانت ثقته فى يوسف لا حد لها ، ولكنها أثارت عاصفة من الحماسة بين البربر ، فأقسموا على القضاء على الوزير اليهودى ، وحملت الريح أبيات أبى إسحاق إلى كل أركان المدينة ، وعكف عليها الناس ينسخونها وينشدونها ويترنمون بها ، ويتحينون الفرصة ليجعلوا من أفكارها واقعًا . وجاءت اللحظة ! فقد دعا يوسف ليلة السبت لعشر خلون من صفر ٤٥٩ هـ - ٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦ م ، أقوامًا من عبيد الأمير قد عاقدوه واتفقوا معه ، وبعضهم فى السر يشنأه ، وأعلمهم باتفاقه مع ابن صمادح ، صاحب المرية ، وأنه وارد عليهم ، وأخذ يعدد لهم ما سوف يقطعهم من قرى فحص غرناطة ، فسأله واحد ممن أضمروا له الشر : « قد علمنا هذا ، فأخبرنا عمن أعطاك حق هذا المنح ، أهو مولانا حى أو ميت » . فرد عليه بعض

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٠٥ و ١٠٦ .

حاشية اليهودى ، ووبخه على قوله ، فأنف ذلك العبد . وخرج فارًا على وجهه وهو سكران ، يصيح بالناس ويقول : « يامعشر الناس من سمع بالمظفر قد غدره اليهودى ! وهذا ابن صمادح داخل فى البلدة » . وباديس فى هذه الحال منغمس فى بطالته ، عاكف على شرابه ، وتسامع الناس بالخبر أجمع عامتهم وخاصتهم ، وأتوا القصر عازمين على قتل اليهودى ، فتحيّل على المظفر حتى أخرجه إليهم ، وقال : « هذا سلطانكم حى ! » ورام الرئيس تسكينهم فلم يقدر ، بدأ الناس يتناشدون قصيدة أبى إسحاق فاتسع الخرق على الراقع ، وهرب اليهودى بنفسه إلى داخل القصر ، فاختفى ، زعموا ، فى بيت فحم ، وسودّ وجهه حتى لا يتعرف إليه أحد ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وصلبوه على باب مدينة غرناطة . وبعدها تدفقت الجماهير على الشارع ، تتغنى بقصيدة أبى إسحاق ، وأحالوا السيف على كل يهودى ، ونهبوا متاجرهم ، وحصلوا على عظائم أموالهم ، واقتحموا بيوتهم وأخذوا ما بداخلها ، وأشعلوا النار فى هذه وتلك ، وقتل فى هذا اليوم ما يقرب من أربعة آلاف يهودى ، وأفلت من المذبحة زوجة يوسف وابنه ، هربا إلى مدينة لوشة ، وكان على الذين بقوا على قيد الحياة أن يبيعوا أملاكهم ، وأن يرحلوا عن غرناطة ، ولم تقم لليهود بعدها فى هذه المدينة قائمة (٣٤) .

يقول المستشرق الإسبانى الكبير **إميليو غرسية غومث** : « لعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبدًا البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر : لقد اجتاحت أنغامها – حية متوهجة – أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشرجة الموتى » (٣٥) .

هل كانت قصيدة أبى إسحاق السبب المباشر للثورة ؟ . . ذلك ما يراه ابن الخطيب ، فى كتابه الإحاطة ، فهو يقول صراحة : « وكان مهلك هذا اليهودى بسبب شعر حفظ عنه ، يحرض صنهاجة عليه » .

---

(٣٤) انظر : الاحاطة ، جـ ١ ص ٤٤٨ - ومذكرات الأمير عبد الله ، ص ٥٤ - البيان المغرب ، جـ ٣ ص ٢٦٦ – دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ، جـ ٢ ص ٣٦٦ ، الترجمة الأسبانية .

(٣٥) مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ص ١٠٦ .

ويذهب إلى هذا الرأى عدد كبير من الباحثين الأوربيين . والحق أن قصيدة أبى إسحاق كانت سببًا بين أسباب أخرى كثيرة تجمعت لتؤدى إلى الثورة ، ولعلها -- إذا شئت – كانت من أقوى هذه الأسباب ، فيما يتصل بتحريض الجماهير ، والدعاية ضد الوزير ، وهى على التأكيد السبب المباشر الذى أشعل النار فى الحطيم ، وهو ما يمكن أن نستخلصه من روايات عدد من المؤرخين عرضوا للحادث غير ابن الخطيب ، ويلفت النظر أن بعضهم لم يشر إلى أبى إسحاق ، وبخاصة الأمير عبد الله ، فى كتابه البيان ، ونشر بعنوان مذكرات الأمير عبد الله ، وكان حفيدًا لباديس نفسه ، فقد التزم الصمت المطبق إزاء أبى إسحاق ، رغم أنه أمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الأحداث .

ومهما يكن فإن هذا الانتصار الساحق لابد أن يكون قد أدخل البهجة على الشيخ الفقيه فى أيامه الأخيرة ، فقد توفى بعد ذلك بقليل ، فى نهاية العام نفسه ، أى فى سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٧ م .

حفصة بنت الحاج

يمثل الدور الذى لعبته المرأة فى الأندلس فى جوانب الحياة المختلفة ، وفى مجال الإبداع الأدبى بخاصة ، جانبًا مشرقًا من تاريخ الحياة العربية هناك .

كانت الحضارة مصقولة ، وللشعر منها جانب متميز ، ولم تجد القوافى تربة خصبة خارج مهدها فى الجزيرة العربية ، كما وجدتها فى هذه البقعة الأوربية النائية ، تقع فى أقصى شمال غرب الإمبراطورية الإسلامية ، أهلها لاتينيون أو قوط ، أو ينتمون فى أجناس أخرى بائدة ، ولغتهم مستعربة ، ومع ذلك أُخذ الرحالة القزوينى بما كانوا عليه من سهولة فى قول الشعر ، « وأى فلاح يحرث بأثوار فى شلب ، يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعانى » .

كان الشعر أنشودة الجمام بعد التعب ، يقوله الأمير والعامل على السواء ، بعض الأمراء قاله على نحو متفرق ومتفاوت ، وبعضهم – كالمعتمد ابن عباد – تميز فيه ، وكانت حياته نفسها قصيدة ، مأسوية النهاية . وكان الحكم المستنصر خليفة مثقفًا وشاعرًا مقلا ، يدع سكنه فى غزوة ، ويحن إلى « صبح » حبيبته وحظيته ، ثم زوجه من بعد ، فيترنم بالأبيات الرقيقة التالية ، معزِّيا نفسه :

عجبتُ وقد وَدَّعتُها كيف لم أمتْ ... وكيف انثنتْ عند الفراق يدى معى

فيامقلتى العبرى عليها اسكبى دمًا ... ويا كبدى الحرَّى عليها تقطَّعى

وقاله أناس حظهم من الثراء محدود ، ومن المجد متواضع ، ومن عراقة النسب لا شىء ، وتومئْ ألقابهم التى وصلتنا إلى الكثير من هذا ، كابن اللبانة ، أى التى كانت تبيع اللبن ، ومهجة بنت التيانى ، أى الذى كان يبيع التين ، وابن السقاط ، أى الذى

كان يبيع السقط من المتاع ، وغالب بن رباح الحجام ، ومهنة الحجامة لا تحتاج منى إلى تفسير ، وآخرون غيرهم كثيرون .

وكان للمرأة حظ وفير منه ، وهى ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية ، ولقد أوقف **المقرى التلمسانى** فصلا كاملا من كتابه « **نفح الطيب** » على شاعرات الأندلس ، ولو أن ما أورده عنهن كان مقتضبا للغاية ، رغم أنه عد منهن خمسا وعشرين شاعرة ، وإذا كن فى جملتهن شاعرات مجيدات ، فى ضوء القليل الذى وصلنا من شعرهن ، فبينهن من بلغت فى مجال الإجادة شأوا بعيدًا ، ومن فاقت الشعراء المحترفين ، وقد قدم المقرى لحديثه عنهن بقوله : « وإذ وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللائى لهن اليد الطولى فى البلاغة ، كى يعلم أن البراعة فى أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى فى نسائهم وصبيانهم » .

من بين اللائى ذكرهن المقرى شاعرتان تأتيان فى المقدمة ، براعة فى عالم الشعر ، وتميزا فى دنيا الناس ، وتحررا من مواضعات المجتمع . أما أولاهن فكانت أميرة وابنة خليفة ، وسارت بأخبارها الأيام شاعرة رقيقة ، وعاشقة جريئة ، ونالت من الشهرة فوق ما تتمنى ، وما سبقت فيه معاصريها من الشعراء الرجال ، لأنها اقتحمت عالم المجد عن طريق الحب ، ولم تركب له الكلمة أو البيت أو القصيدة فحسب . وكان لنا معها إلى جانب ابن زيدون روميو وجولييت العربيين ، وتلك هى **ولادة بنت المستكفى** .

وأما الثانية فهى **حفصة بنت الحاج الركونية** ، ولم تنحدر من بيت ملكى ، وكانت أديبة شاعرة ، وجمعت بين « الجمال والحب والمال » . ورغم أنها لم تحظ فى عصرنا الحديث بما حظيت به ولادة دراسة وشهرة ، لم تكن على أيامها دونها ، كانت ملء السمع والبصر ، تقول الشعر ، وتجهر بمكنون الهوى ، وترد ندوات الأدب ، وتواجه حولها ضواغط الحياة والتقاليد ، وغطى حديثها على شاعرة أخرى معاصرة لها ، رقيقة ولطيفة ، وتلتقى معها فى أكثر من منزع ، وهى نزهون بنت القلاعى ، وإن كانت هذه

تكبرها عمرًا بسنوات قليلة ، وقد فاقتها حفصة ، وفاقت الجميع فى الحقيقة ، فى أن ماروى لها من شعر ، على قلته ، يفوق ما روى لأية شاعرة أخرى .

ولم تكن حفصة شاعرة مجيدة فحسب ، وإنما لعبت دورًا سياسيًا هامًا تجاوز العقيدة والقول إلى المشاركة فى التدبير والثورة ، وأسهمت ، إن لم نقل دبرت ، فى مؤامرة سرية أوشكت أن تعصف بسلطان الموحدين فى الأندلس . وكانت على صلة وثيقة بعدد من كبار الساسة ، ومن رجال المجتمع فى غرناطة حيث تقيم ، وفى مراكش عاصمة الموحدين حيث استقر بها المقام أخيرًا .

وهى إلى جانب أخريات قليلات يمثلن ظاهرة فذة فى تاريخ المرأة المسلمة لا فى الأندلس وحده ، وإنما على امتداد دولة الإسلام ، فهى لا تدين بشهرتها للثراء الواسع الذى كانت عليه ، ولا إلى الحسب الرفيع الذى تُنسب فيه ، ومن المؤكد أن كثيرات غيرها من نساء عصرها كن على مستواها مالا وجاهًا وحسبًا ، إن لم نقل يتفوقن عليها ، وإنما يعود تقدير التاريخ لها ، إلى أنها امرأة ذات كلمة قوية فى مواجهة رجال أقوياء ، وبعض ما فى شعرها من صراحة يمثل على غيرها خطرًا يودى بالحياة . إننا معها بإزاء امرأة غير قعيدة البيت ، ولا مهيضة الجناح ، ولا خفيضة الصوت (١)

وإلى جانب هذا التمرد الاجتماعى فإن مؤرخ الأدب لا يمكن أن يمر بها عابرًا ، وهو شىء لم يستطع القدماء أن يفعلوه ، وإذا تجاوزنا المقرى التلمسانى ، ولم يكن أندلسيًا أصلا ، ولا معاصرًا لأيام الإسلام فى الأندلس ، لأنه مغربى ولد فى تلمسان ، وأمضى حياته فى **القاهرة** ، وفوق ثراها لقى الله ، وفى مقابرها استقر إلى الأبد ، فجاء حديثه عنها مقتضبًا وموجزًا . فإن **ابن الخطيب** ، وكان مواطنا لها ، وجاء بعدها بقرن من الزمان ، وكان صائب الرأى ، مسئول الكلمة ، يقول عنها : « أديبة أوانها ، وشاعرة زمانها ، فريدة الزمان فى الحسن والظرف ، والأدب واللوذعية » ، ويقول عنها **أبو القاسم الملاحى** ، وهو مؤرخ غرناطى : « كانت أديبة نبيلة ، جيدة البديهة ، سريعة الشعر » .

---

(١) انظر كتابنا : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » . الفصل الخاص « المرأة فى قرطبة من خلال طوق الحمامة » . ص ٢٤٧ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .

ويقول عنها ابن دحية في كتابه « **المطرب من أشعار أهل المغرب** » : من أشراف غرناطة ، رخيمة الشعر ، رقيقة النظم والنثر » .

دخلت **حفصة** التاريخ بمواهبها ، وبما كانت عليه من جمال وفصاحة ، فى المقام الأول لأن حياتها اكتسبت طابعا مأسويًا ، فقد توزع قلبها رجلان ، كلاهما هام بها حبًا ، وتنافسًا فى الاستئثار بها ، وكان أحدهما أميرًا أندلسيًا صغيرًا بملك ، كأى حاكم صغير ، حق الموت والحياة على رعاياه .

ولا يقدم لنا المؤرخون معلومات وفيرة ، بل ولا حتى قليلة عن طفولتها وصباها ، وكل ما نعرفه عنها أنها كانت تعيش فى غرناطة ، وتنتسب فى أسرة بربرية ، لم يهتم بها أصحاب التراجم ، وكل ما يذكره **ابن دحية** عن أبيها أنه كان غنيًا ، ومن أعيان المدينة . ويبدو لنا من نسبة الركونى أنه ليس من غرناطة أصلا ، وإنما جاءها ، أو أسلافه من قبل ، من قرية صغيرة تدعى **ركانة** Requena ، على بعد ٦٩ كيلومترًا إلى الشرق من بلنسية ، وهى منطقة ذات طبيعة بباحرة ، وخضرة ممتدة ، كانت ولاتزال .

ولا نعرف متى وُلدت ، غير أننا لا نستطيع أن نذهب بهذا التاريخ إلى أبعد من عام ٥٣٠ هـ — ١١٣٥ م ، ومن الواضح أنها وُلدت فى غرناطة ، وفيها أمضت شبابها ، وكانت غرناطة فى أيامها الأولى تحت حكم المرابطين .

وكغيرها ذهبت إلى المدرسة ، أو جاءها المعلمون إلى البيت ، وكان للمدرسة الابتدائية فى الأندلس مفهوم أفضل مما كان عليه الحال عند المشارقة ، فبينما هؤلاء يأخذون أطفالهم بالحفظ دون فهم ، كان الأندلسيون يهيئون تلاميذهم فيها للفترة اللاحقة ، فهم يقرأون ويفهمون ويحفظون ، ويجمعون بين القرآن والشعر واللغة ، أى أن الجانب الأدبى من التعليم لم يكن مهملا .

وكان الهدف من تعليم البنت فى الأندلس ، كما هو الحال فى جميع البلاد المتحضرة ، أن تصبح معه لطيفة محببة إلى النفوس ، ولترقية عقلها ، وتكوينها فى الأدب بعامة ، وفى الشعر والموسيقى بخاصة ، وليس فى الحسبان أن تصبح معه عاملة ، أو أن يكون طريقها للعيش ، وكان ذلك متاحًا لها حتى دون تعليم . ويمكن القول بأن الزاد الثقافى الذى

عاشت عليه حفصة طفولتها وصباها يدخل فى نطاق الأدب بمفهومه فى العصر الوسيط ، أى الإلمام من كل شىء بطرف ، أو هى الثقافة كما نراها الآن ، وقد حدد لنا ابن دحية دورها فى هذا المجال فهو يقول : « إنها كانت تنشد الشعر ، وتكتب النثر فى رشاقة » ، ولم يصلنا من نثرها شىء لنتأكد من قولة صاحب « المطرب فى أشعار أهل المغرب » .

ومهما يكن من شىء فقد جاءت حفصة إلى الحياة والمرأة الأندلسية تعيش فترة زاهرة ، جاء بعضها إرثًا من عصر الطوائف ، حين شاعت الحرية ، ومس خيرها ، أو حتى شرها ، الناس جميعًا ، وجاء بعضها اكتسابًا من عصر المرابطين ، وعلى غير ما يظن عامة الناس ، احتلت المرأة فى أيامهم ، وهم بدو قدموا من الصحراء ، ورجال دين محافظين ، مكانة أعلى مما تحتلها فى أى مكان آخر ، فكانت عندهم بمستوى المرأة فى الأندلس ، أو حتى أرقى شيئًا ، والدور الذى لعبته زينب النفزاوية الهوارية ، زوجة يوسف بن تاشفين ، وإحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، فى دولة المرابطين لا يقل أهمية عن الدور الذى قامت به السيدة « صبح » على أيام الحكم الثانى زوجها ، أو هشام المؤيد ابنها ، أو عن الدور الذى قامت به اعتماد الرميكية فى دولة المعتمد بن عباد . وقد أدى ذلك إلى معارضة عنيفة من جانب الفقهاء ، وهم الذين ألحوا على يوسف بن تاشفين كى يبقى فى الأندلس ويزيح ملوك الطوائف عن عروشهم ، وهم الذين كانوا وراء سقوط دولة المرابطين عندما لحظوا أن النساء يلعبن فيها دورًا أكبر مما يجب ، ومما يراد منهن ، وحين جاء الموحدون على أنقاضهم حدثت ردة ضد حرية المرأة ، وإن لم تستطع أن تأتى عليها تمامًا فى الأندلس على الأقل .

هل يمكن القول بأن هذا التطور كان له تأثير على نفسية حفصة ؟ .

على أية حال نحن نلمح أنها ، وبرضى والدها ، كانت تتمتع بحرية كاملة ، وأن والدها كان سعيدًا بأنها تستخدم مواهبها ، وتعبر عن ذات نفسها ، ولا عليه بعد ذلك أن يرضى الآخرون أو يغضبوا .

* * *

عاصرت حفصة كل المحن التى تعاورت غرناطة ، من سقوط دولة المرابطين إلى قيام

دولة الموحدين ، وما يصيب المدن خلال هذه الأحداث من فقدان الأمن ، وشح الحياة ، ولم تعرف المدينة هدوءًا تزدهر معه من جديد إلا بانتصار الموحدين نهائيًا ، واستقرار دولتهم بها ، عام ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ، وليس ثمة شك فى أن أحداث الحروب ، وما يصحبها من فتن كقطع الليل ، تركت فى نفسها وهى الأديبة الأريبة ، الذكية الفطنة ، رقة فى المشاعر وعمقًا فى الإحساس ، واحتقارًا للحياة ، وجرأة على المواقف .

وفى هذه الفترة ، وعمرها يتأرجح حول العشرين ، سوف تلتقى بفتى من بنى سعيد ، وهى أسرة عريقة ، تقيم فى قلعة تحمل اسمها على مقربة من غرناطة ، وشهرت بالعلم والأدب والثراء ، وسوف يدخل التاريخ معها تحت اسم متميز **أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد** . ولا نعرف كيف التقيا ، ولا أين ؟ ، فما أسهل أن يلتقى شاعر وشاعرة فى مجتمع يطرب للشعر ، ويجل الشعراء ، ويهزه الإنشاد الجميل . وكان أبو جعفر إلى جانب أنه شاعر رقيق ، وأديب ناثر ، صاحب لهو وحياة وفلسفة تنم عن أبيقورية متمكنة . وحين استقل أبوه بقلعتهم فى الفترة بين سقوط المرابطين وقدوم الموحدين ، اتخذه وزيرًا ، واستنابه فى أموره ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يعفه ، وعتب عليه أن يركن إلى الراحة فى مثل هذه اللحظات الحاسمة ، فكتب إليه الابن شعرًا :

مولاىَ ! فى أىِّ وقتٍ أنالُ فى العيش راحهْ
إنْ لم أنلها وعمرى ما إنْ أنار صباحهْ
وللملاح عيونٌ تميل نحو الملاحه
وكأس راحىَ ما إن تملُّ منِّى راحه
والخطبُ عنِّىَ أعمى لم يقتربْ لِىَ ساحه
وأنت دونى سورٌ من العلا والرجاحه
فاعفنى وأقلنى مما رأيتَ صلاحه
ما فى الوزارةِ حظٌّ لمن يريدُ ارتياحه
كَلٌّ وقالٌ وقيلٌ ممن يطيل نباحَه

أُنْسِى أنّى مستغيثًا فاتركْ - فدُيتَ - سراحهْ

فلما قرأ أبوه الأبيات رأى ألا فائدة فى أن يكلفه بما ليس مهيئًا له ، فوقع على ظهر ورقته : « قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك » .

كان **أبو جعفر** شاعرًا فنانًا لم يخلق للإدارة أو الحكم ، أو الحرب والطعن ، يمضى مع لذاذاته دون قيد ، ويستجيب لرغائبه حتى الثمالة ، ويكره أن يرى نفسه أسيرًا فى وظيفة ، ولكن . . قد تجنى على المرء مواهبه ! . ذلك أن الأمر لم يكد يستقر للموحدين ، ويرسل الخليفة الموحدى فى مراكش ابنه **السيد أبا سعيد** أميرًا على غرناطة ، حتى يطلب هذا ، إرضاء لأهلها ، وضمانًا لولائهم ، وزيرًا منهم ، من خيرة بيوتاتهم ، فلا يجد غير **أبى جعفر** صاحبنا ، فولاه الوزارة ، أو الكتابة بلغة تلك الأيام ، وحاول أبو جعفر أن يستعفى فلم يسمع له ، فضاق بالمنصب ، وكره أن يكون كاتبًا لمن يرى نفسه خيرًا منه ، وطوى نفسه على مضض .

كان عسيرًا أن تصفو الحياة بين أمير قادم من الصحراء ، جافى الطبع ، بدوى الشمائل ، وبين شاعر غزل رقيق الحواشى ، صداح النغم ، يطرب لكل فاتن ، وتهفو نفسه لكل جميل ، وبدأ ما أضمره أبو جعفر فى نفسه سرًا مكتومًا ينضح فى شعره .

خرج ذات ليلة مع رفقة له ، فى رحلة صيد ، وكان اليوم غائمًا وباردًا ، ولما أشتد البرد مالوا إلى خيمة حارس البستان ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ، فحملت أبا جعفر بقية من سكر على أن يصف يومه ، ويبوح بما فى طوايا نفسه :

ويوم تجلّى الأفقُ فيه بعنبرِ من الغيم لُذْنا فيه باللهو والقَنَصْ
وقد بقيتْ فينا من الأمس فضلةٌ من السكر تُغرينا بمنْتَهب الفُرَصْ
ركبنا له صُبحًا وليلاً وبعضُنا أصيلاً وكلٌّ إن شدا جُلجلٌ رقصْ
وشُهْب بُزاةٍ قد رجمنا بشُهبها طيورا يُساغ اللهو إن شكتِ الغصص
وعن شَفَقٍ تُغرى الصباح أو الدجى إذا أوثقت ما قد تحرّك أو قصْ
وملنا وقد نلنا من الصيد سُؤلنا على قَنَصِ اللذاتِ والبردُ قد قرص

ثم يختم الأبيات بقوله :

فقل لحريصٍ أن يرانى مقيَّدًا بخدمته لا يُجعل البازُ فى القفص
وما كنتُ إلا طوع نفسى فهل أُرى مطيعًا لمن عن شأوِ فخرىَ قد نقص

فكان من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما إلى أمير غرناطة ، فعزله عن منصبه أسوأ عزل .

* * *

لم يكن جمال **حفصة** وحده هو الذى شد إليها قلب **أبى جعفر** ، فلا شك أن غرناطة كانت حافلة بالجميلات ، أولئك اللائى وصفهن لنا لسان الدين **ابن الخطيب** بعد قرنين من الزمان بأنهن « جميلات ساحرات ، ناعمات الأجسام ، مرسلات الشعور ، نقيات الثغور ، طيبات النشر ، خفيفات الحركة ، نبيلات الكلام ، حسناوات المحاورة ، يعنين بزينتهن عناية بالغة » . وإنما كانت تتمتع إلى جانب جمالها بمزايا عقلية وعاطفية فائقة ، شدت إليها انتباه هذا الرجل المتحضر الرقيق ، لقد كانت شاعرة عذبة ، وفتاة جريئة ، ووجدت فيه فتى أحلامها ، أدبا وثراء ، وعراقة أسرة ، وإقبالا على الحياة ، فمدت له حبل الهوى بلا موازبة ، تود أن تراه فتعرض عليه أن يجئ ، فإن لم يفعل ذهبت هى ، وتصف جمالها ، وتلح عليه : أنا فى انتظارك ياجميل[٢] !

وبدأت أشعارها تتردد فى المجالس ، وداخل البيوت وراء الأسوار ، وتحفظها الفتيات يجدن فيها أنفسهن أو ما يطمحن إليه ، وأصبحت الشاعرة سيدة مجتمع مرموقة ، تطلب منها الأوانس أن تخط لهن فى دفاتر ذكرياتهن شيئًا يحتفظن به ، على نحو ما يفعلن اليوم مع كبار الفنانين . وتسألها فتاة من أسرة عريقة أن تكتب لها شيئًا ، فتخط لها بيتين من الشعر ، تمدح فيهما جمال السائلة وحسبها ، وترجوها أن تصفح عن رداءة خطها وكَلِمَها[٣]

لا نعرف كثيرًا عما كان يجرى بين شاعر وشاعرة آلف بينهما الحب ، وربطت بين قلبيهما الصبوة ، وهو أمر بدهى ، غير أشعار متفرقة هنا وهناك تومئ إلى أن الصلة بينهما كانت قوية ، وأن حفصة كانت تتحمل مسئوليتها كاملة إزاء حبها ، وعبرت عن جوانب منها كما

(٢) الأبيات رقم ١ ، من ديوانها الملحق بهذه الدراسة . (٣) البيتان رقم ١٥ .

لم تعبر عنها أية شاعرة عربية أخرى ، ونعرف من أشعارهما أنها باتت مع أبى جعفر فى بستان بِحوْر مؤمل ، على مقربة من غرناطة ، وهو ضاحية سراة القوم ، «على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم » . فلما مضت كتب إليها **أبو جعفر** يذكرها وينتظر ردها ، ولكن **حفصة** لا تشاركه تفاؤله ، إنها تعرف بغريزة الأنثى أن الناس غيرى من حبهما ، وأن حسن الظن ليس رشدًا ، وبهذا المعنى ترد على رسالته شعرًا(٤) .

لقد عرف الأدب العربى المرأة مطلوبة لا طالبة ، وموصوفة لا واصفة ، مهبط آمال الشعراء ، ومناط غايتهم ، غير أن الأدب الأندلسى تميز بخاصية أن تكون المرأة من الشاعر ، أو من المحب بعامة ، ماكانه الشاعر أو المحب منها فى المشرق ، تبوح بمكنون فؤادها ، وتسترجع لحظات صفوهما ، وتتغزل فيمن تحب ، ولا تتردد فى أن تصف قبلة لأبى جعفر فى شعر رقيق صريح ، بأنها رشفت معها ريقا أرق من الخمر ، وهى تقول ذلك عن تجربة ، لا تدعيها ولا تكذب فيها ، ولا تنتزعها من الخيال(٥) . وتغار على حبيبها وتصف لنا غيرتها فى بيتين من الشعر ، هما من أجمل ما عرف الأدب العربى تصويرًا لهذه الفكرة ، فهى تغار عليه من الرقيب ، ومن نفسه ، وزمانه ومكانه ، ولا تجد له مكانًا تصونه فيه ، إلى يوم القيامة ، غير عيونها(٦) .

* * *

لكن ترنيمة الحب ووصله لم تدم لهما صافية ، اقتحم عليهما بلا إذن عالَم حبهما الجميل أميرُ غرناطة ، **السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن** ، ومعه سلطان الحاكم وبطشه ، ولا أستبعد أن يكون هواه لحفصة رغبة مكتومة فى أن يكيد لأبى جعفر ، فلم يكن للأمير فى مجال الشعر العاطفى ما يشده إلى هذه الشاعرة الغردة ، ولم يكن له فى مجال الفكر ما يعجبه من آرائها المتحررة ، وكان له فى سيل الجوارى المتدفق على غرناطة مندوحة إلى الأنثى لو أراد .

---

(٤) أبيات أبى جعفر وأبياتها فى القطعة رقم ٢ من الديوان الملحق بالدراسة .

(٥) الأبيات رقم ٨ فى الديوان الملحق بالدراسة .

(٦) الأبيات رقم ٥ من الديوان .

ولابد أن حفصة عانت كثيرًا من ملاحقة الأمير ، خشية على أبى جعفر أكثر من خشيتها على نفسها ، فهى تعرف ما بينهما ، تعرف ما يكنه الأمير لأبى جعفر من حقد ، وما تنطوى على نفس هذا من احتقار للأمير ، وما عليه الحياة فى غرناطة من سهولة القتل والتآمر والتخلص من الأعداء ، وراودت نفسها ، وابتعدت عنه قرابة شهرين لا يراها ولا تراه ، واستبد به الشوق فكتب إليها ، دون أن يذكر اسمها ، ولكنه يناجى حبيبًا ، وليس غيرها له ، لقد برح به الشوق ، وثقل عليه الصبر ، وطال ليله ، ويستنجزها أن تفى بما وعدت اليوم لا غدا ، وترسل إليه ، تبدى رأيها وتعتذر ، وتعتب عليه أن يتحدث عن السأم والملل ، وألا يدرك عذرها ، وسبب انقطاعها (٧) .

وتقع حفصة بين أمرين أحلاهما مر ، وأيسرهما عسير ، أمير يلاحقها بكل ما فى قدرته ، ويطوقها بكل ما فى سلطته ، وشاعر غزل رقيق الحواشى ، تسعد معه ، وتساقيه الهوى ، وتحقق ذاتها إنثى وإنسانة ، وتحاول أن تترضى الأمير ، وأن تكتب إليه شاعرة ، وفى الوقت نفسه تتجافاه عاشقة ، تكتب إليه تهنئة فى يوم عيد ، تناديه « يا ابن الخليفة » ، وتومئ إليه فى كلام خبىء يفهم على أكثر من وجه ، وهى التى اعتادت أن تكون صريحة لا تلمح ولا تكنى ، بأن العيد أتاه ، ومعه من يهوى منيبا راضيا ، ليعيد ما انقضى من لذاته وتصرم ، نعم ابن الخليفة يهوى ، ولكن أين هى من هذا الهوى ، صمتت تمامًا (٨) .

ويجتاح **أبا جعفر** نوبة من قلق ، والحب احتواء ، والعاشق غيور ، فيقول لها محقرًا شأن الأمير : ما تحبين فى هذا الأسود ، وأنا أقدر أن أشترى لك من سوق العبيد عشرة خيرًا منه . وتبلغ قولته الأمير ، أو هكذا توقع أبو جعفر ، فاستشعر النهاية ، وأصبح موزع القلب ، خائفًا مضطربًا ، يتوقع المهالك فى كل خطوة ، ويبحث عن الأمن بأى ثمن ، وصوّر لنا مأساته هذه أبلغ تصوير :

من يشترى منى الحياةَ وطيبَها ووزارتى وتــأدّبى وتهذُّبى

(٧) أبيات أبى جعفر ، وردها عليه فى الديوان الملحق بالدراسة ، رقم ٤ .
(٨) الأبيات رقم ١٤ .

بمحلٍّ راعٍ فى ذُرى ملمومةٍ زَويتْ عن الدنيا بأقصى مَرْتب
لا حكمَ يأخذُه بها إلا لمن يعفو ويرؤف دائمًا بالمذنب
فلقد سئمتُ من الحياة مع امرئٍ مُتغصِّب مُتغلِّب مترِّتب
الموتُ يلحظنى إذا لاحظتُه ويقومُ فى فكرى أوانَ تجنّبى
لا أهتدى مع طول ما حاولتُه لرضاه فى الدنيا ولا للمهرَب

وينتهز الأمير فرصة تمرد محمد بن مردنيش فى شرق الأندلس ، وانضمام أحد أفراد أسرة بنى سعيد إليه ، وهو عبد الرحمن بن عبد الملك ، فيلقى عليهم القبض جميعًا ، ومن بينهم أبو جعفر ، وقتله صبرًا فى مدينة مالقة عام ٥٥٩ هـ - ١١٩٨ م ، وحزنت حفصة عليه ، لبست السواد علانية ، وبكته جهرة ، ورثته فى أبيات حفظ لنا التاريخ ثلاثة أبيات منها(٩) .

وعجز السيد أبو سعيد أن يجد إلى قلبها طريقًا ، وضاقت هى بالحياة فى غرناطة ، وقد شهدت مصرع حبها ، فرحلت إلى مراكش عاصمة الموحدين ، ولقيت الخليفة ، واستنشدها شعرها ، فأنشدته أبياتًا ثلاثة تطلب فيها الأمان والمأوى ، فحقق لها ما أرادت ، واختارها أستاذة لبناته ، وأمضت بقية حياتها فى مراكش ، وفى عاصمة الموحدين لقيت الله آخر عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م ، أو أوائل العام الذى تلاه ، وبذلك طويت صفحة جميلة من أروع صفحات الحب فى تاريخ الأدب العربى .

* * *

تدور قصائد حفصة حول التعبير عن مشاعرها ، ويجئ تعبيرها واضحًا صريحًا ، لا إيماء فيه ولا تورية ، تدعو حبيبها أن يزورها ، فإن لم يستطع زارته هى ، ولا تتردد فى أن تصف بعض جمالها ، وأن ثغرها عذب ، وشعرها مرسل ، وتخاف العذّال والوشاة ، لأن الحب العظيم يثير من سخائم النفوس الأرضية بقدر ما يعظم ويسمو ، وهى فى هذا على النقيض من أبى جعفر نفسه ، إنها بحاسة الأنثى تشك وترتاب ، وهو فى جرأة الرجل المحب مع لحظاته الحلوة له الساعة التى هو فيها ولا يفكر فى غد .

---

(٩) الأبيات رقم ١٣ .

ولا بأس أن تعابث أبا جعفر بأبيات من شعرها ، وهو فى رفقة من أصحابه يسمرون ، ترسل بها وتنتظر ، ، ويهرع إليها تغمره الغبطة ، فقد رأى الأبيات بقلبه قبل عينه ، وتأملها بعاطفته قبل عقله . وكما عتبت ولادة من قبل على ابن زيدون أنه مال إلى جاريتها السوداء ، وكان للسوداوات نصيب من غاية العشاق وكن هدفًا ، تعتب هنا على أبى جعفر أنه علق بجارية سوداء أيضًا . ولكن شتان ما بين عتب حفصة وكله رقة ودل ، وبين عتب ولادة وفيه تعال وخشونة ، ذلك أن حفصة كانت تحب أبا جعفر حقًا ، أما ولادة فكانت تحب نفسها أولا ، فيما أرى ، فهى متعالية ، عنيفة ، تتصرف كأميرة ، حتى حين تعاتب محبًا لها[١٠] .

وتصوير حفصة للجارية السوداء فيه ظرف ورقة ، فهى ظاهرا لا تسىء إليها ، وفيما وراء اللفظ مباشرة قالت كل شىء ، فالجارية السوداء مثل الليل ، وهى حديقة خالية من النوار والزهر .

وفى صورها الشعرية لا تخرج عن المألوف فى الشعر العربى بعامة ، ولكنها تتكأ على الطبيعة دائمًا ، كبقية شعراء الأندلس من معاصريها ، فالرياض مهبط لقائها مع حبيبها ، والنهر يصفق لحبهما ، والقمرى يغرد ، وإذا أرسلت سلامها إلى أبى جعفر نازحًا ، فهو يفتح الكمام ، وينطق ورق الغصون ، ونلتقى عندها بما ابتدعه شعراء وطنها ، والمعاصرون لها بخاصة ، من ألوان التشبيه الجديد ، حين خرجوا به من رتابته المشرقية ، ودفعوا فى شرايينه بدم جديد ، لم يتجاوزه تمامًا ، ولكنهم جاءوا به فى صورة مستحدثة مقبولة ، فخدها ليس كالورد ، وإنما يفضحه ، وثغرها ليس كاللآلى ، وإنما يكشف زيفها . وتتكأ على التراث ، فحبيبها جميل ، وهى بثينة ، ولحاظها سحر بابل ، ولها جيد الغزال[١١] .

وشعر حفصة جيد فى مجمله ، موسيقاه رقيقة ، ووقعها جميل ، ولكنه فقير فى الأفكار عامة ، قليل الصور ، وما جاء منها كان بسيطًا ، وإن لاءم موضوعه ، وكان فى مكانه جميلا .

(١٠) انظر الفصل الخاص بنونية ابن زيدون فى هذا الكتاب .

(١١) الأبيات رقم ٧ من الديوان الملحق بالدراسة .

غير أن ما وصلنا منه قليل للغاية ، لا يتجاوز ثلاثة وخمسين بيتًا فيما وجدت ، عثرت عليها متناثرة فى تحفة القادم لابن الأبار ، والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، ورايات المبرزين له أيضًا ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقرى ، واللاحق منهم ينقل عن السابق ، وبعيد فى تصورى أن يكون هذا هو كل إبداع شاعرة عاشقة ومتحررة ، وكانت فى سعة من العيش ، ومكانة اجتماعية مرموقة تحميها من الصمت ، ولعل أنانية الرجل ذهبت بالجانب الأكبر من شعرها حين صمت عنه ، أو لعل الأحداث والكوارث أودت به فيما بعد ، وربما يعود السبب إلى حفصة نفسها ، ففى غمار الأحداث التى ألمت بها ، ففقدت حبيبها ، وهاجرت بعيدًا عن وطنها ، إلى أرض لا تعرف فيها أحدا ، زهدت فى أمسها كله ، وأجمل ما فيه شعرها ، وحياتها شاعرة .

وأيًا ما كان الأمر فقد ألحقت ما وجدت لها من شعر بهذه الدراسة تيسيرًا للراغبين فى قراءته أو دراسته .

○ ديوان حفصة :

١
أزورك أم تزور ؟

أزوركَ أم تزورَ فإنّ قلبى ... إلى ما تشتهى أبدًا يميلُ
فثغرى موردٌ عذْبٌ زلالٌ ... وفرْعُ ذؤابتى ظلّ ظليلُ(١٢)
وقد أمّلتُ أن تظما وتضحى ... إذا وافى إليك بِىَ المقيلُ(١٣)
فعجِّلْ بالجوابِ فما جميلٌ ... إباؤك عن بثينةَ ياجميلُ

(١٢) الفرع : الشعر التام – الذؤابة : شعر مقدم الرأس .
(١٣) المقيل : القيلولة .

٢

لا تحسن الظن !

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها فى بستان بحور مؤمل ، على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال ، قال أبو جعفر وكان يهواها ، وكتب بها إليها بعد الافتراق ، لتجيبه على عادتها فى ذلك :

رعىَ اللهُ ليلاً لم يُرحْ بمذمَّمٍ عشيةَ وارانا بحَوْرِ مؤمّلِ
وقد خفقت من نحوِ نجدٍ(١٤) أريجةٌ إذا نفحتْ هبّتْ بريّا القرنفل
وغرّد قمْرىٌ على الدوح وانثنى قضيبٌ من الريحان من فوق جدول
ترى الروْض مسروراً بما قد بدا له عناقٌ وضم وارتشافُ مُقبِّل

فكتبتْ إليه بقولها :

لعمرُك ما سُرّ الرياضُ بوصلنا(١٥) ولكنه أبدى لنا الغلَّ والحسدْ
ولا صفَّقَ النهرُ ارتياحًا لقربنا ولا غرَّدَ القمرى إلا لما وجدْ(١٦)
فلا تُحسن الظن الذى أنت أهلُه فما هو فى كل المواطن بالرَّشدْ
فما خلت هذا الأفقَ أبدى نجومه لأمر سوى كيما تكون لنا رصدْ

٣

زيارة مفاجئة

كان أبو جعفر يومًا فى منزله مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام ، على راحة سمحت بها غفلات الأيام ، فلم يشعر الا بالباب يضرب ، فخرجت جارية تنظر من

---

(١٤) نجد وحور المؤمل من أجمل ضواحى غرناطة الإسلامية ، ومسكن الطبقة العالية ، ومؤمل الذى ينسب إليه الحور كان مولى لباديس بن حبوس أمير غرناطة .

(١٥) فى الإحاطة وصالنا .

(١٦) فى الإحاطة ولا مدح .

الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدين ؟ فقالت : ادفعى لسيدك هذه الرقعة ، فجاءته برقعة فيها :

زائرٌ قد أتى بجيدِ الغزالِ مُطلعٌ تحت جُنحهِ للهلالِ
بلحاظٍ من سحر بابلَ صيغتْ ورُضابٍ يفوقُ بنتَ الدوالى[17]
يفضح الوردَ ما حوى منه خدُّ وكذا الثغرُ فاضحٌ للآلى
ما ترى فى دخولهِ بعد إذنٍ أو تراه لعارضٍ فى انفصال

فعلم أنها حفصة ، وقام مبادرًا للباب ، وقابلها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به ، وتفضله بالزيارة دون طلب ، فى وقت الرغبة فى الأنس به .

٤

لو كنت تعرف عذرى !

طلب منها أبو جعفر بن سعيد أن تلقاه ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها :

يامن أجانبُ ذكرَ اسمه وحبّى علامهْ
ما إن أرَى الوعد يُقضى والعمرُ أخشى انصرامهْ
اليومَ أرجوكَ لا أن تكون لى فى القيامه
لو قد بَصُرَت بحالى والليل أرخى ظلامه
أنوحُ وجدًا وشوقًا إذ تستريح الحمامهْ
صبٌّ أطالَ هواه على الحبيب غرامه
لمن يتيهُ عليهِ ولا يرد سلامهْ
إن لم تُنيلى أرِيحى فاليأس يثنى زمامه

(١٧) الدوالى : العنب الأسود ، وبنت الدوالى الخمر تأخذ من عصيره .

فأجابته :

يامُدعى فى هوىَ الحسـ ـنِ والغرامِ الإمامهْ
أتى قريضُكَ ، لكنْ لم أرضَ منه نظامهْ
أمدّعى الحبُّ يَثنى يأسُ الحبيبِ زمامه ؟
ضللتَ كلَّ ضلالٍ ولم تُفدْكَ الزعامهْ
مازلتَ تصحبُ مذ كُنْـ ـتَ فى السباق السلامهْ
حتى عثرتَ وأخجلْـ ـتَ بافتضاحِ السآمه
باللهِ فى كل وقتٍ يُبدى السحاب انسجامهْ
والزهرُ فى كلّ حينٍ يشقُّ عنه كمامهْ
لو كنتَ تعرفُ عذرى كففتَ غرْبَ الملامهْ

٥

غيرة !

أغارُ عليكَ من عينىْ رقيبى ومنكَ ومن زمانكِ والمكانِ
ولو أنِّى خبأتُك فى عيونى إلى يوم القيامةِ ما كفانى

٦

تهنئة

وكتبت إلى أبى جعفر تهنئه ، وقد استوزره عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة :

رأستَ فمازال العُداةُ بظُلمهمْ وعلْمهمُ النامى يقولون ما رأسْ
وهل منكَرٌ أن سادَ أهلَ زمانه جموحٌ إلى العليا حرونٌ عن الدنسْ

٧

عتاب !

وكتبت إليه ، وبلغها أنه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور فاعتكف معها أيامًا وليالى ، بظاهر غرناطة ، فى ظل ممدود ، وطيب هوى مقصور وممدود :

يا أظرفَ الناسِ قبل حالٍ   أوقـعـه نحوه الـقـدرْ
عشقتَ سوداءَ مثل ليلٍ   بدائعُ الحُسْنِ قد ستر
لا يظهرُ البشرُ فى دُجاها   كلَّا ولا يُبصر الخفر
بالله قلْ لى وأنت أدرى   بكل مَن هامَ فى الصُّوَر
مَن الذى هام فى جنانٍ   لا نـور فـيه ولا زهر

فكتب إليها بأظرف اعتذار وألطف أنوار :

لا حُكمَ إلّا لآمرٍ ناهٍ   لـه من ذنبه مُعتَذَرْ
لـه محيًّـا بـه حيـاتى   أعـيـذُ مـداه بـالسـورْ
كصحبة العيدِ فى ابتهاجٍ   وطلـعـة الشـمس والقـمرْ
سعدُه لم أمِلْ إليه   إلا اطِّـرافًـا لـه خـبـرْ
عدمتُ صُبحىَ فاسودَّ عِشْـقِىَ   وانعكس الفكر والنظر
إنْ لم تَلُح يانعيمَ رو   حى فكيفَ لا تفسُدُ الفِكَرْ

٨

قبلة !

ثنائى على تلك الثنايا لأننى   أقول على علمٍ وأنطق عن خُبْرِ
وأُنصفها لا أكذبُ الله إننى   رشفتُ بها ريقًا أرق من الخمر

٩
إذا لم تستطع الزيارة

سار شعرى لك عنى زائرًا فأعِزْ سمعَ المعالى شَنَفَهُ [١٨]
وكذا الروضُ إذا لم يستطعْ زوْرةً أرسلَ عنه عَرْفه

١٠
سلامٌ على نازح

سلامٌ يُفتّحُ فى [١٩] زهرة الـكمامَ ويُنطقُ وُرْقَ الغصونْ
على نازحٍ قد ثوى فى الحشا وإنْ كان تحرم منه الجفونْ
فلا تحسبوا البُعدَ ينسيكُم فذلك واللهِ مالا يكون

١١
حبيبة ساهرة

سلو البارقَ الخفّاقَ والليلُ ساكنٌ أظلَّ بأحبابى يذكِّرُنى وَهنا
لعمرى لقد أهدى لقلبىَ خَفْقةً وأمطرنى [٢٠] مُنْهَلٌّ عارضِهِ الجِفنا

١٢
أنت نجم !

ولو لم تكن نجمًا لما كان ناظرى وقد غبتَ عنه مظلمًا بعد نوره
سلامٌ على تلك المحاسنِ من شجٍ تناءتْ بنُعماهُ وطيبِ سرورِه

---

(١٨) الشنف : القرط . (١٩) فى المغرب عن . (٢٠) فى المغرب أمطر عن .

١٣

رثاء وحداد !

هدّدونى من أجل لبس الحدادِ لحبيب لى أردوْهُ بالحدادِ
رحم الله من يجود بدمعٍ أو ينوح على قتيل الأعاد
وسقته بمثلِ جودِ يديْه حيث أضحى من البلاد الغواد

١٤

تهنئة بيوم عيد

وكتبت إلى السيد أبى سعيد[٢١] ملك غرناطة تهنئه بيوم عيد :

ياذا العُلا وابن الخليـ ـفـةِ والإمـام المرتضىَ
يهنيكَ عيدٌ قد جرىَ فيه بما تهوى القضا
وأتـاكَ من تهواه فى قيـدِ الإنابة والرضا[٢٢]
لـيُـعـيـدَ من لـذّاتـه ما قَد تصرّمَ وانقضى

١٥

غُضى جفونكِ !

وسألتها أخت الوزير أبى بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهمدانى إلى حفصة أن تكتب لها شيئًا بخطها فكتبت :

ياربّة الحسنِ ، بل ياربّة الكرمِ غُضّى جُفونَكِ عما خطه قلمى
تصفّحيه بلحظِ الود منعمة لا تحفلى بردىء[٢٣] الخط والكلمِ

(٢١) فى المغرب عثمان بن عبد المؤمن . (٢٢) البيت فى المغرب . (٢٣) فى الإحاطة بقبيح .

وأتاك من تهواه فى طوع الاجابة والرضا

١٦
أمنية

انشدتْ أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ارتجالا بين يديه :

يـاسـيـد الـنـاسِ يامَنْ يؤمِّـلُ الـنـاسُ رِفـدَهْ
امنن على بـطـرْسٍ[٢٤] يـكـون لـلـدّهـرِ عُـدّهْ
تخط يمنـاكَ[٢٥] فـيـه : الحمـدُ لله وحـده[٢٦]

(٢٤) فى التحفة بصك .
(٢٥) فى التحفة تخط يمينك .
(٢٦) الشطر الأخير من هذا البيت كان شعار دولة الموحدين .

ابن خاتمة

شاعر أندلسى من القرن الرابع عشر الميلادى

كتبت هذه الدراسة القيمة المستشرقة الأسبانية سوليداد خيبرت فنيش ، الأستاذة بكلية الآداب بجامعة مدريد الآن ، مقدمة لترجمتها لديوان ابن خاتمة إلى اللغة الأسبانية ، ونشره قسم اللغة العربية والإسلام فى كلية اللغات فى جامعة برشلونه ، برشلونه ١٩٧٥ .

اسمه كاملا : أحمد بن على بن محمد بن على بن خاتمة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف **بابن خاتمة** ، وما وصلنا من أخبار تتصل بحياته قليل ، على الرغم من شهرته ، وتشهد بها الإشارات الكثيرة التى نجدها عنه فى مؤلفات معاصريه . وفى الحق فإن اسم ابن خاتمة يتردد بكثرة غالبة فى كتاب **الإحاطة لابن الخطيب** ، ومثله فى كتابى **المقرى** : **نفح الطيب** ، **وأزهار الرياض** ، والشيء نفسه نجده فى كتب التراجم الأخرى فى عصره .

وأوفى ترجمة نملكها له ، هى التى أوردها **ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة**[1] ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من طولها ظاهرًا ، لا نجد فيها معلومات هامة نودّها ، ولا تعطينا صورة حقيقية لشخصيته ، فهى مجرد مجموعة من الثناء العاطر ، تطرى أخلاقه ، وفضائله ومؤلفاته ، ضائعة فى غمام صور بلاغية معقدة ، تدعنا غير راضين . ومن المحتمل أن الموقف السياسى الدقيق فى الأيام الأخيرة لغرناطة بنى نصر ، أدى إلى شيوع ذوق أدبى يتميز بالغموض .

يقول **ابن الخطيب** فى بدء الترجمة التى خص بها **ابن خاتمة** :

« من أهل المرية ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة .

« هذا الرجل صدر يُشار إليه ، طالب متفنن ، مشارك ، قوى الإدراك ، سديد

(١) طبعة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .

النظر ، قوى الذهن ، موفور الأدوات ، كثير الاجتهاد ، معين الطبع ، جيد القريحة ، بارع الخط ، ممتع المجالسة ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، حسنة من حسنات الأندلس ، وطبقة فى النظم والنثر ، بعيد المرقى فى درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق الإحسان . عقد الشروط ، وكتب عن الولاة ببلده ، وقعد للإقراء ، مشكور السيرة ، حميد الطريقة ، فى ذلك كله »[٢] .

ويقول عنه تلميذه ، وجامع مؤلفاته ، وسنتحدث عنه فيما بعد ، **أبو جعفر أحمد بن زرقاله** :

« فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء زمانه عيالاً عليه ، ويحتاج كل منهم إليه ، تنجلى الأيام من نظمه بأنفس من حلا الليالى ، وتثبته فى المعالى . وكان شاعر عصرنا ببلدنا هذا – عصمه الله ! – الذى رفع شمس الأدب وضحاها ، ومهّد أرض الشعر ودحاها ، فتنفس عنه صبح البيان ، وانبجس من سحاب علمه قطره الهتّان ، وتمتمت له قلوب الأدب بحباتها ، وألقت إليه بأفلاذها وثباتها ، فجرى مع الإحسان فى طلق فريد ، وكان له فيه شأو بعيد ، شيخنا الأستاذ المتفنن الجليل ، ما عرف المثيل ، مشيّد بنيان الأدب الذى أسس معالمه ، **أبو جعفر أحمد بن خاتمة** »[٣]

ويعترف **ابن الخطيب** بفضله فى بيئة هوت ثقافيًا ، ويصرح بذلك عندما يهدى إليه هذين البيتين :

قسمًا بالكواكبِ الزهْرِ والزهرُ عاتِمةْ
إنما الفضل ملّةٌ خُتمت بابن خاتمةْ[٤]

وفى نهاية السطور التى خصه بها فى كتابه **الكتيبة الكامنة** ، وهى تنضح ودًا وإعجابًا ، أطرى تبحره فى العلم ، وقرنه بسيبويه فى النحو ، وأشاد بمكانته الأدبية ، وكرر الفكرة السابقة نفسها : « خبا بوفاته الكوكب الوقّاد ، وألقى إلى الضالة المهملة المقاد ، واستولى

(٢) الإحاطة ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٣) كتاب رائق التحلية فى فائق التورية ، مخطوطة الأسكوريال رقم ٤١٩ ، الورقة رقم ١ أ .

(٤) الاحاطة جـ١ ص ٢٦٤ . والبيتان من بحر الخفيف .

من بعد اليقظة الرقاد ، واستعجل النقاد »[٥] .

وإذا تجاوزنا فقرات الثناء التى أطراه بها الذين ترجموا لحياته[٦] ، ولها ما يبررها تمامًا حين ندرس مستوى مؤلفاته ، لا نجد أخبارًا ، ولا معلومات محددة تصور لنا ما كان عليه فى دنياه ، ولم يذكر لنا أى واحد منهم تاريخ ميلاده . ولكن **بروكلمان** ، **وجيانجوس** ، **ودرنبورج** فى **فهرسه** ، حددوه بأنه عام ٧١٤ هـ - ١٣١٣ م ، على حين أن **يونس بيوجيس** حدده بعام ٧٣٤ هـ - ١٣٣٣ م ، وكلاهما خاطئ دون أدنى شك ، ذلك أن الديوان يحمل تاريخ ٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م ، وليس ممكنًا أن مؤلفه أنشده وله من العمر أربعة أعوام ، ولا حتى أربعة عشر عاما . وجاء الخطأ على التأكيد من الخلط بين تاريخ

---

(٥) طبعة احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٢٣٩ .

(٦) المصادر التى تضمنت أخبارا عن ابن خاتمة ويمكن الرجوع إليها هى :

● ابن الخطيب ، **الإحاطة فى أخبار غرناطة** جـ١ تحقيق محمد عبد الله عنان ، ص ٢٤٧ - ٢٦٧ .

● المقرى ، **نفح الطيب** ، طبعة الشيخ محيى الدين ، القاهرة ١٩٤٩ ، جـ٨ ، ص ١٣٩ - ١٤٨ .
وأزهار الرياض ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، الجزء الأول ، ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٦٥ .
والجزء الثانى ، ص ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٣٠٢ و ٣٠٥ و ٣٤٠ و ٣٤٦ ، والجزء الثالث ، ص ٢٠٢ .

● ابن الخطيب ، **الكتيبة الكامنة** ، ص ٢٣٩ - ٢٤٥ ، طبعة احسان عباس .

● ابن القاضى ، **درة الحجال** ، طبعة ١ ، س . علوش ، الرباط ١٩٣٤ ، جـ١ ، ص ٤٠ الترجمة رقم ١١٦ .

● الجزيرى ، غاية النهاية فى طبقات القراء ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، جـ١ ، ص ٧٨ .

● أحمد بابا التنبكتى ، **نيل الابتهاج** ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٧٢ .

● أحمد عيسى بك ، **معجم الأطباء** ، (ذيل عيون الأنباء) ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ١١١ - ١١٣ .

● ابن الأحمر ، **نثير فرائد الجمان** ، طبعة رضوان الداية ، بيروت ، دار الثقافة ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، الترجمة رقم ٢٠ .

● خير الدين الزركلى : **قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب** ، جـ١ ص ١٨١ .

● بروكلمان ، **تاريخ الأدب العربى** ، جـ٢ ص ٢٥٨ ، والملحق جـ٢ ص ٣٢٩ .

● جيانجوس : **تاريخ الممالك الإسلامية فى أسبانيا** ، لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ ، ص ٣٥٨ .

● يونس بيوجيس : **دراسة حياة وأعمال المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين** ، مدريد ١٨٩٨ ، ص ٣٣١ .

● م . ف . أنتونيا ، **ابن خاتمة المرئى ورسالته عن الطاعون** ، فى مجلة « الدين والثقافة » مدريد ، أكتوبر ١٩٢٨ .

● ج . س . كولان ، **بعض شعراء الغرب من العرب فى القرن الرابع عشر الميلادى** ، هيسبيريس ، المجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ١ - ٣٢ . والمجلد ١٢ ، ١٩٣١ ، ص ٢٤١

● ابن فضل الله العمرى ، **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** ، مخطوطة باريس ، رقم ٢٣٢٧ ، الورقة ٢١٠ .

وذكر ناشر كتاب ابن الأحمر مصدرين لم أستطع الرجوع إليهما ، وهما : **هدية العارفين** لاسماعيل باشا البغدادى ، جـ١ ص ١١٣ ، **وشجرة النور الزكية** ، لمحمد محمود مخلوف ، القاهرة ص ٢٢٩ .

ابن خاتمة شاعرنا وبين تاريخ أخ له أصغر منه ، يُدعى **محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى** ، **أبو عبد الله** ، وهو الشخص الوحيد من أسرة ابن خاتمة الذى نعرف بعض الأخبار عنه(٧) . ويقول **ابن الخطيب** عن هذا الكاتب والشاعر المريِّ الأخير إنه « تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه فى النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتفى واقتدى ، وراح فى الحلبة واغتدى ، حتى نبل وشدى ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبيبة ، مخضر الكتيبة » . وهذا ما يفسر لنا الخلط الذى وقع فى تاريخ الأخوين . لقد توفى محمد ضحية وباء الطاعون عام ٧٥٠ هـ - ١٣٥٠ م ، فإذا كان تاريخ مولده عام ٧٢٤ هـ فذلك يعنى أنه فارق الحياة وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، أو « اعتبط يانع الشبيبة » على حد تعبير ابن الخطيب . وقد أورد **ابن الخطيب** ، ومثله **ابن القاضى** ، بعضًا من قصائده ، تبلغ ثلاثًا عند الأول ، وواحدة عند الثانى ، وكلاهما يصرح بأنه دُفن فى ألمرية ، فى روضة بنى خاتمة ، فى روض الحوض .

وفيما يتصل بموته لا يوجد أيضًا تاريخ مؤكد ، فابن الخطيب فى الإحاطة ، آخر الترجمة التى خصه بها ، وكتبها له ولما يزل حيا وطبقًا لما يصرح به شخصيًا ، يجعله يقع فى ١٢ من شعبان ٧٧٠ هـ - ٢٢ من مارس ١٣٦٩ م .

وأحمد بابا التمبكتى فى « نيل الابتهاج » ، ومثله **أحمد عيسى بك فى معجم الأطباء** ، يقولان اعتمادًا على الحضرمى كمصدر لهما ، إنه توفى فى ٧ من شعبان ٧٧٠ هـ - ١٧ من مارس ١٣٦٩ م . وهو فى الستين من عمره تقريبًا .

---

(٧) يمكن الرجوع إلى ترجمته فى :

- درة الحجال ، جـ ١ ص١٩٤ ، الترجمة رقم ٥١٨ .
- نفح الطيب ، جـ ٨ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .
- ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، حيدر أباد ، ١٩٣١ ، جـ ١ ص ٢٠١ ، الترجمة رقم ٤٠٩٥ . وفى هذه الترجمة لا يشير إلى لفظ ابن خاتمة ، وإنما جاءت تحت اسم محمد ابن محمد بن على بن حامد الأنصارى ، أبو عبد الله المرِى ، ويقول انه تربى على يد أخيه أحمد ، واستطعت فى سهولة أن أعرف شخصيته ، فضلا عن أن الأشعار المنسوبة إليه هنا هى نفسها الموجودة فى نفح الطيب ، وفى الإحاطة ، مخطوطة الاسكوريال الورقة ٥٤ ، ومخطوطة باريس ، الورقة ٤٧ ب و ٤٨ أ .

كيف نوفق بين هذا التاريخ وبين ما يقوله **ابن الخطيب** ؟ . ومن جانب آخر ، فإن الجزيرى فى كتابه **غاية النهاية** يوقعنا فى اضطراب كبير عندما يصرح فى ترجمته ، رقم ٣٩٥ ، وطبقًا لمعلومات حصل عليها من تلميذ لابن خاتمة نفسه ، يدعى : أبا عبد الله محمد بن ميمون (٨) ، أنه توفى فى عام ٧٦٨ هـ ، أو ٧٦٩ هـ ، وله من العمر سبعون عامًا تقريبًا . وهذا التاريخ يبدو غير ممكن إذا أخذنا فى الحسبان قول ابن الخطيب ، أنه كان لايزال حيًا فى ١٢ من شعبان عام ٧٧٠ هـ . وفيما يبدو فإن رواية الحضرمى أكثر احتمالا ، ولو أن اليوم الذى حدده وهو السابع من شعبان لا يبدو محتملا . وفيما يتصل بعمره ، يرى بعضهم أنه عاش ستين عامًا ، على حين يرتفع بها آخرون إلى سبعين ، ولا يمكن الجزم بأى منهما . ومن تاريخ جمع الديوان ، وهو ٧٣٨ هـ – ١٣٣٧ م ، يمكن القول بأن الأكثر احتمالا أن ابن خاتمة رحل عن الحياة وهو فى حوالى السبعين عامًا من عمره .

ويتحدث عنه ابن الخطيب فى كتابه الكتيبة الكامنة ، وألفه بعد كتاب الإحاطة ، وقد فارق الحياة ، وخصه بأبيات عرضنا لها فيما سبق (٩) .

كما رأينا ، فى ضوء الأخبار التى أمدنا بها من ترجموا له ، وبالنظر إلى الموضوعات التى عالجها فى مؤلفاته ، كان **ابن خاتمة** شاعرًا وناثرًا ومؤرخًا ، ورياضيًا وطبيبًا ، وكاتبًا ومقرئًا ، وطبقًا لما أورده **أحمد عيسى بك** ، **وأحمد بابا التمبكتى** ، وكان له فى المدينة مجلس يتوافد عليه عامة الناس ، وكان جميل الوجه ، سخيًا مع أصدقائه ، لطيفًا فى لقائه بهم .

○ شيوخه :

أورد لنا ابن الخطيب أو فى قائمة بشيوخه ، وهم :

أبو الحسن ، على بن محمد بن **أبى العيش** ، الأنصارى ، المربى ، المتوفى عام

---

(٨) عن هذا الأديب والمقرى والمحدث الغرناطى ، والذى توفى فى اليمن عام ٧٩٠ هـ أو ٧٩٣ هـ ، بعد أن رحل وجال فى تونس ودمشق ومصر ، انظر : غاية النهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٩) ص ٢٣٩ ، الطبعة التى أشرنا إليها فيما سبق .

٧٤٠ هـ – ١٣٣٩ م ، وهو من مرسية ، وأقام فى المرية ، عندما سقطت مدينته فى يد النصارى . وتولى قضاء المرية ، وكان يشغله قبله أبو جعفر بن فركون القيسى ، من جلة العلماء ، وله مشاركة فى علوم الفلسفة(١٠)

أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد بن على بن محمد بن عبد الرحمن ، التنوخى ، ويعرف **بابن أبى العاصى** ، المتوفى ٧٢٦ هـ – ١٣٢٥ م ، أصلا من جزيرة طريف ، ومن كبار القوم فيها ، رحل عنها عند استيلاء النصارى عليها فى عام ٦٧١ هـ – ١٢٧٢ م ، وتحول إلى مدينة سبتة ، وورد الأندلس فاستوطن غرناطة ، وكتب فى الجملة عن سلطانها . وتولى الإمامة والخطابة فى مسجدها الجامع ، عام ٧١٦ هـ – ١٣١٥ م ، وطبقا لما أورده ابن القاضى بدأ يؤلف كتابًا عن الأسرة النصرية ، ولكنه توقف عن محاولته . وكان تقيًا ، زاهدًا فى الدنيا ، مواسيًا الفقراء ، « يتزاحمون عليه فى طريقه ، ويتمسحون به ، ويسعون بين يديه ومن خلفه ، ويتزاحم مساكينهم على بابه ، قد عودهم طلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقوته ، يفرقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجزوه قبل استواء خبزه ، فيفرقه عليهم عجينًا » . وفى عام ٧٢١ هـ – ١٣٢٠ م ، انتقل إلى المرية ، وكان إلى هذا شاعرًا ، وأغلب شعره فى الحكمة(١١) .

محمد **بن جابر** بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسن* القيسى ، الوادى آشى ، المتوفى عام ٧٤٩ هـ – ١٣٤٨ م ، تونسى المولد ، وحج إلى مكة ، وجال فى البلاد المشرقية ، « ولقى أمة من العلماء والمحدِّثين ، وأصبح بهم شيخ وحده ، انفساح

---

(١٠) لمعرفة المزيد عن ابن أبى العيش انظر .
● درة الحجال ، ج ٢ ، الترجمة رقم ١٢٣٤ .
(١١) عن ابن أبى العاصى التنوخى انظر :
● درة الحجال ، جـ ١ ، الترجمة رقم ٢٣٢ .
● الاحاطة فى أخبار غرناطة ، طبعة عبد الله عنان ، جـ ١ ، ص ٣٨٢ – ٣٨٥ .
● غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٢٤ ، الترجمة رقم ١٠٠ .
● الكتيبة الكامنة ، ص ٣٢ .
* فى الجزء الرابع من الاحاطة ، طبعة عبد الله عنان ، ص ١٦٣ ، حسان بدل حسن .

« المترجم »

رواية وعلو إسناد » . وكان مقرئًا متمكنًا ، أديبًا متميزًا ، ورجلا تقيًا ، وحفظ لنا عنه **ابن القاضى** فى كتابه **درة الحجال** بيتًا من الشعر ، كان ابن عساكر الدمشقى يردده ، عندما ودعه وابن خاتمة فى ألمرية ، وكان الوداع ، طبقا لابن خاتمة ، فى رابطة بالمرية تسمى « رابطة الوداع » . (١٢)

أبو القاسم ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد القيسى ، ويعرف **بابن شعيب** ، من أسرة عريقة فى المرية ، وتولى الخطابة فى المسجد الجامع فى المرية ، وبها شغل منصب القضاء ، وقبل ذلك كله كان تقيًا وزاهدًا ، لم يفارق وطنه أبدًا ، وكان مستقيم السلوك دائمًا . (١٣) .

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ، أبو جعفر ، ويعرف **بابن فركون** ، توفى عام ٧٢٩ هـ – ١٣٢٨ م ، وهو من المرية ، ثم انتقل إلى غرناطة ، وهو من العائلات الشريفة ، ولذلك استحق لقب « القرشى » . وشغل منصب القاضى فى رندة ، ومالقة ، والمرية ، وأصبح خطيب المسجد الجامع فى غرناطة ، وظل فى منصبه هذا إلى أن عزل عنه بسبب الأحداث التى أدت إلى خلع **نصر ملك** غرناطة عن العرش ، وتولية حفيده إسماعيل الأول (٧١٣ هـ – ١٣١٤ م) مكانه ، وكان وفاؤه للسلطان المخلوع سببًا فى إبعاده عن المنصب ، ومنذ هذه اللحظة طواه النسيان . وقد عُرف بالفقه ، وكان شاعرًا .

---

(١٢) عن ابن جابر ، وهو مؤلف كتاب معروف عن رحلته ، انظر :

- بونس بوجيس ، دراسة عن حياة ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين ، الترجمة رقم ٢٧٩ .
- درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة رقم ٥٢٧ .
- نفح الطيب ، طبعة محيى الدين جـ ٨ ، ص ١٢٥ .
- جيانجوس ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وهو الترجمة الانجليزية للقسم الأول من نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٥٣٩ .
- غاية النهاية ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .
- الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٣٦٥ .

ويقول العسقلانى أنه قام برحلتين ، وطبقا لابن الخطيب مات ضحية الطاعون ، ويقول آخرون أنه مات شهيدا .

(١٣) عن ابن شعيب انظر :

- درة الحجال ، جـ ٢ ، الترجمة رقم ٩٧٥ ، والجزء ١ الترجمة رقم ٤٩٤ ، وهى خاصة بوالده .

مرتجلاً ، ومحبًا للجمل ذات الكناية ، ويستخدم التورية عندما يتحدث إلى أصدقائه [١٤] .

محمد بن محمد **بن سهل** بن مالك الأزدى ، أبو القاسم ، ويعرف بالوزير ، توفى عام ٧٣٠ هـ - ١٣٢٩ م ، ويعرف بيتهم ببنى مالك الوزير ، وهو من غرناطة أصلا ، ثم رحل إلى المشرق ، وتوفى إثر عودته من الحج ، وكان أديبًا ، تقيًا وزاهدًا ، « لا يقبل من أحد شيئًا ويعطى كل شىء » [١٥]

أبو البركات ، ابن الحاج **البلفيق** ، توفى عام ٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م ، وكان قاضيًا شهيرًا ، ومؤرخًا وشاعرًا ، وكان وثيق الصلة بابن خاتمة ، وارتبطت حياتهما معا ، ودرستُ حياته على نحو مفصل فى مقال لى نشر بمجلة الأندلس Al-Andalus المجلد الثامن والعشرين ، عام ١٩٦٣ ، الصفحات من ٣٨١ إلى ٤٢٤ .

ويذكر ابن القاضى أيضًا ، محمد بن محمد بن عبد الواحد ، أبو القاسم البلوى ، المتوفى عام ٧٤٧ هـ - ١٣٤٦ م ، كأستاذ لابن خاتمة ، وكان قاضيًا لمدينة بيرة Vera ، ثم المرية ، ورحل حاجًا إلى مكة [١٦] .

وأخيرًا ، يذكر ابن القاضى نفسه أستاذًا آخر لابن خاتمة ، هو : أبو عثمان ، سعد بن

---

(١٤) عن ابن فركون انظر :
- الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٣ .
- النباهى ، المراقبة العليا ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .
- درة الحجال ، ج ١ ، الترجمة ٤٨ .
- نيل الابتهاج ، ص ٦٤ - ٦٥ .
- اللمحة البدرية ، ص ٥٠ - ٥٨ .
- الكتيبة الكامنة ، ص ١٠١ .

(١٥) عن ابن سهل انظر :
- درة الحجال ، جـ ١ ، الترجمة ٥٢٥ .
- غاية النهاية ، جـ ١ ص ٢٤٠ .
- الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ١٧٨ ، الترجمة ٤٨٣ .

(١٦) درة الحجال ، الترجمة رقم ٥١٥ .

أحمد بن ليون التجيبى[١٧] . وقد خصه المقرّى . فى كتابه **نفح الطيب** بصفحات طويلة نقلها نصًا عن ابن الخطيب ، وأورد له عددًا كبيرًا من الأبيات والمقطوعات ، فى الحكمة ، وخطرات فلسفية ، وتأملات فى حوادث زمانه ومصائبه ، نقلها من مؤلفاته التى تتصل بهذه الموضوعات ، وعناوينها :

١ – كمال الحافظ ، وجمال اللافظ ، فى الحكم والوصايا والمواعظ .

٢ – نصائح الأحباب ، وصحائح الآداب ، وهو موجز للكتاب السابق .

٣ – أنداء الدِّيَم فى الوصايا والمواعظ والحكم .

هذه الأشعار ، وترجم بعضها إلى الإسبانية من قريب إميليو غرسية غومث (الأندلس ، المجلد ٢٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١ – ٧٥) ، تعكس شبهًا قويًا فيما يتصل بموضوعات وأسلوب القسم الرابع من ديوان ابن خاتمة . ومن جانب آخر ، نقرأ فى السطور الأخيرة من الترجمة التى أوقفها المقرى على ابن ليون ، أنه : أوقف مدائحه على الرسول فحسب . وهى نفس حال ابن خاتمة فى القسم الأول من ديوانه ، وعنوانه « فى المدح والثناء » ، وهو يضم قصائد فى ذكر الله وشكره ، والثناء على نبيه فحسب . وكلا الأديبين من المرية ، وعاشا فى عصر واحد ، وينهلان فى أسلوبهما من نفس المعين ، ويمكن أن نضعهما بين مجموعة من الشعراء والكتاب أعطوا هذه المرحلة الأخيرة من حياة الأدب الإسبانى طابعه الأدبى المميز .

وكان لابن خاتمة جلساء وصداقات عديدة بين الشخصيات العاملة فى بلاط غرناطة ، أو على صلة به ، وفضلا عن ابن الخطيب ، وأشرنا إلى شواهد صداقته ومظاهرها ، وعن

---

(١٧) عن ابن ليون انظر :

- نفح الطيب ، جـ ٨ ، ٥٨ – ١١٤ .
- درة الحجال ، جـ ١ ، الترجمة ٣٥٢ .

وقد ألف ابن ليون كتابا عن الفلاحة ، ترجمته الآنسة خواكينا ايجوارس إلى الأسبانية وكان موضوعها للدكتوراة ، وابن ليون شخصية هامة بين أدباء مملكة غرناطة . وانظر عنه أيضا :

- الكتيبة الكامنة ، ص ٨٦ – ٨٧ .
- نيل الابتهاج ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .
- ترجمته فى مقال غرسية غومث المشار إليه ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ٣٧ ، عام ١٩٧٢ .

أبى البركات ابن الحاج ، وعلى الترجمة له أوقفت مقالا كاملا ، وعنه أخذت الجانب الأكبر من الروايات المتعلقة بهما ، فى لحظات كثيرة من حياتيهما ، فضلا عن هذين نذكر :

أبا عبد الله محمد بن **جُزَى** الكلبى[١٨] ، من أشهر أبناء أسرة بنى جُزَى العريقة ، **فهو** ابن أبى القاسم محمد ، الشاعر الذى وقف قصائده على مدح السلطان أبى الحجاج يوسف ، وقد استشهد الوالد فى الوقيعة الكبرى بطريف ، والتى تعرف فى المصادر الإسبانية باسم معركة « سلادو » ، عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م .[١٩]

أبو عبد الله محمد بن جُزَى ، غرناطى ، وشاعر البلاط فى غرناطة أولا ، ثم شاعر السلطان المرينى أبى عنان فى فاس من بعد ، وقد توفى فى هذه المدينة عام ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م ، وكان هو الذى حرّر **رحلة ابن بطوطه** ، سنة ٧٥٦ هـ = ١٣٥٦ م ، أى قبل عامين من وفاته . وليس هنا المكان المناسب لكى نفصل القول فى محمد بن جزى

---

(١٨) انظر ترجمته فى :
- نفح الطيب ، ج ٨ ، ص ٤٠ - ٥٤ .
- أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ - ٢٠٤ .
- درة الحجال ، الترجمة رقم ٧١٥ .
- الكتيبة الكامنة ، ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .
- نثير فرائد الجمان ، ص ٢٩٢ - ٣٠٦ .
- نيل الابتهاج ، ص ١٠٥ .
- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ص ٢٣٣ .
- بونس بيوجيس ، دراسة ، الترجمة رقم ٢٨٤ .

(١٩) درة الحجال ، الترجمة ٥٥٣ .
- نفح الطيب ، جـ ٨ ص ٢٨ .
- أزهار الرياض ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .
- الكتيبة الكامنة ، ص ٤٦ - ٤٨ .
- الديباج ، ص ٢٩٥ .
- نيل الابتهاج ، ص ٢٣٥ .
- الإحاطة ، مخطوطة باريس ، الورقة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وأخباره ، وهو شخصية بالغة الأهمية ، وقد لعب مع أخويه عبد الله[٢٠] وأحمد[٢١] دورًا باهرًا فى الحياة الأدبية فى مملكة غرناطة .

وقد أشار المقرى[٢٢] إلى الصداقة التى ربطته مع ابن خاتمة ، وأورد لنا رسالة وجهها هذا إلى ابن جزى ، تغلب عليها الصناعة اللفظية ، وتتزاحم فيها الجمل ذات التورية ، وتستخدم أسلوبًا طالما استخدمه الأدباء العرب فى كل العصور ، ولكنه وجد بين أدباء هذا العصر إقبالاً حميمًا . ويقول المقرى ، إنه رد بها على قصيدة زائية كان ابن جزى قد بعث بها إليه ، ردًا على قصيدة تلقاها منه ، جاءت فى قافية الراء ، وقد حرص ابن جزى على أن تجىء قصيدته خالية من حرف الراء تمامًا ، لأنه لم يكن يستطيع أن ينطقها صحيحة ، وكان يبدلها غينًا . وثمة قصيدة أخرى توجه بها ابن جُزى إلى السلطان أبى الحجاج يوسف[٢٣] ، وتؤكد حكاية حرف الراء هذه ، لأن الشاعر استطاع أن يتجنب فيها ، وجاءت فى أربعة وثلاثين بيتًا ، استخدام أية كلمة تجئ الراء بين حروفها .

ومن جانب آخر ، فإن **ابن الأحمر**[٢٤] ، وخص ابن جُزَى بترجمة مطولة ، أورد لنا رسالة كتبها هذا إلى لسان الدين بن الخطيب ، وليس فيها كلمة واحدة تجىء السين بين حروفها . فالأمر كما نرى ، ليس مجرد إبعاد حرف معين لا يستطيع الكاتب نطقه صحيحًا ، وإنما استجابة لذوق خاص ، مغرم بمثل هذه الغرائب ، والتى نجد لها شبيهًا أيضًا بين كثير من الأدباء الإسبان . ولنتذكر مثلا أن كاستيو سلورثانو C. Solorzano

---

(٢٠) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٥٤ .
● الكتيبة الكامنة ، ص ٩٦ - ٩٩ .
● نيل الابتهاج ، ص ١٢٩ .
(٢١) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ١٣١ .
● أزهار الرياض ، جـ ٢ ص ١٨٧ .
● درة الحجال ، الترجمة ٨ .
● الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٨ .
● الكتيبة الكامنة ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .
(٢٢) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ١٤٤ .
(٢٣) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٤٢ - ٤٣ .
(٢٤) نثير فرائد الجمان ، ص ٣٠٣ - ٣٠٦ .

ألغى حرف R فى روايته « مزرعة لورLa quinta de Laura» ، وأن نبرّيت ريبيرا Novarrete Ribera يستخدم حرف a فى روايته الحسان الثلاثة Los tres hermanas ومثله صنع ثريتا دى أرو Zurita de Haro فى روايته « فضائل تصنع الجوائز Méritos disponen premios ، وكان روبين داريو Rubén Dario مولعًا للغاية بتلاعب الألفاظ هذا ، وأن خردييل بونثيلا Jardiel Poncela برّر حب هذا الأسلوب المتكلف قائلا : « كما يحدث فى التطريز على الخيش ، حين تنزع بعض الزهور الحمراء أو الزرقاء ، وتصنع مكانها أخرى » ، وعن هذا العمل المسلى يقول كاتبنا نفسه : (حين تكتب قصة عادية ، ثم تحولها إلى قصة أخرى لا تضم حروف aes أو ies تكون كمن يستجيب لشعار التشجيع عند فنانى السيرك : مزيدًا من الصعوبة ! » .

هذا الأسلوب المتكلف ، كان اللعبة المفضلة ، فيما يبدو ، عند الأدباء الأندلسيين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ولم يستطيع ابن خاتمة أن ينجو من تأثير هذه البيئة ، وفى الفصل الثالث من ديوانه يمكن أن نجد شواهد عديدة على هذا الأسلوب الأدبى (٢٤) .

ونذكر بين أصدقاء ابن خاتمة أيضا : أبو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ - ١٣٧٨ م ، وهو عالم مالقى ، وشخصيته متميزة فى بلاط بنى مرين ، وإليه أهدى ابن خاتمة ديوانه(٢٥) .

أما فيما يتصل بتلاميذه ، فلا نعرف منهم غير أسماء ثلاثة فحسب : أخوه محمد ، وأشرنا إليه من قبل ، وأبو عبد الله محمد بن ميمون (٢٦) ، وأبو جعفر أحمد بن زرقالة (٢٧) .

(٢٤ م) مثل هذه الغرائب الأدبية ليست وقفا على عصور الانحطاط ، والشاعر القرطبى العظيم ابن شهيد ، المتوفى ٤٢٦ هـ - ١٠٣٥ م ، نظم أربعين بيتا على البديهة ، ليس فيها حرف يعجم أولها . (الحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ٢٥٩ ، الترجمة رقم ٦١٣) .

(٢٥) عن ابن رضوان انظر فيما بعد ، ص ١٢٤ الهامش رقم ٤٥ من هذا الكتاب .

(٢٦) انظر ص ١٠١ الهامش رقم ٨ من هذا الكتاب .

(٢٧) لم أستطع تحديد هوية تلميذ ابن خاتمة هذا ، وهو الذى جمع مختارات توريانه فى كتاب وصلنا بعنوان : « كتاب =

ولم أستطع أن أجد أخبارًا تتصل بسلفه ، فليس لوالده ترجمة ، ولا لأجداده ، وقد استرعى انتباهى إشارة ربما تتصل بأسرته ، فى مقال نشره خوسيه مارية كوسيو Jose M. Cossio فى مجلة الأندلس ، المجلد السابع ، ١٩٤٢ ، الصفحات ٥٠ – ١١٢ [٢٨] ، وعنوانه : « الأسرى المسلمون ، فى القرن الثالث عشر » ، فقد وجدت فى هذا المقال اسم من يدعى ابن خاتمة من المرية .

تقول المخطوطة ، عندما بيَّنتْ كيف حصل مسلم من ألمرية على كل من بنيتو Benito ودومينجو Domingo :

« قبل أعياد الميلاد بثمانية أيام ، عام ١٣٢١ ، خرج من مرسية ، هو وميجيل ، ذهبا للصيد فى البحر ، ومعهما حصانان ، وهما ذاهبان إلى وادى رولاَق Rolac التقيا مع يوسف مقدم بيرة al mocadén de Vera ، وعرض لهم فرسان ورجّالة من المسلمين ، فأسروا هذين المسيحيين ، وحملوهما إلى بيرة ، وباعوا بنيتو بأربعة دوبل doble وربع ، وميجيل بأربعة دوبل ، وحملوهما إلى المرية ، وباعوا بنيتو إلى مسلم آخر ، يسمى ابن خاتمة بأربعة دوبل ونصف ، وهذا باعه إلى « أبو الحزم بخمسة دوبل . . » .

وفى ضوء تاريخ الوثيقة من الممكن أن نقول إننا بصدد والد ابن خاتمة صاحبنا .

○ البيئة السياسية والثقافية :

كما رأينا جرت حياة **ابن خاتمة** بين أعوام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م و٧٧٠ هـ =

= **رائق التحلية ، فى فائق التورية** » . وعن الشخصيات التى تحمل اسم ابن زرقالة ، أنظر مقالى : مجموعة من التوريات لأبى جعفر أحمد ابن خاتمة فى : « دراسات مستشرقية ، مهداة إلى ذكرى ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٦ » .

(٢٨) وهو يدرس كتاب ف . سبا ستيان دى برجارة وكتبه فى مدريد عام ١٧٣٦ م ، وعنوانه :

Miraculos romanceados de Como sacô Sto. Domingo Los cativos de la Catividad et fizolos escribir Pero Martin monje del monasterio, P. 2.

* الدوبل عملة ذهبية كانت سائدة خلال مملكة غرناطة ، فى الجانبين الإسلامي والمسيحي من الأندلس ، وتساوى الجنيه الذهبي فى عصرنا تقريبا . المترجم

١٣٩٦ م ، أو إن شئت شغلت قمة القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى . وكانت الأحداث السياسية فى هذه الفترة من أشد أحداث المملكة النصرية اضطرابًا ، وكان المناخ فى غرناطة شديد الشبه جدًا بما كان عليه فى **قشتالة** نفسها [٢٩] .

وإذا ألقينا نظرة عجلة على تاريخ هذه الفترة وجدنا فيها : مملكة **محمد الثالث** وسياسته الاستعمارية ، وتدخل المرينيين ، ثم حكومة **نصر** (١٣٠٩ – ١٣١٤ م) ، واحتلاله مدينة سبتة ، حصار فرناندو الرابع فى أيامه مدينة الجزيرة الخضراء ، واستيلاءه على **جبل طارق** ، وفى هذه الأيام أيضًا حاصر **خايمة الثانى** مدينة ألمرية ، وهو حادث لابد أن شاعرنا عرفه ولما يزل صبيًا . وحكومة **إسماعيل الأول** (١٣١٤ – ١٣٢٥) ، والتدخل فى **سياسة الأميرين** خوان وبدور الوصى على **ألفونسو الحادى عشر**. وعصر **محمد الرابع** (١٣٢٥ – ١٣٣٣ م) ، والذى اغتيل بعد أن احتلت قوات ألفونسو الحادى عشر جبل طارق ، والأحداث الهامة التى وقعت فى سنوات **أبى الحجاج يوسف** (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) ، **ومحمد الخامس** (١٣٥٤ – ١٣٩١ م) ، وأدرك **ابن خاتمة** سنوات ملكه فى قمة نضجها . إنه العصر الذى حدثت فيه **وقيعة طريف** ، أو معركة سلادو كما تسميها المصادر الإسبانية ، وحصار جبل طارق ، وشهد موت ألفونسو الحادى عشر ضحية وباء الطاعون الذى وصفه لنا ابن خاتمة فى رسالة من أشهر مؤلفاته . وشهد ألوانًا من النضال ومن الاضطرابات ومن الرذائل فاض بها عصر **محمد الخامس** ، وقد عزله عن العرش **أخواه إسماعيل ومحمد البرميخو** (١٣٥٩ – ١٣٦٢ م) ، ونفى محمد الخامس إلى المغرب ، ثم عودته مع وزيره لسان الدين ابن الخطيب . كان عصر كفاح ومناخًا فياضًا بالانفعال . وفيه ارتفعت الحمراء ، وبنى بدور القاسى قصره Alcàzar فى إشبيلية ، وبدأ الأدب الأندلسى على الرغم من توهج أشكاله اللامعة ، المطرزة بألوان البلاغة الفخيمة ، يأخذ طريقه نحو الانحدار والسقوط فى وضوح ، وولد الأدب القشتالى ، وكات متأثرا

(٢٩) للمزيد عن مملكة غرناطة انظر الدراسة الممتازة التى قامت بها راشيل أربيه : أسبانيا الإسلامية فى عصر بنى نصر (١٢٣٢ – ١٤٩٢) ، باريس ١٩٧٣ . ولدراسة عصر محمد الخامس انظر : مملكة غرناطة فى عصر محمد الخامس ، لأحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧٣ .

بالأدب العربى على نحو قوى عميق ، ولدينا من أعلامه : كاهن هيتا ، وبيرو لوبث دى أيالة ، ودون خوان منويل ، وسام توب دى كاريون* .

أين نضع **ابن خاتمة** فى هذا المناخ السياسى والثقافى ؟ نحن نعرف عن طريق ابن الخطيب أنه كان يتردد على البلاط الغرناطى ، وكان ينظر إليه فى عاصمة بنى نصر على أنه من خيرة الأدباء الذين ازدهروا فى الأندلس ، ومع ذلك لا نراه أبدًا يأخذ بأدنى حظ من السياسة العكرة فى تلك الأيام ، وليس لدينا أية معلومات تجعلنا نشك فى أن طموحًا ما كان يحركه أو وراء خطاه . ولكن ذلك لا يعنى أبدًا أنه كان يعيش على هامش الأحداث . ولقد احتفظ لنا كل من **ابن الخطيب والمقرى**[٣٠] بالرسائل التى كان يتبادلها **ابن خاتمة** والأول منهما . وهذه الرسائل يمكن أن تعد نموذجًا للبلاغة المتكلفة التى كان يستخدمها الأدباء على أيامه ، فى هذا العصر ، وكان ابن خاتمة أحد أعلامه ، وفيها تجىء الأفكار والمعانى ضائعة فى طوفان من ثراء اللغة ، وفيضان الصور ، وجموح الخيال .

ونعرف من الذين ترجموا لحياته أنه تولى منصب **مقرئ فى جامع المرية** ، وأنه كان كاتبًا ، ويبدو أنه لم يشغل هذا المنصب الأخير لزمن طويل ، وأورد لنا المقرى أبياتًا تتصل باعتزاله له ، يقول : « ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة ، وطلب إليه أن يعود فأبى وأنشد :

تقضّى فى الكتابة لى زمانٌ   كشانِ العبدِ ينتظر الكتابهْ

* لمعرفة كاهن هيتا انظر : د. الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤٢ وما بعدها ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ .

بيرو (أو بدرو) لوبث دى إيالة (١٣٣٢ – ١٤٠٧ م) رجل دولة ، وأديب أسبانى ، وله كتاب « تاريخ قصر » Rimado de Palacio .

خوان منويل (١٢٨٢ – ١٣٤٨ م) ، حفيد الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وكان سياسيا وكاتبا ، ومن أشهر مؤلفاته « الكوندى لوكارنو » ، وهو مجموعة من الحكايات ، متأثرة بالأدب العربى فى جانب منها ، وترجمة حرفية لنصوص عربية فى جانب آخر .

سام توب ، يهودى ، كان ربانا ليهود كاريون ، وعاش فى حماية بدرو الأول ملك قشتالة ، وألف : « أمثال خلقية ، أو نصائح ومواعظ للملك بدرو » ، وهى فى جملتها مقتبسة من العربية .

(٣٠) الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٢٤٩ – ٢٥٢ ، ٢٦١ – ٢٦٨ . ونفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ١٤٥ – ١٤٨ .

فمنَّ الله من عتق بما لا يطيقُ الشكرُ أن يملا كتابه
وقالوا : هل تعود فقلتُ : كلاَّ وهل حرٌّ يعود إلى الكتابه (٣١)

كما يمكن أن نرى ، يبدو أن **ابن خاتمة** لم تكن لديه أية رغبة فى أن ينضم أو يشغل أية وظيفة ، وتعكس قصائده النبرة نفسها ، فلا يطل من بينها ملق ولا مديح أبدًا ، والهدف الجوهرى منها دائمًا الحصول على العطاء ، أو الوصول إلى مكان مرموق .

والأخبار القليلة المتصلة بأحداث حياته ، تجىء ملفوفة فى فيض جارف وقطيع من الصور البلاغية المعقدة .

وعندما نمضى مع **ابن الخطيب** بعد الحديث عن شيوخ **ابن خاتمة** ، نجد بعض الأشعار ورسالة كتبها هذا ، بعد زيارة حاشية السلطان للمرية ، وكان ابن الخطيب يرافق السلطان ، وعبّر شاعر المرية عن بهجته بلقائه (٣٢) . وتحمل الرسالة تاريخ ١٠ من ربيع الأول ٧٤٨ هـ = ٢٠ من يونية ١٣٤٧ م ، وأورد ابن الخطيب بعدها طائفة من أشعار ابن خاتمة ، تبلغ فى مجموعها إحدى عشرة بين قصيدة ومقطوعة ، وبعضها لا يوجد فى الديوان .

ويشير ابن **الخطيب** بعدها كيف أن **ابن خاتمة** عقب انصرافه من **غرناطة** ، فى بعض قدماته عليها ، حضر مجلسًا فى دار ابن الخطيب ، وكتب إليه ببعض الأشعار التى نظمها بعض من حضر المجلس . ولم يقل من هو هذا الشخص ، وقد يكون ابن خاتمة نفسه ، وفى هذه الأبيات يصف قصر ابن الخطيب فى « **عين الدمع** » من غرناطة (٣٣) . وفى المكان

---

(٣١) الأبيات من بحر الوافر . ومثل هذه الأبيات نجدها لأستاذه أبى البركات البلفيقى ، وترجمتها إلى الأسبانية ، انظر : مجلة الأندلس ، المجلد ٢٨ ، عام ١٩٦٣ ، ص ٣٩٧ .

وهذه الأبيات تتضمن تورية ، ويمكن أن تفهم على معنيين الكتابة ، وهى الوظيفة الإدارية المعروفة ، أو الاتفاق على أن يسترد حريته من كان رقيقا مقابل شىء . ومن ثم فإن البيت الأخير يمكن أن يترجم فى الأسبانية على ضربين ، يأخذ فى كل مرة منهما أحد المعنيين دون الآخر .

(٣٢) الاحاطة جـ ١ ص ٢٦٠ ، نفح الطيب ، ج ٨ ص ١٤٧ .

(٣٣) عن رحلة ابن الخطيب إلى المرية رفقة السلطان أبى الحجاج يوسف ، الذى خرج من غرناطة فى ١٧ من محرم عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٨ م ، انظر : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ، نشرها أحمد مختار العبادى ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٧ - ٣٥ .

نفسه ، ومازلنا مع رواية لسان الدين بن الخطيب ، دُعِىَ إلى وليمة مع جماعة من الأصدقاء ، وكان من بينهم شيخه أبو البركات ابن الحاج البلفيقى ، الذى اعتذر عن الأكل بأنه صائم ، قد بيته من الليل ، وحينئذ حضرت **ابن خاتمة** هذه الأبيات :

دعوْنا الخطيبَ أبا البركاتِ ... لأكْل طعام الوزير الأجلْ
وقد ضمّنا فى نداه جنانٌ ... به احتفل الحسنُ حتى كملْ
فأعرض عنّا لعذر الصيامِ ... وما كل عذرٍ له مستقل
فإن الجنانَ محلُّ الجزاءِ ... وليس الجنانُ محلَّ العملْ

وعندما فرغوا من الطعام أنشد الأبيات شيخَه ، فقال له **أبو البركات** : « لو أنشدتنيها ، وأنتم بعد لم تفرغوا منه ، لأكلت معكم برا بهذه الأبيات ، والحوالة فى ذلك على الله تعالى » (٣٤) .

وفى نهاية القسم المتعلق بترجمة حياته أورد لنا ابن الخطيب رسالتين :

إحداهما توجه بها **ابن خاتمة** إلى **ابن الخطيب** نفسه والأخرى ردّ من هذا عليها .

وطبقًا لما يقوله ابن الخطيب نفسه ، كتبها ابن خاتمة بمناسبة عزم ابن الخطيب على الخروج من الأندلس متوجهًا إلى الحج .

وهى رسالة طويلة متكلفة ، طافحة بالاستعارات والتوريات ، وفيها يحاول **ابن خاتمة** أن يثنى **ابن الخطيب** عن إصراره فى الانقباض عن الخدمة ، والتيه على السلطان والدولة . ويبدو واضحًا فيما نلحظ هنا ، قلة غرام ابن خاتمة بالرحلات ، وسجل فى بعض

= ● والواقع أن الأبيات لابن خاتمة نفسه ، وإذا لم يتضمنها الديوان الأصلى فهى موجودة فى المصادر الأخرى ، وجاءت الأبيات ضمن رسالة توجه بها ابن خاتمة إلى لسان الدين ابن الخطيب ، ومطلع الأبيات :

أقول « وعين الدمع » نصب عيوننا ... ولاح لبستان الوزارة جانب

وهى مقطوعة فى سبعة أبيات ، انظر :

● نفح الطيب ، جـ ٦ ص ٣٦ ٣٨ ، طبعة محيى الدين .
● الكتيبة الكامنة ، ص ٢٤٤ طبعة احسان عباس .
● نيل الابتهاج ، ص ٧٢ - ٧٣ .

المترجم

(٣٤) الاحاطة ، ص ٢٦٠ - نفح الطيب ، جـ ٨ ص ١٤٨ - رائق التحلية ، الورقة ٤ أ .

المناسبات كراهيته للبعد عن وطنه « وما فارق ذوو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم » .

ونذكر أنه حاول أن يصرف شيخه **أبا البركات** عن رحلة له إلى المشرق[٣٥] ، ولا نعرف عنه أنه غادر الأندلس أبدًا ، وعندما ترك صديقه **ابن الخطيب** الأندلس إلى المغرب كتب إليه أن يعود إلى وطنه ، وبين هذا الأسلوب من البلاغة المتكلفة الغالية الثقيلة ، التى تملأ كل الرسالة ، تلمع بعض جمل معبرة ، يحاول بها أن يقنع صديقه :

« إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، أو طب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، فلديه يحل المشكل ، وإليه يُلجأ فى الأمر المفصل . . » .

وبعد عدة جمل شجعه فيها على العودة ، بنفس الأسلوب المتكلف أيضًا ، أثنى على الأندلس ، ومع أن ثناءه جاء موجزًا ، يمكن أن يضاف إلى النصوص التى تمثل « **قومية شعراء الأندلس** » ، يقول :

« ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ . ما تحت أديمها أشلاءُ أولياءِ وعبّاد ، وما فوقه مرابطُ جهادٍ ، ومعاقدُ ألوية فى سبيل الله ، ومضارب أوتاد ، ثم يبوئ ولده مبوأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيذ أنظاركم المسددة من رأى قائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد » .

ويبدو **ابن الخطيب** فى رده ، وقد خاب أمله فى العالم ، وأسلوبه فى رسالته يطابق الأسلوب الذى استخدمه **ابن خاتمة** تمامًا ، واستهلها بهذين البيتين من الشعر :

لُمْ فى الهوى العذرى أو لا تلُم   فالعذْلُ لا يدخلُ أسماعى

---

(٣٥) نفح الطيب ، جـ٧ ص٤٠٢ ، رائق التحلية ، الورقة ٦ ب .

شأنك تعنيفى وشأنى الهوى   كلٌّ امرئٍ فى شأنه ساعى[٣٦]

أما فيما يتصل بدعوته كى يعود إلى الأندلس ، فلم يقتنع بها فيما يبدو ، يقول له : « وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليمن طيره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ، وعمران رباه ووهاده ، بأشلاء عبّاده وزهّاده ، حتى لا يفضله أحد إلا الحرمين ، فحق برئٌ من المين ، لكن للحرمين جنحت ، وفى جو الشوق إليهما سرحت » .

والمعلومات المتصلة بترجمته ، والتى توجد فى كتابه رائق التحلية فى فائق التورية محدودة ، وقليلة الأهمية ، ومع ذلك أوردها فيما يلى ، حسب مجيئها فى مخطوطتى الإسكوريال وباريس :

فى الورقة ٣ ب و ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، و ٩ من مخطوطة باريس خبر امرأة دخلت الحمام بدون مئزر ، فأمر القاضى **أبو البركات البلفيقى** بتثقيفها ، فكتب إليه ابن خاتمة شافعًا* .

فى الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ١٠ أ من مخطوطة باريس ، توجد أبيات من الشعر أشرنا إليها فيما سبق ، توجه بها إلى **أبى البركات البلفيقى** حين اعتذر عن الأكل معهم ، فى روضة لسان الدين بن الخطيب ، ويزيد **ابن خاتمة** هنا ، أنها كانت بمناسبة إعذار الأمراء ، وأن ثلاثة من الأشخاص تجمعوا هناك : القاضى أبو البركات البلفيقى ، وأبو جعفر بن عبد الحق المالقى ، وابن خاتمة نفسه . وربما كان لهذا الخبر صلة بما أورده لنا **ابن الخطيب** فى كتابه الإحاطة[٣٧] ، عندما يقول : « دخل غرناطة غير ما مرة ، منها فى

---

(٣٦) الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

• من طريف الأمر أننى قرأت الخبر ومعه الأبيات التالية ، وهى عذبة ورقيقة ، على الصفحة الأولى من مخطوطة « إيراد اللآل من انشاد الضوال ، وإرشاد السؤال » لابن خاتمة ، أثناء اختلافى إلى خزانة القصر الملكى فى الرباط ، صيف عام ١٩٧٣ ، أعجبت الناسخ ، أو مالك المخطوطة لا أدرى ، وخشى نسيانها فسجلها ، والأبيات هى :

يـاقـاضـيًـا أصـبـح ذا سيرةٍ   بـكـل عـدْلٍ فى الورى ساريهْ
سـنـحُكَ فى جـاريـةٍ ثـقـفـت   ليستْ على حكم الهدى جاريه
وأعـجـب لما جـاء بـه وقـتـنـا   مـؤتـزر يـشـفـع فى عـاريـه

والأبيات ليست فى الديوان الذى نشره د . رضوان الداية . (المترجم)

(٣٧) جـ ١ ص ٢٥٢ .

استدعاء شمال الخواص من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعذار الأمراء فى الدولة اليوسفية » ، أى أبناء السلطان أبى الحجاج يوسف ، فى شهر شعبان من عام ٧٥١ - أكتوبر ١٣٥٠ م .

فى الورقة ٤ أ من مخطوطة الإسكوريال ، ٩٠ ب من مخطوطة باريس ، يقول **ابن خاتمة** : أمضينا ليلة فى غرناطة ، فى دار الشريف النبيل القاضى ، وعاء الحكمة ، وخطيب العاصمة ، وقدوة الخاصة ، ابن القاسم محمد الحسنى(٣٨) مع أبى البركات البلفيقى ، والقاضى أبى إسحاق بن شعيب(٣٩) .

فى الورقة ٤ ب من مخطوطة الإسكوريال ، و ١١ من مخطوطة باريس ، خبر عن طلب **أبى القاسم بن رضوان من ابن خاتمة** ديوان أشعاره .

فى الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١١ أ من مخطوطة باريس ، قصيدة توجه بها إلى القائد أبى عبد الله بن شعيب ، حين كان عاملا على قصبة ألمرية ، بمناسبة نزوله فى بيت الفقيه الوزير ، والأديب اللوذعى أبى عبد الله بن جُزى .

فى الورقة ٦ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٢ ب من مخطوطة باريس ، أبيات من الشعر ، حاول فيها **ابن خاتمة** أن يثنى **أبا البركات البلفيقى** عن رحلة عزم عليها إلى المشرق ، وكان ذلك فى جمادى الثانية ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨ م وقد غرقت السفينة التى خلفها أبو البركات دون رحلته ، ليلة إقلاعها من مرسى ألمرية .

فى الورقة ٧ ب من مخطوطة الإسكوريال ، ١٣ أ من مخطوطة باريس ، بيتان من الشعر ، تضمنا تورية ، يمكن أن تفهم على أنها إشارة إلى يوسف سلطان غرناطة .

أما الأخبار المتصلة بشهرة **ابن خاتمة** العريضة خارج الأندلس ، فلدينا منها رواية **ابن فضل الله العمرى** ، فى كتابه **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار**(٤٠) وهو خبر نقلناه عن مقال للأستاذ **كولان** Colin بعنوان « بعض شعراء العرب فى الغرب خلال القرن

---

(٣٨) عن أبى القاسم محمد الحسنى ، أستاذ ابن زمرك ، انظر : أزهار الرياض ، ص ٩ - ١٢ .

(٣٩) عن ابن شعيب ، انظر : ص ١١٠ ، الهامش رقم ١٣ .

(٤٠) مخطوطة باريس ، المجلد ١٧ ، الورقة ٢١٠ آ .

الرابع عشر الميلادى » ، فى مجلة هيسبيريس ، **١٩٣١** ، ص **٢٤١** ، يقول : أنشد أبو عبد الله شهاب الدين ، أحمد بن فضل الله العقيلى الجبورى ، قصيدة **لابن خاتمة فى القاهرة** ، على ابن فضل الله العمرى ، عام **٧٤٠** هـ – **١٣٣٩** م ، وقال له إن الشاعر لمّا يزل حيًا ، غير أن العمر تقدم به ، ومع ذلك ، يمكن القول أن سن ابن خاتمة فى هذا التاريخ لم تكن تقدمت كثيرًا ، لأنه كما رأينا ، توفى عام **٧٧٠** هـ – **١٣٦٩** م ، فى السبعين من عمره تقريبًا .

مؤلفات ابن خاتمة

تميز أديب ألمرية الشهير بين معاصريه ، الذين احترموه وأعجبوا به ، وترك لنا مؤلفات هامة ، تشى بمعارف متعددة الجوانب ، وتومئ إلى مستواه الأدبى واللغوى والعلمى ، وسوف نعرض لهذه المؤلفات فيما يلى :

○ **المؤلفات التاريخية** :

١ – تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد ، ومحتوى هذا الكتاب يمتد إلى حقلى التاريخ والطب ، وفيه يدرس ابن خاتمة العدوى وأسبابها بعامة ومرض الطاعون الأسود الشهير ، الذى اجتاح مدينة المرية عامى **٧٤٩** و **٧٥٠** هـ = **١٣٤٨** و **١٣٤٩** م بخاصة ، حيث تسبب فى موت أعداد مريعة من السكان . وفضلا عن قيمة الكتاب من الوجهة الطبية ، له أهمية بالغة فيما يتصل بالمعلومات التى يقدمها عن مسقط رأس المؤلف . ولدينا مخطوطتان ، واحدة فى مكتبة دير الإسكوريال ، ورقمها فى فهرس ديرنبورج **١٧٨٥** ، والثانية فى المكتبة الإمبراطورية فى برلين ، تحت رقم **٦٣٦٩** .

وقد قام **الأستاذ المصرى طه دنانة** بترجمته إلى اللغة الألمانية فى مجلة Arch. fur. Gesh. de Med. المجلد ٢٠ ، عام ١٩٢٦ ، ص ٢٧ – ٨١ ، وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرنانديث مرتينيث ، من مدينة ألمرية ، بترجمة الجانب الطبى

منه ، فى مجلة « الحاضر الطبى Actualidad Medica » ، التى تصدر فى غرناطة العدد رقم ٤٠٣ ، الصفحات ٤٤٩ – ٥١٢ ، والعدد رقم ٤٠٤ ، الصفحات ٥٦٦ – ٥٨٨ ، عام ١٩٥٨ .

٢ – **مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية** . و هو مؤلف مفقود لسوء الحظ ، وكان مصدرًا تاريخيًا هامًّا ، اغتنمه كل من **ابن الخطيب** ، **وابن القاضى** ، **والمقرى** ، الذى يقول عنه إنه : « مجلد ضخم ، تركته من جملة كتبى بالمغرب » ، والعثور عليه مهم للغاية . فربما قدم لنا معلومات عما كانت عليه الحياة فى مدينة ألمرية فى الأعوام الأخيرة من الحكم الإسلامى .

○ المؤلفات الأدبية :

١ – **الديوان** ، وترجمته الإسبانية بين يدى القارئ ، ومخطوطته فى الإسكوريال تحمل رقم ٣٨١ فى فهرسة ديرنبورج ، وله مخطوطة أخرى فى الرباط ، فى الخزانة العامة تحمل رقم ٢٦٩ ك .

٢ – **كتاب رائق التحلية فى فائق التورية** . وهو مجموع من الأشعار لابن خاتمة ، تلقاها عنه سماعًا تلميذ له يدعى ابن زرقالة ، وجمعها فى كتاب ، وتوجد له ثلاث مخطوطات : واحدة فى الإسكوريال ، تحمل رقم ٤١٩ فى فهرس ديرنبورج ، والثانية فى المكتبة الوطنية فى باريس ، تحت رقم ٥٧٤٩ ، فى فهرس بلوشيه ، والثالثة فى الخزانة العامة فى الرباط ، تحمل رقم ١٨٢٦ ، فى فهرسها الذى صدر عام ١٩٥٨ . وقد درست هذه المجموعة فى مقال نشرته عام ١٩٦٢ ، الصفحات ٥٤٢ – ٥٥٧ . ونصها العربى أعددته كى ينشر كاملا فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد(٤١) .

٣ – **الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل** . وهو رسالة صغيرة ، فى أسلوب

---

(٤١) هذا الكتاب ليس مجموعة من القواعد عن استخدام التورية ، كما هو عليه الحال فى كتاب الصفدى : فض الختام عن التورية والاستخدام ، وإنما مجرد مجموعة من الأشعار التى تحتوى تورية . وهذا اللون من البلاغة أربى على غايته فى هذا العصر . وثمة=

مسجوع ، للتمييز بين أعداء العشاق : الرقيب والواشي والعاذل ، مخطوطة هذه الرسالة فى باريس ، تلى نص مخطوطة الكتاب رقم ٥٧٤٩ ، الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة ، وسبق أن نشرْت هذه الرسالة ، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٨ ، عام ١٩٥٤ ، والصفحات ١ – ١٦ .

○ **مؤلفات لغوية :**

إيراد اللآل ، من إنشاد الضوال ، وإرشاد السؤال . وهو كتاب اختصر فيه الدراسات اللغوية التى قام بها قبله **الزبيدى** ، أبو بكر محمد الحسن ، وابن **مكى الصقلى** ، وشرحها محمد بن أحمد **بن هشام** السبتى ، ونظمها محمد **بن هانئ اللخمى** السبتى ، وقد طبعها وشرحها كولان فى مجلة هيسبيريس ، المجلد الثانى عشر ، ١٩٣١ ، ص ١ – ٣٢ ، ونشرها ثانية أخيرًا الدكتور إبراهيم السمرائى فى بغداد ، فى كتابه : « نصوص ودراسات عربية وأفريقية »* .

ويذكر أحمد **بابا التمبكتى** ، فى كتابه **نيل الابتهاج** كتابا آخر لابن خاتمة فى النحو ، أعطانا اسمه ، وهو : **إلحاق العقل بالحس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس** ، ولكننا لا نعرف عنه شيئًا .

○ **مخطوطات الديوان :**

عندما بدأت عملى لأقدم رسالتى للدكتوراة ، لم يكن بين يدى غير مخطوطة وحيدة

= مؤلف معاصر لابن خاتمة هو : ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم النميرى ، أبو القاسم ، من غرناطة ويعرف بابن الحاج ، وألف كتابا بعنوان : مثالث القوانين فى التورية والاستخدام والتضمين ، طبقا لابن الخطيب فى كتابه الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ ، والمقرى فى نفح الطيب ، جـ ٩ ص ٣١٥ . ويذكر الزركلى فى كتابه الأعلام كتبا أخرى للنميرى ، وليس من بينها هذا الكتاب ، جـ ١ ص ٣٢ .

* الواقع أن ما نشره كولان ، وما أعاد نشره الدكتور ابراهيم السمرائى ، هو تلخيص كتاب ابن خاتمة ، قام به شخص مجهول ، أما كتاب ابن خاتمة نفسه فلما ينشر ، ويملك كاتب هذه السطور مخطوطتين مختلفتين للنص الأصلى ، يقوم بالمعارضة بينهما ، لتحقيق الكتاب ونشره . (المترجم)

معروفة لديوان ابن خاتمة ، توجد فى مكتبة دير الإسكوريال ، وتحمل رقم ٣٨١ فى فهرس ديرنبورج ، ولم أكن أعرف يومها أنه توجد له مخطوطة ثانية فى أى مكان آخر. وخلال المهرجان الثقافى الإسبانى الإسلامى الذى عقد فى مدينة بلنسية ، فى ديسمبر من عام ١٩٦٥ ، أتيحت لى الفرصة أن أعرف العالم المغربى السيد – محمد بن شريفة ، الذى تكرم فأنبأنى بأنه توجد فى الخزانة العامة بالرباط نسخة أخرى من ديوان ابن خاتمة ، لمّا تضم إلى فهارسها. وبفضل معاونته ، وأمين الخزانة العامة ، السيد – عبد الله الرقراق ، استطعت أن أحصل على صورة « ميكروفيلم » من هذه المخطوطة ، وأن أعارضها بمخطوطة الإسكوريال قبل أن أبدأ فى نشر الديوان.

فلننظر الآن إلى مميزات كل واحدة من المخطوطتين : مخطوطة الإسكوريال ذات قيمة لا تقدر ، لأنها فيما يصفها ديرنبورج ، فى الجزء الأول من فهرسه ص ٢٥١ ، بخط الشاعر نفسه . والحق أن عنوان الكتاب ينبىء بشىء من هذا فهو : « من شعر كاتبه عبد الله أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله به » . ولا يوجد اسم لناسخ فى أى مكان آخر من الديوان ، كما هو الحال فى معظم المخطوطات التى نسخها غير مؤلفيها ، وأخيرًا فإن المؤلف يختم مجموعته الشعرية بهذه الكلمات :

« انتهى التقييد ، والحمد لله حمدَ الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، مولانا محمد المصطفى ، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى يدى ناظمه عبد الله المستغفر لذنبه : أحمد بن على بن محمد بن خاتمة ، لطف الله تعالى به ووفقه ، وذلك بمدينة ألمرية ، حاطها الله تعالى ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة » .

كل ما معنا إذن يشير إلى أن **ابن خاتمة** نفسه ، هو الذى سطر صفحات ديوانه ، الذى توجد مخطوطته فى مكتبة الإسكوريال .

ويقول **ديرنبورج** فى الوصف الذى قدمه للديوان ، إننا بصدد كتاب يعود إلى أيام شبيبة **ابن خاتمة** ، لأن هذا ولد فى المرية عام ٧٢٤ هـ -- ١٣٢٣ م ، وهى معلومة اعتمد فيها على جيانجوس فى ترجمته لنفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٥٩ . وسبق أن تحدثنا عن الخطأ

الذى وقع فيه بعض الذين ترجموا للشاعر ، حين خلطوا بين مولده ، وتاريخ أخيه محمد ، كما أشار إلى هذا ب . مرتينيث أنتونيا[٤٢] .

وتتكون مخطوطة الإسكوريال من ٦٠ ورقة ، وفى الصفحة ١٦ سطرًا ، فى خط مغربى كُتبَ فى عناية وجمال ، وفى حالة جيدة بعامة ، باستثناء الجانب الأعلى من الصفحات ، والسطران الأولان منها استهلكا فى العادة تمامًا ، فى الجزء الداخلى منهما ، وكان من الضرورى إعادة بناء الكلمات والجمل فى كثير من الحالات . ويجب أن أشكر الباحث المصرى ، العالم الأستاذ **الدكتور عبد العزيز الأهوانى** على مساعدته القيمة فى إعادة البناء هذه ، وفى تفسير بعض الكلمات ، خلال إقامتى فى الإسكوريال . وهذه المخطوطة مضبوطة بالشكل كلها تقريبًا ، وعندما نسختها احتفظت بالشكل على نحو ما كتبه المؤلف نفسه ، ولابد أن النص روجع بمحضره أيضًا ، ففى مرات عديدة نجد على الهامش : بلغت القراءة والسماع .

ومن المهم أن نأخذ فى الحسبان طريقة التشديد التى تستخدم فى المخطوطة ، فإلى جانب حذف السكون من اللام فى أداة التعريف حين تسبق الحروف الشمسية ، والاستعاضة عنها بالتشديد ، يحافظ ابن خاتمة على إدغام النون حين تسبق حروف اللام ، والميم ، والواو ، والباء ، ويحدث الشىء نفسه فى الكلمات ذات التنوين . وهكذا نجد فى الموشحة الرابعة ، فى البيت الثانى ، من أغصان الدور الأول : « مرّائق الزهر » ، وفى الموشحة الثانية ، فى الدور الخامس البيت الثانى من الأغصان نجد : « صب متّيم » ، وفى الموشحة الثانية ، الدور الرابع ، البيت الثانى من الأغصان نجد : « عوّدِّه » بدل « عن وده » ، ونجد فى القسم الأول ، فى القصيدة الرابعة ، البيت الأول : « يامَيّغيث » بدل « يامن يغيث » ، وغيرها . والشىء نفسه يحدث مع الأصوات اللثوية ، سواء خرجت من أول اللسان أو من بين الثنايا ، مثل ما نجد فى الموشحة العاشرة ، فى البيت الثالث من المركز : « قَتجلَّى » بدل « قد تجلى » .

ولمعرفة قواعد الكتابة ، وظاهرة الإدغام فى القرآن الكريم ، يمكن العودة إلى كتاب :

---

(٤٢) ابن خاتمة المرئى ، ورسالته عن الطاعون . مجلة الدين والثقافة . أكتوبر ١٩٢٨ ؛ ص ٦٨ — ٩٠ .

« دراسة فى فقه اللغة العربية Traite de Philologie Arabe لمؤلفه هـ . فليش ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٤ – ٨٥ – ٨٥ و ١٣٩ وما بعدها . وأيضًا : « بحث فى الأصوات العربية Cours de Phonetique » لمؤلفه ج كانتنو ، ونشر فى باريس عام ١٨٦٠ ، ص ٣٨ – ٣٩ .

ومخطوطة الديوان التى فى مكتبة الإسكوريال فى مجلد وحدها وتجليدها فخيم .

أمّا مخطوطة الرباط ، ولم أر منها غير « الميكروفيلم » ومصورها ، فتحمل رقم ٢٦٩ ك ، فهرس الخزانة العامة ، طبقًا لما أعلمنى به السيد الرقراق ، وأجهل ما إذا كانت فى مجلد مستقل ، أو فى مجموع تكون جانبًا منه ، مع مخطوطات أخرى ، ولو أن ترقيم الصفحات يشير إلى أنها فى مجلد مشترك مع غيرها لأن صفحاتها تحمل الأرقام من ٢٨٦ إلى ٣٩٧ ، ويبدو أن الصفحة الأخيرة من « الميكروفيلم » آخر صفحة فى المجلد أيضًا ، لأن عليها تقييدات تضم أبياتًا لشعراء مختلفين ، بينها للمتنبى ، وتنتهى بمصطلحات أعجمية للأشهر ، وكما ترى لا صلة لذلك كله بديوان ابن خاتمة .

وكتابة المخطوطة واضحة ، وخطها مغربى ، وينقصها الضبط بالشكل ، وكل صفحة تجىء وسط إطار من خطين .

والمخطوطة فى حالة جيدة ، وأتاح لى هذا أن أقوم بمعارضة مستأنية بينها وبين النسخة الأخرى ، فتبينت الكلمات المطموسة ، وصححت الكلمات الخاطئة ، وتأكدت من القراءة المشكوك فيها مما يوجد فى مخطوطة الإسكوريال التى عرضت لها من قبل . ومخطوطة الرباط شبيهة تمامًا بمخطوطة الإسكوريال ، وتبدو صورة دقيقة من النسخة التى كتبها المؤلف . والاختلافات التى وقعت عليها سجلتها فى هامش النص العربى ، وتعود فى أحايين كثيرة إلى أن الناسخ لم يستطع أن يتبين كلمة مطموسة أو غير واضحة فى مخطوطة الإسكوريال . وتوجد هذه الاختلافات فى بعض الموشحات بخاصة ربما لأن الناسخ لم يستطع أن يفهمها جيدًا . ومخطوطة الرباط على الرغم من أنها فى حالة جيدة ، حفظًا ووضوحًا ، أدنى مرتبة من مخطوطة الإسكوريال ، لأنها لا تعدو أن تكون نسخة من الأصل ، ومن ثم تتناثر فيها بعض الأخطاء .

والفقرة التى ينتهى بها الديوان ليست كاملة ، تنقصها الجملة التى يقول فيها ابن خاتمة إنه جمع ديوانه فى ألمرية عام ٧٣٨ هـ ، ونقرأ بدلا منها : « رسوله وآله وصحبه وسلم . يوم الأحد ، الخامس والعشرين من ربيع النبوى ، سنة أربع وتسعين وتسعمئة . (٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م)

ولا تحتوى اسم الناسخ ، والمخطوطة - كما نرى - ليست إلا نسخة نقلت بعد قرنين ونصف من الزمان على جَمْع الديوان . ولا نعرف من خطها ، ولا أين ، ولا لمن ، ومهما يكن فإن العناية التى رافقتها تومىء إلى الشهرة التى نالها شاعرنا بين مسلمى شمال إفريقيا ، وأنها استمرت قرنًا كاملا من الزمان بعد انتهاء « حرب الاسترداد » فى شبه الجزيرة ، والاختلاف بين المخطوطتين أشرت إليه فى نسختى العربية من الديوان .

○ محتوى الديوان :

يبدأ الديوان بمقدمة مسجوعة ، نموذج فى أسلوبها ، وفيها يزهو المؤلف بمعارفه اللغوية ، وثراء معجمه ، ورقة استعاراته ، وتكوّن جملة غير متناسقة فى ألوانها البلاغية ، ومن الصعب ترجمتها إلى لغة أخرى . ولكثرة صورها ، وعذوبتها الحقيقية لا يمكن أن تتجاوز اللغة التى كتبت فيها .

ويشير المؤلف فى المقدمة إلى أنه جمع الديوان استجابة لرجاء صديق طلب منه هذا ، ولم يذكر لنا اسم الصديق ، وفكرت فى البدء أن الأمر يمكن أن يكون مركبًا من تلك المراكب التى يستخدمها أشباه الشعراء أحيانًا ، ولكنى وجدت خبرًا فى كتاب آخر للمؤلف نفسه ، توجد مخطوطته فى الإسكوريال [٤٣] أيضًا ، أكد لى أن هذا الديوان كان هدية حقًا إلى صديق لابن خاتمة ، ونستطيع الآن تحديد هويته ، والخبر فى هذه المخطوطة يقول [٤٤] .

---

(٤٣) فهرس ديربورج ، رقم ٤١٩ ، الورقة ٤ ب ، وهو كتاب رائق التحلية .

(٤٤) أى مخطوطة « كتاب رائق التحلية فى فائق التورية » ، وعن هذه المخطوطة انظر مقالى الذى نشر فى « دراسات مستشرقية مهداة إلى ليفى برُوفنسال » ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٥٧ .

«كتب إلىّ الفقيه الأجل ، رئيس الكتّاب ، صاحب القلم الأعلى بالديوان السلطانى بالمغرب ، أبو القاسم ، عبد الله بن رضوان(٤٥) ، وهو يومئذ بألمرية ، يستدعى ديوان نظمى ، ووجه بها مع رجل ممن تقلد حفاظة الديوان الاشتغالى(٤٦) ، موريًا بذلك(٤٧) :

ديوانُ نظمكَ مطلبى فامنحْ به　　لأرى انتظامَ الحسنِ بالإحسانِ
ولقد علمتُ بأن قصدَك حفظهُ　　فبعثت نحوك حافظَ الديوانِ

وعلى هذه الأبيات رد ابن خاتمة بأبيات مثلها ، أرسلها صحبة الديوان الذى سلمه إلى الرسول :

يامهديًا ريحانتين أنالتا　　بصرى وسمعى بهجةً ولسانى
مستدعيًا نظمى وما نظمى لما　　يبدى ولو أنّى بديعُ زمانى
إنْ كنت قد أهديتَها روْحا فلا　　عجبٌ جنانٌ جاء من رضوان(٤٨)

ومن الواضح أن الصديق الذى توجه إليه ابن خاتمة بقصائده كان **كاتبًا لأبى عنان** ، وهو مالقى الأصل ، ويتردد على الأندلس بكثرة ، وتربطه صداقة وطيدة بكبار الأدباء فى بلاط غرناطة .

وأخيرًا ، بعد أن عبر عن خوفه مما قد يكون فى ديوانه من نقص ، أشار إلى الأقسام التى كسره عليها ، وهى :

---

(٤٥) ابو القاسم عبد الله بن رضوان ، المتوفى ٧٨٠ هـ ، أديب مالقى ممتاز ، وفقيه من مالقة ، درس فى تونس ، وتولى وظائف هامة فى بلاط بنى مرين ، انظر :

● المقرى ، نفح الطيب ، جـ٨ ، ص٢١٤ - ٢١٩ - وأزهار الرياض ، جـ٢ ص٣٤٥ ، وجـ٣ ص١٩٦ .

● ابن خلدون ، التعريف برحلته ، طبع ابن تاويت ، القاهرة ١٩٥١ ، ص٢٢ - ٥٥ والمقدمة ، ترجمة دى سلان إلى الفرنسية ، باريس ١٨٦٢ ، جـ١ ص٢٦ .

(٤٦) الديوان الاشتغالى كما يقول دوزى فى ملحقه للمعاجم العربية ، شىء يشبه الادارة المالية .

(٤٧) التورية فى كلمة حافظ ، يشير إلى المهمة التى يتولاها الرسول من جانب ، وإلى معنى من يحفظ من جانب آخر ، والأبيات من بحر الكامل .

(٤٨) التورية فى آخر كلمة «رضوان» . لأنها تشير إلى اسم الرسول ، واسم الملاك حارس الجنة .

● ترجمت الباحثة الفاضلة الدكتورة سوليداد «بديع زمانى» إلى اللغة الأسبانية بمعنى «فريد عصره extra ordinario en mi tiempo» وهى ترجمة صحيحة ودقيقة ، لكنها تحتاج أيضا إلى اشارة ، لأن ابن خاتمة يورى بها إلى «بديع الزمان» ، الكاتب والشاعر الشهير . (المترجم)

○ **القسم الأول** : فى المدح والثناء ، وما ينتظم فى سلكه من التنبيه على مواقع الجود والنعماء .

○ **القسم الثانى** : فى النسيب والغزل .

○ **القسم الثالث** : فى الملح والفكاهات .

○ **القسم الرابع** : فى الوصايا والحكم .

وأخيرًا يقول : « وختمتها بنبذة من التوشيح ، الذى له فى مضمار الأدب المجالُ الفسيح » .

ويتكون الديوان فى جملته من **١٩٣** قطعة ، بين قصيدة ومقطوعة ، تضم **١٠٣٥** بيتًا من الشعر .

يتكون **القسم الأول** منها وهو فى « **المدح والثناء** » من تسع قصائد ، وموضوعاتها دينية كلها ، ولا تجد بينها أية قصيدة تتصل بالسياسة ، أو مدح الملوك والعظماء على أيامه ، وإنما جاءت كلها فى شكر الله ومدح الرسول . وإذا كان مدح الأقوياء ، والإشادة بمآثرهم ، كان لها نصيب من الصدق أم لا ، أمرًا شائعًا بين شعراء العرب فى المشرق والمغرب ، فإن ابن خاتمة أراد قاصدًا فيما يبدو أن يفلت من هذا الواجب . وليس هذا وقفًا على الديوان فحسب ، وإنما فى قصائده المتناثرة بين المصادر الأخرى غير الديوان ، لا نجد أيضًا شيئًا يتصل بهذا الغرض . كيف استطاع ابن خاتمة أن يظل على هامش التيار العام ، على حين ألقت بنفسها بين طوفانه كبرى شخصيات العصر ، وكانت تربطه صلة صداقة وطيدة بالوزير **لسان الدين بن الخطيب** ؟ . لا نعرف لذلك جوابًا دقيقًا ، ومع غيبة الأخبار عن تدخله فى السياسة ، وابتعاده عن المناصب العامة ، على الرغم من المكانة التى كان يتمتع بها ، تجعلنا نرجح أنه تجاوز المطامح التى من هذا اللون ، وآثر أن يظل بمنأى عن كل ماهو بعيد عن الحياة الثقافية .

هذه القصائد التسع كلها مطولة ، وموضوعاتها دينية ، على نحو ما أشرنا ، وفيها يتجه الشاعر بشكره إلى الله ، ويمدح الرسول وصحابته ، ويكثر من الإشارة إلى الحج والأماكن المقدسة ، ونعلى الرسول . وهى موضوعات مطروقة كلها . وترد عند كثير من الشعراء فى

مختلف العصور ، وبين معاصريه أيضًا نجد مثل هذه القصائد ، نجدها فى أشعار **ابن الخطيب**[٤٩] ، **وابن زمرك**[٥٠] ، وأبى البركات البلفيقى[٥١] ، وغيرهم .

وكثير من أبيات هذه القصائد غامض ، وتعسر ترجمته ، بسبب لغته الصوفية والمجازية ، ومع أن كثيرين من معاصريه ، على نحو ما قلنا ، نظموا أشعارًا من هذا الطراز ، فقد لحظت أن شيخه أبا البركان البلفيقى كان أكثرهم تأثيرًا فيه . ومن المحتمل جدًا أن نجد عند كليهما ، الشيخ والطالب ، صدى أفكار الصوفى المربى الشهير **ابن العريف** ، ولعلهما ، كليهما ، كانا من أتباعه ، يسلكان طريقه ، ويتبعان مذهبه ، وقد حفظت لنا المصادر عنه قصائد مطولة فى شكر اللّه ومدح نبيه[٥٢] . ونجد فى بعض قصائد **ابن خاتمة** الصوفية أبياتًا عذبة الجمال ، وأحيانًا ذات شبه كبير بقصائد الشاعر الصوفى المصرى **ابن الفارض**[٥٣] ، وعاش فى القرن السابق على **ابن خاتمة** . وإلى جانب هذه الأبيات نجد أخرى أقل حظًا ، وأحيانًا تصبح قراءتها عبئًا ثقيلا باهظًا .

وتأمل الطبيعة يحمل ابن خاتمة على أن يتغنى بنعم الله التى تتجلى من خلالها ، الطير تشدو على عرائس الأشجار ، والأوراق والأغصان تتجه إلى السماء ، وأشجار النيلوفر قبضت كفها خائفة ، وبسط السوسان يمناه راجيًا ، والزنابق تفتحت شواهد على نعم الله ، والبطاح كلها أبدع رسمها ناطقة بفضله[٥٤] ، وكل ما تلقى على البسيطة يدعونا إلى التأمل ، يقول فى إحدى قصائده[٥٥] :

فما خطباءُ العرْبِ أفصحُ واعظًا　　　من الطير يشدو لوفهمتَ المعانيا

---

(٤٩) نفح الطيب ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ .

(٥٠) المصدر السابق نفسه ، جـ ١٠ ، ص ٤ - ١٤٠ .

(٥١) الإحاطة ، طبعة عنان ، جـ ٢ ، ص ١١٠ ، القاهرة . وعن أشعار أبى البركات ، انظر مقالى : أبو البركات البلفيقى ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ٢٨ ، ص ٤١٦ .

(٥٢) نفح الطيب ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٤ . وعن ابن العريف ، انظر : أسين بلاثيوس ، ابن العريف وكتابه محاسن المجالس ، النص العربى وتعليق عليه ، باريس ١٩٣٣ .

(٥٣) عن ابن الفارض انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الرابع ، ص ٧٨٦ .

(٥٤) القسم الأول ، القصائد رقم ١ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٥٥) القسم الأول ، القصيدة رقم ١ .

ولا صفحات الهند أردعُ زاجرًا　　　من البرق يبدو لو علمتَ النواهيا
ولا لطفُ الاحسان أحسن موقعًا　　　من النوْر يذكو لو عرفتَ الأياديا

وأحيانًا يبكى ذلا وخوفًا وإشفاقًا وندمًا ، على مساوىء وخطايا زلت بها قدمه ، كما فعل **ابن الفارض** من قبل ، ويشبه اللطف الإلهى بالخمر :

مشمولةً نسجتها للشمال يدٌ　　　وألطَفَتْها أكف اللطف فى القدمِ
فمالها غيرَ روح الروح من قدحٍ　　　ولا لها غيرُ سرِّ السرِّ من فَدمِ
بينا تُرى فى أكف الشاربين طلاً　　　إذ تستحيل شعاعًا فى خدودهم(٥٦)

وقد فاض قلبه بحب الله ، فلا مكان لغيره فيه :

هيهاتَ عندى جوىً لوفض بادرةً　　　منه على الشهبِ مادارت به الشهبُ(٥٧)

وتبقى معنا دائمًا ، ونحن نعرضُ للشعر العربى ، مشكلة الصدق ، مهما كان الموضوع الذى تدور القصيدة حوله ، وهى مشكلة لمّا تحل ، ولكن تديُّن ابن خاتمة فى حالتنا هذه ، يبدو أنه يصدر عن قلب عاشق حقًا . ويمكن أن نقول مرة أخرى إنه الجو الصوفى التقليدى الذى لف مدينة ألمرية ، قد تسرب إلى شعرائها فى كل العصور .

وآخر قصيدتين فى هذا القسم من **التسميط** ، والأولى منهما ، أو الثامنة فى ترتيب القسم إن شئت ، **تخميس** لقصيدة صوفى مشرقى شهير . هو الشيخ شهاب الدين أبى عبد الله **بن الخيمى** ، المتوفى ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م ، وكان معاصرًا **لابن الفارض** ، وأورد قصيدته هذه **ابن القاضى** فى كتابه **درة الحجال**(٥٨) ، ولها تاريخ مثير أشار إليه ابن القاضى ، نقلا عن **ابن رُشَيد** ، ذلك أن **ابن الخيمى** ، كتب هذه الأبيات فى شبيبته ، ثم تركها دون أن يتمها ، ووقف عند البيت :

يابارقًا بأعالى الرقمتين بَدَا　　　لقد حكيتَ ولكنْ فاتك السببُ

ثم وضعها فى شق من جدار البيت الذى كان يسكنه ، ونسيها بعد ذلك ، ومضى

---

(٥٦) القسم الأول ، القصيدة رقم ٣ .
(٥٧) القسم الأول ، القصيدة السابعة .
(٥٨) المجلد الأول ، ص ١٥٤ ، الترجمة رقم ٤٦٦ .

الزمن ، ثم جاء إلى الدار نفسها وسكنها أديب آخر : أبو المعالى **نجم الدين بن إسرائيل محمد بن سوار الدمشقى** . المتوفى عام ٦٧٧ هـ =١٢٧٨ م ، فأخذها وادعاها لنفسه ، وأنشدها جماعة من الرفاق كانوا يلتقون مع الصوفى الشهير ابن الفارض ، وبينهم ابن الخيمى ، الذى تمسك بأن القصيدة له عندما سمعها ، ولحل المشكلة سألها ابن الفارض أن يكملاها ، فلم يستطع ذلك إلا ابن الخيمى ، أكملها وجمع كل شطر من بيت إلى رصيفه فى دقة ، ومنذ تلك اللحظة أصبح **نجم الدين بن إسرائيل الدمشقى** موضع السخرية . أما شطر البيت : « لقد حكيت ولكن ... » فقد دخل التاريخ مثلا .

ونجد هذه القصيدة أيضًا فى المخطوطة رقم ٢٦٨ ، الورقة ١٣ ، فى مكتبة مدريد الوطنية ، غير أنها تظهر فى الفهرس بطريقة خاطئة ، وليس ثمة شك فى أن اسم الشاعر المشرقى فُهم خطأ ، واستنتج **جيين روبلس** Guillén Robles الذى وضع الفهرس أنه عمر الخيام ، وظهر التعريف بها فى الفهرس على النحو التالى : « قصيدة معادلات لعمر بن إبراهيم الخيامى (رياضى وفلكى ومؤلف بعض الألواح الفلكية للتنجيم) . وهذه القصيدة خمسها **أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصارى** » . وكما نرى ليست هناك قصيدة معادلات ، ولا صلة لها بالرياضيات ، وإنما هو مجرد تخميس قام به ابن خاتمة لتلك القصيدة المشهورة . والاختلاف بين النص الوارد فى هذه المخطوطة والوارد فى الديوان أشرنا إليه فى مكانه من التحقيق ، ومثلها الخلاف فى النص بين ما ورد فى الديوان وفى درة الحجال . والقصيدة الأخيرة فى هذا القسم مسمطة أيضًا ، ولكن ابن خاتمة لم يشر إلى اسم صاحبها ، ولم أستطع أنا الاهتداء إليه .

وكلتا قصيدتى ابن خاتمة ، فيما أرى ، متكلفة ، وتغلب عليها الصناعة .

أما **القسم الثانى** وأعطاه عنوانًا : فى **النسيب والغزل** ، فيضم تسعة وأربعين قصيدة ورتبها على حسب طولها ، الأطول فالأقل طولا ، وبالرغم من العنوان الذى أعطاه لها ، يمكن القول أنها جاءت فى **الوصف** أكثر مما هى فى **الغزل** ، وأنها يمكن أن تؤلف جانبا من الغرض الذى اصطلح على تسميته بالوصف ، وفى رأيى فإن هذا القسم يجمع بين أقل القصائد جودة عند شاعرنا . وعبثًا نفتش خلالها عن آثار حب حقيقى أو تعبير عن ألم

صادق ، وإنما نجد ترديدًا مكرورا ، حتى التخمة ، للتعبيرات المطروقة ، كما لو أن الشاعر وهو ينظمها قد وقف جهده على ملء خانات مكلف بها .

وأحيانًا يبرق اسم امرأة بين آونة وأخرى ، مثل : **بنت المنصف** ، **أم العزيز**، **مهجة**(٥٩) ، غير أنها فيما يبدو لى مجرد أسماء اختارها ليتلاعب بها فى ذكاء ، أكثر منها أسماء لشخصيات وجدت فعلا .

والوصف ، كما قلت ، هو ما يهتم به الشاعر أكثر من غيره ، سائرًا على خطى شعراء بغداد « المحدثين » ، ويبدو أنه يهتم بالشكل أكثر مما يعنى بالمضمون .

وفى استعاراته وتشبيهاته يسير أحيانًا على غير الطريقة التى سار عليها الشعراء قبله . فإذا كانت القاعدة العامة فى التشبيه أن تشبّه الأدنى بالأعلى ، أو المجهول بالمعروف ، فنقول ثغر كالأقحوانة ، وأسنان كالماس ، وقدّ كغصن البان ، **فابن خاتمة** فى بعض استعاراته يعكس الأمر ، فيجعل من المستعار له حقيقة ، ومن الحقيقة مستعارًا :

فاعتنقتُ القضيبَ منها قَواما وارتشفتُ الرحيقَ منها رُضابًا(٦٠)

وفى هذا القسم نجد أيضًا إشارات إلى الحب العذرى ، يقول :

كم قتيلٍ من عُذرة وطعينٍ بين بيضِ الطلى وسمُسرِ العيون
فى حروب بها الكمَاةُ ظباءُ الـــخدْرِ والشهداءُ أسْدُ العرين(٦١)

والقصيدة الأخيرة فى هذا القسم تسميط ، ولكن ابن خاتمة لا يشير إلى الشاعر الأصلى الذى نظم القصيدة ، واكتفى بأن يقول إنها « قطعة لأحد المشارقة » ، دون أن يسميه .

والقسم الثالث ، وأعطاه عنوانًا : **الملح والفكاهات** ، هو **والموشحات** أهم ما فى الديوان. ولهذا القسم فيما أرى أهمية خاصة ، لأنه يعكس لنا فى وضوح الذوق الأدبى فى الأندلس فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ونلمس منه الاهتمام البالغ ، والإصرار العنيد ،

---

(٥٩) القصائد رقم ٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

(٦٠) القصيدة رقم ٢٩ من القسم الثانى .

(٦١) القصيدة رقم ٢٦ ، وعن الحب العذرى انظر أيضا ، فى قسم الموشحات ، الأرقام ٧ ، ١٨ .

على استخدام الصور البلاغية المعقدة ، وفى هذا الميدان وجد **ابن خاتمة** مجاله عريضًا واسعًا ، وأخذ بحظه منه حرًا طليقًا ، وأظهر قدرته وتمكنه الكامل من فنه . على نحو لم يبلغه الشعراء الآخرون . كما سنرى فيما بعد .

يبدأ القسم بقصيدة عن « **محاسن الشتاء وماله من الفضل على كل فصل** » ، ويدعوه « سلطان الفصول » . وهى ذات قيمة كبيرة فى مجال الوصف . واحدى قصائد قليلة تمدح هذا الفصل ، وجوه المتقلب البارد الممطر .

والقصيدة الثانية . وهى طويلة إلى حد ما ، إذ تبلغ ٢٧ بيتًا . تصف حفلة أقيمت فى الأيام لأخيرة من شهر شعبان . ويدعوها « **شعبانية** » ، والأخبار التى وجدتها فيما يتعلق بمثل هذه الحفلات التى يطلق عليها اسم «**شعبانية**» قليلة ، وفيما يبدو كانت تتم فى أبهة فخيمة وابتهاج شعبى : يقول أ . ج . ونسينك فى المقال الذى كتبه عن شهر شعبان فى دائرة المعارف الإسلامية ، إن المسلمين يوقرون هذا الشهر من بين شهور العام ، ويدعونه « المعظم » ، وتقام فيه الصلوات ، وتعقد المجالس الدينية ، والحلقات والأذكار ، وبخاصة فى يومى ١٤ و ١٥ منه . وفى بعض بلاد العالم العربى يبدو أنها تشمل آخره أيضًا ، احتفالا بتوديع حياة البهجة ، والإقبال على طيبات الطعام قبل البدء فى صوم رمضان . وفيما يتصل بالأخبار المتعلقة بهذه الحفلات فى الأندلس وشمال إفريقيا ، لدينا ما قدمه لنا **ليفى بروفنسال**[٦٢] متصلا بتخفيف العقوبات ، والحفلات الدينية التى كانت تقام قبل أن يجىء رمضان بخمسة عشر يومًا ، ولكنها لا تشير إلى الأيام الأخيرة من شعبان . والشىء نفسه حدث مع ابن عبدون[٦٣] : فهو لا يعرض لنا فى رسالته **القضاء والحسبة** كيف كان المسلمون فى إسبانيا يودعون الأيام الأخيرة من شهر شعبان . ويصف برنو Brunot فى كتابه : « **البحر فى التقاليد وفى الصناعة عند السكان الأصليين فى الرباط وسلا** » باريس ١٩٢١ ، ص ٩٨ – ٩٩ . الحفلات التى تعقد فى الرباط فى آخر

---

(٦٢) تاريخ أسبانيا الإسلامية ، جـ٣ ، ص ١٦٠ .

(٦٣) ليفى بروفنسال وغرسية غومث : أشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى . رسالة ابن عبدون ، مدريد ١٩٤٨ ، ص ٧٤ ، الهامش رقم ٢٧ .

يوم من شعبان ، بأنها نوع من المهرجانات قبل الدخول فى توبة الصيام ، وفى هذه الحفلات التى يشترك فيها كل الناس ، يجتمعون فى الحدائق . وينشدون الأشعار . ويعزفون الموسيقا . ويعبرون النهر ، ويتنزهون على ضفافه . وأيضًا يأكلون حتى التخمة . ولكنه فى هذه الحالة يشير إلى يوم بعينه ، وهو آخر الشهر .

ويقول عنه هنرى مرسييه فى كتابه « العربى تصورا L'Arabe par l'image » ، الرباط ١٩٥٥ ، ص ١٨١ - ١٨٩ . إنه يوم يُحتفى به كثيرًا فى المغرب . وكان فى الأصل يومًا يحتفى به الطلاب مع شيوخهم . وشخصيات أخرى محدودة العدد . فيجتمعون فى روضة خاصة ، حيث يستمتعون بكل المباهج خلال أيام لم يحدد عددها . قبل أن يبدأ شهر رمضان .

ولكن **ابن خاتمة** يبدأ قصيدته التى قدم لها بأنها : « فى وصف شعبانية سنية . فى روض مريع ، أتى عليها عنفوان الربيع » ، ببيت يقول فيه : « أربعة أيام من الدهر حسبه بها من جملة العمر » . مما يوحى . فيما يبدو ، على الأقل فى العصر الذى عاش فيه . بأن هذا الحفل كان يستمر أربعة أيام . وبالتأكيد توجد فى المصادر العربية إشارات إلى هذه الأيام ، ومن المفيد أن نجمع هذه النصوص . لقد وجدت إشارة إلى ذلك فى كتاب **المقتضب من كتاب تحفة القادم** لابن الأبار . واختصره أبو إسحاق ، محمد بن إبراهيم **البلفيقى** (٦٤)

ففى الترجمة التى خص بها **أبا طاهر . إسماعيل بن مسعود الخشنى الجيانى** (٦٥) ، يحكى هذا أنه « حضر مع جماعة من أصحابه ، فيهم أبو عبد الله **بن زرقون** . متنزهًا فى بعض الأعوام ، وفى عقب شعبان منه « فلما تملئوا بالطعام ، قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجز يا أبا عبد الله . فقال :

حمدتْ لشعبانَ المباركِ شبعةً تُسهِّل عندىَ الجوعَ فى رمضانِ
كما حمد الصبُّ المتيم زوْرةً تحمَّل فيها الهجر طولَ زمانِ

---

(٦٤) طبعة ابراهيم الأبيارى . القاهرة ١٩٥٧ .

(٦٥) المصدر السابق . ص ٢٢ وانظر أيضا : نفح الطيب ، جـ ٦ ص ٥٦ ، جـ ٥ ص ٢٩٢ .

فقال **أبو الطاهر** :

دعوها بشعبانيةٍ ولو أنهم دعوها بشبعانيةٍ لشفانى (٦٦)

وفى قصائد الديوان الباقية نجد كثيرًا من وصف الزهور ، وفيها يسير **ابن خاتمة** على هدى مدرسة شرق الأندلس ، التى عبّد سبيلها كل من **ابن خفاجة وابن الزقاق** . ويشير دائمًا إلى تبادل بواكير الزهور بينه وبين أصدقائه الذين يرسلونها إليه دائمًا رفقة أبيات من الشعر (٦٧)

ومن أجمل أشعار هذا اللون ، المقطوعة الحادية عشرة ، وأرسلها إلى صديق له مع باكورة ورد أحمر ، وفيها يقول :

حيتّك بكرٌ من بنات الروض أعجلها ابتكارُ
طلعت لغير أوانها فلذاكَ ما اصفر البهار
جاءتكَ منبئةً بإقبال الربيع لها ابتدار
محفوفةً بالآس منه على محاسنها خِمارُ
فكأنما ما بينه خدّ أحاط به عِذار

وثمة عدد من المقطوعات وقفها على « **الخيرى** » ، وهى زهرة تعبق بأريجها ليلا ، بسبب حيائها ، فيغشى حقول الكتان كالبحر ، والحدائق ، والحفلات ، وقمر رمضان .

ولكن أوضح مافى هذا القسم ، وفى النصف الثانى منه إن شئت الدقة . أن الرغبة فى استعراض معارفه البلاغية ، فيما يبدو ، تسيطر عليه باستمرار ، من الاستعارات الغريبة ، والجمل المسجوعة داخليًا ، واستخدام التصريح والتجنيس . وكل ذلك ، وهو ذكى ومعقد فى فن كتابة الشعر ، كان غاية شاعرنا فيما يبدو .

وبين أشعار هذا القسم تتميز المقطوعة رقم ٢٣ ، ويقول فى مقدمته لها : « وفيه من اللف والنشر ما يندر وقوع مثله فى الشعر » . نحن فى الحقيقة معه بصدد صناعة بلاغية

---

(٦٦) الأبيات من بحر الطويل ، وجاء لطف البيت من اللعب بالألفاظ بين شعبان وشبعان .

(٦٧) هكذا يمكن أن نجد ذلك فى القطع أرقام : ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

تستخدم فى نظم الأشعار المتسلسلة والمترابطة ، وقد درسها الأستاذ **داموسوألونسو** Dàmaso Alonso . وتوجد لها أمثلة وفيرة فى كل الآداب الأوربية ، وبخاصة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . وقد ضمّن **دامسو ألونسو** مقاله البالغ الأهمية أمثلة عديدة لهذه الصورة البلاغية ، مأخوذة من الشعر العربى ، وقد ترجمها وعلق عليها **إميليو غرسية غومث**(٦٨) . وهو ما يضع أمامنا مشكلة العلاقة بين أقدم القصائد التى تعرف « **اللف والنشر** » فى الأدب السنسكريتى . وعند اللاتين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وعند الإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والإسبانيين ، فى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . واحتمال أن ليس ثمة صلة بين الأدب السنسكريتى والأدب اللاتينى جعل الأستاذ **دامسو ألونسو** يرى أن القصيدة العربية نفسها هى التى قامت بدور الناقل أوالوسيط . والمشكلة لمّا تحل ، ولكن الأمثلة التى قدمها لنا **غرسية غومث** دليل واضح على استخدام « اللف والنشر » فى الشعر العربى على امتداد كل العصور . وهذه الأمثلة تضم أشعارًا لابن حزم القرطبى ، وابن حاجب النعمان ، وابن خفاجة ، وحمدة بنت زياد ، وصالح بن شريف الرندى ، ويمكن أن نضيف إليهم ابن خاتمة ، ولو أنه لم يتجاوز الوحدتين فى لفه ونشره . ولكنها تضم عددًا من التشبيهات غير معروف نسبيًا . وإذا كانت التشبيهات لا تتجاوز ستة أو سبعة عادة . فلدينا هنا حالة نادرة ، على نحو ما يصرح به الشاعر نفسه . فنحن نلتقى عنده بستة عشر ركنًا على الأقل . يقول :

وخاطرةٍ كالظبى ، فى خَطْوِها بُعْدُ تكاد أعاليها من اللين تنقدُّ
تمنيتها فى حضرةٍ وسْط روضةٍ ينمّ علينا من خمائلها الندُّ
فصدّتْ وقالت : ما لطبعك قد جفا وأىَّ رياضٍ تبتغى بعد ما أبدو
وفردوْسها والقضْبُ والعرْفُ والندى وأوراقُها والورُق والكثْبُ والرند
وحضرتْها والراح والنقلْ والغنا ونرجسُها والزهرُ والآسُ والورد
ثيابِى وأعطافِى ونشرى ونعمتى وقُرطى وحلْيى والروادف والقد

---

(٦٨) دامسو ألونسو فصل فى أسلوب العصر الذهبى . اللف والنشر فى الشعر ، مدريد ١٩٤٤ ، ص ١٥٢ - ١٥٦ ، وعن هذا الموضوع الهام ودرسه متوسع انظر كتابه : ستة مرافئ فى التعبير الأدبى الأسبانى ، مدريد ، طبعة جريدوس ، ١٩٦٣ .

ووجهى وريقى والنهودُ ومنطقى ولحظى وثغرى والغدائر والخد
إذا لحتُ لاحَ الحسنُ طرًا وإن أغبْ فلا شجن يخفى ولا حَسَنٌ يبدو

فنحن إذن بصدد جملة كبيرة من التشبيهات ، جاءت على طريقة **اللف والنشر** فى مجموعتين ، كل واحدة منها فى ستة عشر ركنًا ، الأولى تمثل المشبه به ، والثانية تمثل المشبه ، وجاءت محكمة التركيب فى بنائها .

وقد أورد لنا ابن الخطيب ، فى مؤلفه الكتيبة الكامنة[٦٩] ، بعض أبيات الشاعر **إبراهيم القيجاطى** ، المتوفى عام ٧٣٠هـ = ١٣٢٩ ، وكان معاصرًا **لابن خاتمة** ، تضمنت من صور التشبيه على طريقة اللف والنشر المرتب ثمانية تشبيهات هى :

جبينٌ وشعرٌ ووجهٌ وقدٌّ وخدٌّ وطرفٌ وريقٌ وثغرْ
صباحٌ وليلٌ وبدرٌ وغصنٌ وورددٌ وسحر وخمر ودرٌّ

ونمضى مع هذا القسم الثالث ، فنجد فى المقطوعات رقم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ ، أمثلة أخرى مثيرة ، لا تدخل فى باب اللف والنشر ، وإنما هى من الصور البديعية التى تعرف **بالتجنيس**[٧٠] ، وهو : « بيان المعانى بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة » وهو قسمان : جناس مزاوجة ، وجناس مناسبة ، وهذا الأخير ألوان كثيرة ، اختار **ابن خاتمة** من بينها **تجنيس التصريع** ، وهو : أن يقع الجناس بين الكلمة الأخيرة من المصراع الأول والكلمة الأخيرة من المصراع الثانى فى البيت ، فيعطيه جمالاً أكثر من الموسيقا والإيقاع .

والمقطوعة رقم ٢٦ ذات أهمية كبرى ، فيما أرى . إنها تتضمن لونا من الجناس ، ولكن **ابن خاتمة** قدّم لها بقوله : « وقال والتزم فى قوافيه نوعًا من التجنيس » ، يقوم على توافق الحرفين الأخيرين من الكلمة قبل الأخيرة من البيت ، مع الحرفين الأخيرين فى آخر كلمة فيه ، أو إن شئت مع حرف القافية ، والحرف الذى يسبقه . مثلا : الوصال صالى .

---

(٦٩) طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٤ .

(٧٠) ثمة دراسة هامة قام بها ب . دياث ماتشو عن التجنيس ، فى مجلة « سفراد » ، المجلد ٨ ، ص ٢٣٩ - ٣٢١ والمجلد ٩ ص ٢٧٠ .

للجمال مالى ، خبالِ بالى* :

«بحقِّ فَضْلِ الرسول سُولِى ِ بَرِّدْ بروحِ الوصالِ صالى
سَبَى سنا حُسْنُكُمْ فؤادى مالى ِ وللجمالِ ، مالى ِ ؟
ياظَبْىُ هَبْ لى رضاكَ علىَّ - أبرَا به من خبالِ بالى
أيأستُ فيكَ العذولَ منىِّ ترفُّعًا عن مقالِ قالى ِ
هل أقتنى فى الملاحِ لاحِ وأهيِنى فى العوالِ والى»*

والتشابه واضح بين ما نسميه فى الإسبانية «الأشعار ذات الصدى Versos Comeco» وبين هذا اللون من الجناس ، وقد أشرت إلى هذا فى مقالى الذى ظهرفى مجلة الأندلس ، المجلد ٢٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥ – ١٢٢ ، بعنوان : «ألوان طريفة من الشعر الأندلسى» .

وقد أشار **إميليو غرسية غومث** فى المجلد الذى ظهر تكريمًا لدامسو ألونسو[(٧١)] ، إلى وجود «القافية الصدى» ، أو التجنيس الذى أشار إليه **ابن خاتمة** ، فى الشعر العربى ، وكان بصدد موشحة **للشاعر الوادى** آشى **أبى الحسن بن نزار** الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، وأعتقد أن أبيات ابن خاتمة هذه تجىء مثالا أزيد على استخدام مثل هذا التجنيس بين الشعراء العرب . ما العلاقة بين الشعر القشتالى الذى تجىء «قافيته صدى» ، وهو كثير فى أدبنا ، واستخدمها شعراء كثيرون فى كل العصور ، مثل : خوان دى لا إنثينا ، ولوبى دى رويدا . وبلتساردى القصر . ولوبى دى بيجا ، وسور خوانة إنيس دى لاكروث ، وروبين داريو* وغيرهم . وهذا اللون العربى من الجناس ؟ .

---

* الأبيات ليست فى الأصل لأنها لا تعنى مع الترجمة شيئا . ولكن المثل فى العربية واضح ، ولذا جئت بها كاملة . (المترجم)

(٧١) دراسات لغوية . المجلد الثانى . مدريد ١٩٦١ ، ص ٧٣ - ٧٩ .

● خوان دى لا أنثينا (١٤٦٩ - ١٥٣٩ م) . شاعر وكاتب مسرحى . وموسيقى ماهر ، يعتبر أب المسرح الأسبانى ، وتدور مسرحياته بعامة حول موضوعات دينية وريفية .

● لوبى دى رويدا (١٥٠٠ - ١٥٦٥ م) : ولد ومات فى اشبيلية . وعمل ممثلا ومؤلفا ومدير فرقة ، ولا تزال مسرحيته «سكة الزيتون» تتمتع بشعبية حتى اليوم .

● بلتسار دى القصر (١٥٣٠ - ١٦٠٦ م) : شاعر رقيق من أشبيلية ، واشتهر بديوانه «عشاء ساخر» .

من الواضح أن هذه الصناعة ، وهى متكلفة ، وتنقصها العفوية ، تنافى طبيعتنا ، فيما يبدو ، ولكن إذ تأملناها من وجهة نظر أخرى يمكن أن نجد فيها جوانب من الجمال لا يتطرق إليها الشك ، لا يجب أن نبحث عنها فى المضمون ، ولا أن نفكر فى البلاغة ، وإنما يكفى أن نقرأها باللغة العربية فحسب ، وأن ننشدها ، حينئذ نجد هذا الجمال فى اللغة ، وفى رنة الصوت وفى الإيقاع ، وشبيه بهذا ما يحدث فى كثير من أشعار روبين داريو.

كل قصائد ، أو مقطوعات ، القسم الثالث تقدم فى مجموعها كثيرًا من الطرائف والمفاجآت ، فالمقطوعة رقم ٢٧ تجمع من الحلى البلاغية بين « نوع من التجنيس ومعنى من التورية » ، وفيها دليل أزيد ، وهو الخلط بين نطق السين ونطق الصاد فى عربية أهل غرناطة :

وشادنٍ باكَرَ الكُتَّابَ محتضنًا للَوْحِهِ ، خاطرًا فى صورة القمرِ
سأَلْتُه : ياحبيبى ! مابِلوحكِ؟ قُلْ فقال لى : إنّنى فى « سورة القمر » !

أما المقطوعة التاسعة والعشرون ، فتقدم تركيبًا بالغ الطرافة والإثارة ، فنحن معها بإزاء مقطوعة تتألف من ثلاثة أبيات ، وبعد كل بيت تسع كلمات متشابهات القافية عموديًا ، ومتساويات الإيقاع ، وتصلح كل منها أن تكون قافية للمقطوعة ، فالقافية الأصلية فى النص هى الراء ، ولكنها يمكن أن تكون العين ، أو الحاء ، أو الباء ، أو الفاء ، أو الدال ، أو القاف ، أو الميم ، أو اللام ، أو النون ، تبعا للفظ الذى نختار من الكلمات التى تلى كل بيت ، دون أن يضطرب البيت أو القطعة معنى ، أو قافية ، أو وزنا ، وبذلك يمكن أن تنشد القطعة بعشر قواف مختلفة :

=● لوبى دى بيجا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) : من كبار شعراء المسرح الأسبانى ، بدأ حياته مغامرا ، وانتهى به الأمر راهبا ، وعاش حياة متواضعة ، وكتب مئات المسرحيات .

●سور خوانة (١٦٥١ - ١٦٩٥) : راهبة مكسيكية ، عالية الشعر ، حتى أنها استحقت لقب ، ربة الشعر العاشرة .

●روبين داريو (١٨٦٧ - ١٩١٦) : شاعر وناقد من نيكارجوا ، ابتدع ألوانا من النغم الجرىء ، وكان على رأس مذهب « الحداثة » ، وترك تأثيرا كبيرا فى الأدب المعاصر.

(المترجم)

سبعٌ لىَ اليومَ أيا بُغْيتى لم يَبْدُ لى منظرُكَ الأقمرُ

الأبدع ، الأوضح ، الأعجب ، الأظرف ، الأسعد ، المشرق ، الأوسم الأجمل ، الأحسن .

ماذا الجفاءُ ، الله فى مغرمٍ أدمعُهُ من لوعةٍ تقطُر

تهمع ، تسفح ، تسكب ، تذرف ، تنفد ، تدفق ، تَسْجم ، تهْطل ، تهتن

أيظهرُ البدرُ على بعدِهِ وأنت بالقربِ ولا تظهرُ ؟

تطلع ، تلمح ، تغرب ، تسعف ، تسعد ، تشرق ، تنعم ، تُفْضل ، تُحْسن

ثم نلتقى فى هذا القسم بموضوعات ظهور العذار ، وهو يتردد كثيرًا فى شعر كل العصور ، وعند كل الشعراء تقريبًا ، وعن غلمان ليسوا فوق مستوى الشبهات ، ولا ينقصه تخيل الصورة المحبوبة فى الحلم ، والوداع والهجر ، والعيون المراض موضع المدح أيضًا .

والمقطوعات من ٦١ إلى ٦٧ تصف طريقة طريفة فى الكتابة على الورق عن طريق تفريغ الأحرف بالقطع ، ولمعرفة المزيد عن هذه الطريقة يمكن العودة إلى تعليق لى نشرته فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٤ ،عام ١٩٤٩ ، وإلى تعليقات أخرى تليه فى المجلدات : ١٥ و ١٦ ، وكان الأول منهما من تحرير المجلة ، والثانى بقلم الأستاذ المصرى جمال محرز ، وفيهما يرد كل ما نعرف عن هذه الطريقة فى الكتابة ، وكانت تستخدم فى المشرق والمغرب على السواء ، خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، وحتى فى إسبانيا المسيحية ، فى قصائد شمطوب دى كريون(٧٢) ونضيف إلى تلك المعلومات خبرًا جديدًا عثرت عليه ، وهو

---

(٧٢) انظر مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، عام ١٩٥٠ ، ٤٩٨ – ٥٠٠ ، مقال : الرسائل المقصوصة والرسائل المحشية ، تعليق من التحرير . ومقال الأستاذ جمال محرز . مزيدًا عن الرسائل المقصوصة ، فى الأندلس ، المجلد ١٦ ، عام ١٩٥١ ، ٢١٩ – ٢٢٣ .

وفيما يتصل برسائل شمطوب دى كريون المقصوصة ، فضلا عن الأشعار من ٩١ إلى ١٠٠ ، من كتاب الأمثال الأخلاقية الذى أشار إليه الأستاذ س . م . شترن فى تعريفه بطبعة جونثالث يوبيرا ، وظهر فى مجلة فقه اللغة الرومانية ، انظر مقالاً لشترن نفسه بعنوان : قصيدتان عبريتان . فى مجلة سفراد ، المجلد العاشر ، عام ١٩٥٠ ، ص ٤٩٨ – ٤٩٩ .

ومن قريب نشر الأستاذ الدكتور دباث استيبان كتاب : « القلم والمقص » من تأليف سام توب فى مجلة جامعة مدريد ، المجلد ١٨ ، العدد رقم ٦٩ ، الصفحات ٦١ - ١٠٢ ، وهو مقال هام للغاية ، ويضم معلومات وافرة عن طريقة الكتابة بالمقص هذه .

أيضا أخبرنى الأستاذ يهودا بيى ريهوفور بأنه يعكف على دراسة قصائد سام طوب التى كتبت بهذه الطريقة ، وعن هذه الموضوعات انظر أيضا تعليق لى فى مجلة الأندلس ، المجلد ٣٣ ، عام ١٩٦٨ ، ص ٤٧١ – ٤٧٣ ، عن : الكتابة بالمقص فى بعض أشعار الرصافى ، ومقال عن أوتو كورث فى المجلد ٣٨ ، عام ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ .

قصيدة للشاعر البلنسى **محمد بن غالب الرصافى** ، المتوفى عام ١١٧٧م ، وهى أقدم مالدينا عن شعراء إسبانيا الإسلامية ، وتوجد فى مخطوطة كتاب **ابن عسكر** : **التكميل والإتمام لكتابى التعريف والإعلام** ، ص ٢٦ [٧٣] .

وهذه الطريقة التى تتمثل فى تفريغ الأحرف ، فلا تصبح غير تجويف على الورق ، يمكن أن تستخدم لغايات مختلفة . فابن خاتمة يستعملها فى قصائد الغزل ، والكتابة تشبه المحبوب :

أجِلْ عينيك فى وشيٍ تعاينْ كتابًا والهواءُ لهُ مدادُ
حكانى كاتبى فى حالتيه لنا جسمٌ وليس لنا فؤادُ

أما قصائد **شمطوب دى كريون** ، (الأمثال . طبعة جونثالث يوبيرا ، الأبيات ٩١ – ١٠٠) ، فتجيء لغاية أخرى ، إنها طبقًا لما يقوله المؤلف نفسه ، كتبتْ على هذا النحو « لأنه لا يجب أن ينفق فيها مدادًا » احتقارًا لمن توجه إليه ، ولكن الأسلوب واحد وليس ثمة شك ، أنها كتابة طريفة ، وزخرفة كتابية ، تخضع للعبة الكلمات وأدق التراكيب البلاغية . وفى القرن الرابع عشر الميلادى كتب أيضًا الخطاط المشرقى **جواد بن سليمان بن غالب** اللخمى بطريقة قطع الحروف قصيدة لامية العجم للطغرائى الشهيرة ، وهى فى تسعة وخمسين بيتًا .

والمقطوعات الثلاث الأخيرة من هذا القسم جاءت ألغازًا ، وهو غرض من الشعر كان يستخدمه شعراء المشرق والمغرب على السواء ، فى كل العصور ، ويصعب علىّ فهمه ، ووقفت بجهدى عند حد نسخه ، فهو ألغاز تقوم على تكوينات عددية ، وعلى الحروف ، وحلها الآن يبعث على الحيرة .

° ° °

أما **القسم الرابع** ، وهو فى **الوصايا والحكم** ، فيضم اثنتين وأربعين مقطوعة ، كلها

---

(٧٣) عن هذه التراجم المختارة لعلماء مالقة الكبار ، انظر مقال خواكين بالبيه ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ٣١ ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٤٣ – ٢٦٥ .

كذلك ، على نحو ما هو جار فى مثل هذا اللون من شعر الحكمة ، وتوجد له أمثال عديدة بين شعراء إسبانيا الإسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى .

وليس ثمة شك فى أن **ابن خاتمة** كان تحت تأثير اثنين من شيوخه : **ابن ليون** ، **وأبى البركات البلفيق** ، والأول منهما ، وتحدثنا عنه فيما سبق ، ترك عددًا من المؤلفات فى هذا الضرب من شعر الحكمة ، أورد لنا المقرى شيئًا منها فى كتابه **نفح الطيب** ، والتشابه بين الكثير من أشعاره وماعند ابن خاتمة واضح ، ونأخذ لذلك مثلا ، يقول ابن خاتمة فى إحدى مقطوعاته :

أنعمْ على مَن تشا فـأنت حتمًا أميرُهْ
واحتج لمن شئتَ يومًا فما سواك أسيرُهْ
واستغنِ بالله عمّنْ تشاءُ أنتَ نظيره
فالمرء عبدُ هواهُ يضيرُهُ أو يُجيره

ويقول **ابن ليون**[٧٤] :

مَن تفضّلتَ عليه أنتَ لا شكّ أميرُه
ومَن احتجتَ إليه أنت بالرغم أسيرُهْ
ومن استغنيتَ عنهُ أنت فى الدنيا نظيرُه

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مقطوعات كثيرة ، يتشابهان فيها فكرة ، وحتى فى التعبير أيضًا .

وأفكار بعض هذه النصائح والتأملات تتناقض ، كما يمكن أن نرى فى المقطوعات ٣١ و٣٤ و٣٦ ، ومن ثم فنحن لا نعرف ما إذا كنا بصدد مجرد أشياء مطروقة ، وتتكرر عادة فحسب ، بعيدة عن مشاعره الحقة ، أم أننا أمام رغبة مقصودة ، للتعبير عن قناعاته .

فى حالة معينة ، **يشير ابن خاتمة** فى القصائد التى ذكرناها إلى الرحلة ، ونلتقى به فى القسم الأول من الديوان يعبر عن رغبة قوية فى رؤية الأماكن المقدسة وزيارة قبر النبى ،

---

(٧٤) نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٥٨ – ١١٤ .

ولا نعرف ما إذا كان صادقًا أم متخيلا ، لأن الذين ترجموا له لا يذكرون أنه أدى فريضة الحج ، ولم يخرج حتى من الأندلس فى أية لحظة ، وحركته لم تتجاوز **غرناطة** و**المرية** وما حولهما من قرى صغيرة .

ولم يكن عزوفًا عن الحركة فحسب ، وإنما دفع شيخه وصديقه الحميم **أبا البركات البلفيقى** ، لكى يقعد عن رحلة كان قد اعتزم أن يقوم بها إلى شمال أفريقيا ، مرددًا بعض أبيات له من الشعر[٥٧] .

ولنقف قليلا مع هذا التناقض فى الأفكار ، يقول **ابن خاتمة** فى المقطوعة رقم ٣٤ :

جُلْ فى بلاد الله نحو العلا ولتجتنبْ أهلاً وأوطانا
فبيدقُ الشطرنج من فورِه يعودُ بالتجوال فرِزانا

وفى المقطوعة رقم ٣٧ يقول :

مثواكَ عِزُّكَ فاحذر أن تفارقَهُ فعزةٌ واغترابٌ قلما اتفقَا
أما ترى الشعَر فوق الرأس محترمًا فإن يزلْ عنه أضحى فى التراب لَقى

ولا نجد فى هذا القسم كثيرًا من الأفكار الأصيلة . ومن الصعب أن نلمح بينها شيئًا ذاتيًا بحق ، وربما فى المقطوعة الواحدة والعشرين . عندما ينصح باجتناب الأقوياء . يمكن أن نربط بين هذه الأبيات وبين حياته . وجرت دائمًا على هامش الطموحات السياسية ، ولو أنها فى الوقت نفسه موضوع طالما طرقه الكثيرون من الشعراء ، يقول :

خَف السلاطين واحذرْ أن تُلابسهمْ مادام أمرهُمْ فى الملك مضطربا
إن الملوك بحار فى خلائِقهم ومن سما البحر فى أهواله عَطبا

* * *

وأخيرًا ، يأتى الشاعر فى نهاية الديوان بقسم أوقفه على **الموشحات** ، وجعلها خاتمة له ، وهى – فيما أرى – أفضل أشعار ابن خاتمة . لموسيقاها الرائعة . وعفويتها وطلاقتها . ويضم ثمانى عشرة موشحة .

وإيثار شاعرنا لهذا الجنس من النظم واضح ، ومن ثم نجده فى فقرة أوردها **المقرى** فى

(٧٥) نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٤٠٢ .

كتابه **أزهار الرياض** . المجلد الثانى . ص٢٥٢ وما بعدها ، نقلا عن «**كتاب مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية**» ، عندما عرض لترجمة ابن **عبادة القزاز** ، الشاعر والوشاح الشهير ، والذى عاش فى بلاط **المعتصم بن صمادح** أمير المرية . وهذه الفقرة بالغة الأهمية ، واتكأ عليها كل الذين يهتمون بدراسة الموشحات . وإذا رجعنا إلى نصى ابن بسام وابن سعيد المغربى ظهر لنا أن ثمة شخصين ينسب إليهما ابتداع فن الموشحات : محمد ابن محمود ، ومقدم بن معافى . وكلاهما من قبرة ، وكلاهما ينعت بأنه ضرير(٧٦) .

ويفخر **ابن خاتمة** بأن مواطنيه الأندلسيين ابتدعوا هذا النمط الشعرى الجديد . ولا يخفى إعجابه به .

وبرهان آخر على تفضيله فن الموشحات نجده فى هذه المجموعة منها ، ويضمها القسم الذى جاء به فى آخر ديوانه . ولأن الخرجة أفضل ما فى الموشحة ، وتجيء فى آخر مكان منها ، وهى من الموشح «ملحه وسكره ومسكه وعنبره» ، فكذلك تمثل الموشحات من الديوان حين توضع فى نهايته ، محتفظًا للقارىء بمفاجأة مدهشة ، فريدة ورائعة .

لن نحاول هنا شرح ما الموشحة ، ولن نتعمق فى المشاكل المتصلة ببنائها ، لأن أستاذى العزيز **إميليو غرسية غومث** درسها بأدق وأوضح ما يكون ، وإنما سأقف بجهدى عند دراسة الموشحات التى جاءت فى الديوان ، وسأصنفها تبعًا لخواصها المميزة لها ، وموضوعاتها وخرجاتها .

يقول **ابن خاتمة** فى المقدمة التى عرض فيها لأقسام الديوان : «وقد قسمتها أربعة أقسام ، قصد التنشيط والإجمام : القسم الأول فى المدح والثناء ، والقسم الثانى فى النسيب والغزل ، والقسم الثالث فى الملح والفكاهات ، والقسم الرابع فى الوصايا والحكم . **وختمتها بنبذة من التوشيح الذى له فى مضمار الأدب المجال الفسيح**» .

يبلغ عدد موشحات الديوان ثمانى عشرة ، وكلها جاءت فى خمسة أغصان ، أو أدوار

---

(٧٦) انظر : عبد العزيز الأهوانى ، كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد الأندلسى ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ١٩ - ٣٣ . وكذلك س . م . شترن : الخرجة الأسبانية فى الموشحة الأسبانية العبرية ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٣ ، عام ١٩٤٨ ، ص ٢٩٩ - ٣٤٦ .

إذا شئت . للموشحة الواحدة ، وجاءت من بينها الموشحة الرابعة عشرة ، والسابعة عشرة بلا مطلع ، أو ما يطلق عليه فى اصطلاح النقاد موشح أقرع .

وأغلبها جاء على غير عروض البحور التقليدية المعروفة ، وقليل منها ، وبتحفظ فى بعضها ، يمكن أن يقال إنها جاءت فيها ، وهى الموشحات رقم ٦ و ٧ و ١١ و ١٤ و ١٦ . فالموشحة السادسة جاءت فى بحر الخفيف ، ولكن التفعيلات تتفاوت من بيت لآخر ، وهو مالا يمكن أن يحدث فى الشعر العمودى . والموشحة السابعة جاءت أغصانها فى بحر المجتث ، ولكن القفل والخرجة من الصعب ردهما إلى بحر . وجاءت كل من الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، فى مجزوء البسيط ، أما الرابعة عشرة فوزنها بالغ الغرابة ، لأن أغصانها ثلاثية ، ومن بحر الطويل ، أما الأقفال والخرجة فجاءا على وزنين مختلفين ، أربع مرات . والموشحة السادسة عشرة ممكن أن تكون من بحر المجتث فيما يتصل بالأغصان ، ولكنى لست على يقين من الأمر كذلك فيما يتصل بالأقفال والخرجة . ولقد أشرت إلى قافية كل واحدة منها وإلى البحر الذى أعتقد حقًّا أنها جاءت فيه . وطبقًا لنظرية **إميليو غرسية غومث** ليس بينها أية واحدة يمكن أن تكون من بحر الكامل ، أو الوافر ، مما يعنى احتمال الزيادة فى المقاطع .

ولا تتناول الموشحات من الأغراض إلا الغزل والوصف فحسب ، فليس فيها مدح ، لا دينى ولا دنيوى ، ولا هجاء . وأسلوبها خفيف ، وموسيقى ، وذو وقع جميل على السمع ، وفيما يبدو وجد ناظمها مجاله واسعًا عريضًا ، فمضى مع موهبته إلى غايتها .

ونلحظ أن الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة يتم فجاءة فى بعض الأحيان ، ويجىء جافًا ، وفى بعضها الآخر لا نكاد نحسه ، على نحو ما فى الموشحات رقم ٢ و ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ و ١٧ .

وتجىء **الخرجة** فى معظم هذه الموشحات عامية اللغة ، ومن ثم ينقصها الإعراب ، وتستخدم عددًا من تعبيرات اللغة الشعبية ، وأشرنا إليها ، ولا نجد بين خرجاتها ما جاء فى اللغة الرومانثية ، كما كان شائعًا فى موشحات هذا العصر ، ولو أننا نجد لهذه القاعدة استثناء ، كما فى موشحات ابن ليون ، المتوفى عام ١٣٤٩ م ، وجاء بها إميليو غرسية

غومث فى كتابه : « الخرجات الرومانثية للسلسلة العربية فى إطارها »[٧٧] .

ثمة خرجة واحدة فحسب لا أرى معناها واضحًا ، مما جعلنى أشك فى أنها تحوى بين مفرداتها لفظًا رومانثيا ، ولو أن الأمر لا يتجاوز ، حتى هذه اللحظة ، مجرد الفرض ، أعنى الموشحة الثالثة ، ونص خرجتها :

ثوبكَ أحرزْ من الحبَر فـــقـــد ملانى

قال لى : خلينى نفتصل فى بـــلـــد رانى

وأعترف بأنى لست على ثقة من أن ترجمتى لها دقيقة ، أولا لأن كلمة « حبر » ، وأعتقد أنها تعنى هنا « مداد » ، إذا أخذنا فى الحسبان أبيات الأغصان التى سبقتها ، والتى تقول :

وغـــزالٍ مـــا أجـمـلـهْ فى تحلِّـــيـــه

أخـذ الـطـرس فصّلَهْ ووشى فـــيـــهِ

ومع ذلك ، فالمعاجم العربية تضبط الكلمة « حبْر » ، وهو ما يستحيل هنا ، لأن القافية الأولى فى كل الأقفال جاءت راء تسبقها فتحة* ، والشك الذى تولد عندى فى هذه الخرجة ، أجمله فيما يلى :

١ - ضبط كلمة حبَر بدل حِبْر .

٢ - تعبير « **فقد ملانى** » ، وترجمته : « إذن ما أجمله ! » .

وضبط الكلمات فى المخطوطة لا يدع مجالا للشك ، ولكنى لا أجد فى المعاجم الفعل الثلاثى « ملأ » مزيدا بهمزة ، والذى يمكن مع التسهيل أن يفقد الهمزة الأخيرة منه ، وبخاصة فى اللهجة العامية ، وفكرت أيضًا فى أن تكون إملاء ولكن هذا المعنى لا يبدو لى معقولا هنا ، هل يمكن أن تكون من الأصل نفسه ، بمعنى « جعله يستمتع » ، ومن ثم يصبح معناها تمتع ، أو شىء شبيه بهذا ؟. إن معنى الخرجة فيما يبدو لى يلح على شىء كهذا .

---

(٧٧) مدريد ، جمعية الدراسات والنشر ، عام ١٩٦١ ، رقم ٢٠ ب ، ص ١٩٧ .

* حذفت هنا فقرة ، لأنها مجرد ترجمة لأبيات الغصن التى سبقت إلى اللغة الإسبانية . (المترجم)

٣ – **نَفْتَصَل** ، وجاء ضبطه هكذا ، بدل « نَفْتَصِل » ، ولم أجد أيضًا حلا مرضيًا للفعل « فصل » ، حين يجيء مزيدًا بالهمزة والنون ، ولأن المعاجم تقدمه لنا مزيدًا بالهمزة والتاء فحسب ، ولأن الصيغتين تتشابهان فى كثير من الأحيان فى المعنى ، فقد ترجمتها « منفصلين » .

٤ – لفظ « **بَلَدَرانى** » ، وفكرت بدءًا فى احتمال أن تكون مركبة من كلمتين : بَلَدَ ورانى ، ولم أجد فى هذا حلا مرضيًا . « ورانى » يمكن أن تكون فعلا لحقته ياء المتكلم ، بمعنى أكون ، فى اللغة البربرية (٧٨) ، ولو أن استعماله أكثر شيوعًا أمام المضارع ، والاحتمال الأخير ، وارتضيته ، ولست مقتنعة به تمامًا كما قلت ، أنها كلمة رومانثية ، ويمكن أن تقرأ هكذا « بلندران Balandràn » ، وطبقًا لمعجم مجمع اللغة الملكى فإن لفظ « بلندران » تعود أصوله إلى اللغة الألمانية القديمة ، ويطلق على « لباس سابغ وعريض ، مع معطف قصير على الكتفين ، ويستخدمه رجال الكنيسة عادة » ويتحدث دوكانج Ducange فى كتابه : « معجم لاتينية العصور الوسطى » عن استخدامه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فيقول :

« فيما يتصل ببعض أنواع ملابسنا من البلندراس ، أو البلندران ، المقررة فى نظام سان بندكتو ، فى مقاطعة نربونة ، عام ١٦٢٦ م ، من المؤلم أن يستخدمها الجمهور ، وبخاصة ما كان منها أصفر اللون ، وقد أدان المجمع المسكونى لعام ١٢٥٤ م استخدام الجمهور لها ، وحرم ارتداء البلندران ، دون أية رقابة ، فى تلك المقاطعة ، كملابس علمانية ، وليس كملابس دينية » .

فالكلمة ، فيما يبدو ، كانت جارية الاستعمال فى اللاتينية الواطية ، وكانت تعنى نوعًا من « المعاطف » لا يستخدمه رجال الدين فحسب ، وإنما يستخدمه عامة الناس أيضًا ، كعباءة تغطى ملابسهم وتحميهم ، وبهذا المعنى يمكن أن نفهمها ، وأن نترجمها ، ويصبح معنا فى هذه الحالة كلمة رومانثية ، هى الوحيدة ، فيما يبدو ، التى جاءت من هذه اللغة فى خرجات موشحات الديوان .

---

(٧٨) برسنيه ، دراسة تطبيقية ونظرية فى اللغة العربية ، الجزائر – باريس ١٩١٤ ، ص ٣١ .

وخرجتا الموشحتين رقما ٥ و١١ طريفتان ، وقد درسها إميليو غرسية غومث فى كتاب « دراسات مهداة إلى مينينديث بيدال » ، المجلد الثانى ، ص ٣٩٧ – ٤٠٨ ، وهما دليل على وجود تلك الأغنيات الشعبية ، سواء أكانت فى اللغة الرومانثية أم لا ، والتى بنى عليها الشعراء الموشحة ، ويبدو ذلك واضحًا فى هاتين الخرجتين أكثر من أى مكان آخر ، والمطابقة ، أو الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، ونلحظ للوهلة الأولى ، أننا أمام جمع بين شيئين متناقضين .

والموشحة السادسة بالغة الأهمية للغاية ، فيما أرى ، إلى جانب روعة جمالها . وهنا يبدو لى أن **ابن خاتمة** مؤلف الموشحة والخرجة على السواء ، فليس فيها جفوة ولا تكلف ، وحافظ على نفس الإيقاع . ولها ميزة واضحة استرعت انتباهى منذ اللحظة الأولى . فالتفعيلة الأخيرة من كل قفل تتكرر فى بدء كل غصن يليها ، وتمثل حالة واضحة من « **الشعر المترابط** » ، ولا أعرف لها مثلا آخر شبيهًا بها فى الشعر العربى ، ولكنها تكثر فى الشعر القشتالى . وفى مقالى الذى نشرته فى مجلة الأندلس بعنوان : « بعض طرائف الشعر الأندلسى »[٧٩] أشرت إلى عدد من أمثلة « القصائد المترابطة » التى توجد فى « ديوان بايينه El Cancionero de Baena ، والتقطت بعض الأشعار التى جاءت على هذا النمط فى حَمْد وشُكْر « سانتا مريا » ، فى ديوان كاهن هيتا* ، وكان معاصرًا لابن خاتمة الذى يستخدم نفس طريقة الربط . هل ثمة علاقة بين الذوق العام والنمط الشعرى فى هذه المرحلة الأخيرة من الحكم الإسلامى ، بين المسلمين الإسبان وبين إسبانيا المسيحية ؟ من المحتمل جدًا أن يكون الجواب : نعم .

والموشحة الثامنة يدور موضوعها عن الحب بين المسلمين والمسيحيين ، وجاءت فى أسلوب خفيف ، ينبض حيوية ، ويأخذ طريقه إلى الأذن بلا استئذان .

لقد أتاح التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى كل العصور وجود هذا الشعر الغزلى ،

---

(٧٩) مجلة الأندلس ، المجلد ٣٣ ، ص ٩٥ – ١٢٢ .

* لمعرفة صلة كاهن هيتا باللغة العربية ، يمكن الرجوع إلى كتابى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٤٢ وما بعدها . (المترجم)

وتحضرنا الآن أشعار **يوسف الرمادى** ، **وابن الحداد** ، والإشارات العديدة إلى التعايش مع المسيحيين وعاداتهم وحفلاتهم الدينية(٨٠) ، وهنا ، فى هذه الموشحة ، يشير **ابن خاتمة** إلى غلام نصرانى ، ويمكن أن نشير ، وقليلا ما نلتقى بمثل هذا الخبر الطريف ، إلى صعوبة فهم لغة الغلام المسيحى . أتراها مجرد خواطر أم أنها تعكس المناخ الحقيقى فى مملكة غرناطة ، وأنها لم تعرف ازدواجية اللغة . ممثلة فى العربية والرومانثية ، وكانت شائعة فى الأندلس فى عصور سابقة ؟ . إنها موشحة ، كما قلت فيما سبق ، من أرق موشحات ابن خاتمة ، وأعذبها موسيقا ، وألطفها وقعًا على السمع ، والتمهيد فيها ، أو إن شئت الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة طبيعى تمامًا ، تقول الخرجة :

صُبَىَّ عشقتْ رومى وِشْ نحفظْ اللسانْ
الساعَ مانشا كِلْ عاشقْ بترجانْ*

وقد ترجم إميليو غرسية غومث (٨١) الموشحة الحادية عشرة ، إلى جانب الموشحة الخامسة ، وخرجتها كخرجة هذه ، أغنية شعبية جميلة ، أعطاها ابن خاتمة طابع الموشحة . ولكن التمهيد هنا ، أى الانتقال من الغصن الأخير إلى الخرجة متكلف ، وغير طبيعى ، ويشى بأن تغييرًا ما حدث عند الانتقال إلى الخرجة : لقد ظهر الرقيب ، وعندما رأى وجه المحبوب محمرًا ظنه فارق الحياة ، فعلا صوته صياحًا ، وشىء كهذا ليس مكانة المناسب هنا ، أوكما يعلق غرسية غومث : « جىء بها تشدها الخيول » ، ومع ذلك ، فمن الواضح أن الخرجة جميلة ، وذات إيقاع شعبى :

صُبَىْ جُرِحْ فالتَّخيلْ رشٌ الَـحبقْ دَمٌ
بالله ياطيرًا مليحْ قُلَ الخبرْ لأمٌ

---

(٨٠) هنرى بيريس ، الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ، باريس ١٩٥٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٧
● ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، وسينشر قريبا جدا . (المترجم)

(٨١) دراسات مهداة إلى مينينديث بيدال ، المجلد ٢ ، ص ٣٩٧ - ٤٠٨ ، بعنوان : « امكانية احتمال طراز ثالث فى الشعر الأندلسى » .

* رقم هذه الموشحة السابع فى الديوان الذى نشره د . رضوان الداية ، والواقع أن الأرقام المسلسلة بها تكرار عند الرقم ٦ المكرر ولذلك تختلف فى كل الموشحات بعده (المترجم) .

ونجد فى الموشحة الرابعة عشرة جانبًا مختلفًا ، ولقد عنيت بدراستها فى مقالى الذى أشرت إليه فما سبق ، وعنوانه : « بعض طرائف الشعر الأندلسي » ، إنه موشح أقرع ، أى جاء بلا مركز ، وكل غصن فيه يتكون من ثلاثة أبيات ، جاءت فى بحر الطويل ، وجاء القفل فى بيتين ، الأول منهما فى بحر الطويل ، أما الثانى فليس إلا ملحقًا من أربع تفعيلات ، هى تكرار للتفعيلة الأخيرة من بحر الطويل . أما الخرجة ، على نحو ما نرى ، فلا تخضع لأى بحر من بحور الشعر ، وإذا طبقنا عليها نظام التفعيلات فسنجد أنفسنا أمام لون من الأغنيات الشعبية لا تستقيم لأى وزن بعينه ، إذا فككنا بحر الطويل وهو يتكون من أربعة عشر مقطعًا ، فى كل شطر سبعة ، فسنجد أن منه ستة مقاطع فى الغصن ، ويتبعها اثنان . وبيت من أربعة مقاطع لكل قفل . ومن الواضح أن إيقاع الجانب الأكبر من الموشحات وموسيقاها تختلف كثيرًا عما هى عليه فى الشعر التقليدى ، ولو أنها ظاهرًا يمكن أن تكون قد جاءت فى بحر معين .

والموشحات الأربعة الأخيرة فى هذه المجموعة ، ليست لها أى ميزة خاصة .

وبانتهاء الموشحات يختم ابن خاتمة ديوانه ، بعد أن حقق رغبة صديقه التى أبداها له ، طالبًا منه « الإغضاء عند القضاء ، فقد انتظم بين قريحة متبددة ، واقتراحات متعددة ، وشبيبة بين الجد والهزل مترددة » .

وبعد شكر الله ، والصلاة على نبيه وآله وصحبه ، يسجل تاريخ تدوين الديوان ، وأنه تم بمدينة المرية ، بتاريخ أخريات سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ م) ، على يدى ناظمه ، المستغفر لذنبه ، أحمد بن على بن محمد ابن خاتمة ، لطف الله به تعالى وفقه .

الأصول العربية

لفلسفة رايموندو لوليو

● كتب المستشرق الاسبانى الكبير، العلامة **خوليان ريبيرا** هذه الدراسة لتنشر فى الكتاب الذى صدر تكريما للعالم الاسبانى مينينديث اى بلايو، جـ ٢ ص ١٩١ - ٢١٦، وصدر فى مدريد عام ١٨٩٩. وأعيد نشرها فى كتابه «نبذ ومقالا، جـ ١ ص ١٥١ - ١٧٩، وصدر فى مدريد عام ١٩٢٨».

من بين أصعب المشكلات حلا فى تاريخ الفلسفة الإسبانية، الأسلوب الغامض للفيلسوف رايموندولوليو، وتقنيته الغريبة، ومنهجه غير المألوف وتأكيداته النادرة، وكل ذلك مضافًا إلى عادته فى ألا يذكر مصادر مذهبه، كان سببًا فى أن أفكاره لا تفهم بوضوح كامل، وليس من السهل أن نحدد بدقة أصول طريقته.

ولد **لوليو** فى ميورقة، بعد أن افتتحها خايمة، وسط أسرة عسكرية، كان ابنا لفارس رافق الملك فى هذه الغزوة. ولا يمكن الظن بأن الجزيرة على أيامه هذه كانت تعرف دراسات مسيحية ذات تقاليد، أو مدارس حسنة التنظيم، يمكن أن يتعلم المرء فيها الفلسفة، ولو أن مذهبًا بالغ التعقيد كمذهب الفيلسوف ليس مألوفًا أن يظهر فجاءة، بطريقة عفوية، ولا يمكن أن يحدث هذا فى أى مكان من العالم. ومع ذلك، وقبل أن يغشى هذا العالم المستنير مراكز المعرفة الإنسانية الكبرى، ظهر فى الأديرة، وسط حياة رهبانية متقشفة، وأذهل العالم يومها بمذهبه الجديد الرائع.

الذين يقتنعون فى سهولة، والذين يرضون بأى تفسير، يستطيعون أن يستريحوا، دون أن يواصلوا البحث العميق الجاد فى إصرار، يقبلون يقينًا أن **لوليو** عصامى علم نفسه بلا أساتذة ولا قراءة كتب، وأن كل شىء عرض له جاءه فيضًا. ولكن أى شخص عاقل،

متوسط الثقافة ، لا يمكن أن يرتضى هذه التفسيرات ، وبخاصة بعد أن ظهر ببراهين واضحة جلية أن لوليو قال فى مرات كثيرة ما قاله فلاسفة آخرون أقدم منه ، مسلمون أو وثنيون . وما كان فى وسعهم أبدًا أن يحظوا بنعمة الفيض .

والأخبار الغامضة التى لدينا عن أيام لوليو فى شبيبته ، لا تهتم بطريقة واضحة عن سير دراسته ، ولا كيف كانت الصلة ، أو تكونت الرابطة بين أفكاره . وكان علينا لكى نخرج من هذا الشك أن نلجأ إلى أسلوب آخر : أن نقارن بين أفكاره وأفكار الفلاسفة الذين سبقوه أو عاصروه . وبهذه الطريقة وحدها نستطيع أن نشير إلى ألوان من التوافق بينه وبين آخرين مشهورين جدا ، وقد رأينا بعض أفكار أرسطوطاليس ، ودون سكوت ، وتوماس الإكوينى ، وآخرين من فلاسفة العرب أمثال ابن سينا وغيره ، تلمع بين آرائه وأفكاره . ومع ذلك ثمة مجموعة كبرى من أشياء غامضة ، وقدر كبير من بقايا أفكاره ، تجعله يبدو كظاهرة رائعة ومتميزة .

أيمكن أن يحدث أنه سار على خطى نماذج مجهولة ، وأن حديثنا عن أصالته الرائعة ليس إلا جهلا منّا بمصادر مذهبه ؟ . هل درسنا التيارات العربية بقدر كاف ، والتى يمكن أن تكون أثرت فى فلسفة هذا العالم المستنير ؟ .

إن تربية لوليو العربية لم تجىء من ترجمات لاتينية رديئة ، كالتى كان يستخدمها بعض « المدرسيين » على أيامه ، وإنما جاءته معاناة من قراءته النصوص العربية الأصيلة مباشرة .

إن الشهرة العالمية التى تمتع بها الفيلسوف الميورقى ، والمعرفة الواسعة التى كان عليها ، لا يمكن أن يبلغها دون أن يستخدم أداتها المناسبة ، وبطريقة ماهرة ، ومن الضرورى بمكان أن يعرف اللغة التى كُتبت فيها هذه المواد ، ونحن نعرف عنه أنه لم يتعلم اللغة اللاتينية فى المدارس . ويعترف صراحة بأنه لا يعرف قواعدها ، ويقول فى مقدمة كتابه أسماء الله المئة : « إن رايموند يرجو الحبر الأب المقدس ، والسادة الكرادلة ، أن يترجموه إلى اللغة اللاتينية ، لأننى لا أستطيع ترجمته إليها ، إذ إننى أجهل نحوها » . ولم يستطع أن

يقوم بدراسات فلسفية فى القطلونية[1] ، وكانت لغته الأم ، والتى يتحدث بها ، ويكتب فيها ، لأن مثل هذه الدراسات لم تكن يومها تكتب فى اللغات العامية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان ممتازًا فى اللغة العربية .

فى ضوء هذا السلوك الخاص علينا أن نبحث عن أصول طريقته ، لأن دراساته العربية لم تكن سطحية كما قلنا ، ولا عادية فى تناوله لها .

وإذا كان من الضرورى أن نبرهن على الواقع ، فالقليل من الأخبار نلتقطها ممن كتبوا سيرته كافٍ ، وهى تقول إنه تعلم اللغة العربية من عبد مسلم ، متمكن الثقافة على نحو يتيح له أن يدير حوارًا متصلا مع لوليو ، وتذكر واقعًا أنه ألف كتابين باللغة العربية ، أولهما : « التأليف والتوحيد Teliph & el Ateuhid ، وكتابًا آخر يذكره ويلر Weyler ، وهو رسالته « التأمل » ، وأنه جادل فى بجاية بالجزائر فلاسفة متمكنين ، وناقش فى عنابة خمسين عالمًا عربيًا . وكل ذلك لا يمكن أن يقوم به ، وهو لا يعرف غير لغته الأم ، ودون أن يعايش المصطلحات العلمية فى اللغة العربية . وطبقًا لإشاراته فى كتابه Desconort كان فى معهد ميرامار يعلّم صغار الرهبان اللغة العربية ، ولم يكن يقف بهم عند هذا الحد ، وإنما تجاوزها إلى معارف المسلمين ومناهجهم ، لكى يستطيعوا تحويل المسلمين عن دينهم بالحجة المقنعة ، لأن الإعداد العادى للمبشرين لم يكن فعالا فيما يرى .

وفى كتابه « بلانكيرنا Blanquerna يقول : إن الإيمان ذهب إلى بلاد المسلمين ، وقد وجدت هناك رجالا كثيرين علماء فى الفلسفة ، وهؤلاء لا يأخذون بكل مافى الإسلام على ظاهره ، ولا يسلمون بسلطة الأولياء ، ولا يمكن – فيما يرون – أن تكون للمرء عقيدة حقة لا تعتمد على العقل ، وغير ذلك كثير . يقول : « والآن جاء الوقت الذى يقدر فيه الناس الأسباب المؤدية إلى النتائج ، ولهذا السبب نفسه نشأت العلوم الفلسفية والكلامية » .

---

(١) اللغة القطلونية إحدى اللهجات الرومانثية التى تفرعت عن اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، ويتكلمها شمال شرق أسبانيا ، وجزر البليار ، وما تزال هذه ومقاطعة قطلونية ، وعاصمتها برشلونة ، تتحدث بها حتى اليوم ، واللغة القومية فيها ، وهى إلى الفرنسية أقرب منها إلى الأسبانية ، بناء وأصواتا . (المترجم)

وكان **لوليو** يضمر حنانًا ودودًا للمسلمين ، جاءه دون أدنى ريب من دراسة الكتب العربية ، ولا يمكن رده إلى الإحسان الرعوى الذى ينطوى عليه صدره ، وكان دائمًا سخيًا ونبيلا ومسيحيًا ، لأنه مزج فيه بين إعجابه الذاتى وبين علم المسلمين وفضائلهم ، واقرأ الفقرة التالية من كتابه « الكتاب السعيد فى عجائب الدنيا » وفيها يؤكد أن المسلمين أكثر عقلا ، وأوسع فطنة من المسيحيين : « والسبب الذى يجعل المسيحى يهرم ويموت قبل المسلم ، أن المسلمين يطعمون الأشياء الحلوة ، دافئة وندية ، أكثر من المسيحيين . والمسلمون يشربون الماء ، وهو يزيد من الرطوبة ، ولهذا يحتفظون بداخلهم رطبًا على الدوام ، على حين يشرب المسيحيون الخمر ، وهى ساخنة وجافة ، فتزيد حرارتهم ، وتمتص مابداخلهم من رطوبة » . ويتساءل فى كتابه « السعيد فى عجائب الدنيا » : « لماذا يصبح المسلمون أكثر فطنة بالطبيعة كلما تقدمت بهم السن ، والمسيحيون على النقيض ؟. لأن الوحدة تترك الخمر واللحم بخارًا ، ويتناولها المسيحيون أكثر من المسلمين ، وهما يؤديان إلى تدمير الجسد ، ويضغطان على الفهم . أما الماء وهو بارد رطب فيلطف البخار ، ومع الرطوبة ترتفع رطوبة الدماغ ، ومع البرودة تهبط ، وبما أن الرطوبة خفيفة ، والبرودة فاحشة ، طبيعة ، فإن الدماغ البارد والرطب يمكن أن يكون أشد توافقًا لانسجام أبخرته ، مما لو كانت متفاوته . وللاحتفاظ بشبابهم عرف المسلمون كيف يرتدون الملابس الفضفاضة ، لأن الهواء مع الملابس الواسعة يستطيع أن يتعاون مع ظاهر البدن . ومن ثم يمكن للهواء الساخن أن يمتص البخار من الجسم عندما يريد أن يزيد من قوة الهضم . على حين أن الهواء البارد يقبض المسام ، فتطيل الحرارة الطبيعية داخل الجسم ، وتجعل قدرة الهضم أقل . ولهذا يحتفظ الرجل الشاب بنضرة الفتوة على نحو أفضل ، وتبدو الشيخوخة واضحة فى محيا الرجل العجوز »[٢] .

ولا يتوقف إعجاب لوليو بالمسلمين عند الجانب العلمانى ، إنما يمتد إلى التراث الدينى ولا يعرض لذلك كمثل يثير به روح المنافسة عند المسيحين ، وإنما يتجاوز الإعجاب فيحاول إدخاله فى المسيحية ، كتدريب عملى على التقوى .

---

(٢) الصديق والمحبوب ، حـ ١ ، ص ٢٩٢

وهكذا دعا المسيحيين أن يضعوا اسم المسيح على رأس رسائلهم ، كما يضع المسلمون البسملة والصلاة على النبي[٣] ، واستنكر الفوضى التي تلاحظ في الكنائس المسيحية حيث يختلط الرجال بالنساء ، ودعا في كتابه بلانكيرنا Blanquerna بألا يسمح مستقبلا بأن يختلط الرجال بالنساء في الكنائس ، وكان المثل الذي يضربه المسلمون واليهود في الصلاة موضع تقدير منه . « وإذا كان هؤلاء وأولئك غير مسيحيين ، وعلى خطأ ، وندين طريقتهم ، يلاحظون هذا النظام البديع ويحرصون عليه ، فما أعظم السبب الذي يوجب علينا كمسيحيين أن نأخذ به ، وأن نحافظ عليه » .

ويقول أيضًا في كتابه بلانكيرنا ، واتخذ من اسم البابا رمزًا لشخصه :

« سأل البابا كاردينالا : هل رأى أي مسيحي يبكي خشوعًا في قداسه ؟. فأجابه : إنه لم ير أحدًا يبكي . ولكنه رأى كثيرين ينامون . وقال البابا للكرادلة : ياللروعة ! كيف يقل خشوع المسيحيين في قداسهم ، على حين أن المسلمين ، وهم على خطأ ، يبكون في صلاتهم خشوعًا ، ويقيمونها في ورع وتقوى . وفي الحال رد كاتبه في اللغة العربية ، وكان عند الباب ، فقال ، إن المسلمين يدعون إلى التقوى ، ويبشرون بأمجاد الجنة ، ويخوفون من عذاب النار ، ومن ثم يغشاهم الخشوع في صلواتهم ، ويبكون من التقوى التي تفيض بها جوانحهم ... » . ولهذا أصدر الحبر الأعظم أوامره بأن يتجول بعض الرجال الأتقياء . ومن تتسم حياتهم بالصلاح والتقوى والخشوع ، كل يوم في شوارع المدينة ، يعظون الناس ، يخوفونهم عذاب جهنم ، ويذكرونهم بالأمجاد السماوية ، لتكون حاضرة أمامهم في كل الأوقات[٤] .

وفي مقدمة كتابه أسماء الله المئة ، يعبر بوضوح عن رغبته في أن تمارس الكنائس يوميًا إنشاد أسماء الله المئة ، موقعة وذات نغم ، على نحو ما يقرأ المسلمون القرآن جماعة في المساجد . ومن جانب آخر فمن المعروف أن أسماء الله المئة ، من بين الأوراد التي يرددها المسلمون .

---

(٣) الصديق والمحبوب . البيت رقم ١٥٦ .

(٤) بلانكيرنا . جـ ٢ . ص١٣٤ ، طبعة مجلة مدريد .

لا يظن أحد أننا نتصيد النصوص التى تخدم فكرتنا ، ونستطيع أن نبرهن بها على ما نقول فحسب ، وإنما لجأنا إلى كل المؤلفات التى استطعنا أن نحصل عليها ، وهى : بلانكيرنا ، والكتاب السعيد فى عجائب الدنيا ، والأعمال الشعرية ، وغيرها ، ولم نلتق ولا مرة واحدة مع نصوص تفوح منها رائحة احتقار المسلمين ، إنه يتحدث عنهم دائما فى ود حنون . ولكنه لم يتحدث أبدًا بمثل هذه الروح عن محمد الرسول ، كان يراه مسئولا عن أرواح كثيرة بائسة ، ولكن ذلك فيما يرى قضية شائكة جدًا وخطيرة للغاية ، أن يتحدث بسوء عن الرسول وهو يحاول أن يصد المسلمين عن دينهم ، وجعل من ذلك هدفه الذى لا يغفل عنه طوال حياته .

وقد التقى لوليو مع مسلمين كثيرين ، ليسوا من العامة ، ولا من شخصيات الطبقة الدنيا ، أو أصحاب العادات السيئة ، وهم موجودون فى كل الشعوب ، وإنما كانوا من الصفوة ، رجالا فضلاء ، أتقياء من زهاد المسلمين ، وكان يطمح فى أن يحول هؤلاء عن دينهم ، ولم تقع فى خاطره أبدًا الفكرة المكرورة ، والبريئة فى الوقت نفسه ، والتى تفسر أصالة العقيدة الإسلامية بالبهجة المعنوية فى قانونهم ، وغيبة الكبت فى شهواتهم . وغيرها .

وكان ذلك واضحًا كل الوضوح ، وإلا فكيف نوفق بين موقفه هذا . والاعتراف الصريح بأن أجمل وأفضل مؤلفاته ، وتعتبر أروع ما كتب فى التصوف الإسبانى ، وأصلب أساس يقوم عليه ، كتبها تقليدًا لما قام به الصوفية المسلمون ؟ ولقد ردد هو نفسه ذلك ، أكثر من مرة فى كتابه بلانكيرنا يقول : « ورسول آخر من الكاردينال ، عبر إلى جانب من بلاد البربر (شمال أفريقيا) ، ورأى هناك كثيرين من الوعاظ والفقهاء يعلمون المسلمين القرآن ، ويحدثونهم عن مباهج الجنة ، ويدعونهم بالحكمة والموعظة ، وجميع الذين يستمعون إليهم تكاد أعينهم تفيض بالدمع خشوعًا ، وقد أعجب الرسول الوافد كثيرًا بالتقوى التى عليها هؤلاء الناس ، وما تنضح به كلماتهم من خشوع وكل ما يدعون إليه خطأ كبير ، وعرف أن القدوة الجيدة التى هم عليها . والحياة التقية المخلصة التى يعيشونها ، ونفاذ الدعوة ، وحضور الدمعة ، مردها أنهم فى وعظهم يشيرون إلى حياة كثير من الناس ماتوا

تقاة ، ولهذا السبب نفسه كان هؤلاء الناس يبكون خاشعين .

ووجدته أيضًا ، فى كتابه « **الصديق والمحبوب** » يذكر أن الرجال الأتقياء ينشدون حبًا فى الله ، وحبًا فى الله أداروا ظهورهم لمباهج الدنيا ، ومضوا عبر العالم يعانون من الفقر ومن أشياء أخرى كثيرة[٥] . وحينئذ فكر فى أن يذهب إلى دير بلانكيرنا ويرجوهم أن يؤلفوا كتابًا يدرس حياة الرهبنة ، ومنه يتعلم الرهبان الآخرون ، ومعه يعرفون كيف يتأملون ، وكيف يصبحون خاشعين » .

وفى بلانكيرنا عزم على أن يؤلف كتابه **الصديق والمحبوب** ، وكلمة صديق عنده تعنى أى مسيحى مؤمن وتقى ، والمحبوب الله إلهنا ، ثم يضيف : « وعلى حين كان يفكر فى هذا ، فى بلانكيرنا ، تذكر فى إحدى المناسبات أنه كان بابا ، وذكر له مسلم بأن رجال الدين عندهم موضع التقدير والاحترام من الجميع ، وأنهم يسمون **الصوفية أو المرابطين** ، وتعودوا أن يكون كلامهم مزيجًا من أمثلة تحض على الحب ومن الحكم القصيرة التى تؤثر فى الناس التقاة الخاشعين ، والذين يحتاجون إلى الشرح ، ومع الشرح يبلغ الفهم عندهم أعلى درجات التأمل ، وبارتفاعه تقوى الإرادة ، ويتضاعف الخشوع ، وبعد أن أخذ كل هذا فى الاعتبار قرر أن يؤلف كتابه طبقًا لهذا المنهج[٦] .

نقلنا كل النصوص السابقة رغم طولها ، لأننا نعتقد أنها ذات أهمية بالغة ، وكلها فى مجموعها تؤكد الدقة والأمانة التى اتسم بها لوليو حين صرح بالمصادر التى ارتوى منها ، وهى حالة نادرة فى كتبه ، وكان هذا الاعتراف الخيط القائد الذى هدانا فى البحث عن نماذجه التى احتذاها .

وبعد أن درست بعض كتب التصوف الإسلامية ، أصبحت مقتنعًا بعمق بأن هذا الفيلسوف الميورقى الشهير ليس إلا صوفيًا مسيحيًا .

وإن مانجده عنده من ازدراء الهيئات الرهبانية ، والجماعات الدينية المنظمة ، واعتكافه وحيدا ناسكًا متأملا ليفرغ لخدمة « محبوبه » ، وتجواله فقيرًا ، عاريًا إلا من

---

(٥) بلانكيرنا ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٦) جـ ٢ ، ص ١٥٨ – ١٦٠ .

خرقة ، ينتقل من بلد إلى آخر ، يعظ الناس فى الشوارع والميادين أحيانًا ، فى أسلوب خشن ، لا يفرق بين الكبير والصغير ، وتفكيره فى أن يعزف بالبزق ليلا ، فإذا سمعه الناس أخذوا فى محاسبة نفوسهم ، متعرضًا لا تهامه بالحمق والجنون ، وتفرغه أحيانًا للتبشير بالمسيحية فى الجبال والوديان ، يمضى على « باب الله » الذى يقيم أوده ، أو اعتكافه فى مغارة يستغرق فى تأملاته ، منفردًا « بمحبوبه » ، بعيدًا عن الوحدة التى يشعر بها وهو بين الناس وفى غمار المجتمع ، وكل ذلك كان يقوم به أعداد لا تحصى من المرابطين المسلمين على أيامه ، على امتداد شواطىء أفريقيا التى زارها .

وعقيدته الخاصة أن كل علم إشراق أو فيض من الله ، ويجىء دون وسيلة ثقافية ، وفيه يسبق الإيمان الفهم ، والحقيقة مبدأ مشترك بينهما ، ويصعد الفهم عبر سلم حيث الإيمان يسبقه ، وهذا يعتمد على ذاك للتعمق فى الأسرار الإلهية ، والعلم هنا واحد والكل منسجم ، العالى والهابط ، الحسى والمعنوى ، وتضيق الخلافات الكبرى والتناقضات ، وكل هذا يقول به المرابطون المسلمون ويمارسونه منذ أعوام طويلة ، قبل أن يولد رايموندو لوليو .

وهذه التأكيدات الجريئة لها نكهة القول بألهية الكون أو « الطمأنينة » ، وفيها يؤكد أن « المحبوب والصديق » يصبحان فى لحظة الشطح وحدة فعلية فى جوهرهما ، مع نهج واضح فى الوقت نفسه ، وقناعة عميقة ، بصحة العقيدة وصفائها . وبراهينه « العقائدية الميتافزيقية » هذه ، يراها بعض المؤلفين خليطًا غامضًا مما هو صوفى وعامى ، وبين ماهو مقدس وعلمانى ، بين مايبدو حماقة وبين أرق الخواطر ، حجج لا يفهمها كثير من المسيحيين ، وتبدو فى نظر لوليو واضحة تمامًا ، وتلك التقنية الغريبة جدًا ، وغير المفهومة أبدًا ، والتى قيل عنها إننا فقدنا معها مفتاح ذكائه ، على حين أن كل الطعوم الغامضة لطريقته ، تقنية وفكرًا ومذهبًا فى القول ، جاءته من الصوفية المسلمين المعاصرين له .

وثمة منهج تربوى خاص ، وكان تجديدًا أدخله هذا العالم المستنير ، وطبقًا له كل شىء يُعلَّم شعرًا ، حتى المنطق . وكل شىء ينشر نثرًا يتم عن طريق التصوير ، بعيدًا عن النظريات البحتة ، والأفكار التجريدية ، وإنما يعرض مصورًا فى جداول ودوائر

ومربعات ، وغيرها ، لكى يسلك سبيله عن طريق العين إلى ذكاء الجماهير ، وهو منهج خاص تميز به الصوفية المسلمون المعاصرون للولليو.

●

ولنبرهن على هذه الآراء ، ونظهر التشابه بين الأفكار والمواقف ، يمكن أن نمضى فى جمع الشواهد من حياة التجوال عند كثير من الصوفية الإسبان المسلمين الذين عبروا إلى شمال أفريقيا ، فى الفترة التى سبقت أيام لوليو مباشرة ، واشتهروا بذكائهم وتقواهم . **فابن سبعين المرسى** ، وكان مرابطًا وفيلسوفًا ، مضى يعظ فى الشوارع والميادين ، ويعلم الناس بالرموز والتمثيل ، ويستخدم فى أبحاثه عما وراء الطبيعة لغة حافلة بالأسرار والغموض وتخفى وراءها أفكاره الجريئة ، ولم تكن تسير فى الخط المحافظ دوامًا . **وابن هود الزاهد** ، وهو من مرسية أيضًا ، وينتسب فى أسرة انحدر منها العديد من الشخصيات الهامة جدًا ، راح يطوف العالم ناسكًا ، يلبس طرطوره الشهير ، ويرتدى زيه الغريب ، ويتميز بلحيته البيضاء الوقورة ، متقشفًا ، مستسلمًا لإماتة النفس والمكاشفات الصوفية ، متأملا دائمًا ، وحزين أبدًا ، ودامع العين باستمرار ، وأشعاره تودع على مئات الفراسخ أريج من يعتقد فى ألوهية الكون . أو الوادى آشى ، **الششترى** الشهير ، وقد أوتى الحكمة ، وجمهرة من الفقراء تتبعه ، زهاد فى ملابس رثة ، غائبين عن الوجود ، وهم مع أستاذهم ينشدهم موشحاته وأزجاله ، فى عفوية عذبة ، بالغة الروعة ، يتغنى فيها بأشواقه الصوفية ، **والحرلى** ، أو **أبو العباس** ، وكلاهما من مرسية أيضًا ، **وابن الفارض** ، **والعفيف التلمسانى** ، **وأبو مدين** ، وآخرون غيرهم ، جماعات كاملة تتلاقى وتتكاثر شرقًا وغربًا ، تعيش الحياة نفسها ، وتمارس أفكارًا متشابهة .

ولكن بين هؤلاء جميعًا ، تميز شخص واحد بالمعرفة الواسعة ، وبالفلسفة العميقة ، إلى جانب أنه شاعر وصوفى ، وأستاذ عالمى ، وأعنى به **محيى الدين ابن عربى** ، وهو من مرسية أيضًا ، وحياته وآراؤه ومنهجه صورة مسبقة لحياة وآراء ومنهج الفيلسوف الميورقى .

فلنحاول أن نستغل المعلومات الوفيرة ، المتناثرة فى مؤلفات ابن عربى الضخمة والمتصلة بحياته ، فى الفتوحات المكية ، ومحاضرات الأبرار ، وديوانه ، وكلها طبعت فى

القاهرة ، والأخبار المتصلة به ، فى كتب من ترجموا له من المؤلفين أمثال : المقرى التلمسانى فى نفح الطيب ، وابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ، وابن القاضى فى درة الحجال وغيرهم ، لكى نبنى سيرة هذا الصوفى الإسبانى المسلم ، ونرسم صورة موجزة لحياته فى ضوء ما قدموه لنا .

فيما يقول **ابن عربى** عن نفسه ، ولد فى مرسية عام ٦٥٠هـ = ١١٦٥م ، فى بيت حسب وتقى ، وكانت أسرته ميسورة الحال ، وجرت بين أسلافه أحداث ذات مواقف سريعة ومتقلبة ، انتهت بهم إلى حياة التقشف والعزلة والانزواء ، بعد حياة دنيوية عريضة ومرسلة ، وأحد أخواله ، **يحيى بن يوجان** ، ملك تلمسان ، استجاب يومًا لواعظ مرابطى خشن ، التقى به يومًا يمتطى صهوة جواده ، ويتجول فى ضواحى المدينة صحبة رجال بلاطه ، ترجل من على الحصان ، ونزع ملابسه الملكية ، وبدأ يبكى ، ثم ذهب بعد ذلك يخدم الله رفقة هذا الصوفى ، وفى الرباط كان يعيش على جمع الحطب من الغابات ، ويذهب به ليبيعه فى تلمسان ، فيجد من الناس التقدير والاحترام ، ويلتمسون منه البركة والدعاء .

وشىء شبيه بهذا دفع صاحبنا ابن عربى إلى تغيير أفكاره وحياته ، وظل حتى فى شيخوخته يذكر والأسى يملأ قلبه ، والندم يغشى جوانحه ، تلك الأيام البهجة من شبابه ، مرّت دون أن يذكر اسم الله فيها ، وإنما قضاها فى الصيد والقنص عبر وديان قرمونة . وبالمة دل ريو ، قريبًا من إشبيلية ، على خيل والده ، رفقة بوازيه . وقد أمضى الأعوام الثمانية الأولى من طفولته فى مرسية ، ثم انتقل والده إلى إشبيلية ، ولا يذكر من أيامه تلك إلا بعض الكلمات تخلفت فى سمعه من خطبة الجمعة التى كان يلقيها إمام المسجد الجامع فى تلك المدينة .

وعاش فترة شبابه فى إشبيلية ، وككل الشبان على أيامه ، درس القراءات والأدب والتاريخ وغيرها ، وحرص أحد أعمامه على أن يدرس له الشعر ، وفى رحلة قام بها إلى **قرطبة** نظم بعض الأبيات بمناسبة زيارته لمدينة الزهراء ، وكانت يومئذ أنقاضًا ، وأصبحت مأوى للوحوش والحيّات ، وعندما بلغ أشده عُيِّن كاتبًا فى حكومة إشبيلية .

ولا نعرف ما إذا كانت **أمه التقية** ، **أو زوجه مريم** ، أو كليهما وأسباب أخرى ، نمت فى أعماقه هذا الاتجاه الجديد ، ولكن من المؤكد أن أبا العباس **المغربى** ، وهو صوفى من إشبيلية ، قدم من الغرب Algarves فى جنوب البرتغال ، كان أستاذه الأول فى العلوم الإلهية ، وتتلمذ معه على هذا العالم الجليل رفاق آخرون من إشبيلية شاركوه هذا الاتجاه . وإجلالا له ، وتقديرًا لذكراه ، خصه فيما بعد بمؤلف تاريخى ، أورد فيه أخبار هذه المدرسة .

ويذكر ابن عربى بكثرة ، فى كتبه التى وصلتنا ونعرفها ، أنه قرأ ودرس بعض مؤلفات الفيلسوف الإسبانى **ابن حزم** ، وأنه استخدم « **كتاب الأسرار** » وكان متداولا بين المدارس والفرق الإسلامية . على نحو ما كان عليه كتاب أرسطو ، إلى جانب رسائل أخرى لم تكن تنسجم تمامًا مع الاتجاه السنى الرسمى ، ويذكر أيضًا بعضًا من الحوار أو الجدل الذى دار بينه وبين بعض المعتزلة والفلاسفة ، وخرج منها دائمًا منتصرًا بالطبع .

ومع ذلك ، كان اهتمامه الرئيسى فى ذلك الوقت أن يتردد على الزهاد والمرابطين ، ومن الذكريات التى كانت تقع فى خاطره دائمًا ، ويرددها فى حنان ودود ، حياة وعادات **نُونَّة فاطمة الإشبيلية** الصوفية ، وكانت امرأة تقية صالحة ، والهة فى حب الله ، وارتبط معها بأواصر الأخوة ، ولزمها سنين خادمًا ومريدا ، وشيّد لها بنفسه خصا من الأعواد ، اعتكفت فيه زاهدة ومسكينة ، وكانت العلاقة بينهما مثالا عاليًا للشرف والحب الصوفى ، ويذهب لزيارتها صحبة والدته ، وكان وجه هذه يحمر خجلا واستحياء عندما ترى وجنتى تلك المرأة متوردتين وبشرتها نضرة ، تبدو كفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وبقى أن نعرف أن هذه المرأة على الرغم من فائض النعمة التى تبدو فيها ، وميعة الشباب التى تحتفظ بها ، بلغت الخامسة والتسعين من عمرها ، عبرتها صحيحة ، وأمضتها واعية .

وفضلا عن هذه العابدة احتفظ فى ذاكرته بأخرى تسمى **مرجانة** ، وكان يدعوها « شمس خادمات الله وأم الفقراء » ، وثالثة من إشبيلية تدعى **أم زهرة** ، وبجمهرة لا تحصى من الزاهدات والصوفيات والعابدات ، اللائى يملأن مدنا أخرى . ويذكر على

نحو أكثر إصرارًا أستاذًا واحدًا تعلمن عليه جميعًا ، وهو عبد الله المورونى ، ودرس عليه علم التوحيد .

وعندما بلغ سن الرشد ، وتسلح بقدر كاف من المعارف ، بدأ رحلاته ، فذهب إلى تونس ، ويذكر أنه نظم قصيدة فى جامع الزيتونة ، وفيما بعد ، عندما عاد إلى إشبيلية ، فوجىء بأنهم يرددونها فى أسواق إشبيلية منسوبة له ، دون أن يكتبها أو ينشدها أحدًا . وذهب إلى فاس ، وفى مسجدها الجامع تلقى الفيض الإلهى ، وفى جنة ابن حيون ، مهبط لقاء مريديه ، أثار العجب بينهم بما أظهره فى أحاديثه من علم ، وعندما مر بمدينة سبتة درس فى بيت زاهد كان تلميذًا للغزالى ، وصاحب مذهب وأفكار كان ابن عربى يحب أن ينظمها شعرًا .

وقبل أن يتنبأ بالمهمة التى خصته بها السماء فى المشرق ، تجول ثانية فى تلك المدن وفى مدن أخرى ، فقد رؤى وهو فى التاسعة والعشرين من عمره فى مدينة طريف ، وفى تلمسان حيث زار قبر عمه الموقر يحيى ، وأشرنا إليه من قبل ، وفى الثلاثين من عمره كان فى تونس ، وبعدها بعام فى فاس . وفى الثانية والثلاثين كان فى إشبيلية ، وبعد قليل عاد إلى فاس ثانية ، وفى الخامسة والثلاثين شوهد فى غرناطة والمرية حيث ألف كتابًا رمزيًا وموسيقيًا ، وفى السابعة والثلاثين من عمره كان فى مدينة مراكش .

وفى هذه المدينة الأخيرة تلقى دعوة من السماء بأن يذهب إلى المشرق ، حوّم فوقه ، فى غرفته أو صومعته التى كان يلزمها ، طائر رائع الجمال ، أعلمه بالخبر . واستجاب لهذه الدعوة الكبرى ، ورحل إلى المشرق ، ومر بفاس وبجاية ، وفى هذه الأخيرة رأى حلمًا عجيبا : أنه تزوج زواجًا صوفيًا بكل نجوم السماء والحروف والبدور ، وعرض رؤياه هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا ، فاستعظمها وقال : « هذا هو البحر لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله له من العلوم العلوية ، وعلوم الأسرار ، وخواص الكواكب » ، وفى تونس ، المدينة التى شهدت ظواهر تقواه الخاشعة ، ذهب ليزور أخوته فى كهف يقع وسط مقابر الجانب الشرقى ، وزار القاهرة ، ولا يحمل عنها ذكريات طيبة ،

فقد ثارت فى وجه أفكاره ، وكان على شفا أن يقتل فيها متهمًا بالزندقة ، ومنها ذهب إلى مكة .

وفى عاصمة الإسلام تلقى النور الإلهى غامرًا ، وكان ذلك دافعًا له فيما بعد ، وبخاصة وهو يطوف بالكعبة ، إلى تأليف كتابه « **الفتوحات المكية** » ، وهو أروع كتبه ، **وكان قد** بلغ من العمر حينئذ تسعة وثلاثين عامًا . وفى الواحد والأربعين من عمره ظهر فى بغداد ، وفى الموصل ، وبعدها بعام ظهر فيما حول أرمينية ، وذهب إلى ميافارقين ، وديار بكر ، وقونية ، وسيواس ، وغيرها . ومنها عاد إلى مصر ، والقدس ، وبغداد ، وبعدها بقليل رؤى فى ملطية فى آسيا الصغرى ، وهى قرية كانت تحت حكم الإغريق البيزنطيين ، وفيها تزوج المرأة التى رزق منها بولديه ، وهما شاعران مشهوران . وفى الخمسين من عمره وُجدَ فى دمشق ، وفى حمص أجرى عليك الملك راتبًا يبلغ مائة بيزته[٧] يوميًا ، وكان ابن عربى يوزعها بين الفقراء . وفى الثامنة والخمسين كان يقيم فى حلب ، فى بيت أهداه له حاكم المدينة ، وتصدق به صاحبنا ابن عربى على أحد المتسولين فى الشارع ، وأخيرًا عاد إلى دمشق ، وله من العمر ثلاثة وسبعون عامًا .

هناك ، بعد أن كتب أهم مؤلفاته ، وهو الفتوحات المكية ، وسط فيض وكشف لا يتوقف ، تلقى خلاله علوم ماوراء الطبيعة إلهامًا ، فى أشكال هندسية وتشخيصات جبرية ، ومات فى الثمانين من عمره ، محترمًا بفضائله ، موقرًا لمواهبه . وحين كان يأخذ طريقه إلى الآخرة ، بدأ الطفل **رايموندو لوليو** يتهته بين ذراعى الحاضنة فى مدينة بالمة ، من جزيرة ميورقة ، وفيما بعد سوف يتجول رجلا ، مبشرًا بالمسيحية ، فى نفس الأمكنة التى مر بها ذلك المرابط الإسبانى المسلم قبله بأربعين أو ستين عامًا .

كان **ابن عربى** فى حركته الدائبة يحمل حياة سارحة ، يبدو معرضًا عن ضجيج الدنيا ، ويتخفى وراء مسكنته واعتكافه ، ورغم ذلك لم يكن مغمورًا ولا مجهولا فى أى مكان ذهب إليه ، وتعود أن يقول عن نفسه إنه مجنون ، ورغم ذلك يربى مريديه ، ويحاضر إخوانه ، ويروض تلاميذه . وكان هؤلاء الفقراء الناسكون يمثلون حينئذ ، كما هو الحال فى

---

(٧) البيزته تعادل الآن قرشا مصريا واحدا .

عصور تلت ، قوة هائلة فى العالم الإسلامى ، يثيرون الشعوب ، ويدفعون الملوك ، كى يقاوموا المسيحيين ، ويكتبون لهم كى لا يسمحوا لهؤلاء الكفار أن يقيموا كنائسهم ، أو يدقوا نواقيسهم أو يرفعوا أصواتهم وهم يتظاهرون عبر شوارع المدينة فى مواكبهم الدينية ، وكان ابن عربى فى المشرق خلال **الحروب الصليبية** ، فأخذ يستنهض همم المسلمين كى لا يسمحوا للنصارى أن يختلطوا بهم ، وألا يزور أولئك هؤلاء ، ويكتب إلى المسلمين الذين يقيمون فى بلاد الروم يحثهم أن يحافظوا على دينهم ، وألا يدخلوا فى جدل مع المبشرين المسيحيين ، وهو شىء يعافه ، وإن مدح أحيانًا الحوار مع بعض المسيحيين ، لأن هذا مما تقتضيه مثالية الفضائل الإسلامية ، وسمو عقيدته الدينية وصفائها ، وهى — فيما يرى — أكثر إقناعًا من الأديان الأخرى ، لأنها تؤمن بكل ماهو صالح فى الإنجيل وصحف موسى .

وفى أواخر أيامه رأى الملوك تجله ، والشعوب توقره ، وأدرك التأثير الرائع الذى أحدثته أفكاره العميقة ، ونظرياته العلمية ، وأصبح الناس يحتفظون بكتبه ويقرأونها عبر كل البلاد الإسلامية . ومنذ قرنين فحسب ، ذهبت جماعة من علماء المغرب إلى سفح جبل قاسيون ، خاشعين راغبين ، لكى يصلوا فى ضريحه ، ولا يزال هذا الصوفى الأندلسى الشهير موضع الإجلال والتقدير حتى يومنا هذا .

●

إن التشابه المثير فى حياة كلا الصوفيين الإسبانيين ، المسلم والمسيحى ، يعود إلى خصوبتهما الفكرية . لقد كتب **ابن عربى** ، ومثله فى ذلك **لوليو** ، أكثر من أربع مئة مؤلف ، أو على الأقل هذا ما اعترف به نفسه فى رسالة كتبها لابن السلطان الكامل .

وهذا التشابه فى السلوك يمكن أن يكون صدفة كله ، ولكن ما ليس سهلا تفسيره عن طريق الصدفة البحتة ، أو الاتفاق العارض ، هو التشابه فى نظامهما ومبادئهما ، ومنهجهما ، وطريقة عرضهما لما يدعوان إليه ، وثمة موقفان ، أو ثلاثة ، بخاصة لهما طابع شخصى ، ويشيران إلى العلاقة المباشرة الودود بين كليهما .

كتب **ابن عربى** مؤلفاته يبغى بها تربية المرابطين والعاكفين ، وإثارة الحمية فى نفوسهم

حتى يصبح اسم الله موضع الإجلال فى الأرض ، وليعملوا على بناء البشر وتهذيب أخلاقهم ، وأن يرتفعوا بفهمهم حتى يبلغوا الحقائق الإلهية . وإذا كان قد اهتم بالعلوم التى تستهدف أشياء دنيوية ، فلكى يعرف « المحبوب » على نحو أفضل ، فغاية العلم معرفة جوهر الحب الإلهى .

وابن عربى ، مثل لوليو ، يؤكد أن العلم واحد ، ويبحث عن الواحد . والأشياء الموجودة ليست إلا كلمات الله ، الذى يرى صورته نفسها فى المخلوقات ، كما أن المرء يرى صورته نفسها عندما يقف أمام المرآة .

ويرى ، ومثله فى ذلك لوليو ، أننا يمكن أن نبلغ العلم عن طريق الإيمان ، وعن طريق الفهم ، ولكن قوة الروح أقوى من قوة العقل الطبيعية ، لأن الإيمان فوق الفهم والعقل ، ومصدر العلم يجىء فيضًا لا تحصيلا ، والعقل يحتاج دائما إلى عون ماف براهنيه . وهذه لا تكون علمًا حتى ولو استندت على الأسباب الضرورية ، أما الإيمان فضرورة بذاته ، ومن ثم يصلح أن يكون للعقل فى البحث عن الحقيقة ، وبالإرادة نستطيع أن نبلغ علمًا أسمى من علم الفلاسفة ، وما يعجز العقل الإنسانى عن معرفته بطريق الفكر النظرى يكشفه الله لعباده إشراقًا ، لأن كثيرا من الأشياء تقع فى الجانب الآخر من جبل المعرفة الإنسانية . والله يهب الحقائق العليا لأصحاب الإرادة . أما القياس المنطقى فلا يكفى لما وراء الطبيعة أو العلم الإلهى .

وقد تلقى ابن عربى ، فيما يقول ، كل العلوم عن طريق النور الإلهى وحده ، ونفس الشىء يصرح به لوليو ، وعندما كان ابن عربى فى إشبيلية تلقى المعرفة بالعلوم الطبيعية والفلكية ، بلا كتب ولا أساتذة ، وعرف الكيمياء ، كما يصرح ، عن طريق الإلهام علما موهوبًا . ولهذا ليس من عادته أن يشير فى كتبه كثيرا ، كما يفعل مؤلفون آخرون ، إلى العلماء أو المؤلفين . يقول ومثله فعل لوليو من بعد : « لسنا نحن الذين يشيرون إلى كلمات هؤلاء ، أو أمثال أولئك ، وإنما نقدم فى هذا الكتاب (أى الفتوحات المكية) ، وفى كل كتبنا ، ما منحنا الفيض الإلهى ، وما أمر لنا به الله » .

وأسلوبه متناسق مثل لوليو ، وبين العالم العلوى والعالم السفلى تطابق كامل فيما يرى .

وأشكال الأفلاك العليا مثل الأشكال السفلى الأساسية ، ويوجد تناسق كامل بين كل الأنظمة ، ماهو متصل بعلم الكائنات ، وما هو منطقى أو أخلاقى . وهكذا فإن **الكائن الصافى** ، **والكائن غير الصافى** ، وما **ليس كائنا** ، ويمكن أن يصبح كائنًا ، أى **الممكن** ، كلها تتلاقى فى نظام آخر من التقدير مع الله ، والعدم والعالم ، واليقين ، والإنكار ، والشك ، والنور ، والضباب ، والشفق ، والسماء ، وجهنم ، والبرزخ(٨) . وتناسق نظامه السابق يبلغ النهاية من الكمال ثابتًا وجسورًا فى **وحدة الوجود** ، ويحاول فى جرأة عظيمة ومنطقية أن يستدل عليها من عقائد الإسلام الأساسية ، وأن يستخرج حتى الحروف نفسها من النصوص القرآنية .

والشكل الذى استخدمه ابن عربى لكى يعرض أفكاره ، وما يمكن أن نطلق عليه منهجه التعليمى ، له مشابهات لا شك فيها عند لوليو .

لقد نظم ابن عربى المواد المختلفة شعرًا ، مهما كان الموضوع جافًا ، وهذه الأشعار يمكن أن تتسم بالجفاف ، نعم إيقاعها منضبط ، وموسيقاها واضحة ، ولكن ما فيها من الشعر قليل ، وكل ما هنالك أنه يستخدم نغم القافية وسيلة يعاون بها القارىء على أن يحفظ من الذاكرة ما يحاول أن يعرض عليه . إنها أشعار ميتافيزيقية صعبة الفهم ، حافلة بالمعانى ، ولكنه يكتبها فى سهولة منقطعة النظير ، ويبلغ به الأمر أن يعتقد ، حتى فى هذه ، أنها جاءته إلهامًا ، لأنه ينظمها فى الحلم ، ويتذكرها يقظًا ، وأحيانًا يلاحظ عندما يستيقظ أنها تخرج من فمه آليا ، دون أى جهد ثقافى ، كما لو كان ثمة شىء فى داخله يمليها عليه ، ونظمها فى كل الأنواع : شعرًا وموشحة وزجلا ، وفى كل البحور ، واستخدم فى قوافيها جميع الحروف . ونحس فى بعض قصائده الصوفية لونًا شعريًا واضحًا ومتميزًا ، ويتوجه فيها إلى الله محبوبه تحت رموز مختلفة ، وسوف نعرض لهذه الأشعار فيما بعد ، على نحو خاص .

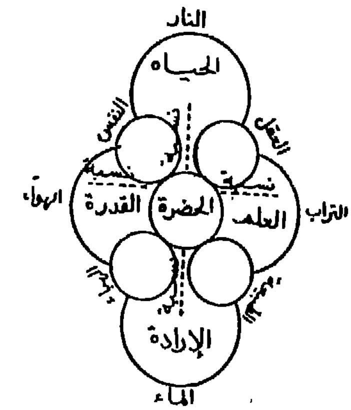
ويلعب الجمّل السحرى دورًا عظيما عند ابن عربى ، وتعود أن يخلطها فى كل أفكاره

---

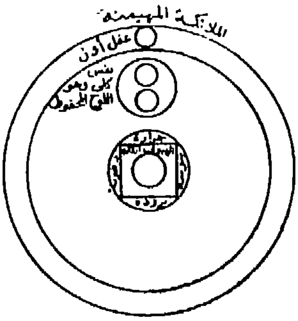
(٨) انظر : ميجيل أسين بلاثيوس ، محيى الدين بن عربى ، فى كتاب «تكريم مينيندث أى بلايو ، حـ ٢ ، ص ٢١٧ – ٢٥٦ ، حيث يشرح بعض هذه المصطلحات» .

تقريبًا ، وبها يشرح أحيانًا أشدها غموضًا وميتافيزيقية . ويؤمن بالفضائل الخاصة للحروف والأرقام ، ويستخدمها فى مربعات كوسيلة تربوية .

ويبدو لابن عربى ، ومثله لوليو ، أن كل شىء سهل الفهم عن طريق الرموز ، وتجسيمه عن طريق الرسم ، ويعرض العلم فى أشكال رياضية ، ويشرحها مستخدما المثلثات والمربعات ، وقد تداخلت فى بعضها البعض ، والدوائر ومراكزها ، والمربعات داخلها ، وغيرها . وبعض هذه الأشكال قريب الشبه جدًا بما عند لوليو ، وأحيانا تجىء فى صورة دقيقة منها تمامًا ، ومعها ندرك العلاقة الوطيدة بينهما ، كما لو أن أحدهما نسخ صورته من الآخر(٩) .



شكل (١)



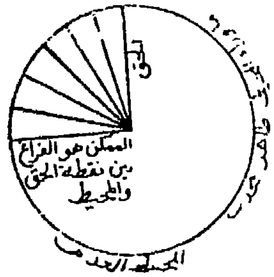
شكل (٢)

وتعرض لابن عربى مثل لوليو حقائق ماوراء الطبيعة ، وأخرى إلهية ، فى أشكال محسوسة ، ويرى الله أحيانًا فى شكل نور بلا شعاع ، وفيه تذوب روحه ، على حين توجد فى هذا ، فى الوقت نفسه ، كل الأشياء بجواهرها التى تتكون منها ، وفى مرات أخرى كانت تعرض له ، كما لو كانت مركز دائرة ، يخرج منه ماهو ممكن فى شكل شعاع ، وهناك بعيدًا من المحيط ، يوجد المستحيل والعدم الخالص وغيرها . وهذه الأحلام المدهشة التى يراها فى إلهامه ، كانت أشياء محسوسة ، وليست عقلية ، وفى شكل حقيقى وليست مثالا .

(٩) انظر أسين بلاثيوس فى المصدر السابق : تصوير وتفسير دائرة الممكن ، ودوائر الأجناس والأنواع .

فلا غرابة إذن أن يضع فى عدد من **مؤلفاته بعض الرسوم** ، يصور بها جانبًا من أحلامه على نحو أكثر سهولة للناس من أصحاب الخيال[١٠] .

وتقنية **ابن عربى** مثل تقنية **لوليو** ، صعبة وغامضة على الغرباء ، وإن شئت طبقًا لما يصرح به هو نفسه ، إن علمه لا يمكن أن يخضع للتقنية ، ولا تكفى اللغة العادية لعرضه . وفيما يتصل بالأشياء التى تتشابه يكفى أن يتفق الناس على أن يعطوا نفس الأسماء لنفس الأشياء ، أما العلوم الإلهية ، وتجيئه إلهاما ، فلا توجد لها مصطلحات لأن ماعند الله ليس له مثيل !! ولمن جانب آخر لا يحدث أبدًا أن يظهر ماهو إلهى للشخص الواحد مرتين فى الصورة نفسها ، وبالتالى من المستحيل أن توجد تقنية لتوصيله . وفضلا عن ذلك يحدث للصوفية ما يحدث للعشاق ، حين يبلغ بهم هياج الشهوة مبلغه ، فيتحدثون مثل المجانين ، بطريقة شاذة ومبالغ فيها ، لأنهم لا يستطيعون أن يتحكموا فى إرادتهم ، ولا أن يقيسوا المدى الذى تبلغه ألفاظهم .



شكل (٣)

فى ضوء ما فصلناه سابقا نستطيع أن نفهم موقف ابن عربى ، وكان فى نطاق الإسلام شبيهًا بموقف لوليو بين المسيحيين : ذاك مثل هذا كان عدوًا متطرفًا وصريحًا لآراء ابن رشد الفلسفية ، والمفكرين الأحرار ، والذين يرفضون فكرة الإلهام والنصوص الدينية ،

(١٠) يقول ابن عربى فى كتابه الفتوحات المكية ، الجزء ٣ ، ص ٥٢٣ ، أنه ألف كتابا بعنوان : انشاء الجداول والدوائر ، صور « فيه العالم والحضرتين ممثلتين فى أشكال العلم بها على صاحب الخيال ، إذ لا تخلو العقول من حكم الأوهام فيما تعلم أنه محال ، ومع هذا تتصوره ، ويغلب عليها حكم الوهم ، إذ لا ينضبط لها العلم بذلك إلا بعد تصوره ، وحينئذ تضبطه القوة الحافظة وتحكم عليه القوة المذكرة » .

والإيمان . ولكنه من جانب آخر كان يمضى بعيدًا عن طريق الفقه الرسمى ، كما كان لوليو بعيدًا عن الكنيسة الرسمية ، وكلاهما كان يحاول أن يصلح الناس ، وأن يهذب الأخلاق بوسائل تربوية غير حكومية .

وكان الصوفية يريدون أن يبعثوا النهج القديم من حياة الإسلام ، تلك الأيام التى تلت وفاة الرسول ، وكان لوليو يطمح أن يُبعث نظام الأحبار من الرسل .

ورجال الدين الرسميون فى كلا الدينين عاملوهما بكل برود ، واتهموهما دعاة العقل فى كلا الشعبين بالجنون ، وأنهما دعاة يحلمون بالمدن الفاضلة .

وكان الفقهاء يقولون عن المرابطين إنهم يتحدثون كسكارى ، لغتهم غير مفهومة ، وألفاظهم ذات معنى حين تؤخذ مفردة ، ولكنها فى جملة لا تفهم ، ولا تعنى فى ظاهرها شيئًا . وعلى النقيض ، كان تلاميذهم ومريدوهم يجدون فى الكلمات التى لا يفهمها الآخرون معانى خفية ورائعة ، وتعوّدوا أن يقولوا عن معارضيهم إنهم ليسوا إلا رغوة أو دخانًا سوف يذهب بهم الزمان .

يقول **كمال الدين** ، أحد كبار العلماء فى سورية : « يالهم من جهلة ! . يالهم من جهلة أولئك الذين يستنكرون بعض التعبيرات ، والكلمات التى يستخدمها ابن عربى فى كتاباته ، إنهم يجهلون معانيها لأنهم لا يملكون الذكاء الضرورى لفهمها ! . ليأتوا إلىّ ، سوف أحل لهم صعوباتها ، وأشرح لهم ما أراد ذلك الرجل العظيم أن يقول ، وبهذه الطريقة تبدو لهم الحقيقة واضحة ، ويمكن أن تزول همومهم الخاطئة » .

وقد سئل الفقيه **زروق البرنوسى** عن رأيه فى محيى الدين بن عربى فقال : « هو فى رأيى أستاذ عالمى ، أراه شيخ العلماء ، أولئك الذين يعرفون كل شىء ، وفيما يتصل باستقامة عقيدته يجب أن أعترف بأن الآراء لا تتفق فى هذا يراه بعضهم زنديقًا ، ويراه الآخرون وليًا ، ضربه الله مثلا للمسلمين » .

« ويسألون **زروقا** ، ومع أى الجانبين أنت ؟ فيجيب : فيما يبدو ، القول بأنه زنديق مجازفة من جانبى ، والقول بأنه ولى مخاطرة ، وقد تؤدى إلى فضيحة بين الجهال . وهو ما يجب أن يراه الإنسان الحكيم فى مثل هؤلاء الأشخاص كلهم ، كابن الفارض ،

والششترى ، وابن أملة ، وابن سبعين ، والعفيف التلمسانى ، وغيرهم ، ففى زهدهم حقائق تتصل بمذهب وحدة الوجود على التأكيد » .

وباختصار يمكن القول بأن رأى المسيحيين فى أفكار رايموند لوليو ، لا يبعد كثيرًا عن رأى المسلمين فى ابن عربى ، مع تفاوت بسيط لصالح الفيلسوف الميورقى .

حين نتأمل جيدا كل ما سبق تسترعى نظرنا المشابهات الكثيرة فى الحياة ، والنظام ، والمنهج ، والموقف ، بين هذين الصوفيين الإسبانيين ، كل منهما فى نطاق الدين الذى آمن به ، الإسلام أو المسيحية .

وفضلا عن هذه المشابهات ، وهى دلائل واضحة على علاقات مباشرة ، أو غير مباشرة ، بين محيى الدين بن عربى ورايموند لوليو ، استطعت أن أميز بعض الرموز ، وهى دليل واضح على وجود علاقة خاصة ، مباشرة وشخصية بين المذهبين ، وتؤكد – فيما أرى – أن لوليو يجب أن يكون قد انتفع إلى حد بعيد بكتب ابن عربى ، وهو ما يفسر لنا جانبًا كبيرًا من زهده ومن فلسفته .

بين أعمال لوليو المنظومة واحدة تحمل عنوان : « **أسماء الله المئة** » ، يقول المؤلف فى مقدمتها : « يقول المسلمون إن فى القرآن ٩٩ اسما ، وهى أسماء الله الحسنى ، ومن يعرف الاسم المئة يعرف كل الأشياء ، ولهذا ألفت هذا الكتاب :

« أسماء الله المئة » ، وأعرفها كلها » . « وفى كل اسم من أسماء الله نظمنا عشرة أبيات من الشعر ، ويمكن أن ترتل فى الكنيسة على نغمات المزامير ، فلهذا السبب نظمناها ، لأن المسلمين يرتلون القرآن فى مساجدهم » . « وبما أن الله جعل للكلمات وللأحجار وللحشائش خاصية مميزة ، فكذلك مع أسمائه ، ولهذا أنصح بأن تذكر أسماء الله المئة كل يوم ، وأن نحملها مكتوبة معنا » .

كان فى ذهن **لوليو** ، كما نرى وكما يصرح به هو نفسه ، عندما كتب مؤلفه هذا ، أمثلة من التقوى الإسلامية يهدف إلى إدخالها فى المسيحية . وفضلا عن هذا ، نلحظ تأثير المذاهب الإسلامية فى أفكاره ، فهو يتحدث عن أسماء الله الحسنى كما لو كانت تعويذة لها فضل وتأثير ، وهو شىء إسلامى تمامًا .

ولست أعرف ، أنا على الأقل ، أن الفضائل الطبيعية أو المعجزة لأسماء الله الحسنى شائعة بين المسيحيين ، كما لو كانت أحجارًا أو حشائش لها قوة سحرية خفية . وعلى العكس كان المسلمون على الدوام يرتلون أسماء الله الحسنى ويتذكرونها ويحملونها معهم مكتوبة ، كتعويذة تقيهم كل مكروه .

وإذا كان **لوليو** حين ذكر هذه الفضائل لأسماء الله الحسنى ، قد سار على خطى مؤلف مسلم ، وهو شيء واضح ، فمن المؤكد أن هذا المؤلف هو **محيي الدين بن عربي** ، لأن هذا كتب عدة مؤلفات شعرًا ونثرًا تتصل بأسماء الله الحسنى ، وفى الجزء الأخير من مؤلفه العظيم **الفتوحات المكية** توجد رسالة مطولة ، كتبها شعرًا ونثرًا عن « أسماء الله الحسنى » ، على الرغم من الجدل الذى قام حول ما إذا كانت هذه الأسماء التسعة والتسعون مذكورة فى القرآن أم لا .

وثمة ملمح خاص عن العلاقة الشخصية بين كلا المؤلفين يمكن أن نجدها فيما دعا إليه **لوليو** من أنه يجب إعادة تنظيم مجمع الكرادلة فى روما ، وذلك فى رسالته المسماة « بلانكيرنا » ، فجعل لكل كاردينال ، بما فى ذلك البابا ، اسما اشتقه من أبيات ترتيلة « المجد لله فى الأعالى » ، وجعل لكل منهم رسالة يؤديها فى الدنيا مشتقة من اسمه الذى اختاره له ، فهناك كاردينال يسمى « نحمدك » ، وآخر يسمى « نباركك » ، وهكذا .

وفى النظام الداخلى للصوفية ، كما رآه **ابن عربي** ، نجد أشخاصًا موكلين بالوعظ وتربية المسلمين وهم الأقطاب ، ولفظ قطب ومعناه المحور قريب من لفظ Cardo أو Cardinis اللاتينى ، ومعناه قلب ، ومنه اشتق لفظ كاردينال . وكل قطب له لقب مقتبس لفظه من القرآن ، ومكلف بأن يعظ الناس بلقبه ، وأن يردده فى الخافقين ، وأن يمارس فى الوقت نفسه مهمة تتصل بما يعبر عنه فى هذا النص ، فهناك قطب لقبه « لا إله إلا الله » ، وثان « الله محمود » وثالث « الحمد لله على كل حال » ، وغيرها(١١) .

---

(١١) أشك فى أن الصوفية ابتدعوا لفظ قطب ، ربما لم يصنعوا شيئا أكثر من تقليد التنظيم الطبقى العلى فى الكنيسة الكاثوليكية ، بطريقة خفية وغامضة ، لتعويض غيبة مثل هذا التنظيم فى الإسلام ، واقترح لوليو فيما بعد ، متأثرا بالصوفية ، أن يبعث ما سبق للصوفية أن قلدوا فيه المسيحيين ، وبعد كل شيء فمن المعلوم أن التصوف الإسلامى وليد الأفلوطونية الجديدة للمسيحية .

اتفاق نادر وغريب : إن التجديد الذى أراد لوليو أن يدخله إصلاحًا فى المسيحية ، أطراه فى شكل شبيه له ، الصوفى المسلم ابن عربى .

ولكن الدليل القوى ، وفيما أرى يمثل البرهان الحاسم ، ويفوق كل ما أتينا عليه من مشابهات واتفاقات فيما سبق ، ماورد فى كتاب الصوفى لوليو : « الصديق والمحبوب » ، يقول ، على نحو ما رأينا فى نصوص سابقة ذكرناها : إنه وجد الناس فى جانب من بلاد البربر يحكون هناك أن الأتقياء يرتلون الأناشيد عن الله والحب ، ويسيحون عبر الدنيا ، يعانون المسكنة وأعمالا أخرى كثيرة ، وأن هؤلاء الصوفية أو المرابطين تعودوا أن يرسلوا بعض الأمثال والحكم القصيرة التى يتطلبها أسلوبهم ، ويضيف **لوليو** : إنه ألف كتابه طبقًا لهذا المنهج .

ونجد أيضًا اتفاقًا بالغ الغرابة ، وهو أن **ابن عربى** عنْون كتابا زهديًا خالصًا له : « **ترجمان الأشواق** » ، وصنفّه كما يقول فى المقدمة منه ، وفى أمكنة أخرى من كتابه «**الفتوحات المكية**» ، بأنه مجموعة من شعر العشق ، تشبه ما يقوله الحبيب فى محبوبه ، غير أن ألفاظه ذات معان رمزية ، وكل المفردات المطروقة فى الشعر العربى من : الأطلال ، وأريج الزهور ، والقمر ليلا ، والنجوم والبرق والرعد ، والصبا ، والروابى ، والحدائق ، والغابات ، والفتيات الكواعب والتماثيل الجميلة وغيرها ، لها معان خفية ، وأن الصور الغزلية ، والصفات الغرامية ، تشير إلى الله ، والعلوم الإلهية ، ولفهمها يجب التعمق فيها ، والغوص إلى أبعد أغوارها ، وليس الوقوف عند ظاهرها وحده . وقد كره بعض الفقهاء هذا الشكل من الشعر الصوفى ، وصدمهم أن تستخدم الأشعار الغزلية فى التوجه إلى الله ، والحديث عن الأشياء الإلهية . ولهذا وجد **ابن عربى** نفسه مضطرًا إلى أن يؤلف كتابًا آخر أعطاه عنوانًا : « ذخائر الأعلاق » ، وفيه عرض وشرح الغاية من كل لفظ أو تعبير أو تصوير . وهى تفسيرات مفيدة لمن يقرأونها ، فيما يرى . لقد كانت تراتيل الحب وقفًا على العاكفين أو خدام الله ، وهذه الكلمات الحنون تجعل من الإثارة المعنوية

عملا جميلا ومحبباً (١٢)

وفضلا عن هذا فإن العقيدة التى يضمرها فيما يتصل بالحب الإلهى تفسر من بعيد مذهب وحدة الوجود ، الذى نلحظه فى صوفية لوليو . ويكرر **ابن عربى** فى أكثر من مكان من مؤلفاته مذهباً مشابها نتبينه من فقراته التالية : « إن الغاية التى يؤدى إليها الحب الروحى هى المطابقة ، بأن تصير ذات المحبوب نفس ذات المحب ، وأن تكون المطابقة متبادلة ، فتصير ذات المحب نفس ذات المحبوب كذلك » . وهى فقرة تتفق تماماً مع ما يعرضه لوليو فى بدء كتابه « الصديق والمحبوب » . فهما يتفقان كلاهما فى الشكل ، وفى الخطوط العريضة للمعنى ، ويحملنى هذا على الاقتناع بأن **لوليو** فى مذهبه يتكأ على كثير من الأشياء عند محيى الدين بن عربى .

ربما كان من الأوفق طبعاً أن نجد كثيراً من جمل ابن عربى ، وفقرات من كتبه ، ترجمها لوليو ، ولكن الأمل فى أن نجد شيئاً شبيهاً بهذا لا يجب أن يستولى على مشاعرنا ، لأن لوليو لم يهمل ذكر المصادر فحسب ، ولكنه ترك ماتعودّ أن يفعله آخرون أحياناً . مثل : رايموندو مرتين ، وألبرتو ماجنو ، وتوماس الأكوينى ، وغيرهم . لقد حذف هؤلاء الأسماء ، غير أنهم كانوا ينقلون فقرات الفلاسفة السابقين كاملة . وليس ثمة شك فى أن لوليو درس كتب الصوفية ، وأطلع على علمهم وتمثل مذهبهم ، ولكنه فيما بعد ، مع كل هذه المادة التى تعلمها ، شكل طريقته ، وعندما كتب لم ينسخ عن آخر ، وإنما قال ما عنده ، كما لو كان له شخصياً . كيف استطاع أن يعتقد أنه ملهم ، على حين وهو يعرض مذهبه لم يتوقف عن نسخ النصوص العربية ؟ إن القول بأنه ملهم ، وأنه نقل النصوص العربية فى الوقت ذاته ، لا يتسع لها معبد لوليو الأخلاقى . وإذا لم يذكر الأسماء ، ويحدد النصوص ، فلأنه كان يعتقد أنه جاءته إلهاما .

باختصار ، كان من عادة لوليو ألا يذكر مصادره ، وألا يترجم ، وأعتقد أنه استخدم الوسيلة الوحيدة لكى يشير إلى انتماء طريقته الفلسفية ، بأن يقول إنه سار على

(١٢) إلى أستاذى العزيز فرانسيسكو قديرة يعود الفضل فى الحصول على بعض الفقرات والملاحظات عن مؤلفات محيى الدين بن عربى ، من كتابه « ترجمان الأشواق » ، وأخذها مباشرة من النسخ المخطوطة التى تحتفظ بها مكتبة الاسكوريال .

خطى الصوفية ، **وابن عربى** من بينهم بالذات يفسر لنا أشياء كثيرة خاصة ، أصبحت من ملامح الفيلسوف الميورقى ، كالمبادىء الأساسية لمذهبه ، وسلوكه الخاص ، ورأيه العلمى ، ومنهجه التربوى ، وتقنيته ، وأخيرًا صوفيته . وهو نفسه يعترف ، وذلك شىء نادر جدًا ، بالتقليد الذى اتبعه فى « الصديق والمحبوب » ، وهو نقطة الانطلاق فى الصوفية المسيحية .

هذه الملاحظة الأخيرة كانت ، كما قلنا فى ما سبق ، الخيط الموصل للبحث الذى حملنا على أن نلمح آفاقًا جديدة لم يكن يحلم بها أحد ، وفضلا عن أنها تملأ فجوة جاءت حلا « للاستمرارية » فى تاريخ فلسفة مثل فلسفة لوليو ، كان لها أهميتها على امتداد مئات الأعوام فى نطاق المسيحية . وقادتنا فى نهاية المطاف إلى أن نهتم بأن نخرج إلى الضوء أفكار بعض علماء ما وراء الطبيعة المتعمقين من المسلمين الإسبان ، ولا يتحدثون عنهم فى أوربا غير القليل أو بالكاد ، ويحتفظون بأكثر من مفاجأة للباحثين . هكذا كان أصحاب وحدة الوجود الذين ولدوا فى أرض مرسية ، مذهبهم فيما وراء الطبيعة كان صداه فى العالم الإسلامى أعظم رنينا من مذاهب فلاسفة آخرين مشهورين جدًا بين المسيحيين ، مثل ابن رشد ، وابن باجة ، وابن طفيل .

وفى هذه المفاجأة لا أحتفظ لنفسى بأكثر من « مجرد سائح » يجىء فى الطليعة ، ولكى نحمل القضية إلى نهاية سعيدة لا أعتقد فى نفسى أننى مؤهل لذلك بدرجة كافية ، وأدعها آملا وسعيدا وراغبا لصديقى الدكتور **ميجيل أسين بلاثيوس** ، والذى سوف يقوم بها خيرًا منى ، فهو يملك الاجتهاد ، والصبر ، والحماسة العلمية ، وتكوينا فلسفيا أصيلا ، وقوة مثل هذه الروح ، وليست جامدة ولا متعصبة ، يمكن مع المرونة الضرورية أن/تواصل ، بلا عنف ، اكتشاف التفكير المعقد ، والملتوى ، والدقيق ، والعميق ، لهؤلاء الصوفية المسلمين .

وبهذه الطريقة ، وفى نطاق حقلنا ، نحاول أن نكمل وصايا ونصائح بطل العلم الإسبانى الممتاز ، والذى أهدى إليه هذا المقال .

الشعر الأندلسى
وتأثيره فى الشعر الأوربى

● هذه الدراسة القاها المستشرق الاسبانى الكبير أنخل جونثالث بالنثيا محاضرة فى المعهد الاسبانى التابع لجامعة كولومبيا فى نيويورك . ونشرت فى « المجلة الاسبانية الحديثة » ، السنة الأولى . العدد الثانى . يناير ١٩٣٥ . وتصدر عن المعهد نفسه .

سوف أتحدث إليكم عن المسلمين الإسبان ، وعن جانب من الثقافة الإسبانية الإسلامية ، ولعبا دورًا عظيما وبالغ الأهمية فى الحياة الأدبية للشعوب الأوربية . وأود أن أعرض عليكم بعض النظريات الجديدة التى انتهى إليها كبار الأساتذة من العلماء الإسبان ، حول نهج القصيدة الغنائية التى أنشدها المسلمون فى وطننا ، ومعها سوف تعرفون أن الأندلس كان يستخدم فى العصور الوسطى البعيدة **لهجة رومانثية** فى الحياة اليومية ، ذات أهمية كبرى فى دراسات فقه اللغة الحديث وستعرفون عرضًا قليلاً من الجهد الذى يقوم به المستشرقون المعاصرون فى إسبانيا الحديثة ، والازدهار الذى تشهده الجامعات الإسبانية ، وفيها لمعت أسماء : خوليان ريبيرا . وأسين بلاثيوس . ومينينديث بيدال ، وبهم عرفت قمة من المجد ليس لها شبيه .

وأول ما يجب علينا ، قبل أن نقتحم مجال تاريخ المسلمين فى إسبانيا ، أن نسقط من اعتبارنا قولا معادًا ، ظل يتردد على امتداد أعوام طويلة خلت ، فحجب واقع أولئك الرجال ، وشوه حقيقة كيانهم ، وأشد هذه الأخطاء . ويأتى فى المقدمة ، الاعتقاد بأن أولئك المسلمين كانوا جميعًا عربًا أرومة ، وأن إسبانيا العصور الوسطى كانت منقسمة إلى فريقين ، فى مواجهة مستمرة ، وفى صراع لا يتوقف ، دون أن يعرفوا اتصالا آخر غير الصراع اليومى ، وهى فكرة مطروقة ، وقول مكرور . وكان محببًا إلى خطباء القرن

الماضى ، والصورة المحببة لديهم عادة أن يضعوا الهلال فى مواجهة الصليب ، وقد احتجب الأول حين رفع **الكاردينال مندوثا** صليبه البطريركى فوق برج الشمع فى **غرناطة** ، فى الثانى من شهر يناير عام ١٤٩٢ ، ولكن الحقيقة التاريخية تختلف عن هذا كثيرًا ، وفى ضوء ما عرفنا ، واقتنعنا به كلنا ، بعد الملاحظات البالغة الدقة التى انتهى إليها أستاذى خوليان ريبيرا .

لقد لاحظنا معه أن **الفتح العربى** لم يأخذ طابع الهجرة ، على نحو ما حدث فى غزو شعوب شمال أوربا البربرية ، حين استقروا فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الرومانية ، فقضوا عليها ، ومزقوها شر ممزق ، وجاءوا إليها بأسرهم وعاداتهم ودينهم ، وعاشوا فيها زمنًا دون أن يتأثروا فى شىء بما هو رومانى ، وأبقوا دائمًا على عادات أجناسهم الأولى فى البلاد التى قدموا منها . ولكن المسلمين الذين جاءوا إلى إسبانيا لمساعدة **آل غيطشة** ، ضد لذريق آخر ملوك القوط ، كانوا عدة آلاف فحسب ، قد يبلغون العشرين ألف عددا ، من العرب وبربر شمال إفريقيا ، جاءوا على دفعتين ، جنودًا فى جيوش مقاتلة ، وحين ارتأى قوادهم فتح شبه جزيرة إيبريا لحسابهم ، بدل أن يقنعوا بمساعدة أبناء غيطشة ، استقروا فى الأرض الإسبانية ، وكونوا بيوتًا فى بلادنا ، وتزوجوا فى أغلب الأحيان بنساء إسبانيات . ولدينا أخبار عديدة عن سيدات عديدات من عليا الطبقة الاجتماعية القوطية ، أو الإسبانية الرومانية ، تزوجن من مسلمين . ونجد لذلك مثلا متميزًا فى زواج **أيلة** Egilôn أرملة لذريق ، وتكنيها المصادر الإسبانية **بأم عاصم** ، من **عبد العزيز بن موسى بن نصير** ، ومارست على زوجها العاشق قدرًا كبيرًا من النفوذ والتأثير ، واستطاعت أن تشعل فى أعماقه نار الطموح إلى العظمة ، وحب الفخفخة ، حتى أنه جرؤ على أن يفكر فى الاستقلال بالأندلس ، وأوشكت الأميرة أيلة أن تحرر وطنها من التبعية المشرقية ، وهو حلم أتت عليه خناجر المغتالين حين أنهوا حياة الأمير فجاءة وهو يصلى فى المسجد ، عقابًا له على اتهام كاذب ألصق به ، بأنه اعتنق المسيحية تحت تأثير زوجه . وامرأة قوطية أخرى ، كان أحفادها بدورا فى سماء الإسلام الإسبانى ، وأعنى بها **سارة القوطية** ، كما تدعوها المدونات العربية ، وقد بلغت الخليفة الأموى نفسه فى دمشق ، دفاعًا عن حقوقها ، وحلت مشكلة

الإقطاعيات التى كانت بيد النبلاء الإسبان الأصليين ، ومن بين أحفادها المؤرخ الشهير **ابن القوطية** ، أحد المؤرخون الذين لحظوا آثار وجود حزب قومى فى جنوب إسبانيا ، بين أولئك الذين اعتنقوا الإسلام من المسيحيين .

وحتى أمراء قرطبة الأمويين ينحدرون من أمهات إسبانيات ، ونعرف فيما يروى لنا **ابن حزم** المؤرخ ، أن أمراء العرش الأموى ، ابتداء من **عبد الرحمن الداخل** ، كانوا أبناء سيدات من شمال إسبانيا ، أغلبهن من **الباشكنس** ، أو **الباسك** فى اللغة الإسبانية الحديثة ، وبلغ بهم الأمر أن جاء شعرهم أشقر ، وعيونهم زرق ، لأن الرجال منهم كانوا يفضلون هذا اللون فيمن يتزوجون من النساء . فإذا نظرنا إلى **عبد الرحمن الناصر** ، الخليفة القرطبى الشهير ، فى ضوء هذه الاعتبارات ، وجدنا نسبه من ناحية الأب سلسلة متصلة من الأسماء العربية ، ومع ذلك ، فما يجرى فى عروقه من الدم العربى قليل جدًا ، لأن كل جداته كن إسبانيات . ونسبة الدم العربى فيه ، واستعير التشبيه البليغ الذى استخدمه ريبيرا ، « مثل أن تصب قليلا من الأنيلين فى بركة ماء ، فليس ثمة شك فى أن الماء سوف يأخد لون الأنيلين ، ولكن طبيعة تركيبه الكيمائى لم تتغير جوهريًا » .

إذا نظرنا إلى الأحداث من هذه الزاوية الجديدة لا نستغرب التأثير الذى لعبه **المولدون** ، وهم الإسبان الذين اعتنق آباؤهم الإسلام ، فى الحياة الاجتماعية . فقد أخذوا بحظهم من الحياة العامة ، وأسهموا فى تطور البلد أدبيا واقتصاديا ، وفى القرون الأخيرة من الحكم الإسلامى بدأت تتردد فى المدونات العربية أسماء كثيرة ذات ألقاب إسبانية أصيلة .

وجود جنس إسبانى واصل حياته فى الأندلس الإسلامى دفعنا إلى التفكير فى أن هؤلاء القوم واصلوا الحديث بلغتهم الأصلية ، وكذلك الذين جاءوا إليهم من شمال شبه الجزيرة لكى ينضموا إلى صفوفهم ، والنساء اللائى انتهى بهن المطاف فى قصور الخلفاء وكبار الشخصيات ، مثلهم فى ذلك مثل الذين ظلوا فى الجنوب واعتنقوا الإسلام دين الدولة الرسمى ، أو الذين آثروا أن يظلوا على دين أسلافهم فلم يفارقوا الكاثوليكية ، وتطلق عليهم المصادر الإسبانية اسم **المستعربين** Los Mozàrabes وظلوا يتحدثون فى حياتهم

العائلية ، وقضاياهم اليومية ، لغتهم الأصلية ، أو يستخدمون مايسمى **بعامية أهل الأندلس** ، وهى لهجة بدأ علماء فقه اللغة يدرسون خصائصها . ويقول لنا المؤرخون ، **مثل الخشنى** فى كتابه **قضاة قرطبة** ، إنها كانت تتحدث فى داخل القصور ، وتفهم فى دور القضاء ، وكان الأندلسيون يفهمون النكات ، والتعبيرات غير المحتشمة التى تقال فيها ، وتحملهم على الضحك . وبتأثير من هذه اللغة ابتدع العروض الرومانثى ، وسوف نتحدث عنه فيما بعد .

وجود لغتين يتحدث بهما الناس معًا فى الجانب الإسلامى من شبه الجزيرة ، أتاح الفرصة لطريقتين مختلفتين فى مجال الشعر الغنائى ، ومظهر ين متباينين فى ثقافة إسبانيا فى العصر الوسيط ، فأصبحت مثلا فريدًا بين كل دول أوربا ، فى هذا المجال ، وفى جوانب أخرى حيثما اتصل الشرق بالغرب[1] .

لقد أغرم الإسبان بالأدب العربى ، لأن الطريق إلى الحياة الرسمية والوظائف العامة يبدأ من إجادة لغة القرآن الكريم ، ومع أنهم كانوا يبتدئون الدراسة بالفقه والسنة ، إلا أن منهج تعليم اللغة العربية المستعمل فى المشرق ، والمطبق فى إسبانيا الإسلامية ، أدى بهم إلى معرفة الشعر العربى وتذوقه ، والإعجاب به ، وهذا اللون من الشعر ، ونصفه بالتقليدى . يتركز فى السير على نهج القصيدة الجاهلية ، وهى أشعار لا يعلى عليها فيما يرى النقاد العرب القدامى . ومن الواضح أن تقديس هذه النماذج أدى إلى التكلف . ذلك أن الشعراء العرب كانوا ينظمون دائمًا أشعارهم وفقًا لهذا المنهج التقليدى . « فكان على الشاعر الذى ينظم قصيدة وفقا للطريقة القديمة أن يبدأ بذكر المنازل التى ظعن عنها أهلها ، ثم يتحسر ، ويرجو أصحابه أن يقفوا معه ، لكى يبكى ذكرى حبيب ومنزل ، ورفاقًا رحلوا عن هذه الديار إلى منازل ومياه أخرى . وبعد ذلك يدخل فى قسم النسيب من قصيدته ، فيشكو آلام الهوى . ومن ثم يستلفت الاهتمام نحو شخصه ، ثم يصف رحلاته المجهدة ، الفياضة بالمتاعب فى ربوع الصحراء ، ويتحدث عن نحول دابته من طول السرى ،

---

(١) يمكن الرجوع إلى الجداول التى توضح هذه الاتصالات فى المحاضرة التى ألقيتها عند اختيارى عضوا بمجمع التاريخ ، بعنوان : تراث الإسلام ، مدريد ١٩٣١ .

ويمتدحها ، ويطنب فى وصفها . ويختمها بمدح الأمير أو الحاكم الذى ينشده قصيدته ، حتى يفوز بشىء من عطاياه »[٢] .

ودور الشعراء الذين يقلدون هذه النماذج الجاهلية يقوم على تعميق الخيال ، وإحكام الاستعارة ، وإعطاء الأفكار والصور المطروقة شكلا جديدًا ، وفى هذا المجال أبدعوا روائع حقيقية ، وكما استخرجوا من تاج العمود التقليدى ، ذى الأوراق الأقنثية ، أرق الزخارف التى تزين العمدان فى حمراء غرناطة ، واستطاعوا من زخرفة أوراق الحشف البسيطة ، وكانت محببة إلى البيزنطيين ، أن يضعوا الرخام الرائع الذى يزين محراب مسجد قرطبة الجامع ، كذلك فعلوا فى الشعر ، استخرجوا من تلك الزخارف الشعرية « الأرابسكية Arabisque » ، وتشبه أن تكون قصور حمراء لفظية ، على حد تعبير أفضل المستشرقين الإسبان المعاصرين معرفة بالشعر الأندلسى ، **إميليو غرسية غومث** ، الأستاذ فى جامعة غرناطة[٣] .

عالج الشعراء الأندلسيون كل موضوعات الشعر ، وتتاح لنا الفرصة هنا لإصلاح خطأ شائع أيضًا ، وهو اتهام عرب تلك الأيام ، ثم أحفادهم من بعدهم حتى يومنا هذا ، بالشهوانية الجاسية فى عواطفهم ، لأنهم ، ولم لا ؟ ، عالجوا الموضوعات العاطفية ، ولا تنقصنا الأمثلة من شعراء كبار مشهورين ، عرفوا بغرامياتهم العنيفة ، سعداء أحيانًا ، وتعساء أحيانًا أخرى ، وتركوا صدى قويًا دائمًا فى كتب التاريخ ، ومن أشعارهم التقط أصحاب كتب المختارات القصائد التى يتخذونها مثلا ، وليس أخلد فى الأدب العربى كله من اسمى **ولادة وابن زيدون** .

يقول ابن زيدون فى نونيته الشهيرة :

بِنْتم وبنَّا فما ابتلَّتْ جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفَّت مآقينا

---

(٢) ر . باسيه : الشعر الجاهلى ، باريس ١٨٨٠ ، وانظر : جونثالث بالنثيا ، تاريخ الأدب الأندلسى ، برشلونة ١٩٢٨ ، من ٣٤ - ٣٥ .

(٣) كان ذلك حين ألقى الكاتب محاضرته ، وفيما بعد أصبح أستاذا للأدب العربى فى كلية الأدب بجامعة مدريد ، ورئيسا لمدرسة الدراسات العربية بها ، ورئيسا لتحرير مجلة الأندلس ، ثم سفيرا لوطنه فى العراق ، ولبنان ، وتركيا ، وهو الآن فى المعاش . (المترجم)

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا　　يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدتْ　　سودًا . وكانت بكم بيضًا ليالينا
إذ جانبُ العيش طلق من تألّفنا　　وموردُ اللهو صاف من تصافينا[٤]

وقد ردت ولادّة على رجاء الحبيب هذا . فى مناسبة أخرى ، بهذه الأبيات ، تدعوه إلى لقاء . وتحدد له موعدا :

ترقّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتى　　فإنى رأيت الليل أكتم للسرِّ
وبى منك مالو كان بالشمس لم تَلُحْ　　وبالبدر لم يطلعْ ، وبالنجم لم يسر[٥]

ولا يزال **المعتمد بن عباد** ملك إشبيلية يتمتع بشهرة عريضة على امتداد العالم الإسلامى كله ، وكان يحب **اعتماد الرميكية** . وهى آخر شخصية لمعت من الجنس الإسبانى الإسلامى ، وحين هبت العواصف عنيفة على ملوك الطوائف . ووقعوا تحت تهديد ملوك الشمال المسيحيين . وقوة هؤلاء كل يوم فى ازدياد ، وبخاصة بعد استيلائهم على طليطلة عام ١٠٨٥ م ، تلفت المسلمون نحو أفريقيا يطلبون العون من **المرابطين** . وقاوم **المعتمد** ، وأدرك واعيا الكارثة المدمرة التى يمكن أن تصيب الإسلام الإسبانى من جراء التدخل الأفريقى .

وحين جاءت لحظة الاختيار لم ينس أنه إسبانى . ولو أن المؤرخين العرب وضعوا على

---

(٤) كل تراجم الشعر الأندلسى إلى اللغة الأسبانية الواردة فى هذه الدراسة ، ستكون من عمل صديق وزميلى **غرسية غومث** ، وهو أقدر من غيره على ترجمة الشعر الأندلسى ، إلى لغتنا ، برغم صعوبته ، وكتابه الشعر الأندلسى ، ونشر فى مدريد لأول مرة عام ١٩٣٥ ، أفضل مجموعة منه تعرفها اللغة القشتالية . لقد عرف حقا كيف يهب الأشعار المترجمة روحا ، مما جعل ترجمته أعذب وأرق من ترجمة خوان باليرا الأنيقة . فى ترجمته لكتاب فون شاك الألمانى . شعر العرب وفنهم فى أسبانيا وصقلية .

● صدرت من كتاب غرسية فى الأسبانية طبعات عديدة ، ولما تتوقف طبعاته ، وترجم إلى اللغة العربية بعنوان : الشعر الأندلسى ، وصدر فى القاهرة لأول مرة عام ١٩٥٢ .

(المترجم)

(٥) الأبيات من ترجمة بونس بيوجيس إلى الأسبانية ، وانظر كتابى : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٦٠ ، الطبعة الأولى ، برشلونة ١٩٢٨ ، (ص ٦٩ من الطبعة الثانية ، برشلونة ١٩٤٥) .

● لا أظن هذه الأبيات ردا على تلك ، لأن هذه تفصح رغبة ، وتفصح عن هوى مكنون . أما النونية فقالها بعد أن انصرم ما بينه وبين ولادة من حب ، من جانبها على الأقل . فكانت منه ذكرى آسية ، لعهد تقضى ، وحب ولى

(المترجم)

فه الجملة الشهيرة ، قبل أن يشهد احتضار الإسلام فى إسبانيا : « أفضل أن أرعى الجمال فى أفريقيا على أن أرعى الخنازير فى قشتالة » . ومن المؤكد أنه حين رأى المرابطين يغزون الأندلس لجأ إلى صهره **ألفونسو السادس** [٦] ، وكانت لحظة توتر فاجعة فى حياة إسبانيا ، لأن قوات الملك القشتالى بقيادة ألبر هانس Alver Fànez . الساعد الأيمن للسيد القنبيطور[٧] ، توجهت لمساعدة الملك الأندلسى ، ولكنهم هزموا فى **المدّور** قريبا من **قرطبة** ، ولم يعد ممكنا منذ هذه اللحظة أن يشهد الإسلام استقرارًا فى إسبانيا ، لأن توجيه الأمور فيها انتقل إلى أناس أفريقيين ، بعيدين عن جنسنا ، ولا صلة لهم بتقاليدنا ، وأمضى الملك الشاعر التعس ما تبقى له من العمر سجينًا فى **أغمات** ، بائس العيش ، تهدهد خياله الآمال فى أن يعود إلى ملكه يومًا ، وهو أمل لم يتحقق أبدًا .

يروى **ابن اللبانة** الشاعر أن رجلا من أهل إشبيلية كان يحفظ قصيدة **المعتمد** التى كتبها يستعطف بها أباه **المعتمد** ، لمّا فرط فى أمر **مالقة** ، وخذله أصحابه ، فأخرج منها ، ولجأ إلى رندة ، فأقام بها مدة تحت موجدة أبيه ، والتى مطلعها :

سكِّن فؤادَكَ لا تذهب بك الفكَرُ　　ماذا يعيد عليك البث والحذرُ

« ثم خرج من بلده لنية منه إلى أقصى حى فى العرب ، فأوى إلى خيمة من خيماتهم ، ولاذ بذمة راع من رعاتهم ، فلما توسط القمر فى بعض الليالى ، وهجع السامر ، تذكر

---

(٦) حين رفض المرابطون ترك الأندلس بعد انتصارهم الحاسم فى معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، حاول المعتمد أن يحالف ملك قشتالة ضدهم ، ولكن المرابطين انتصروا عليهم ، وقتل بعض أبناء المعتمد وهم يدافعون عن ملكه ، ونقل هو نفسه وما تبقى من أسرته إلى مراكش ، وسجنوا فى أغمات قريبا منها . وأثناء ذلك هربت زوجة أحد أبناء المعتمد ، مع أبنائها ، والتجأت إلى بلاط ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وارتدت عن الإسلام ، وأصبحت زوجة له ، وأنجب منها ابنه الوحيد شانجه ، وسوف يقتل فيما بعد ، فى معركة دارت بين أبيه والمرابطين . تلك هى الخطوط العريضة للقصة ، ولكن الرواية الأسبانية ، الشعبية والرسمية والدينية ، والعلماء فيما بعد ، فرحوا بالخبر ، التقطوه وصاغوا حوله الأساطير : كنة المعتمد أصبحت ابنته ، ولم تهرب ، وإنما أهداها المعتمد نفسه لألفونسو ، لتكون عشيقته ، أو زوجته فى أحسن الأحوال ، والحقيقة ما ذكرنا واسم هذه الفتاة سيدة ، وفى المصادر الأسبانية Zaida ، ودرج الباحثون العرب على ترجمتها « زايدة » وفى ضوء القوانين الصوتية للغتين الأسبانية والعربية ، يجب أن تكون سيده . (المترجم)

(٢) لمعرفة المزيد عن السيد القنبيطور والبرهانس ، انظر كتابى : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة ١٩٨٣ .

(المترجم)

الدولة العبادية ورونقها ، فطفق ينشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاه ، فما أكملها حتى رفع رواق الخيمة التى أوى إليها عن رجل وسيم ضخم ، تدل سيما فضله على أنه سيد أهله ، قال :

— ياحَضرى ! حياك الله ، لمن هذا الكلام الذى أعذوذب مورده ، واخضوضل منبته ، وتحلّت بقلادة الحلاوة بِكْره ، وهدر بشقشقة الجزالة بَكْره ؟.

فقال : « هو لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد » .

فقال العربى : « أظن هذا الملك لم يكن له من الملك إلا حظ يسير ، ونصيب حقير . فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشىء دونه » .

فعرّفه الرجل بعظم رئاسته ، ووصف له بعض جلالته ، فتعجب العربى من ذلك ثم قال : وممن الملك إن كنت تعلم ؟.

فقال الرجل : هو فى الصميم من لخم ، والذؤابة من يعرب .

فصرخ العربى صرخة أيقظ الحى بها من هجعته ، ثم قال : هلموا ، هلموا ! ، فتبادر القوم إليه ينثالون عليه ، فقال : يامعشر قومى ! ، اسمعوا ماسمعته ، وعوا ماوعيته ، فإنه لفخر طلبكم ، وشرف تلاصق بكم ، ياحضرى ! أنشد كلمة ابن عمنا . فأنشدهم القصيدة ، وعرفهم العربى بما عرفه الرجل به من نسب المعتمد ، فخامرتهم السراء ، وداخلتهم العزة ، وركبوا من طربهم متون الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقى الليل . فلما أرسل الليل نسيمه ، وشق الصباح أوكاد أديمه ، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الأبل فدفعها إلى الرجل ، وفعل الجميع مثل مافعل . فما كان رأد الضحى إلا وعنده هُنيدة من الإبل ، ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم »[8] .

وشبيه بمأساة المعتمد موت الشاعر الغرناطى ابن سعيد ، ولا يزال صدى فاجعته فى ذكرانا ، فقد قتله **ابن السلطان عبد المؤمن** ، فى منافسة بينهما على حب حفصة الركونية ،

---

(٨) أوجز الكاتب القصة إيجازا شديدا ، وأتيت بها كاملة لما تنطوى عليه من دلالات ، ونصها فى الحلة السيراء ، لابن الأبار ، جـ ٢ ، ص ٥٨ ، طبعة القاهرة .

وهي شاعرة ملهمة ، عرفت كيف تعبر عن عواطفها الجامحة ، وغيرتها الحادة ، في هذين البيتين من الشعر :

أغارُ عليك من عينْي رقيبي ومنكَ ومن زمانك والمكان
ولو أني خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ماكفاني

وربما كان **ابن خفاجة** شاعر جزيرة شقر ، من أهم شعراء الغزل الأندلسي ويدرس شعره الآن المستشرق الفرنسي هنري بيريس ، الأستاذ في جامعة الجزائر ، وينتظر العلماء بفارغ الصبر نشر ديوان الشاعر[٩] ، استمع إليه يصور منظرًا غراميًا :

غزاليةُ الألحاظ ، ريمية الطلى مدامية الألمى ، حبابيةُ الثغر
ترنّح في موشيةٍ ذهبيةٍ كما اشتبكت زهر النجوم على البدرِ
وقد خلعتْ ليلا علينا يدُ الهوى رداء عناق مزقته يد الفجر

ولا أستطيع مقاومة الرغبة في أن أردد ترجمة **خوان باليرا** لهذه الأبيات من شعر ابن خفاجة ، وتنضح بشهوانية وثنية :

وليلٍ تعاطينا المدامَ وبيننا حديثٌ كما هبّ النسيمُ على الوَرْدِ
نعاوده والكأسُ يعبق نفحهُ وأطيبُ منها مانعيد وما نبدى
ونَقْلى أقاحُ الثغر أوسوْسَنُ الطلى ونرجسةُ الأجفان أو وردة الخد
إلى أن سرتْ في جسمه الكاس والكرى ومالا بعطفيه فمال على عضدى
فأقبلتُ أستهدى لما بين أضلعي من الحر ما بين الثنايا من البردِ
وعاينتُه قد سُلَّ من وشْي ّبرده فعانقتُ منه السيف سُلّ من الغمد
لبانَ مجسٍ ، واستقامة قامةٍ وهزة أعطاف ورونق إفرندِ
أغازلُ منه الغصنَ في مغرس النقا وألثم وجه الشمس في مطلع السعد
فإن لم يكُنها أو تكُنه فإنه أخوها كما قُدّ الشراكْ من الجلد

(٩) لا أعرف أن هنري بيريس نشر ديوان ابن خفاجة كاملا . والطبعات التجارية مشوهة وناقصة . والطبعة الوحيدة المحققة التي يمكن الاعتماد عليها هي التي قام بها **السيد غازي** ، الأستاذ في كلية الآداب جامعة الاسكندرية . ونشرتها منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٦٠ .

(المترجم)

تسافر كلتا راحتيَّ بجسمه فطورًا إلى خصرٍ وطورًا إلى نهد
فتهبط من كشحيْهِ كفٌّ تهامةً وتصعد من نهديْه أخرى إلى نجد

ولكن ، أهذا كل شيء ؟ هل كانت مشاعر الإسبان المسلمين العاطفية على هذا النحو فحسب ؟ ليس الأمر كذلك لحسن الحظ ، فثمة مشاعر أكثر سمو وروحية تغلب على العلاقات العاطفية .

وخلال عهد الإمارة ، الأيام التي كان فيها الزعيم القومي **عمر بن حفصون** يهدد أمير قرطبة من وكنته في قلعة ببشتر . كان **سعيد بن جودى** يمثل النموذج الصادق للفارس العربي ، وتفرد في زمانه بالخصال العشر لا يدفع عنها ، ولا يكون فارسًا كاملا إلا من اجتمعت فيه ، وهي : الجود ، والشجاعة ، والفروسية ، والجمال ، والشعر ، والخطابة ، والشدة ، والطعن ، والضرب ، والرماية . وكان شخصيته متميزة ، كتلك الشخصيات التي نعرفها في عالمنا الإسباني : بدرونينيو ، ١٤٦٨ – ١٥٠٥ م ، البحار الذى رافق كولون في اكتشاف شواطىء فنزويلا ، أو المؤرخ المغامر دييجودى باليرا ، ١٤١٢ – ١٤٩٢ م ، وغيرهم كثيرون أمثلة حية للفروسية المغامرة ، أو مثل السيد الإلهى دون كيخوته ، وقد أحس مرة بأدق جراحات الحب .

وخلال عهد الأمير **محمد بن** عبد الرحمن جاء ابن جودى ذات يوم إلى قرطبة ، « وكان مع جزالته مستهترا بالنساء صبا إليهن ، مقدما لهن على جميع لذاته » ، ودخل المدينة من الباب الغربي ، ومر بدار الأمير **عبد الله** ، الذى صارت إليه الإمارة بعد أبيه محمد . « فوافقه يشرب في علية له بأعلاها ، مطلة على الطريق ، مع جارية له تسمى **جيجان** ، كانت موصوفة في زمانها بالجمال والحسن والإحسان ، فإذا بها تغنيه ، وهو يفديها ويستسقيها ، فأنصت للصوت وقد ذهب بلبه ، وعدل ناحيته يمتع سمعه ، ويلتمح ساعة ، إلى أن لاح له معصم الجارية ، وقد مدت يدها بالكأس إلى مولاها ، فراقه ما رأى من حسنها ، ووقعت بنفسه فهام بذكرها ، وأداه ذلك إلى البحث عن اسمها ، فاجتهد في شراء جارية محسنة بقرطبة ، نقر عنها ، وغالى في ثمنها ، حتى ملكها ، وسماها

جيجان ، اسم هواة تلك ، ونال منها لذته ، فلم تسله عن سميتها ، وهام دهرًا بذكرها ، وقال فيها شعرًا كثيرًا ، منه قوله :

سمعى أبى أنْ يكون الروحُ فى بدنى ... فاعتاض قلبى منهُ لوعة الحَزَنِ
أعطيتُ جيجانَ روحى عن تذكرها ... هذا ولم أرها ولم ترنى
فقلْ لجيجانَ ياسؤْلى ويا أملى ... استوص خيرًا بروح زال عن بدنى
كأنّنى واسُمها ، والدمع منسكب ... من مقلتى ، راهب صلى إلى وثنِ

ونستطيع القول بأن هذه الحالة ليست نادرة ولا شاذة ، وندعم رأينا بما ورد فى كتاب ابن حزم المثير والطريف : **طوق الحمامة** ، ويمكن أن يقرأ فى أى من اللغات الأجنبية : الروسية ، أو الانجليزية ، أو الفرنسية ، أو الاسبانية ، أو الإيطالية ، ولغات أخرى ، إلى جانب اللغة العربية التى كتب فيها(١٠) .

مثل هذا الحب يمكن أن ندعوه بالعذرى ، نسبه إلى بنى عذرة ، وهى قبيلة عربية « يفضل الرجال فيها الحزن الحلو ، المستسلم المشوق ، للحب الإفلاطونى ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون حبًا ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأفراح العفيفة » .

والأصول الفلسفية لهذه النظرية نجدها مبسوطة فى كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى(١١) ، وتتكأ كما يقول المستشرق الفرنسى ماسينيون على النظرية الإغريقية القديمة عن الحب ، ومؤداها أن الحب تعاسة مادية ، وقوة طبيعية ، لا مهرب منه ، أعمى ، لا عقل له ولا غاية ، ينظر إلى سفو كليس بنفس العين التى ينظر بها إلى إمبدوقليس ، ولكنه حب طاهر ، على نحو ما فهمه وعاشه وتغنى به شعراء البدو الزاهدون

---

(١٠) فى الأصل إشارة فقط إلى الترجمة الانجليزية التى قام بها أ . ر . نيكل ، الأستاذ فى المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو ، ولم يكن طوق الحمامة قد ترجم لغيرها من اللغات حينذاك .

(المترجم)

(١١) نشر نيكل مع إبراهيم طوقان ، القسم الأول منه ، شيكاغو ١٩٣٢ ، ونشر القسم الثانى الدكتور إبراهيم السمرائى والدكتور نورى حمودى القيسى ، بغداد ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .

من قبيلة بنى عذرة . ولكن هذه الفكرة ذات الأصل الإغريقى تمتزج بالتقاليد الإسلامية ، والتى تنسب إلى الرسول قوله : « من حب ، فعف ، فمات ، مات شهيدًا »[١٢] ..

وكان هذا الحب العذرى متأثرًا على التأكيد بالنماذج المسيحية التى يمكن أن يراها فى حياة رهبان الأديرة على نحو ما لاحظ أسين بلاثيوس[١٣] .

يمكن أن نشير هنا إلى أمثلة عديدة للحب الأفلاطونى ، أوردها **ابن حزم** فى كتابه **طوق الحمامة** ، وكان المؤلف نفسه يومها يمضى حياته كلها يستنشق أريج كلمة ، أو ابتسامة عذبة من فتاة شقراء ، تربت معه طفلة فى قصر أبيه ، ولم يستطع أبدًا أن يثير اهتمامها به ، لافى لحظات المجد التى بلغها بيتهم ، ولا فى سنوات التعاسة التى انتهى إليها ، وحين أصبح البؤس سيد قرطبة ، بعد فتنة البربر ، أناخ بكلكله فى بيت الفتاة السيئة الحظ ، وأذبل الحرمان مفاتنها ، ولقد وجدها **ابن حزم** « قائمة فى المأتم وسط النساء ، فى جملة البواكى والنوادب ، فلقد أثارت وجدًا دفينًا ، وحركت ساكنًا ، وذكرتنى عهدًا قديمًا ، وحبًا تليدًا ، ودهرًا ماضيا ، وزمنًا عافيًا ، وشهورًا خوالى ، وأخبارًا بوالى ، ودهورًا فوانى ، وأيامًا قد ذهبت ، وآثارا قد دثرت ، وجددت أحزانى ، وهيجت بلابلى . على أنى كنت فى ذلك النهار مرزأ مصابًا من وجوه ، وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى ، وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان كامنًا فلباه مجيبا فقلت قطعة منها :

يُبكّى لميتٍ مات وهو مكرَّمٌ وللحى أولى بالدموع الذوارفِ
فياعجبًا من آسف لامرئ ثوى وما هو للمقتول ظُلمًا بآسف

أو قصة **يوسف الرمادى** ، شاعر بلاط **المنصور بن أبى عامر** ، وقد أحب مبهورًا فتاة

(١٢) ماسينيون ، هوى الحسين بن منصور الحلاج ، شهيد الإسلام الصوفى ، باريس ١٩٢٢ ، جـ ١ ص ١٧١ – ١٧٤ .

(١٣) ابن حزم القرطبى ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

● ناقشت قضية الحب العذرى وأصوله ، ورأى أسين بلاثيوس فى ذلك ، فى كتابى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل : « غراميات ابن حزم ، ومشكلة الحب العذرى فى الأندلس » ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ . (المترجم)

جميلة يجهلها ، ورآها مرة واحدة ، ولكنى لن أمضى مع القصة إلى نهايتها[١٤] ، وأرى من الخير أن نقرأ بعض المقطوعات الغزلية التى تعكس نظرية الحب العذرى ، على النحو الذى شاعت فيه عبر إسبانيا الإسلامية .

لنقرأ هذه الأبيات لشاعر مرسية **أبى بحر** ، **صفوان بن إدريس** ، وليكن عنوانها : « مشهد حب » ! :

يا حسنَهُ ، والحسنُ بعضُ صفاته ... والسحرُ مقصورٌ على حركاتِه
بدرٌ لو أن البدرَ قيل له : اقترحْ ... أملاً ، لقال : أكون من هالاتِهِ
وإذا هلالُ الأفق قابل شخصَه ... أبصرتَه كالشكل فى مرآته
والخالُ ينقطُ فى صحيفة خدّه ... ماخطّ فيهاالصدغُ من نوناته
صاحبتُه والليل يُدنى تحتَه ... نارين من نفسى ومن وجناته
وضممتُه ضم البخيل لماله ... أحنو عليه من جميع جهاته
أوثقتـه فى ساعدىّ لأنه ... ظبىٌ أخافُ عليه من فلتاته
وأبى عفافى أنْ أقبِّل ثغرَهُ ... والقلب مطوىّ على جمراته
فاعجبْ للمتهبِ الجوانح غُلةً ... يشكو الظما والماء فى لهواته

أو هذه المقطوعة **لابن فرج الجيانى** ، المتوفى عام ٩٧٦ م ، وصاحب كتاب الحدائق ، وهو مجموعة من المختارات الشعرية ضاعت ، ولم يصلنا منها إلا ما نقله عنها الآخرون ، وعنوانها « عفة ! » :

وطائعةُ الوصال عففتُ عنها ... ومـا الشـيطـانُ فيها بـالمطاعِ
بدتْ فى الليل سافرة فباتتْ ... دياجى الليلِ سافرة القناع
ومـا من لحظـة إلا وفيهـا ... إلى فتن القلوب لها دواعى
فملّكتُ النهى جمحات شوقى ... لأجرى فى العفاف على طباعى
وبتُّ بها مبيت السقْب يظما ... فيمنعه الكعام من الرضاع

---

(١٤) يمكن العودة إلى القصة فى كتاب طوق الحمامة ، ص ٤٠ ، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

كذاك الروضُ ما فيه لمثلى سوى نظر وشم من متاعِ
ولستُ من السوائم مهملاتٍ فأتخذ الرياض من المراعى

ما أبعد هاتين المقطوعتين عن أبيات **ابن خفاجة** السالفة ، تطفح شهوانية ، وتفيض رغبة !.

●

ولا أستطيع أن أمضى قبل أن أقدم لكم بعض المقطوعات الخمرية ، وكانت شائعة بين شعراء الأندلس ، وفى الدراسة الموجزة التى قدم بها غرسية غومث لمجموعة الأشعار الأندلسية التى اختارها وترجمها إلى الإسبانية ، يمكن أن نقرأ وصفًا مختصرًا لحفلة شراب جميلة ، « حيث قلب يدنو إلى قلب هوى ، وشفة توحى إلى شفة رشفًا » ، على حد تعبير ابن هانى الإلبيرى .

ولا أود أن أغفل الشعر الوصفى ، أو أمضى دون أن أقدم له مثلا ، لكى ندرك المدى البعيد الذى بلغه شعراء الأندلس فى وصف أدق الأشياء ، واللذاذة التى يضعون بها أمام أعيننا أبسط الأمور .

لنقرأ كيف رأى **أبو الحسن ، على بن حصن** ، كاتب **المعتمد بن عباد أمير** اشبيلية ، فرخًا من الحمام ، وكيف وصفه ، يقول :

وما هاجنى إلا ابنُ ورقاءَ هاتف على فنن بين الجزيرة والنهرِ
مفُسْتَقُ طوقٍ ، لا زوردىّ كلكل موشىّ الطلى ، أحوى القوادمِ والظهر
أدارَ على الياقوت أجفانُ لؤلؤ وصاغ من العقيان طوقًا على النحر
حديدُ شبا المنقارِ داجٍ كأنّه شبا قلمٍ من فضة مُدَّ فى حبر
توسّد من فرع الأراك أريكةً ومال على طى الجناح مع النحر
ولما رأى دمعى مُراقًا أرابه بكائى ، فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه ، وصفق طائرا وطار بقلبى حيث طار ، ولا أدرى

وجعفر بن عثمان المصحفى ، الحاجب الوزير الشهير ، والذى لعب دورًا هامًا فى حياة

المنصور بن أبي عامر ، فى خلافة الحكم الثانى ، وابنه هشام الثانى ، يصف سفرجلة على النحو التالى :

ومصفرَّة تختالُ فى ثوب نرجس — وتعْبقُ عن مسك ذكيِّ التنفّسِ
لها ريح محبوب ، وقسوةُ قلبهِ — ولونُ محب ، حُلَّةَ السقم مُكتسى
فصفرتُها من صفرتى مستعارة — وأنفاسُها فى الطيب أنفاس مؤْنِسى
فلمّا استتمَّت فى القضيب شبابَها — وحاكتْ لها الأنواءُ أبرادَ سندس
مددتُ يدى باللطفِ أبغى اقتطافها — لأجعلها ريْحانتى وسْط مجلسى
وكان لها ثوب من الزغب أغبرٌ — يرفٌّ على جسمٍ من التبر أملس
فلمّا تعرّتْ فى يدِى من لباسها — ولم تبق إلاّ فى غلالة نرجس
ذكرتُ بها من لا أبوح بذكره — فأذبلها فى الكفِّ حر تنفسى

رقة عذبة ورائعة ، لم يبلغها أبدًا أىٌّ من كتاب النثر المحدثين !

●

ولكن هذا الشعر ماكان ممكنًا أن يصبح شعبيًا فى إسبانيا لأنه متكلف إلى حد بعيد ، بالغ الرقة ، واسع الثقافة ، ومن ثم لم يستطع أن يمارس تأثيرًا كبيرًا على ما جاء بعده من آداب . ولكن ، لحسن الحظ ، ولد فى الأندلس جنس غنائى آخر ، انبثق عن اللغة العامية ، وارتبط بعربية الشارع ، وباللغة الرومانثية وكانت تستخدم فى الحديث اليومى ، وأصبحت لغة البيت ، وهو جنس بلغ من الحيوية والنضج حدًا عاليًا فى شبه جزيرة إيبريا ، وامتد تأثيره خارجها ، وهو اكتشاف يدين به العالم المثقف لفطنة العلامة أستاذى خوليان ريبيرا . ففى عام ١٩١٢ اختاره المجمع الإسبانى عضوا به ، وكان بحثه الأول فيه عن ديوان ابن قزمان[١٥] ، وفيه قدم براهين جلية على وجود لغة **رومانثية** كانت تتكلم فى الأندلس ، وهى اللغة التى كتب بها شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله ، وهى ليست لغة الشعر المعروفة ، التى كان المؤدبون يلقنونها للدارسين ، وإنما اللغة الدارجة ، الجارية

---

(١٥) فقدت الطبعة الأولى من هذا البحث ، ثم أعيدت طباعته مع أبحاث أخرى للمؤلف فى مختارات له ، صدرت فى مجلدين ، بعنوان : « نبذ ومقالات » ، مدريد ١٩٢٨ .

على الألسن فى قرطبة ، بما فيها من نكات سوقية ، وعبارات متبذلة ، ومعجم الساقطات فى المواخير ، وألفاظ الطلاب التى يستعملونها فى مباذلهم خارج الدرس ، ومفردات الأطفال حين يلعبون فى الأزقة ، وفيها الكثير من المصطلحات التى يتعارف عليها أهل كل حرفة ، ولا تخلو كذلك من اللغو الفارغ الذى تحفل به أحاديث البيوت . وبعض مفردات هذه القصائد الزجلية ملتقط حقًا من جمل موجودة فعلا ، تتردد دائمًا على ألسنة العامة ، وقد تكون مأخوذة من أغنيات أطفال لا تعنى شيئًا بالنسبة لنا الآن ، لأننا نفتقد مفتاح ترجمتها وتفسيرها .

انظر إلى إحدى هذه الأغانى المزدوجة اللغة :

أنا ، مطْر ، تانْ شلْباطو ،
تان حزينْ ، تان بناطو !
ترى اليوم وشْطاتو ،
لم نذوق فيه غير لُقيْمة[١٦]

ليست الفرصة مواتية هنا ، لأضيف جديدًا إلى ما جاء به ريبيرا من براهين ذكية ، دلل بها على أن هذا الجنس الشعرى أندلسى المنبت ، ويعود إلى ما قبل القرن العاشر الميلادى . وأدلته مقنعة فكريًا ، ولكن النقاد وقد رأوا البناء العملاق الذى أقاموه حتى

---

(١٦) اعتمدت فى كتابة هذه الفقرة على طبعة غرسية غومث لديوان ابن قزمان ، وهى أصح الطبعات وأدقها ، وتختلف اختلافا بينا عن غيرها ، ومعنى الكلمات الرومانثية الواردة فيها :

مطر matre ، ومعناها أم ، تان tan عندما تتكرر ، كما هنا ، معناها حينا . . . وحينا ، أو كثيرا عندما تجئ مفردة . وبناطو penato متألم أما كلمة شلباطو ، فيمكن أن تكون شيئا للسخرية ، ويرى غرسية أنها قريبة فى صوتياتها من كلمة chiflado الأسبانية ، ويحتمل أن تكون هى ، وهذه معناها : معتوه ، مجذوب ، وترجمة الأبيات فى لغة عربية فصيحة ومعاصرة :

أنا ، ياأمى ، حينا شلباطو
وحينا حزين ، وحينا متألم ،
ألا ترين اليوم طويلا ؟
ولم أذق فيه غير لقيمة !

وانظر القصيدة كاملة فى كتابنا « شعراء الأندلس والمتنبى » ، وفيه دراسة موجزة عن ابن قزمان ، من ١٥١ - ١٧٥ ، وهو ترجمة لكتاب غرسية غومث ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

(المترجم)

ساعتها ، لتفسير أصول الشعر الغنائى فى اللغة الرومانثية ينهار من أساسه ، يطالبون بالوثائق ، وبالشواهد التاريخية التى تبرهن على وجود هذا الشكل فى تلك العصور البعيدة .

وظهرت الوثيقة ! وجدناها فى فقرة أوردها مؤرخ الأدب العربى فى الأندلس ، الشهير الثقة : **ابن بسام** ، فهو يقول فى كتابه « **الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة** » :

« وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا ، واخترع طريقتها ، فيما بلغنى ، محمد ابن حمود القبرى الضرير[١٧] ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة ، دون تضمين فيها ولا أغصان » . « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب » .

وعندما نسمع هذا الرأى ، ويدل على احتقار ابن بسام للموشحات ، لأنها جاءت فى « أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة » ، وفيها ألفاظ عامية ورومانثية ، يرد فى خاطرنا تعبير المركيز سانتيانا Santillana الشهير ، عن الأشعار الرومانثية ومؤلفيها ، فهو يقول فى رسالته « مقدمة إلى مشير البرتغال » : « شعراء منحطون أولئك الذين ينظمون هذه الأغانى والأشعار الرومانثية ، بلا أدنى نظام ولا قاعدة ، وهى لا تبهج إلا أسافل الناس والطبقات المنحطة » . وكما أنه على امتداد القرون التى خلت ، لا أحد غير الموسوعيين والذين يحترفون الأدب يذكر شيئًا من أشعار سانتيانا ، ونظمها على النهج الإيطالى أو الفرنسى ، على حين أن القصائد الرومانثية ظلت برهانًا خالدًا على قيمة الأدب الإسبانى ، وتعتبر من مفاخر أمتنا فى البلاد المختلفة التى تتكلم اللغة القشتالية ، حدث الشىء نفسه فيما يتصل بالزجل ، فعلى حين أن القصائد ومقطعات الشعر العمودى الأندلسية التى اختارها ابن بسام لما تزل ترقد مطوية فى مخطوطات العصور الوسطى لا يذكرها أحد ، انتشرت الموشحة والزجل على

---

(١٧) يرى بعض الباحثين أن ابن بسام ، أو ناسخ الذخيرة ، أخطأ فى الاسم . وأن صُحته مقدم بن معافى القبرى . ويرى آخرون أنهما شخصان وجد كلاهما ، ولكن المثير أن يكون كلاهما من قبرة ، ويوصف بأنه ضرير ، وعاش فى الفترة نفسها . وينسب إليه ابتداع الموشحات .

(المترجم)

امتداد العالم العربى كله (وما زالوا يتغنون بها فى المغرب والجزائر ، وحتى فى الهند) وعبر العالم المسيحى ، واستطاع أن يمس ، كما سنرى ، شكل الشعر الغنائى فى اللغات الرومانثية ، لأن الشعب فى كلا الجانبين ، العربى والمسيحى ، استولى على الطريقة الجديدة ، وجعل من نفسه سيدًا لها ، ونقلها كل جيل إلى خلفه ، كشىء يكون جزءًا من روحه ذاتها .

طرفا هذه الطريقة الجديدة هما الزجل والموشحة ، والزجل أشد بساطة ، وهو يتكون من أدوار ، وكل دور يتكون من مطلع ، أو مركز ، ومن ثلاثة أبيات ، أو أكثر ، متفقة القافية فيما بينها ، تسمى الأغصان ، وبيت آخر ، أو أكثر ، هو القفل ، وقافيته ووزنه من نفس قافية ووزن المطلع .

وأما الموشحة فنظم تكون فيه القوافى اثنتين اثنتين ، على هيئة الوشاح ، «كالعقد يتكون من صفين من لآلئ مختلفة الألوان» ، فالتسمية تشير إلى طريقة تأليف القوافى ، وفيما عدا ذلك تشبه الزجل تمامًا ، فشكلهما واحد ، وكل ما هناك أن الزجل يطلق على السوقى الدارج منهما ، إذ لابد أن يكون فى اللغة الدارجة ، مما يتغنى به فى الطرقات ، أما الموشحة فلا تكون إلا فى العربى الفصيح ، ويمكن القول إن لفظ الموشحة يطلق على المهذب من الزجل ، الذى تستعمل فيه الفصحى ، أو ينظم فى أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال . والمثل التقليدى للزجل نجده فى «أغنية التلامذة» لكاهن هيتا ، وهو :

Sennores, dat al escolar,
Que vos vienne demandar.
Dat Lymosna é rracion
Paré por vos oracion,
Que Dios vos dé salvacion
Querid por Dios â mi dar.

سادتى، أعطوا التلميذ،
الذى جاء يطلب منكم.
أعطوه صدقة صلاة،
فهو سيصلى من أجلكم،
ويدعو الله أن ينجيكم،
أتريدون أن تعطوها لى

El byen, que por Dios feciéredes,
La Lymosna, que â mi diéredes,
Quando deste mundo saliéredes,
Esto vos avrâ â ayudar.

وما صنعتم من خير لله،
وما أعطيتم من صدقة لله،
وعندما تدعون هذه الدنيا،
فكل ما صنعتم سيكون ل عونكم.

وفضلا عن هذه الأزجال ذات الطراز البسيط للغاية ، ويتكون كل دور فيها من المركز ، وثلاثة أبيات هى الأغصان ، وبيت رابع هو القفل ، فهناك أزجال كثيرة تستخدم القوافى الممكنة فى أغصانها ، ولكنها تحترم نظام القفل فى كل دور دائمًا ، كقاعدة أساسية فى هذا النظام ، ومن ثم يمكن أن تكون لدينا النماذج التالية :

O أدوار خماسية تكون قوافيها على هذا النحو : أ أ ب ب ب أ أ ج ج ج أ أ إلى آخر الزجل .

O أدوار سداسية تكون على هذا النحو : أ ب ج د د د أ ب ج إلى آخر الزجل .

O أو سباعية تكون على هذا النحو : أ ب ج أ د د د أ ب ج أ إلى آخر الزجل .

ومع ذلك ، يمكن القول أن الطابع الشعبى لهذه الأزجال ، وأشير إلى أزجال ابن قزمان بخاصة ، رغم قالبها المبتكر ، يدل على أنها نظمت ليتغنى بها الشعراء الجوالون فى الأسواق ، والمتسولون فى الشوارع والطرقات ، والمحتالون فى الحوارى والأزقة ، وأصحاب المجون والخلاعة ، و « النسوان والسكرى والسكران » ، على حد تعبير ابن سناء الملك . وهى ليست مما يتغنى به الإنسان منفردًا ، « وإنما ينشدها الناس جماعة فى الطرقات بصوت جهير ، وسط جمهور يتجمع أفراده حول المنشد ، حيث ينشدون المركز جماعة عقب كل فقرة يلقيها ، وتصحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والناى والطنبور والدف والصاجات ، وربما تخللها الرقص » .

وأوزان هذه الأغانى ، على الرغم من أنها مشتقة من تفاعيل العروض الشعرى التقليدى ، لا تلتزم بقواعد النحو ، وألفاظها من الدارج الذى لا يعرف حركات الإعراب ، ولا يخضع النطق بقوافيها لشرائط التقفية المعروفة فى الشعر الفصيح ، ولا يفوتنا أن نشير إلى ابن قزمان كان يستعمل دائمًا الصوامت **Consonants** بطريقة أكمل مما نجده فى الأشعار الأوربية القديمة » .

ويكون المركز عادة مما يثير انتباه السامعين ، ويجذب أسماع الجماهير ، حتى يصغوا إلى الأغنية وهم راغبون ، ويجىء غزلا ، أو دعوة إلى الشراب ، مثل قول **ابن قزمان** :

أيامًا ملاحْ ، شرطْ الخلاعةْ خزيْت أمّ الذى يعمل صناعةْ

وقوله فى زجل آخر :

نعطى ثيابى ونُنْفق مالى فـــــالشراب الــــبـــــالى

ويسمى ابن قزمان الجزء الأول من كل زجل : « **التغزل** » ، وهو مطلع الزجل الذى يومىء إلى موضوعاته . « ولابد أن يكون فى أمر عام أو تقليدى ، وينبغى أن يصاغ فى قالب سهل خفيف فكه ، ويغلب أن يكون موضوعًا جنسيًا أو خمريا أو سخرية من المجتمع ، ولا يجىء جارحًا ولا مثيرا ، وإنما مبتذلا لا تحفظ فيه » . ويعالج الغزل بطريقة لا صلة لها بالطابع العربى المشرقى . فلا أبل ولا تجوال ولا قفار ، ولا أثر للحياة البدوية الظاعنة ، ولا ذكر للديار التى هجرها أهلها ، ولا يشير إلى أى من موضوعات تاريخ العرب . ولا يذكر الإسلام إلا فى مواضيع قليلة ، ويكون ذلك عادة عند تعرضه للفقهاء والأتقياء . وهو ينال منهم فى غير حياء ، ويركبهم بألوان من السخرية ، فإذا ذكر شهر رمضان والصيام سخر من الصائمين ، وأطرى المفطرين والمقبلين على الخمر واللواط . وهو لا يذكر الدين إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة خلال أزجال المديح ، ويجىء هذا التوقير منه وهو فى معرض السخط على نصارى الشمال »[١٨] .

« أما القسم الثانى من الزجل وهو المسمى « **بالمديح** » ، فيتغنى فيه **ابن قزمان** بفضائل من يهدى إليه الزجل . ثم يختمه بطلب معروف أو عطاء » .

وفى يومنا هذا تقدمت كثيرًا الدراسات التى تهدف إلى جمع المادة التى تساعد على معرفة هذه الطريقة الأندلسية ، وفى العام الماضى نشرت مدرستا الدراسات العربية فى كل من مدريد وغرناطة النص العربى لديوان **ابن قزمان**[١٩] فى حروف لاتينية ، وترجمتا جانبا

---

(١٨) أوجز الكاتب هذه الفقرة ، وآثرنا نقلها بالتفصيل من كتابه الأدب الأندلسى ، الفقرة ٥١ ، الطبعة الثانية ، برشلونة ١٩٤٥ .
(المترجم)

(١٩) نشر **غرسية غومث** ديوان ابن قزمان من جديد ، وجاءت طبعته فى ثلاثة مجلدات ، نشرتها دار « جريدوس » فى مدريد ، عام ١٩٧٢ . وقد شغل الديوان ونصه ، ونشره فى حروف لاتينية مع ترجمته إلى الأسبانية ، المجلدين الأول والثانى ، وأودع المؤلف آراءه وأفكاره ودراساته المجلد الثالث . ومع أنه لا يمكن التسليم بكل ما قال من الجميع ، إلا أن تحقيقه لنص الديوان جاء عملا ممتازا ، وبالتالى ألقى ستار النسيان على كل ما سبقه من محاولات .

(المترجم)

كبيرا من أزجاله ، وليس كلها ، إلى اللغة الإسبانية ، لأن ترجمتها عسيرة للغاية .

●

نحن إذن إزاء واقع تاريخى لاشك فيه ، وهو وجود طريقة شعرية غنائية شعبية منذ القرن التاسع الميلادى ، انتشرت فى العالم الإسلامى منذ العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، لأن أصحاب الزجل والموشحات كانوا يمثلون اتجاهًا ، ورغم أن عددًا منهم لا بأس به عرف بقدرته على نظم الشعر التقليدى ، وله فيه قصائد معروفة ، أوكتب مؤلفات بالعربية الفصحى ، إلا أنهم صاغوا قصائدهم فى هذا القالب الجديد ، لما يتميز به من حيوية بالغة القوة ، احتفظ بها إلى يومنا فى اللغة العربية ، كما يقول خوليان ريبيرا ، فلا يزال يستخدم فى المغرب ، وفى كل شمال إفريقيا ، وحتى فى مصر ، وفى الحفلات الدينية فى فارس والهند ،

وحتى المدائح النبوية جاءت فى نفس العروض ، ومن نفس القافية ، التى صبت فيها أغانى الخلعاء فى شوارع قرطبة ، حين يرسلون فى الهواء الجارى خطراتهم غير المحتشمة ، خلال القرن الثانى عشر الميلادى .

وبعيدًا عن عالم الإسلام ، فى إسبانيا وفى أوربا ؟. لقد أصاب **ريبيرا** كبد الحقيقة حين دعا إلى الاهتمام بهذه الوقائع الجديدة ونحن نبحث عن أصول **الشعر البروفنسالى** ، ولو أن الدوائر العلمية تلقت يومها فكرته فى برود وفتور ، لأن من الصعب جدًا أن نشد الأفراد إلى خارج ما تعودوه ، بعيدا عن « الروتين » ، وأن ندفع بهم فى طرق جديدة ، يتطلب السير فيها جهدًا كبيرًا ، وربما كان رأى الناقد الفرنسى **جان روا** تلخيصًا أمينًا لما كان قد استقر عليه النقد الأوربى إذ ذاك . يقول : « جاء الشعر البروفنسالى منذ نشأته بعيدًا عن أى تأثير أجنبى ، لقد انبثق فجأة ، كزهرة انشقت عنها الأرض بلا ساق ولا جذور » . ويعتبر مينينديث إى بلايو الشعر البروفنسالى أصل كل الأشعار الرومانثية .

ومضت الأعوام الأولى ، والصمت يلف **فكرة ريبيرا** ، وبخاصة فى المجلات المتخصصة ، وفيما بعد ، حين نشر نص **ابن بسام** الحاسم ، أخذت نظرية ريبيرا طريقها إلى كتب التاريخ المبسطة والموجزة ، ومن ثم بدأت تنتشر ، دون أن تتخلى أوربا عن

معارضتها العنيفة لها ، وسيكون قسوة منى أن أستغل صبركم ، وأمضى معكم فى رحلة عبر الجدل الذى أثاره كتاب أمثال : رودريجيز لابا Rodriguéz Lapal البرتغالى ، ونيكل Nykl التشيكى والمقيم فى الولايات المتحدة ، وسيجيه Siger ، وسبانك Spanke، وشلودكو Scheludko ، وغيرهم،ووجهة النظر التى قبلها كل من الإسبانى مينينديث بيدال M. pidal، والبرتغالية كارولينا ميكائيليس Carolina Michaelis وآخرون من علماء الدراسات الرومانية ، وأفضل أن أقدم لكم بعض النماذج من الشعر الذى جاء فى قالب الزجل من الآداب الرومانثية ، لتحكموا فى القضية بأنفسكم .

نجد مثلا أن **جيوم التاسع** Guillaume IX ، كونت بواتييه ، ودوق أقيطانية ، تزوج عام ١٠٩٤ م من فيليبه ، أرملة شانجه ملك أرجون ، واشترك بنفسه فى الحروب الصليبية عام ١١٠١ م ، وعاد منها بعد عام ، أى فى سنة ١١٠٢ ، وتوفى عام ١١٢٦ م ، أو ١١٢٧ م ، ونظم فى أواخر حياته أشعارًا فى قالب الزجل ، ولو أنه أدخل تغييرًا طفيفًا على الطريقة الأندلسية ، فجعل المركز فى نهاية الغصن لا فى أوله ، واعتبره قفلا أو نهاية (٢٠) ، وجعل قافية أول بيت من القفل ترد فى نفس قافية البيت الذى قبل البيت السابق عليها ، وهذا الأمر الجانبى جعل العروض البروفنسالى يأخذ طريقًا مختلفًا . أنظر إلى الأغنية السابعة من ديوانه :

"Farai un vers, pos mi sonelh,
E'm vauc e m' estauc al Solelh,
Domnas ia de mal conselh,
E sai dir cals:
Cellas C'amor de Cavalier
Tornon a mals."

«سانظم شعرى مادمت حالما.
متطيا صهوة جوادى تحت ضوء الشمس
هناك نسوة كثيرات سيئات النية.
واقول لكم من هن:
إنهن اللائى يزولن عشق الفارس
تأويلا سيئا».

(٢٠) من الواضح أيضا أن موشحات وأزجالا عربية كثيرة جاءت أيضا بلا مركز ، واصطلح النقاد القدامى على تسمية ما جاء كذلك « أقرع » فى مقابل تلك التى تبدأ بالمركز ، وتسمى « تام » أو « كامل » . كما أن بعض القصائد البروفنسالية جاءت أيضا كاملة ، أى بدأت بمركز ، كما نرى فى المثال التالى .

(المترجم)

وأشد وضوحًا القصيدة الثامنة فى ديوانه ، وجاءت ثمانية المقاطع ، وفيها يشير إلى تجديده :

"Farai chansoneta nueva..	سانظم اغنية جديدة،
Ans qeu vent ni gel ni plueva	قبل أن تعصف الريح، ويسقط الجليد، ويهطل المطر،
Ma donna m'assai em'prueva.	فسيدتى تأمرنى وتبلونى،
Quossi de qual guiza l'am,	لتعرف كيف احبها،
E ja per plag que m'en mueva	ومهما ضاعفت اذاى،
No'm solvera de son liam.	لن افك نفسى من وثاق حبها.

وفى قصائد شعراء التروبادور الآخرين ، مثل : موان دى مونتودون Moine de Montaudon . وكلمة موان تعنى راهب ، و ج . رينولد G. Raynold ، و ج . مجريت G. Magret . ومركبرو Marcabru نجد أشعارا جاءت فى القالب الذى صاغ فيه أشعاره كونت بواتييه ، وظل نظام هذا الطراز من الشعر الأندلسى ، وأعنى به الزجل والموشحات ، باقيًا فى صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى ، ولا سيما فى هذا النوع من الألحان المعروف بالروندو rondô ، وفى الأغانى الشعبية الفرنسية ، مثل : « التعسة فى زواجها La mau mariée » ، « ووردة دنكرك La Reuse de Dunkerk » ، بل إن هناك مقطوعات فرنسية راقصة شاعت بين الناس فى القرن السابع عشر ، سارت كلها على طريقة عرفت باسم « الروندبه Le Rondet » ، أى التوبة ولا تزال تذكرنا حتى اليوم ببحور الزجل الأندلسى .

ولابد أيضًا أن بعض الأغانى الشعبية القطلونية تتصل ببحور الزجل الأندلسى ، مثل هذه الأغنية ، وجاءت تحت عنوان : « La llebre » :

"Dentre l'hort me'n son entrada,
i una llebre hi he agafada,
La flor del llinet
La flor del llinet m'agrada,
La flor del llinet.
Por la cua l'he agafada,
Si l'he uita a l'empallada,
tot tas tant me l'he manjada."
La flor del llinet.........

وفيما يتصل باللغة البرتغالية توجد أشعار جاءت فى قالب زجلى فى « ديوان الفاتيكانة Concioneros de la Vaticana‘‘ وفى « مختارات برانكوتى ‘‘Colocci – Brancuti’’ » وتظهر أيضًا فى قصائد فرنان فلهو Fernàn Velho شاعر من عصر الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وفى ديوان الشاعر بايوسواريز Payo Soarez وحتى فى إنجلترا نلتقى بأغان شعرية قديمة ، موجهة إلى العذراء ، أو تقال فى أعياد الميلاد ، صبت فى هذا القالب الشعرى الأندلسى ، وحتى يومنا لا نزال نجد فى الأغان الشعبية فى إسكوتلاندة ، وفى إيرلندة ، رباعيات جاءت على نمط أزجال مسلمى الأندلسى .

وقد درس العلامة خوسية مياس فايكروسا José Millàs Vallicrosa الأستاذ فى جامعة برشلونة ، تفصيلا وفى عمق ، الصلات التى كانت قائمة بين الشعر الإيطالى فى العصر الوسيط وبين أصوله الإسلامية ، ووجد أن عروض القالب الشعرى المسمى « الكونتراستو Contrasto» ، ومعناه الخصام أو الاختلاف يرجع إلى أصول فارسية ، ويصاغ فى قالب الزجل الأندلسى . ويرى أن الشعر الدينى الإيطالى فى العصر الوسيط ، والذى يطلق عليه اسم « المدائح Laudes » ، وينظم فى اللهجة الدارجة ، على النقيض من التراتيل اللاتينية ، ولم يكن الجمهور يفهمها ، كان على صلة وثيقة بعروض الزجل الأندلسى . ونجد أفضل نماذجه عند جاكابون دى تودى Jacapone di Todi . صديق القديس فرانسيكو دى أسيس ، فقد التزم قالب الزجل كاملا أحيانًا مثل :

"Dulce amor di povertade,	« ياحب الفقر الرقيق،
quanto ti degiamo amare!.	كم ينبغى ان نحبك!.
Povertade poverella,	أيها الفقر المسكين،
Umildade e tua sorella,	إن الذلة أختك،
ben ti basta la sacodella,	يكفيك طبق صغير،
e al bere e al mangiare».	للشراب والطعام».

وأحيانًا أخرى يحور شكل الزجل الأندلسى ، فيقسم البيت إلى أشطار ، فيصبح ثمانى المقاطع ، بعد أن كان رباعيًا :

"O magioa virtuoso – retenutta battaglia
non e senza travaglia – per lo megio passare.
L'amor me costrenze – d'amare le cose amante
ne l'aomre e l'odio – dé le cose blasmante
amare ed odiare – en un coragio stante
socce bataglie tante – non le porria stimare."

وتبدو أوزان الموشحات والأزجال فى الطراز الشعرى الإيطالى المعروف بالبلاتا La ballata ، أى المرقصات ، وهو يمثل الشعر فى أحسن صوره ، وبلغ قمة تطوره عند لورنزو دى مديتشى Lorenzo di Médicis والبوليز يانو El Poliziano ، وظلت طريقته مستعملة فنظمت فيها الأغانى الكرنفالية ، وهو طراز شعبى عنى بنظمه الأدباء ، وإن كانت موضوعاته مما يوجه إلى العوام فحسب ، مثل أزجال **ابن قزمان** تماما . ويظهر طراز الزجل كذلك فى المدائح المقدسة ، التى تشبه المنظومات الإسبانية المعروفة باسم « المدائح الإلهية » ، وجاءت فى قالب الزجل شكلاً وعروضًا .

●

وأخيرا، فيما يتصل **بإسبانيا** ، احتفظت هذه بشكل الزجل حيا خلال العصور الوسطى . وفى العصر الذهبى للأدب الإسبانى (القرن السادس عشر الميلادى) . ولقد حار علماء فقه اللغة زمنًا فى أوزان أغانى **ألفونسو العاشر** . أما الآن ، وبعد أن قام **خوليان ريبيرا** بدراسة موسيقاها على نحو رائع وخالد ، فيمكن تفسيرها فى ضوء الزجل الأندلسى ، قالبًا ووزنًا . فإذا كتبنا هذه الأغانى دون أن نقطع الأبيات إلى أشطار وجدنا معظمها من طراز الأزجال . وإن كان القفل ينظم على قافية سابقة مثل :

"Oimldades con pobreza, quer a Virgen coroada,
mas d'orgullo con requeza e ela muy despagada.
E desta razon vos direi un miragle muy fremoso,
que mostrou Santa Maria Madre do Rey grorioso,
a un crerigo que era le a servir deseioso,
e por en gran maravilla le foi per ela mostrada"

وترجمتها :

ان السيدة العذراء المتوجة تفضل التواضع مع الفقر،
على الغرور مع الغنى ؛ لأنها تحتقرهما احتقارا سادياً .
ولهذا سوف نقص عليكم معجزة بالغة الجمال،
صنعتها القديسة مارية أم الرب المجيد،
لرجل دين كان راغبا في خدمتها،
وقد صنعت العذراء هذه المعجزة لتريه اياها

وقد رأينا فيما سبق كيف أن « أغنية التلاميذة » لكاهن هيتا جاءت في قالب زجلي ، وكان الشاعر يعرف الحياة الإسلامية جيدًا ، ويعرف الآلات الموسيقية التي يستخدمها المغنون العرب . وكتب أحيانًا أغاني مرقصة للمتبخترات والراقصات الموريسكيات ، وثمة شعراء آخرون في « ديوان بائنة » ، مثل : بياسنديو Villasandino ، وخرينا Gerena ، وآخرون مثل خمينيث دي أوريا Jiménez de Urrea ، وألبارث جاتو Alvarez Gato وستونييجا Stuniga ، والأغنيات التي تضمها الدواوين الموسيقية ، مثل « ديوان بلاثيو » ، ونشره بربييري Barbieri . وكلها تومئ إلى أصلها الأندلسي . استمع إلى أغنية المسلمات الثلاث هذه :

"Tres moricas me enamoran :	ثلاث مسلمات عشقني
en Jaén:	في جيان.
Axa y Fâtima y Marién.	عائشة وفاطمة ومريام
Tres moricas tan garridas,	ثلاث مسلمات رائعات الجمال.
iban a cogar olivas,	ذهبن يجمعن الزيتون
y fallabanlas cogidas,	فوجدنه قد جني
en Jaén:	في جيان:
Axa y Fâtima y Marién.	عائشة وفاطمة ومريام.
Tres moricas tan lanzanas	ثلاث مسلمات فاتنات بالنضارة،
iban a coger manzanas	ذهبن يجنين التفاح،
y fallabanlas t omadas,	فوجدنه قد جني
en Jaén:	في جيان:
Axa y Fâtima y Marién.	عائشة وفاطمة ومريام
Dijeles: Quienes Soies, Sonoras,	قلت لهن: من أنتن يا فاتنات
de mi vida robadoras?	وقد سلبتني حياتي،

قلن مسيحيات وكن مسلمات	– Cristianas, que eramos moras
فى جيان:	en Jaén:
عائشة وفاطمة ومريام	Axa y Fatima y Marién.

إلى آخر هذه الأغنية ، ومامضى فقرات منها . وموضوعها وموسيقاها تعود إلى أيام هارون الرشيد ، وظلوا يتغنون بها فى إسبانيا حتى القرن السادس عشر الميلادى ، والتقطتها السيدة كارولينا ميكائيليس فى البرتغال فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وبعض مقطوعات الشاعر خوان دل إنثينا Juan del Encina الدينية جاءت فى البحر نفسه ، الذى جاءت فيه القطعة السابقة :

لاتغب عنى، فانى أموت،	No te tardes, que me muero;
يا سجانى،	carcelero,
لاتغيب عنى، فإنى أموت،	No te tardes, que me muero!
عجل بالمجىء،	Apresura tu venida,
حتى لا أخسر حياتى،	porque no pierda la vida,
وفيك لم يضع إيمانى،	que la fe no està perdida,
ياسجانى،	Carcelero,
لاتغب عنى، فإنى أموت، ،	No te tardes, que me muero.
فك عنى هذه القيود،	sacame desta Cadena,
وفيها قاسية آلامى،	que recibo muy gran pena,
حين تغيب عنى تقضى على.	pues tu tardar me condena,
يا سجانى،	Carcelero
لاتغب عنى، فإنى أموت.	No te tardes, que me muero

وبعض أغنيات المهد جاءت فى نفس هذا القالب الزجلى ، وكثير من الأشعار الدينية التى تنشد بمصاحبة موسيقى علمانية ، وظل هذا التقليد متبعًا حتى القرن السابع عشر الميلادى ، وقد نظم الشاعر الإسبانى كيبيدو Quevedo بعض الأبيات يسخر فيها من بعض السود ، وجاءت فى قالب زجلى ، وحتى الكاتب المسرحى كالديرون Calderon فى مسرحيته المأسوية الرائعة « حب بعد الموت » ، يرسل على ألسنة بعض الموريسكيين الأنشودة التالية ، ذات الطابع الزجلى الخاص الخالص :

«على الرغم من الأسر التعيس،
ولراده الله لنا عدلا خفيًا،
فاننا نبكى الامبراطورية الأفريقية.
وماقدر عليها من شقاء
وليحى دين الله!
ولتحى الذكرى الرائعة،
لذلك العمل المجيد(٢١)
التى جعلت من اسبانيا
أسيرة حريتها.
وليحى دين الله!».

Aunque en triste cautiverio,
de Alâ por justo misterio,
Llore el africano imperio.
su misera ley esquiva
su Ley viva!.
viva la memoria extrana,
de aquella gloriosa hazana,
que en la libertad de Espana.
a Espana tuvo cautiva
su ley viva!.

ياللحيوية الرائعة التى ينطوى عليها هذا النظام الشعرى! ، لقد ظل يقاوم التلاشى على امتداد قرون وقرون ، وأصبح وسيلة للتعبير عن مشاعر شعوب مختلفة ، وفى لغات متباينة ، ويجب أن نضيفه إلى أمجاد الحضارة العربية الخالدة ، والتى امتدت إلى أوروبا عن طريق الإسبان المسلمين ، والتى لا تنحصر فى مسجد قرطبة الرائع ، وأؤكد لكم أنه لا يوجد مسجد آخر يضاهيه أهمية وروعة على امتداد كل العالم الإسلامى الذى أعرفه مشاهدة من المغرب إلى أسطنبول ، ولا فى منارة الخير الدا الجميلة فى إشبيلية ، رمز الأندلس ، وإبداع مهندس مسلم يحمل لقبًا إسبانيًا ، وليس لها شبيه فى الجمال والرقة فى كل العالم الإسلامى ، ولا أستثنى من ذلك منارة الكتبية الشهيرة فى مدينة مراكش ، ولا فى روعة قصور بنى نصر الخالدة فى غرناطة ، وليس للحمراء مثيل فى كل المعمار المدنى القائم فى العالم الإسلامى . وعندما نتذكر بناة هذه الروائع لا يجب أن ننسى أولئك الشعراء المغمورين والضائعين ، مثل مقدم بن معافى القبرى ، والذين أبدعوا لنا قالبًا شعريًا يفيض بالقوة والحيوية ، على نحو مارأينا وحللنا فى إيجاز . وفى كل الحالات عندما نتذكر التراث الذى أضافه الإسبان المسلمون إلى الحضارة الأوربية ، نشعر بالزهو لأن هؤلاء الذين خلفوا لنا هذه الروائع الفنية ، من الزجل والموشحات والنظريات الفلسفية التى تربى عليها المفكرون الغربيون ،

(٢١) يشير إلى فتح المسلمين لأسبانيا .
(المترجم)

وكتب العلم والطب التى أسهمت فى أن تجعل من الحياة الإنسانية شيئًا أجمل وأفضل ، والذين بلغوا القمة بالحضارة على أيامهم ، وجعلوا من إسبانيا أرقى دول أوربا ثقافة ، هؤلاء كانوا أجدادنا ، من جنسنا ، وليس عدلا أن نجردهم من إسبانيتهم لمجرد أنهم كانوا مسلمين .

رثاء المدن والممالك

فى الشعر الأندلسى

○ **أصول مشرقية :**

بكاء المدن الزاهرة شعرًا حين تأتى عليها الفتن المدمرة ، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية ، له أصول مشرقية ، أول ما نلتقى بها فى تلك الدموع الغزيرة التى ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين **الأمين والمأمون** عام ١٩٧ هـ = ٨١٢م ، حين حاصرها **طاهر بن الحسين** قائد جيش المأمون ، ولاقت خلاله بلاء شديدًا يعجز عنه الوصف ، وحين اقتحمها كان القتال يدور من شارع إلى شارع ، ولكى يقضى الجيش على المقاومة التى لقيها كان يدك أحياء برمتها ، «وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسنها» ، واستحالت إلى إطلال ، ولم يكن لها فى مدن العالم يومها نظير ازدهارًا وثراء وجمالا . وقد بكاها **عمرو بن عبد الملك الوراق** ، ورد ما أصابها إلى العين :

من ذا أصابك يابغدادُ بالعينِ　　ألم تكونى زمانًا قرّة العينِ
ألم يكن فيك قوم كان مسكنُهم　　وكان قربهُم زينًا من الزينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا　　ماذا لقيتِ بهم من لوعة البينِ
أستودع الله أقوامًا ما ذكرتُهمْ　　إلا تحدر ماء العيْن من عينى
كانوا ففرقهم دهـر وصدّعهم　　والدهر يصدعُ ما بين الفريقينِ

وفيها قال إسحاق بن حسان ، أبو يعقوب **الخريمى** ، وهو من الفرس ، قصيدة طويلة فى مئة وخمسة وثلاثين بيتًا ، وصف فيها ما حل ببغداد فى نبرة آسية ، ولوعة صادقة ، صور خلالها الفتنة تصويرًا دقيقًا مسهبًا ، حتى لتبدو أمام العين ، حين قراءتها ، صور

التخريب والدماء والقتل والذعر الذى يتغشى الناس فى الطرقات ، وانتصر فيها بحكم فارسيته للمأمون :

يابؤس بغدادَ دارَ مملكة دارتْ على أهلها دوائرُها
أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرُها
رقَّ بها الدين واستُخفَّ بذى الـ ـفضل وعزَّ الرجال فاجرُها
وصار ربَّ الجيران فاسقُهُمْ وابتزَّ أمرَ الدروبِ شاطرُها
يُحرق هذا ، وذاك يهدمُها ويشتفى بالنِّهاب داعرها
والكرخُ أسواقُها معطّلةٌ يستنُّ شُذّانها وعائرها
أخرجت الحربُ من أساقطهم آسادَ غيلٍ غُلبًا قساورها
من البوارى تِراسُها ومن الخو ص إذا استلأمتْ مغافرها
لا الرزْقَ تبغى ولا العطاء ولا يحشرها بالعناء حاشرها

وبعد ذلك بثمانين عامًا ، أو بالدقة فى سنة ٢٧٧ هـ = ٨٩٠م ، اقتحم **الزنج** مدينة **البصرة** فى ثورتهم التى قاموا بها ، وقاوموا الدولة خلالها أربعة عشر عاما ، وقام بها ضحايا الاستغلال الذى مارسه زبانية الإقطاع تجاه المستضعفين الذين كانوا يعملون فى مناجم الملح الواقعة فى نهر الفرات الأدنى ، فغرس السخط والحقد فى نفوسهم ، ونفوس من كانوا فى مثل حالتهم ، وأرسلت الدولة الجيش لإخضاعها ، ولكن ظروف المقاطعة وكثرة المستنقعات والترع جعلتهم ينتصرون على كل هؤلاء الجنود ، واعتنقوا مبادىء **الخوارج** التى اعتنقها زعيمهم **على بن محمد** ، وكانوا يقتلون دون رحمة كل من يقع فى أيديهم من الأسرى وغير المحاربين ، ويقدر عدد من ذهب ضحية وهدرًا فى هذه الحرب بأكثر من نصف مليون ، وعقب إحدى المعارك بلغ عدد الرءوس التى لم تطلب من الكثرة حدًا جعل الزنوج يفرغونها فى إحدى القنوات التى حملتها إلى البصرة ليتعرف عليهم أهلوهم وأصدقاؤهم هناك ، ولقد هجر الناس البصرة وواسط والأهواز والأبلة ، ودمر الزنج البصرة عن آخرها .

وقد وجدت البصرة فى **ابن الرومى** الشاعر الذى يبكيها ، فوصف غلبة الزنج عليها ، والمآسى المروعة التى تعرضت لها ، وكعادته يهتم بالوقائع . ويستقصى دقائق الأحداث وتفاصيلها ، وقصيدته تبلغ الذروة إحكامًا فى بنائها . وتسلسلا فى أفكارها ، وكل بيت يسلمك إلى ما بعده ضرورة ، وفيها يتحدث عن العذارى يتعرضن للإعتداء ، ويجعلهن أبكار تأكيدًا ، وأنّ فضحهن كان جهارًا ، ووقف عند الاعتداء على الأطفال وقتلهم ، وألمح إلى القصور التى استحالت إلى تلال من الرماد والتراب :

ذاد عن مقلتى لذيذَ المنامِ　　شغلُها عنه بالدموع السجامِ
أى نومٍ من بعد ما حل بالبصرةِ　　ماحلَّ من هناتٍ عظامِ
دخلوها كأنهم قطعُ الليـ　　ـلِ إذا راح مدلهمَّ الظلام
كم فتاةٍ بخاتمِ الله بكرٍ　　فضحوها جهرًا بغير اكتتام
كم رضيعٍ هناك قد فطموه　　بشبا السيفِ قبل حين الفطام
بُدِّلتْ تلكم القصور تلالاً　　من رمادٍ ومن تراب ركامِ
صَبَّحوهم فكابد القومُ منهم　　طولَ يومٍ كأنه ألف عام

وحين اجتاح **التتار** مدينة **بغداد** عام ٦٥٦ هـ — ١١٦١ م . وسحقوها فى غير رحمة ، وأتوا على الخلافة فيها إلى غير رجعة ، بكاها الشعراء ، بكوا المدينة والخلافة معًا ، ولكن هذا الأمر جاء وقد استقر رثاء المدن والممالك فى الشعر الأندلسى على أصوله . ومن ثم فأمر أشعارها لا يعنينا هنا .

هل جاء الأمر فى **الأندلس** تقليدًا لما جرى فى المشرق ؟. لا أرى هذا ، وأكاد أقطع بأن قصيدة **الخريمى** فى فتنة **الأمين والمأمون** لم تبلغ الأندلس ، فصاحبها شعوبى متعصب لقومه وجنسه ، وإن سلمت عقيدته وحسن إسلامه ، فأدارت لها بغداد ظهرها ، على ما فى القصيدة من جمال وقوة ، ربما لأن الشاعر متعصب أولا ، ومحاولة منها لنسيان الفتنة ثانيًا ، ولأم الجراح بين بنى العباس ، فالقاتل والمقتول من أبناء هارون الرشيد ، ولعل الدولة نفسها رأبًا للصدع كانت تدفع الناس إلى نسيانها ، وليس صدفة فيما أرى أن

الخريمي ليس له ديوان كامل ، رغم رقة ما وصلنا من شعره وجودته ، وكان الطبرى ، وهو مؤرخ سياسى دقيق ، الوحيد الذى أتى بقصيدته فى الفتنة كاملة ، وأورد ابن قتيبة فى « **الشعر والشعراء** » أبياتًا منها ، وجاء **الجاحظ** بأبيات منها أقل فى كتابه « **الحيوان** »[1] . وقصيدة هذا حالها فى المشرق بعيد أن تبلغ الأندلس الأموى وأن تؤثر فيه .

وبعيد أن يكون ابن الرومى بقصيدته وراء العاطفة التى تفجرت بين جوانح ابن حزم وصاحبه ، فشتان ما بين الأمرين والمناسبتين . فذاك يبكى مدينة سمع بخرابها ولم يعش فيها ، ولا تمسه محنتها من قريب ، وهذان يبكيان مهابط طالما ترددا فى أرجائها ، وقصورًا طالما أمضيا أجمل الساعات بين قاعاتها ، وجنانًا نعما بوافر ثمرها ، ورطيب فيئها ، وجمال أشجارها ، إلى جانب أننى أشك كثيرًا فى أن قصيدة ابن الرومى هذه عرفت مبكرًا فى الأندلس ، لأن الشاعر نفسه أقل الشعراء ترددًا فى أسماع الأندلسيين ، ولا يجىء ذكره فى مدوناتهم إلا قليلا وعرضًا ، ومن خلال الحكايات القليلة التى شهر بها ، وارتبطت به متشائمًا أو متطيرًا ، أو حين يبلغ الدقة الكاملة فى التصوير ، مثل أبياته فى « صانع الرقاق » ، وأبيات أخرى شبيهة .

●

أما فى الأندلس فولد هذا الشعر بين الأحداث المتلاحقة ، ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التى قامت على أنقاض الخلافة المنهارة ، وبين الأندلسيين وغزاتهم من أفريقية ، وبينهم وبين النصارى فى شمال وطنهم ، ومهد له التغنى بحب الوطن قرية أو ضيعة ، ومدينة أو عاصمة ، وكل الأرض التى جابها الشاعر حبًا فى الرحلة ، أو طلبا للرفد والمتعة ، يصف ما على وديانها من زهر وثمر ، وما فى سمائها من برق وسحب ،

---

(١) انظر :

● تاريخ الطبرى ، جـ٨ ، ص ٤٤٨ وما بعدها ، تحقق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف بمصر .

● ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، جـ٢ ، ص ٨٥٥ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٧٨ هـ ١٩١٧ م .

● الجاحظ ، الحيوان ، جـ١ ص ٢٢٥ وجـ٥ ص ٢٠٤ ، تحقيق عبد السلام هارون .

وما يخترقها من بحيرات وأنهار ، وما يتحرك عليها من طير وحيوان ، وماله فيها من صداقات وذكريات ، ومجالس أنس وشراب . فإذا افتقد ذلك غريبًا حن إليه ، وإذا ذهبت به الحرب بكاه ، وكان لنا مع هذه المشاعر شعر يرثى المدن الذاهبة ، والممالك الضائعة ، والأرض تسقط فى يد العدو ، ويصور فى جوى صادق فواجع المسلمين . وكان لنا فى النثر الأدب المفاخر ، يبشر بتفوق الأندلس ، ويعدد سبقه ، يزهو بعلمه ، وما يضم من عظماء الرجال ، على نحو ما نرى فى رسائل ابن حزم ، والشقندى ، وابن سعيد ، فى فضائل الأندلس[٢] .

فبكاء الممالك المنهارة ، والمدن الذاهبة ، فن أندلسى أصيل فيما أرى ، وجدت دوافعه فى المشرق والمغرب على السواء ، وخص الأندلس ببعضها ، وتفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها ، فكان له معها قصيد رائع أحيانًا ، ودون الجيد أحيانًا أخرى ، تبعًا لثقافة الشاعر وطاقاته النفسية ، وحظه من تجارب عصره عمقًا واتساعًا . وكان وراء ذلك كله ما أسميه :

○ الوجدان الأندلسى :

فى أعداد قليلة لا تتجاوز الخمسين ألفًا من العرب الخلص ، وضعفهم من البربر ، أزيد أو أقل شيئًا ، جاءوا إسبانيا فاتحين ، أو مهاجرين بعد الفتح ، بحثًا عن حياة أفضل ، أو حبًا فى المغامرة ، أو سعيًا وراء المجهول ، أو رحالة يستهويهم الجديد ، أو رغبة فى نشر الإسلام ، أو رباطًا فى ثغوره دفاعًا عنه ، أو فرارًا من اضطهاد سياسى أو قبلى أو عقيدى يلاحقهم فى المشرق ، وعلى هذه الأرض الأوربية استقروا ، وتزوجوا من إسبانيات ، وبدأوا يكيفون أنفسهم مع الواقع الجديد ، لم يتخلوا عن عاداتهم ودينهم ولغتهم ، ولكنهم أيضًا لم يديروا ظهورهم وقلوبهم وعقولهم لما وجدوا على هذه الأرض ، ولم تمض غير سنوات قليلة فى عمر الشعوب ، حتى أصبحت العربية لغة كل القوم ،

---

(٢) الرسائل الثلاث توجد فى كتاب نفح الطيب للمقرى ، جـ٣ ، ص ١٥٠ وما بعدها ، طبعة احسان عباس .

والإسلام دين الغالبية بينهم ، لم يفرضه سيف ، ولا أكرهت الناس عليه محاكم التفتيش ، وإنما استهوتهم فيه أشياء جميلة ، فقد كرم الإنسان ، وأعلى قدره ، واحترم إرادته ، فلا إكراه فى الدين ، والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ويضغط الباحثون الأوربيون ، فى جانب كبير منهم ، على الدوافع الاقتصادية ، ودورها فى دفع الناس إلى الإسلام ، ورغبة الإسبان فى تحسين أحوالهم الاجتماعية ، وأن يأخذوا بحظهم من المناصب الإدارية ، وهى قولة فيها بعض الحق ، وفيها كثير من الباطل . أما الحق فالمناصب العليا فى الجانب الأعظم منها كانت وقفًا على المسلمين ، ولكن .. كم يبلغ عدد هذه الوظائف فى عاصمة كقرطبة ، تجاوز تعدادها فى نهاية القرن العاشر الميلادى المليون نسمة ؟. وأما الباطل فربط ارتفاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالإسلام ، فلا صلة بين الأمرين ، وبوسع أى فرد أن يملك الأموال الطائلة ، والثروات الضخمة ، والضياع الواسعة ، تاجرًا أو مزارعًا أو صاحب صناعة ، دون أن يتوقف هذا على دينه فى شيء ، ولدينا شواهد عديدة فى كتب التاريخ على نصارى أغنياء ، ويهودًا يملكون دنيا عريضة من المال والعقار ، وسوف يضيق بها المسيحيون فيما بعد ، بدءا من القرن الرابع عشر الميلادى ، ويفتعلون الكثير من الأزمات ليستولوا عليها ، تغريمًا لهم أحيانًا ، وتجريدهم منها مباشرة أحيانًا أخرى ، وطردهم من الأندلس نهائيًا فى نهاية المطاف .

على أية حال لا نكاد نبلغ القرن العاشر الميلادى ، حتى تنصهر كل العناصر الإسلامية التى سكنت شبه جزيرة إيبريا ويتكون الوجدان الأندلسى المتميز شيئًا فشيئًا ، فتخف حدة القبلية ، وتأخذ العصبية العرقية فى التلاشى ، وتبرز أشياء كثيرة تصبح مدعاة الفخر ، إلى جانب عراقة الأسرة ، كالثقافة الواسعة ، والكفاءة فى النهوض بالمناصب ، والشجاعة فى الحرب ، والنجح فى معترك الحياة . نعم ظل المسلمون فى جانب ، وأهل الذمة من النصارى واليهود فى جانب آخر ، ولكن يجب ألا ننسى فى أية لحظة أن جل المسلمين كانوا من سكان شبه الجزيرة الأصليين ، قوطًا أو لاتينا ، أو من بقية العناصر الأخرى التى

سبقتهم فى الوجود . وأن الفوارق الدينية لم تكن دومًا حواجز حائلة بين الصلات الإنسانية المختلفة ، التى يفرضها التعايش ، ويتطلبها تشابك الحياة ، والتعاون والتكاتف على مواجهة صعابها ، وجعلها أقل عسرا ، وأسهل تناولا ، وبخاصة فى المدن الكبرى ، وبين الطبقات الدنيا ، على حين ترتفع الثقافة بالطبقات الأخرى إلى ما فوق هذا الاختلاف ، ونعرف من اعترافات **ابن حزم فى طوق الحمامة** ، وكان خصما لدودًا لكل ما ليس إسلامًا ، أن مكانه المفضل فى مدينة ألمرية حين لجأ إليها ، كان دكان يهودى طبيب وعطار(٣) .

وكانت حياة الناس فى جملتها رضية ، وبخيرات وطنهم قانعون ، وإحساسهم بأن بلادهم تفوق جيرانها مدنية يشيع فى نفوسهم الحب لها ، والحرص عليها ، على حين يثير فى أعماقهم إدراك الخطر المحدق بها ، وبعدها عن مركز الإسلام ، خوفًا خفيًا ، ومن ثم تولد بين أدبائهم ، من شدة ارتباطهم بها ، ما أسميه :

○ شعر الحنين :

ولست أزعم أنه وقف على الأندلسيين دون المشارقة ، فقد كنت ، وما زلت ، أرى أن المقدمات الطللية إلى شعر الحنين أقرب منها إلى الغزل أو النسيب(٤) ، ولكن حنين الأندلسيين جاء خاصًا ، وصادقًا ، ومتميزًا ، وكثيرًا ، وازدهر حين ضاع من أندادهم فى المشرق بين صخب الحياة فى المدينة ، وعمّق إحساسهم به كثرة رحيلهم ، داخل الأندلس نفسه ، أو خارجه إلى بلاد بعيدة ، وراء الأفضل من العيش ، أو لمجرد الرحلة ، فهم فى حنين دائم إلى حياة جميلة فارقوها ، ولذاذات متنوعة عاشوا عليها ، وأناس يضطرب مع ذكرهم القلب ، وطبيعة تهفو لجمالها النفس .

أمضى **المعتمد بن عباد** أيامًا من فتوته عاملا على شلب Silves (٥) أيام أبيه ،

---

(٣) انظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، ص ٣٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ .

(٤) انظر كتابنا : امرؤ القيس ، حياته وشعره ، ص ١٥٤ وما بعدها ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٩ .

(٥) هى الآن مدينة صغيرة فى جنوب البرتغال ، قريبا من شاطئ المحيط ، تتبع محافظة الغرب algarve ، وكانت أيام الحكم الإسلامى قاعدة كورة أكشونبة ، وسقطت فى أيدى النصارى عام ١١٥١ م .

وهى مدينة حباها الله من جمال الطبيعة الشىء الكثير ، على مرمى البصر من المحيط الإطلنطى ، ذات « بسائط فسيحة ، وبطائح عريضة ، ولها جبل عظيم منيف ، كثير المسارح والمياه » ، تعلوه أشجار التفاح ، وتتضوع منه روائح االعود ، « حسنة الهيئة ، بديعة البناء ، مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشعر ، وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم » ، وكانت للمعتمد فيها خلوات ولهوات ، « فهى ملعب شبابه ، ومألف أحبابه ، عمر نجودها غلاما ، وتذكر عهودها أحلامًا ، وكان قصر الشراجيب من معالمها ، ويصفة ابن خاقان بأنه « متناه فى البهاء والإشراق ، مباه لزوراء العراق » ، فلما تولى الملك بعد أبيه ، عام ٤٦١هـ = ١٠٦٩ م ، اختص بها أحب شعرائه إليه إذ ذاك ، أبا بكر محمد بن عمار ، فوجهه إليها متفقدًا لأعمالها ، فلما ودعه أهاجه الشوق ، وغلبته الذكرى ، ودعا شاعره أن ينقل إلى مرابعها تحيته :

ألا حىِّ أوطانى بشَلْبٍ أبا بكر ... وسهلنّ : هل عهْد الوصال كماأدرى ؟
وسلِّمْ على قصر الشراجبِ عن فتى ... له أبدًا شوقٌ إلى ذلك القصر
منازلُ آسادٍ وبيض نواعمٍ ... فناهيك من غيلٍ وناهيك من خدْرِ
وكم ليلة قد بت أنعمُ جُنْحها ... بِمُخصبةِ الأرداف مجدبة الخصر
وبيضٍ وسُمْر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والأسلِ السمر
ليال بسد النهر لهوًا قطعتُها ... بذات سوارٍ مثل منعطفِ البدر
نَضت بردها عن غصن بانٍ منعمٍ ... نضيرٍ كما انشق الكمام عن الزهر

ويحكى **ابن بشكوال** عن الشيخ **أبى بكر بن سعادة** أنه دخل مدينة **طليطلة** مع أخيه ، على الشيخ الأستاذ **أبى بكر المخزومى** ، قال : فسألنا من أين ؟ ، فقلنا : من **قرطبة** ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : قرّبا إلىّ أشم نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشم رأسى وقبّله ، وقال لى : اكتب :

أقرطبةٌ الغرّاء هل لى أوْبةٌ ... إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدٌ

سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامةٌ ... وقعقع في ساحات دوْحاتك الرعدُ
لياليكِ أسحارٌ وأرضك روضةٌ ... وترُبك في استنشاقها عنبرٌ ورْدُ

ويدع **ابن زيدون** قرطبة فارًا بحريته ، قاصدًا إشبيلية ، ويمر في طريقه إليها ببطليوس ، ويتوقف بها بضعة أشهر ، ويمر عليه عيد الأضحى وحيدًا ، « وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الظباء الأوانس والآرام » ، فذكر أعياده بها ، ومتقلب نزهاته فيها ، ومضى يسترجعها مهبطًا وراء آخر :

خليليَّ لا فطرٌ يسرٌّ ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقني شرقُ العقابِ فلم أزلْ ... أخص بممحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفكَّ جوفيَّ الرصافة مُشعْري ... دواعيَ بث تُعقب الأسف البُرحا
ويهتاج قصرُ الفارسيِّ صبابة ... لقلبي لا يألو زناد الأسى قدحًا

....

وأيامُ وصلٍ بالعقيق اقتضيتُه ... فإن لم يكن ميعادُه العيدُ فالفصحْا[6]
وآصال لهوٍ في مسنّاة مالك ... معاطاة ندمانٍ إذا شئتَ أو سبحْا
لدى راكد تصبيك من صفحاته ... قوارير خُضْر خلتها مُرِّدت صرْحا
معاهد لذات وأوطانُ صَبْوةٍ ... أجلتُ المعلىَّ في الأماني بها قَدْحا
ألا هل إلى الزهراء أوْبةُ نازح ... تقضى تنائيها مدامعهُ نزْحا
مقاصيرُ ملك أشرقتْ جنباتُها ... فخلنا العشايا الجون أثناءها صُبحا

ويرحل الكاتب **أبو بكر محمد بن القاسم** ، ويلقب « اشكنهادة »[7] ، وارتحل إلى المشرق لما نبت به قرطبة ، عند تقلب دولها ، وتحول ملوكها وخولها ، فجال في العراق ، وأقام بحلب ، ثم غلبه الشوق ، وحن إلى وطنه وأهله ، وصور لنا المهانة التي يلقاها

---

(٦) الفصح عيد النصارى

(٧) « اشكنهادة » تعني في عامية الأندلس وشمال افريقية : ما هذا . ويبدو أنها كانت من لوازم أبي بكر فعرف بها ، ووردت في « المغرب في حلي المغرب » بتحقيق الدكتور شوقي ضيف « اشكهباط » وفي الذخيرة لابن بسام ، مجلد ١ ، قسم ١ ، « اشكنباط » ، وكلاهما تحريف فيما أرى .

الغريب ، أى غريب ، ويدعو قومه إلى أن يتعظوا بما قاسى ، وأن ينأوا بأنفسهم عن هذه التجربة :

أين أقصى الغربِ من أرض حلبْ   أملٌ فى الغربِ موصولُ التعبْ
حنَّ من شوقٍ إلى أوطانه   من جفاه صَبْره لمَّا اغتربْ
جال فى الأرض لجاجًا حائرًا   بين شوقٍ وعـنـاءٍ ونصبْ
كلٌّ من يلقـاه لا يعرفهُ   مستغيثًا بين عُجمٍ وعربْ
لهفَ نفسى أين هاتيك العلا   واضـيـاعـاهُ ويـاغبن الحسبْ
والذى قد كان ذُخْرا وبه   أرتجى المال وإدراك الرتبْ
صار لى أبخسُ ما أعددتُهُ   بين قومٍ مادروا طعم الأدبْ
ياأحباى اسمعوا بعض الذى   يـتـلـقـاه الـطـريدُ المغترِبْ
وليكن زجرًا لكم عن غُربةٍ   يرجعُ الرأسُ لديها كالذنبْ

اما الأديب الشاعر **أبو الحسن على بن موسى بن سعيد** ، متمم كتاب « **المغرب فى حلى المغرب** » ، فقد هاجر من وطنه ، صحبة والده . وأقام بمصر زمنا ، وامتزج بأدبائها وشعرائها ، ورحل إلى غيرها من بلاد المشرق ، وعاد إلى تونس ، ثم رحل منها ثانية إلى المشرق أيضًا ، وعاد فاستقر بها أخيرًا إلى أن لقى الله ، وأعطانا صورة دقيقة للغريب حين يواجه عالمًا جديدًا عليه للمرة الأولى ، وبخاصة فى عاصمة كبرى كالقاهرة ، فهو يقول حين وردها :

أصبحتُ أعترض الوجوه ولا أرى   مـابـينها وجـهًا لمن أدريه
عوْدى على بدئى ضلالاً بينهم   حتى كأنَّى من بقايا التيه
ويحَ الغريب توحشت ألحاظُه   فى عالم ليسوا له بشبيه
إن عادَ لى وطنى اعترفتُ بحقه   إن التغرب ضاع عمرىَ فيه

وفى القاهرة أيضا حن إلى وطنه ، وأدركته وحشة قاسية ، تذكر معها ما كان يعهد بالأندلس من المواضع البهجة ، التى قطع بها العيش غضًا خصيبًا ، وصحب الزمان يافعًا

ولبس الشباب قشيبًا ، وصور لنا هذا فى قصيدة طويلة ، وازن فيها بين ماترك هناك وما يرى هنا ، وأتى على ذكر المعاهد التى خلف فيها جميل ذكرياته ، وبقايا من حياته ومن أحبائه ، وهى طويلة ورائعة ، أتى فيها على ذكرياته تفصيلا فى مدن الأندلس الزاهرة : إشبيلية ، والمرج ، وشنتبوس بلد ابن عمار الشاعر ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومرسية . ولقد تتكرر التجربة ، ولها فى كل مرة مذاق خاص ، وتتشابه المهابط ، ولكل مهبط جمال متميز ، وفاق ابن سعيد أقرانه فى أنه وقف عند كل ذكرى طويلا ، فأعطانا لها صورة مجسمة ، لم يقف بها عند مجرد الحنين والشوق ، وإنما حرص على أن يقدم لنا كلّ دقائقها ، فالسواقى تتهادى ، والحمائم تشدو ، وجميلات شنتبوس يشرقن من النوافذ ، وغناؤهن فى جماله يكرهك على أن تسمع وإن لم ترد ، وفى عفوية آسرة يتمنى : « ليتنى هناك مازلت أذنب ، فالبلدة طيبة ، والله غفور رحيم ! » .

هذه مصرُ فأين المغربُ ؟   منذ نأى عَنى دموعى تسكبُ
فارقته النفسُ جهلاً إنما   يُعرف الشىء إذا ما يذهبُ
أين حمصٌ ؟ أين أيامى بها ؟   بعدها لم ألْقَ شيئًا يُعجب
كم تقضّى لى بها من لذةٍ   حيثُ للنهرِ خرير مطربُ
وحمام الأيك تشدو حولنا   والمثانى فى ذراها تصخب
أى عيشٍ قد قطعناه بها   ذكره من كل نُعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذّةٍ   بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التى تذكارها   بالنوى عن مهجتى لا تُسلبُ
ولكم فى شَنْتبوس من مُنىً   قد قضيناهُ ولا من يعتب
حيث هاتيك الشراجيبُ التى   كم بها من حُسْن بدر معصَبُ
وغناءٌ كل ذى فقرٌ لهُ   سامعٌ غضبًا ولا من يغضبُ
بلدةٌ طابتْ وربٌ غافُر   ليتنى مَازلتُ فيها أذنُبُ[١٨]

---

(٨) اجتزأنا من القصيدة بالأبيات السابقة ، ويمكن العودة إليها كاملة فى نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٨١ – ٢٨٣ ، طبعة احسان عباس .

هذه ملامح عامة ، غير مستقصية ولا مطنبة ، لجوانب من شعر الحنين ، ونلمح معها أنه لم يبدأ إلا بعد القرن العاشر الميلادى ، حين انصهر الأندلس فى دولة ، ونما إحساس الناس بالوطن على مهل ، وهو شعر نظائره قليلة فى المشرق . ولافت للنظر أيضًا أن العرب أو البربر الذين جاءوا إلى الأندلس واستقروا فيه ، لا نعرف لهم حتى ولا فى الأعوام الأولى ، خارج التشبيهات المطروقة تجىء عرضًا ، شعرا يحنون فيه إلى أيامهم الأولى ، فى مهابطهم التى قدموا منها ، هناك فى شمال إفريقية ، أو مصر ، أو الشام ، أو العراق ، أو الجزيرة العربية . ولا أعرف غير مقطعات ثلاث للأمير **عبد الرحمن الداخل** ، ومنها ما ينسب لغيره ، وجاءت كل واحدة منها فى أربعة أبيات ، يتشوق إلى معاهد الشام فى مقطوعة ، ويناجى نخلة فى اثنتين ، وهو استثناء يدعم القاعدة ولا ينقضها ، فقد جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس مكتمل الوجدان والذوق ، ورأى نفسه وباعترافه غريبًا على أرض الأندلس ، وما كان ممكنًا أن يتأسى هنا عن أمسه هناك ، فقد خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بيتهم ، وانتهى به المطاف أميرًا على مقاطعة من مقاطعات الخلافة ، محدودة المساحة والقدرة والمجد ، صنعها بيده ، وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه ، فهى لا تعوضه ولا تنسيه أمجادهم هناك .

وقد تولد عن جمال الأندلس فى جملته ، وحب الناس له فى عامتهم وارتباطهم به وطنًا حين يقيمون عليه ، واحتفاظهم له بذكرى حنون حين يفارقونه ، أن بكاءهم عليه ، حين يعرض له مكروه ، يجىء حارًا صادقًا ومن أبعد أغوار النفس . ويمكن أن نجمل المكاره التى تعاورت الأندلس فى هذا الجمال فى ألوان ثلاثة : مدن خربتها الثورات والفتن ، وملوك أزاحهم المسلمون أنفسهم ، وبلاد استولت عليهاالنصارى . ولكل لون شعراؤه وطابع بكائه ، وكانت قرطبة عاصمة الخلافة ، وجوهرة مدن الأندلس ، أول مدينة أتت عليها الثورة ، وامتدت بها أعواما ، وشاركت فيها كل الجماهير .

○ بكاء قرطبة :

حين تولى **عبد الملك** بن المنصور بن أبى عامر الحجابة بعد أبيه ، واتخذ اسم المظفر

لقباله ، وواصل سياسة والده ، وكان « الأندلس يشهد تغيرًا جذريًا فى حياته ، لقد حل الصراع الطبقى محل الصراع العنصرى . وظهرت اتجاهات جديدة فى الدين والسياسة ، وطفت على السطح الظواهر العامة التى تسبق أية ثورة ظهرت قديمًا ، أو حتى فى أيامنا هذه ، والتى ستودى بالخلافة بعد قليل : سخط عام وعميق ، وفساد حقيقى يمتد واقعًا أو تصورًا إلى الطبقة الحاكمة ، وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئًا ، إلا صلات مريبة بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين . وشيوع من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستورا ولا عرفًا ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله ، ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع ، حتى لأولئكم الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به »[٩] .

ولم تطل أيام المظفر . شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها عام ١٠٠٨ م ، وتولى الحجابة بعد أخوه **عبد الرحمن** الملقب « **شنجول** » ، فى سن طرية لا يتجاوز العشرين عامًا ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، وحدّث نفسه أن يصبح ولى عهد هشام الثانى ، فثار عليه أعضاء البيت الأموى وقتلوه ، وانفجرت الثورة ، واحتدم الصراع عنيفًا ومدمرًا بين الفئات المتصارعة ، من عرب وبربر وإسبان ، وأمويين وشيعة ، وأتينا على أحداثها تفصيلا فى كتابنا « **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة** » ، واستمرت حتى عام ١٠٢٦ م ، وعبر أحداثها تعرضت العاصمة الجليلة والجميلة لكل ألوان المهانة ، من الذبح الجماعى الشامل للشيوخ والنساء والأطفال ، والنهب والتدمير والحرائق . ومعها تحول أفخم ما عرفت أوربا والعالم على أيامها . وعلى أيامنا أيضًا ، إلى أكوام من الخرائب

---

(٩) د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ م

والأنقاض ، وأتت على كل ضواحيها الجميلة ، بما فيها الزهراء والزاهرة ، ومات الناس جوعًا ، وفنيت المواشى ، وعمت البطالة ، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل ، وتكفل وباء بالطاعون بالقضاء على ما أفلت من هذه المحن .

خلال هذه الفتن أتى البربر على بيوت آل حزم فى بلاط مغيث ، وترك ابن حزم نفسه العاصمة نجاة بشخصه ، حين انهارت مقاومة الخليفة الذى وقف إلى جانبه ، وعمل معه وزيرًا ، فلجأ إلى ألمرية ، وبقى فيها فترة ، جاء خلالها من يحدثه عن قصورهم ، وما فعل الزمان بها ، فبكاها نثرًا وشعرًا ، وجاء نثره فيها جميلا ، يعكس مأساته فى صدق ، ويصور محنة العاصمة فى دقة ، وينضح تشاؤمًا وزهدًا ، عرض لما كانت عليه بيوتهم وقرطبة إجمالا ، وما انتهى إليه حالها ، فى جمل قصيرة مزدوجة موجعة ، وتمثيل مجسم حزين الإيقاع ، تكاد معه ترى كل شىء وتلمسه ، وغلبت على أسمائه صيغة الجمع ، سالمًا أو مؤنثًا أو مكسرًا ، واتكأ كثيرًا على ما أسميه الطباق النفسى ، فهو يضع ما كان فى مواجهة ما هو كائن ، بشرًا ، أو حيوانًا ، أو جمادًا ، أو حركة ، إلى جانب الطباق بين المفردات (١٠) .

وألحق بنثره فيها قصيدة كاملة من الشعر ، اقتصر منها ناسخ طوق الحمامة على بيت واحد فحسب ، وجاء **ابن الخطيب** فى كتابه « أعمال الأعلام » (١١) بأبيات منها تبلغ العشرين ، لا ندرى معها إن كانت هذه هى القصيدة كلها أو جانب منها ، لأن ابن حزم طويل النفس فى شعره عادة . والمعانى التى تتردد فى الشعر هى نفسها التى جاءت فى النثر ، مع تفصيل فى هذه ، غير أنه أشار فى الشعر إلى أنه ترك قرطبة مجبرًا ، ولو استطاع لآثر أن تكون له قبرًا ، وردَّ ذلك إلى القدر النافذ يمضى طوعًا أو كرهًا :

فيادارُ لم يقفرْكِ منا اختيارنُا ولو ِأننا نسطيعُ كنت لنا قبرا
ولكنَّ أقدارًا من الله أنفذتْ تدمَّرنا طوعًا لما حلَّ أو قهرًا

---

(١٠) يمكن العودة إلى هذا النص فى « طوق الحمامة » بتحقيقنا ، ص ١٢٦ و ١٢٧ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .

(١١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ونشر باسم تاريخ أسبانيا الإسلامية ، ص ١٠٧ و ١٠٨ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ .

وحمل الأبيات تحيته إلى أهل قرطبة ، إلى أى مكان نزحوا ، ودعاهم إلى الصبر وإن كان طعمه مرًا :

ويادهرُ بلِّغ ساكنيها تحيَّتى   ولو ساكنوا المروين أوجاوزوا النَّهرْا
فصبرًا لسطوِ الدهر فيهم وحكمِه   وإن كان طعْمُ الصبرِ مستثقلاً مُرًّا

وأسلوب ابن حزم فى الشعر ، كأسلوبه فى النثر ، يقوم على الموازنة بين الأمس والحاضر ، ماكان لهم وما وصاروا إليه ، وتميز بمناجاة الدهر ، وتمنى العودة ، ويكثر فيه من استخدام أداة النداء ، والطباق بين الألفاظ ، غير أن الصور الأدبية فى النثر أرق وأدق منها فى الشعر ، ربما لأنه فى النثر كان حرًا طليقًا ، فلما حاول أن يأتى شعرًا على ما قاله نثرًا وجد نفسه مقيدًا بالمعانى والأفكار والصور التى أبدعها فى هذا ، فهى فى النثر عفوية وفى الشعر صناعة ، وفقدان الحرية فى الفن ، وفى كل شىء فى الواقع ، فى أى جانب منها ، يفسد على الفنان إبداعه ويهبط به .

وثانى من بكى **قرطبة** وقد صارت أطلالا ، الشاعر الناقد **ابو عامر بن شهيد** ، المتوفى عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ، وكان ندًا لابن حزم ، ويكبره بعامين ، وتربطهما صداقة وطيدة ، يدعمها التوافق فى المزاج ، والتقارب فى الأهواء ، ووحدة الطبقة ، فكلاهما وزير وابن وزير[١٢] ، ولكن ابن شهيد لم يفارق قرطبة كصاحبه ، وعاش نهاية أيام العاصمة عن قرب ، وشهد مأساتها كاملة ، وصوته لا يبلغ قرطبة من بعيد ، وإنما يصدر من أعماقها ، بين الأطلال وأكوام الخرائب ، وجاء صدى لهذا الواقع الأسيف كله ، وهو يتلفت حوله فلا يرى أحدًا يستجير به ، فالناس جلهم قتلى ضمتهم القبور ، والقلة الباقية توزعتها الطرق مولية ، وأين اليوم فى بلقعه وخوائه ووحدته من شمل جامع بالأمس ، وعيش أخضر ، وروائح يفتر منها العنبر ، الأمن يلفها ، والقوم ينعمون بجمالها ، والقصور طيبة ومن فيها أجمل ، لقد نزلت بها النوى فدمّرت المسكن والساكن ، وتغيرت الدنيا ومن عليها ، ولم يملك ابن شهيد غير أن يدعو لها بالغيث ينزل بساحتها ويحيى رياضها ،

(١٢) راجع نشاطهما المشترك فى قرطبة فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم ، وكتابه طوق الحمامة » ، ص ٧٦ ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ .

وأن يجود الفرات ودجلة والنيل بساحتها ، ويأسى على ما كان من أيامها وظبائها وسلامها ، وماعمرت به من كرام وعلماء ، وأدباء وظرفاء ، وسراة ورواة ، مضى كل هؤلاء ، ولهم جميعًا قلبه يتفطر :

ما فى الطلول من الأحبّة مُخبِر فمن الذى عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَّ سوى الفراقِ فإنه يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمانُ عليهم فتفرقوا فى كل ناحيةٍ وباد الأكثر
جرت الخطوبُ على محل ديارهم وعليهمُ فتغيرتْ وتغيَّروا
فلمثلِ قرطبةٍ يقل بكاءُ من يبكى بعينٍ دمعها يتفجرْ
عهدى بها والشملُ فيها جامعٌ من أهلها ، والعيش فيها أخضُر
والدارُ قد ضربَ الكمالُ رواقه فيها ، وباعُ النقص فيها بقصر
ورياحُ زهرتها تلوح عليهمُ بروائح يفترُّ منها العنبر ..
والقوم قد أمنوا تغيُّر حُسنها فتعمَّموا بجمالها وتأزّروا
يا طيبهمْ بقصورها وجذورها وبدُورها بقصورها تتخدّر
ياجنَّةً عصفتْ بها وبأهلها ريحُ النوى ، فتدمّرت وتدمروا
آسَى عليك من السماء وحُقَّ لى إذ لم نزل بكِ فى خياتك نفخر
يامنزلاً نزلت به وبأهله طيْر النوى ، فتغيروا وتنكروا
جاد الفراتُ بساحتيك ودجلةٌ والنيلُ جادبها وجاد الكوثر
وسُقيتَ من ماء الحياة غمامةً تحيا بها منكَ الرياض وتزهر
أسفى على دارٍ عهدتُ ربوعها وظباؤها بغنائها تتبختر
أيام كانت كف كل سلامةٍ تسموا إليها بالسلام وتُبْدِرُ
حزْنِى على سرواتها ورواتها وثقاتها وحماتها يتكرر
نفسى علىْ آلائها وصفائها وبهائها وسنائها تتحسر
كبدى على علمائها ، حلمائها أدبائها ، ظرفائها ، تتفطر[١٣]

---

(١٣) ديوان ابن شهيد ، القصيدة رقم ٢٦ ، ص ١٠٩ ، وأبياتها هناك ثلاثين بيتا

إذا وازنا بين ابن حزم وصاحبه ابن شهيد وجدناهما يتفقان فى أشياء ويختلفان فى أخرى ، فالأول لاذ بالصبر واتكأ عليه ، وتنضح أبياته زهدًا وتشاؤمًا ، وردَّ ما حدث إلى الدهر والقدر ، أما الثانى ، وهو ابن شهيد ، فلم يدع أصلا إلى الصبر ، وإيقاعه ، مع ذلك ، هادىء مستسلم ، ورأى ما حدث جورًا من الزمان ، وعرض لما كان فى المدينة من مجالس العلم ، والفن وألوانه ، ولم يشر ابن حزم إلى شىء من هذا . وبعامة كان ابن شهيد ، وهو شاعر أصلا ، أرق موسيقا ، وأسلس لفظا ، وأوضح عفوية ، وكان فى شعر ابن حزم ، وهو بعض مواهبه ، شيئًا من البطء والرتابة ، يوحى بأنه ينتزع أبياتها انتزاعًا ، فتجىء تجرها خيول على حد التعبير الإسبانى ، ويتحرك معها ، أو بها ، داخل أسوار عالية لا يستطيع اجتيازها ، وكثرت فيها المحسنات اللفظية من جناس وطباق ، وهو أمر قل أن يجىء عفوا ، ولكن الحق أن كليهما كان يصدر عن عاطفة صادقة وقلب كليم !.

●

كان بكاء ابن حزم وصاحبه مدينتهما الحلوة فاتحة رثاء كثير خُصَّتْ به ، حزين وعابر ، يجىء فى أبيات قصيرة ، أو هذا ما وصلنا منه ، خطرات نفس مكلومة ، قبل لحظة المحنة ، كتلك الأبيات التى حفظها لنا ابن عذارى ، فى كتابه « **البيان المغرب** » لشاعر مجهول لم يذكر اسمه ، يبكى فيها عاصمة الخلافة :

ابْكِ على قرطبةَ الزينِ فقد دهتْها نظرةُ العيْنِ
أنظرَها الدهرُ بأسلافهِ ثم تقاضى جملةَ الديْنِ
كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذبِ الليْنِ
فانعكس الأمرُ فما إنْ ترى بها سرورا بين اثنيْنِ
فاغدُ وودعها وسرْ سالما إن كُنْتَ أزمعتَ على البينِ

وهى أبيات فاترة الروح ، مجرد نظم دفع صاحبه إليه هول الكارثة ، فهو أصلا ليس بشاعر . ونلتقى بشاعر مجهول آخر ، والرواية لابن عذارى أيضًا ، وهو يأخذ طريقًا مختلفًا عن صاحبه ، فهو يشمت فى القرطبيين شمت المغيظ ، وينعى عليهم غفلتهم ، وماركنوا إليه من حياة الدعة ، وأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، والأبيات قيلت فيما يبدو فى بداية

الفتنة ، لأنه يعتب على مواطنيه كيف غفلوا عن حالهم ولن ينتبهوا إليه ، ولو فعلوا لبكوا دمًا ، ويدعوهم إلى تدبر الأمر لأن المحنة عمتهم جميعًا ، ولن تنقضى أبدًا :

أضعتمُ الحزمَ فى تدبير أمركمُ ستعلمون معًا عُقبى البوار غدًا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم بكيتمُ بدمٍ أن دمْتُمُ بددًا
لاكنَّ سُبْل العمى أعمت بصائركم فألبستم ثيابًا للبلَى جدُدا
يا أمَّةً هتكتْ مستور سوءتها ما كلُّ من ذلَّ أعطى بالصغار يدا
فى سورة الحشر آياتٌ مفصَّلة[14] فى شأنكم أنزلتْ لم تعْدكم أحدا
نعم وفى الكهف العشرين خاتمةٌ[15] تقضى عليكم بألاّ تفلحوا أبدًا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملتْ جميعكم محنةٌ لا تنقضى أبدًا

والأبيات توحى بأن قائلها فقيه متوسط ، فهو يعطى الفتنة تأثيرًا فقهيًا خالصًا ، وعلى الرغم من جودة الأفكار لم يستطع أن يضعها فى صورة جميلة أو إيقاع أخاذ ، ومعجمه اللغوى محدود ، حتى أن كلمة القافية فى البيتين الأخيرين جاءت واحدة ، حروفًا ومعنى .

وبعد انتهاء الفتنة بأعوام ليست دون الأربعين ، وخلال عصر الطوائف الذى قام على أنقاض الخلافة ، جاء « باقعة عصره ، وأعجوبة دهره » ، الشاعر الرافض ، الثائر على واقع أيامه الفاسدة ، **خلف بن فرج السميسر** إلى قرطبة فى تاريخ نجهله ، ولكنه ليس قبل عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م على التأكيد ، فوقف بأطلال الزهراء يناجيها ، ويستخرج العبرة مما آل إليه حالها ، ويبكى مجدًا تليدا كانت تمثله ، وحياة عامرة كانت تصطخب فيها :

وقفتُ بالزهراء مستعبرًا معتبرًا أندبُ أشتاتا
فقلتُ : يازهرا ألا فارجعى قالت : وهل يرجع من ماتا
فلم أزلْ أبكى وأبكى بها هيهات يُغنى الدمعُ هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادب يندبن من ماتا

---

(١٤) يشير إلى الآية رقم ١٩ من سورة الحشر « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

(١٥) يشير إلى الآية ١٠١ من سورة الكهف : « الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

وحديثه عنها ، كما نرى ، على شاعريته حديث من يندب أطلالا ومجدًا تومىء إليه ، ولأنه لم يشهد الأحداث نفسها لم يعرض لما أصاب الناس والحياة وقرطبة العاصمة ، ومن المؤكد أنه عندما جاءها وجد الحياة دبت فيها من جديد ، فعاد خرابها عمارا ، وارتفعت أطلالها بيوتًا ، وإن لم تعد إلى ما كانت عليه حتى يومنا هذا ، أما الزهراء فظلت أنقاضًا لم يرتفع فيها بناء ، ولا امتدت إليها يد إصلاح ، حتى سنوات قليلة خلت ، فقد أخذ الإسبان ينفضون عنها غبرة الموت ، ويعيدونها حجرًا إلى حجر ، لمجرد رسم صورة ، ولو باهتة ، لما كانت معالمها عليه .

●

تتردد أفكار الشعراء فى تناول المحنة وأسبابها بين السلبية والإيجابية ، بين الرضى المستسلم والشماتة المثيرة ، أو التأمّل الهادىء ، وكلها تصدر عن نبع واحد ، فحين تحل الخطوب الجسام بالشعوب المتحضرة تُفقدها لحين القدرة على التمييز الدقيق ، والتفكير المنطقى ، فتعود إلى القلب بدل العقل ، وتفسر الأمر عن طريق العاطفة بدل الفكر ، وتركن إلى أوهى الأسباب هروبًا من واقعها الأليم .

ولم يعرض أيٌّ منهم ، فيما وصلنا من شعر ، لعناصر الشر ورءوس الفتنة ، ولم ينحوا باللائمة على أحد ، وبخاصة ابن حزم وابن شهيد ، وكلاهما شهد المأساة ، ولهما مقام اجتماعى وسياسى ملحوظ فى العاصمة ، وشاركا فى أحداثها . أتراهم كانوا يحسون فى أعماقهم بأن إلقاء المسئولية على فريق بعينه فيه عدوان على الحق ؟. وأن كل الذين فى قرطبة مسئولون عما حدث ؟. نحن نعرف أن ابن حزم ظل إلى آخر رمق فى حياته ، حتى بعد أن ترك السياسة جانبًا ، وامتدت به الحياة طويلا ، يلتزم جانب الشرعية فيما يتصل بقضية الخلافة ، فبقى على ولائه لبنى أمية لا يحيد عنه ، ونعرف أنه كان جريئًا فى الحق ، يقول ما يعتقد بصوت مرتفع ، ومضى يناضل وحيدًا ضد الجميع ، وضد كل شىء ، ولا يمكن أن نعزو صمته إلى أنه مجاملة أو خوفًا من أحد . أما ابن شهيد فباح بآلامه من العاصمة نفسها ، ومغامرة منه أن يدين أحدًا فى لحظة انزوى فيها القانون ، وحل مكانه الرعب

والفوضى ، والآخرون ، وهم مجهولون ، يبدو أنهم من غمار الناس ، ليست لديهم القدرة على إدانة أحد ، فآثروا السلامة ، وردوا كل شيء إلى القدر .

●

وبعد نصف قرن من أحداث قرطبة ، سوف نلتقى بقصيدة **ابن رشيق القيروانى** ، فى رثاء مدينته القيروان ، حين اقتحمها عرب صعيد مصر ، والذين عرفوا باسم الهلالية ، عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م ، بعد حصار لها دام أربع سنوات ، وصنعوا ما صنع جند طاهر ابن الحسين بمدينة بغداد ، أو الزَّنج بمدينة البصرة ، أو البربر بقرطبة . وهى قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتًا ، تحدث فيها عن العلماء والزهاد والأئمة الذين ازدانت بهم مدينة القيروان أيام عزها :

كم كان فيها من كرامٍ سادةٍ ⁂ بيضْ الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى ⁂ لله فى الإسرارِ والإعلانِ
وأئمَّة جمعوا العلوم وهذَّبوا ⁂ سُنن الحديث ومُشكْل القرآن
علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى ⁂ بفقاهةٍ وفصاحةٍ وبيانِ

ووصف ما لحقها من الفظائع وكيف نقضوا العهود ، وخفروا الذمم ، وسبْوا الحريم ، ونهبوا البيوت وما فيها ، وصور خروج الناس حفاة هاربين يحملون أطفالهم :

فتكوا بأمة أحمدٍ أتراهمْ ⁂ أمنوا عقاب الله فى رمضان ؟
نقضوا العهودَ المبرمات وأخفروا ⁂ ذمم الإله ، ولم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا ⁂ سبْى الحريم وكشفة النسوان
والمسلمون مقسّمون تنالُهم ⁂ أيدى العصْاة بذلّة وهوانِ
يستصرخون فلأيُغاث صريخهم ⁂ حتى إذا سئموا من الإرنان
فادوا نفوسُهم فلما أنفدوا ⁂ بما جمعوا من صامتٍ وصوان
واستخلصوا من جوهرٍ وملابسٍ ⁂ وطرائفٍ وذخائرٍ وأوانى
خرجوا حفاةً عائذين بربِّهم ⁂ من خوفهم ومصائبِ الألوان

هربوا بكل وليدةٍ وفطيمةٍ وبكل أرملةٍ وكل حصان
وبكل بكر كالمهاة عزيزةٍ تسبى العقولَ بطرفها الفتّان

وعرض لما أصاب **مسجد عقبة** ، وكان ثانى مسجد هام أقيم فى إفريقية كلها ، ورابع مسجد فى الإسلام(١٦) ، بناه عقبة **بن نافع** عام ٦٧٥ م ، وكيف توقفت الصلوات به ، وما أصابه من محن تبعث الأسى ، وتثير الحزن فى الناس كافة :

والمسجد المعمورْ جامعْ عقبة خربُ المعاطن ، مظلمُ الأركان
قفر فما تغشاه بعد جماعةٌ لصلاة خـــمس ولا لأذان
بيت بوحى الله كان بناؤه نعْم البنا والمبتَنَى والبانى
أعظم بتلك مصيبة ماتنجلى حسراتُها أو ينقضى الملوانِ

وأفاض كثيرًا فى ذكر المحن التى حلت بالقيروان ، وجعلتها خرابًا لقرون تلت ، وتمنى لها أن تعود إلى سابق مجدها ، وطيب أيامها :

أتُرى الليالى بعدما صنعتْ بنا تقضى لنا بتواصلٍ وتدان ؟
وتعيد أرض القيروان كعهدها فيما مضى من سالف الأزمان

ومن الواضح أن عاطفة الشاعر باردة ، وأسلوبه فيها ركيك يبلغ حد الإسفاف أحيانًا ، وتكاد أن تكون منظومة تاريخية ، ومرد ذلك فيما أرى ، أن ابن رشيق كان ناقدًا فى المقام الأول ، فجاءت قصيدته تحمل سمات شعر العلماء والفقهاء من نظم وبرود وتكلف .

غير أن القيروان الخربة وجدت من يبكيها صادق اللوعة ، وفى شعر بالغ الروعة ، فى شخص **ابن شرف** القيروانى ، المتوفى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، وكان صديقًا لابن رشيق ، ورفيقًا ملازمًا ، وغادر كلاهما عاصمة أفريقية بعد خرابها ، انتقلا إلى **المهدية** أولا ، وإلى **صقلية** من بعد ، وفى هذه استقر ابن رشيق ، وآثر ابن شرف أنه يدعها إلى **الأندلس** ، وفيه أمضى بقية حياته جاءه على أيام ملوك الطوائف ، وأقام به عشر سنين

---

(١٦) أول مسجد أقيم فى أفريقية . وثالث مسجد فى الإسلام ، هو الذى بناه عمرو بن العاص فى فسطاط مصر القديمة عام ٦٤٢ م .

موزع القلب والعاطفة ، حائر العقل والفكر ، وفيه وقبله قال شعرًا كثيرًا رقيقًا ضاع معظمه ، وكتب عشرين مقامة يعارض بها الحريرى ، لم يبلغنا منها غير ثلاث : اثنتين فى النقد الأدبى ، والثالثة جرت مجرى الهزل والمجون .

ومن بين ما وصلنا من شعره قصيدته فى بكاء مدينة القيروان ، وهى من روائع الشعر العربى ، دقة تصوير ، وبراعة تعبير ، ورقة موسيقا . وصف فيها المدينة وقد لفها الظلام ، وأطبقت عليها الوحشة ، وعمها الصمت ، وخلت منها الحياة ، ومست المأساة حتى نجومها فى أفق السماء ، فهى تتحرك ثقيلة الخطا ، بطيئة الحركة ، فاترة متوانية ، كأنما يتغشاها النعاس :

آهِ للقيروانِ ! أَنَّةُ شجوٍ من فؤادٍ بجاحمِ الحزنِ يصلىَ
حين عادتْ بها الديارُ قبورًا بل أقولُ الديارُ منهن أخلى
ثم لا شمعةٌ ، سوى أنجم تخطو على أفقها نواعس كسلى
بعد زُهرِ الشماعِ توقد وقدا ومتانِ الذُّبال تفُتّل فتلا
والوجوهُ الحسانُ أشرف منـ ـهنَّ ويفضُلنهن معنىً وشكلا

وفاق كل رفاقه من الشعراء ممن عبروا عن هذه الفواجع ، بأنه قدم لنا صورة مفصلة لواقع الهاربين من هذه المدن ، رجالها ونسائها ، شيوخها وأطفالها ، وقد سارت بهم الطرق ، وازدحمت بهم المسالك ، وتوزعتهم المآسى ، وتعرضوا للعدوان الوحشى ممن لا ضمير له ، ولا يرقب فى العزّل إلاًّ ولا ذمة . خلفوا وراءهم ما يملكون من ثياب وأثاث وأموال ، وخرجوا فرارًا لم يودعهم جار ، ولا حياهم قريب ، يلقون المذلة والهوان فى كل بلد يحلون به ، أشرافهم يعملون أخس المهن ، ولأرذل الناس ، وليس هناك من يعزى أو يواسى ، أو يعين على تجاوز المحنة . إنها صورة حية لواقع من نطلق عليهم فى أيامنا هذه اسم « **اللاجئين** » ، فى أى بلد ، ومن أى شعب :

بعد يوم كأنما حُشِرَ الخلْقُ حفاةً به ، عوارىَ ، رجْلىَ
ولهم زحمةٌ هنالك تحكى زحمة الحشر والصحائفُ تتلى
وعجيجٌ وضجَّةٌ كعجيج الخلْق يــبــكون والسرائــر تــبلى

من أيامَى وراءهن يتامىَ مُلئوا حسرةً شجوًا وثكْلا
وحَصانٍ كأنها الشمس حُسنًا كنفتها الأطهارُ نجلاءَ ، كحلى
فات كرسيها الجلاء فأضحت فى ثيابِ الجلاء للناس تُجلىَ
جار فيهمْ زمانهمْ وأولو الأمـ ـر ففروا يرجون فى الأرض عدلا
تركوا الربَع والأثاث وما يثْـ ـقل لا حاملٌ من الناس ثقلا
لبسوا الباليات من خشن الصو ف ، وعاد النبيهُ فى الناس غفلا
نادباتٌ : عفراء تُسعد سعُدى وسعادٌ تجيب بالنوْح جملا
ليس منهنَّ من يودعُ جارًا لا ، ولا حرمةٌ تشيِّع أهلا
كلهن اعتدى الفراقُ عليه فاقتحمن الجلاء حفلاً فحفلا
فإذا الدهرُ ضمَّهم فرق الدهْـ ـر لهم غيرَ ذلك النبل نبلا
من ثعابين حاملين نيوبًا عصلا : ذابلا ونبلا ونصلا
وشـيـاطين رامحين يلاقـو ن بجوف الفلا مساكين عُزلا
فتعرِّى الظهور تعتلُّ عتلا وتشق البطونَ تُغسل غسلا
فإذا مطمع أصابوه فى أحشـ ـاء قومٍ غمّوا بذلك كُلا
فـإذا نجت المقادير منهم راحلاً بالخلاص يحمل رحلا
لـقىَ الهونَ والمذلّـة أنَّى كان فى سائر البلاد وحلاَّ
ليس يلقى إلا امرأً مستطيلاً طالبًا عنده حقودًا وذحْلا
فترى أشرف البريَّـة نفسًا ناكسًا رأسه يلاطف نَذْلا
فهمُو كل مانبتْ بهم أرْ ضُ مطايا الفراق خَيْلا ورجْلا
مزِّقوا فى البلاد شرقًا وغربا يسكبون الدمع هَطلا ووبلا
لا يلاقى النسيب منهم نسيبًا يتعزَّى به ولا الخلُّ خلا

●

هل يمكن القول بأن ابن رشيق وصاحبه ابن شرف فى قصيدتيهما احتذيا أحد الرجلين ، أبا شهيد أو ابن حزم ، وكلاهما تجاوزت شهرته حدود وطنه ، وكانت إفريقية

خلال عصر الطوائف على صلة وطيدة بالممالك التى ينحدر أمراؤها من أصول بربرية بخاصة ، أو جاءوا إلى الحكم بدعم منها ، ولم تتوقف الرحلات بين الجانبين ، قدومًا وذهابًا ، من مختلف الطوائف والطبقات ، أدباء وعلماء وجنودًا ، ومن عامة الناس ، رغم التفاوت الشديد بينه وبينهما فى الجودة والأسلوب والأفكار ؟ بلى .

ولكن ، يمكن من جانب آخر أنها أيضًا جاءت وليدة تأثير مشرقى ، لأن أفريقية ظلت تلعب على امتداد العصر الوسيط دور الناقل ، ومركز الالتقاء بين الثقافتين المشرقية والأندلسية ، ولو أن القيروان فى ثقافتها كانت أقرب إلى الأولى منها إلى الثانية ، وهو ظن يدعمه أن قصيدة ابن رشيق أقرب فى أفكارها إلى قصيدة ابن الرومى منها إلى ابن حزم وصاحبه ابن شهيد ، على حين جاء ابن شرف نسيج وحده فى جل أفكاره .

رثاء المدن والممالك

فى عصر الطوائف

○ طابع عصر :

« كان أحسن الأزمان وأسوأها ، عصر الحكمة وعصر الجهالة ، عهد اليقين والإيمان وعهد الحيرة والشكوك ، أوان النور وأوان الظلام ، ربيع الرجاء وزمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا أى شيء قط ، وسبيلنا جميعًا إلى سماء عليين وسبيلنا جميعًا إلى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التى يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات وآفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية كما وصفه الكاتب الإنجليزى « شارلز دكنز » فى بداية قصته « المدينتين » ، وليس أصدق منه تصويرًا لعصر الطوائف فى تاريخ الأندلس البعيد . لأنك « قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية ، وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد ، وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور فى « تواريخ الانتقال والاضطراب » . إنه عصر « لا يوصف فى جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلى الذى كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصرًا واحدًا متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان »(1) .

كان عصر الطوائف أوان الحصاد لكل ما بذرت أيام الخلافة المجيدة ، وعصر الحجابة الزاهرة ، من جراثيم الخير وعناصر الفلاح على السواء . وأثمر فيها الخطأ كما أثمر التوفيق ،

---

(1) اقتبست هذه الفقرة الجامعة من كتاب : ابن الرومى ، حياته من شعره ، لعباس محمود العقاد ، ص ١٠ - ٢١ ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ - ١٩٣٨ ، ولو أنه بصدد الحديث عن القرن الثالث الهجرى فى دولة الإسلام الشرقية ، لأنها خير ما يعبر عن واقع الأندلس فى القرن الخامس الهجرى .

وبلغت الغاية فى الحالين ، وتوزعت خيراتها ، وشرورها أيضًا ، جماعات مختلفات من كل جنس ودين . ولقد أنهار صرح الخلافة الواحدة ، وانتثر عقد بلادها ، وتفرقت أيدى سبا . وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب ، وأمراء الجماعات البربرية ، وفتيان صقالبة القصور ، وتقاسموها إمارات ، ومع التفرقة ضاعت القوة الواحدة الموجهة للسياسة الأندلسية العامة ، واختفى ما هو أخطر من ذلك ، وهو المثل الأندلسى الأعلى(٢) . وظهر اليهود على المسرح السياسى ، ومكنوا لأنفسهم فى إمارة غرناطة زمنًا(٣) ، وتغيرت الأمور حول الأندلس تغيرًا حاسمًا ، فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا ، ونظم أهل المغرب أمورهم فى صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة ، وبين نارى النصارى فى الشمال والبربر فى الجنوب وقف ملوك الطوائف ، وقد وهن أمرهم ، وأضعفهم النزف والبذخ ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده ، وكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية فى ثياب شرقية ، وسادت العصر كله روح من البذخ المسرف ، والإجرام السافر الذى لا يتورع عن شىء من المطامع والنزوات إلى الخناجر والسموم(٤) .

وبين صخب الحياة اللاهية ، وعربدة اللحظات الماجنة ، وغيبة الوعى بالغد والمصير ، استيقظ الأندلس كله على كبرى القوارع ، وكانت :

○ سقوط طليطلة .

قُدِّر لطليطلة أن تكون أولى المدن الكبرى الذاهبة ، ورغم أنها لم تسقط فى حرب ، ولم يخسرها المسلمون فى قتال ، إنما ذهبت نتيجة خدعة ماكرة من **ألفونسو السادس** ، واستسلام مهين من **القادر يحيى بن ذى النون** ، كانت الضربة القاصمة التى شالت بعدها كفة المسلمين ورجح جانب الكاثوليك ، وكانت محنة حقيقية لما تمثله طليطلة من ثقل فى حياة الأندلس السياسية والحربية والشعورية ، كانت عاصمة أسبانيا على أيام القوط ،

---

(٢) غرسية غومث : الشعر الأندلسى ، ص٣١ - ٣٢ من الأصل الأسبانى ، وص٤٣ - ٤٤ من الترجمة العربية .

(٣) أنظر الفصل الخاص بالقصيدة التى فجرت ثورة فى هذا الكتاب .

(٤) غرسية غومث : الشعر الأندلسى ، ص٣٢ ، الترجمة العربية ص٤٤ .

وأحيط فتحها على يد **طارق بن زياد** بأساطير جميلة ، ذات خيال ممتع ، عما لقى فيها المسلمون من كنوز وثروات وسلاح ، ولم تفقد أهميتها حتى بعد أن أصبحت العاصمة قرطبة ، فتميزت كقاعدة حربية ذات ثقل ملحوظ فى شمال الدولة الإسلامية ، وزادها قدرًا ما تتمتع به من موقع استراتيجى ممتاز ، يتيح لها منعة طبيعية فى وجه المغير ، كانت على قمة جبل مرتفع ، يطوقها نهر تاجه (تاخو Tajo فى الإسبانية الحديثة) وتصلها بما وراءها قنطرة محصنة ، وعرفت إلى جانب ذلك بإبائها الصلب متمثلا فى ثورات لا تنتهى ، وبلغت – كغيرها – قدرًا عاليًا من الرقى والتحضر ، وأخذت بحظ وافر من الثقافة ، وإذا كان حظها من الأدب متواضعًا فقد فاقت غيرها فى التأليف العلمى ، ففيها عاش **الزرقالى** (أبو ابراهيم بن يحيى النقاش ٤٥٢ – ٤٧٢ هـ = ١٠٦١ – ١٠٨٠ م) أبرع من أنجب الأندلس من علماء الفلك ، **وابن وافد** (أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ٣٨٨ – ٤٦٦ هـ = ٩٩٨ – ١٠٧٤) أوسع أهل زمانه علمًا بالطب ، وعرفت مؤرخين نابهين **كصاعد الطليطلى** (٤٢٠ – ٤٦٢ هـ = ١٠٢٩ – ١٠٦٩ م) صاحب كتاب « **طبقات الأمم** » ، ونحويين مجيدين **كأبى الوليد الوقشى** ، وعددًا من أصحاب الوثائق والعقود المتمكنين **كابن مغيث** (أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٤٩١ – ١٠٦٩ م) . وغيرهم .

وبقدر ما كانت تمثل كان تشاؤم المسلمين من سقوطها ، ولم تحفظ لنا كتب الأدب من رد الفعل المباشر عند الشعراء إلا أبياتا ثلاثة قالها الزاهد الفقيه أبو محمد عبد الله بن العسال (ت ٤٨٧ هـ =١٠٩٤ م) . حين تركها ورحل إلى غرناطة :

يا أهلَ أندلس حُثوا مطيكُم ... فما المقامُ بها إلا من الغلطِ

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحياتِ فى سفط

وهو صوت غريب أجش فى الأسماع ، لأنه بدل أن يبكى ما حل بوطنه يحذر الأندلسيين من الإقامة فيه ، ويدعوهم إلى الرحيل ، ولو فهمنا الأبيات على ظاهرها لقلنا

إنها تمثل موقفًا إنهزاميًا ، ولكن هذا اللون من التعبير السلبى يستهدف فى الحقيقة المبالغة فى النذر والتذكير .

يمكن تعليل قلة الشعر المروى فى سقوط طليطلة بدءًا بأن الحرب كانت لا تزال سجالا ، وأن المسلمين ثأروا لهزيمتهم فى معركة طليطلة ، قبل مضى عام واحد بانتصار حاسم ورائع فى معركة الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، وأن الأمل فى استرداد المدينة ظل قائما ، كما أن الشروط التى تم تسليم المدينة فى ظلها كانت - فى مثل ظروفها - مشرفة ، فقد آلى ألفونسو السادس على نفسه أن يحافظ على حياة مسلمى طليطلة ، وحياة نسائهم وأطفالهم ، وألا يلحق ضررًا بأملاكهم ، وتعهد بأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج ، ومن يريد أن يبقى بالبقاء ، ومن يبقى لا يطلب منه أكثر من دفع ضريبة الرأس ، ومن يهاجر يمكنه أن يعود فى الحال ، ويسترد أملاكه مهما عظمت قيمتها دون معارضة ، كما أجيب أهل طليطلة إلى الضمانات التى طلبوها فيما يتصل بحرية ممارسة شعائرهم الدينية والحفاظ على جامعهم الكبير .

لكن الكاثوليك ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ، فنقضوا المعاهدة لأسابيع من دخولهم طليطلة (٦ من مايو ١٠٨٥ م) ، فحولوا المسجد الجامع إلى كنيسة فى يوليو من العام نفسه ، وحيل بين المهاجرين وبين العودة إلى ديارهم ، وضيق على المسلمين فى أداء شعائرهم أولا ، ثم أكرهوا على التكثلك فيما بعد حين أزفت شمس الاسلام الاندلسى على المغيب .

كان للأحداث التى وقعت بعد سقوط المدينة صدى أضخم من الأحداث التى صاحبت السقوط ، بين سكان المدينة أنفسهم أو بين بقية مواطنيهم فى حواضر الأندلس ، وعلى نحو خاص ما اتصل منها بالدين والعقيدة ، وكان لتحويل جامع طليطلة وهو الثانى بعد جامع قرطبة سعة وضخامة وأبهة وعمارا بالعلم والدرس رنة أسى حزينة ، ويحكى المقرى أن الاستاذ الشيخ المغامى كان آخر مسلم وطئت قدمه الجامع ، لقد ذهب ليتزود منه ، « صار إليه وصلى فيه ، وأمر مريدًا له بالقراءة ، ووافاه الفرنج هناك ، وتكاثروا عليه لتغيير القبلة ، وكلما قالوا له : عَجِّل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل القراءة ، ثم قام

ما تهيب فصلى به ، ورفع رأسه وبكى الجامع بكاء شديدًا »[٥].

ما حدث فى طليطلة نجد صداه واضحًا فى قصيدة وحيدة طويلة تبلغ اثنين وسبعين بيتًا ، حفظها لنا المقرى كاملة ولم ينسبها إلى قائل[٦] . ويبدؤها الشاعر متسائلاً فى عجب : هل فى الأندلس من يقر هادئا وقد ضاعت طليطلة ، فُهد بضياعها ركن الدين الحصين ، وتوالت بعدها النكبات والمصائب ، وأحس المؤمنون بالفزع حين علموا أن الغلبة كانت فى جانب ألفونسو السادس :

لثُكْلكِ كيف تبتسم الثغورْ سرورا بعد ماسُبيتْ ثغورُ
أما وأبى مصاب هُدَّ منه ثبيرُ الدينِ ، فاتصل الثبورُ
لقد قُصمتْ ظهور حين قالوا أميرُ الكافرين له ظهور

ويمضى فى تساؤله : أليس بالمدينة شهم يقاوم الاحتلال ويحررها من العبودية ؟ لقد خضع الذين تعودوا النصرة ، واستكان من كان فى طبعهم النفور ، وهان القوم على أنفسهم ، وتسامحوا فى حرماتهم :

أليس بها أبّى النفس شهمٌ يديرُ على الدوائر إذ تدورُ
لقد خضعت رقابٌ كنَّ غُلبا وزال عتوُّها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل وسامح فى الحريم فتى غيورُ

ويخلص من هذه المقدمة العامة ليعرض ماجرى فى طليطلة نفسها ، لقد انتصر الكاثوليك واستولوا على المدينة ، ذات الحصون العالية ، تفوق ضخامة ومنعة إيوان كسرى والخورنق والسدير . كانت معقل الإسلام ومنار علمه ، فخبا ضوؤها وعادت دار كفر ، وأخرج سكانها المسلمون ، وحولت مساجدها إلى كنائس ، وعبثوا بحرائرها :

طليطلةٌ أباح الكفر منها حماها ، إن ذا نبأ كبيرُ
فليس مثالها إيوانُ كسرى ولا منها الخورْنَقُ والسدير
محصنَّةٌ محسنَّةٌ بعيدٌ تناوُلها ، ومطلبُها عسير

---

(٥) المقرى ، نفح الطيب ، ٤ /٤٤٧ طبعة احسان عباس .

(٦) المرجع السابق ، ٤ /٤٨٣ وما بعدها .

ألمْ تكُ معقلاً للدينِ صَعبًا فذلّله كما شاء القدير
وأخرج أهلَها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصيرُ
وكانت دارَ إيمان وعلمٍ معالمها التى طمست تنير
فعادتْ دارَ كفرٍ مصطفاةٍ قد اضطربتْ بأهليها الأمور
مساجدُها كنائس ، أى قلبٍ على هذا يقر ولا يطير؟

ويرد الأحداث إلى تقلب الدهر ، يذكر ذلك فى بيت واحد ، ثم يمضى ، لا يقف عند الأمر ، ولا يجعل منه قضية يدور حولها ، وإنما يتجاوزها ليرد على الذين جعلوا الهزيمة عقابًا من الله على معاص ارتكبها أهل طليطلة ، وإنكارًا منه لواقع فى حياتهم لا ترتضيه الشريعة ، وحجته فى الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، وأشد فسقًا وفجورًا ، فإذا ارتضينا هذا سببًا فعلينا أن نتوقع نفس المصير ، وفى قولته هذه يستهدف أمرين فيما أرى : الدفاع عن قوم سقطوا فى محنة الاحتلال ، فهم فى حاجة إلى شىء آخر غير التقريع والذم ، وتذكير الغافلين فى بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهى إليه حالهم ، إذا واصلوا سيرتهم العابثة ، وواصلوا مظالمهم وعصيانهم سرًا وعلانية :

نذورٌ كان للأيام فيهم بمهلكهمْ فقد وفت النذورُ
فإن قُلنا العقوبة أدركتهم وجاءهُم من الله النكير
فإنَّا مثلهم وأشدُّ منهم نجورُ وكيف يسلم من يجور
أنأمنُ أن يحل بنا انتقامٌ وفينا الفسقُ أجمع والفجور
وأكلُ للحرامِ ولا اضطرار إليه فيسهل الأمر العسير
يزول السترُ عن قومٍ إذ ما على العصيان أرخيت الستور

وينتقل داعيا إلى سل السيوف لنصرة الدين والثأر للقتلى ، والموت دون حياة عزيزة خير من الحياة فى ظل عيش ذليل ، ويضيق بالصابرين على الثأر ، ويلوم القاعدين دونه :

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النسورُ
ولا تهنوا وُسلُّوا كل عَضْبٍ تهابُ مضاربا منه النحور

وموتوا كلكم فالموتُ أولى بكم من أن تُجاروا أو تجُوروا
أصبرًا بعد سبيٍ وامتحان يُلام عليهما القلبُ الصبور

ويصور قعود الناس عن الحرب ، ويتهمهم بالجبن ، وأنهم أبقار تخور ، ترعدهم أخبار الهزائم وما يجرى لمواطنيهم فى المدن التى سقطت فى قبضة الكاثوليك ، ويتمنى لو كانوا أسودا تزأر وتخيف وترعب :

نخور إذا دُهينا بالرزايا وليس بمعجبٍ بَقُر يخورُ
ونجبنُ ليس نزأر. لو شجعنا ولم نجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت بنا الأخبارُ حتى أمات المخبرين بها الخبير

ويعرض لمحاولات الإغراء المادية من جانب العدو وكيف استجاب لها من المسلمين الغنى والفقير ، فبقى بعضهم فى أرض الكفر خزيان ينمى ثروته ، وجرى آخرون مع الخزى إلى نهايته فارتدوا عن دينهم ، وبلغ الحزن غايته حين آثر الجميع البقاء ، وحجتهم : إلى أين نذهب ؟ وكيف نترك بيوتنا وأموالنا وليس لنا وراء البحر دور ولا أموال ، ليست لنا هناك ضياع ننعم بوارف أشجارها وطيب ثمارها ، ولا طبيعة فياضة بجمالها من ظل وماء واعتدال هواء :

تجاذبنا الأعادى باصطناعٍ فينجذبُ المخوّلُ والفقيرُ
فباقٍ فى الديانة تحت خِزْيٍ تثَبّطهُ الشوَيْهةُ والبعير
وآخرُ مارقٌ هانتْ عليه مصائبُ دينه فلهُ السعير
كفَى حزْنا بأن الناس قالوا : إلى أين التحولُ والمسير ؟
أنترُكُ دُورنا ونفّر عنها وليس لنا وراء البَحْر دُور
ولا ثَمَّ الضياعُ تروقُ حسنا نباكِرُها فيعجبنا البكور
وظلٌّ وارفٌ وخريرُ ماءٍ فلا قُرٌّ هناك ولاحَرور
ويؤكلُ من فواكهها طرىٌّ ويُشرب من جداولها نميرُ

ويورد الشاعر المجهول حجج أولئك القوم ، الذين آثروا عيش التخاذل ، وارتضوا حياة الدعة فى ظل الاحتلال ، يؤدون الجزية للإسبان كل شهر ، ويدفعون عشر محصولهم

كل صيف وهم صاغرون . ويعاود الحديث عن تلاشى اليقين ، وذهاب الدين ، ورضا المسلمين بالرق ، ويبكى ضياع دولة الإسلام ، ويندب الضائعين من أهله فى بلاد الشرك ، ويحث المسلمين على القتال لأنّ الحزن لا يفيد ، والبكاء لا ينقذ ، ويندب رفاقًا حيارى خلفهم وراءه فى طليطلة ، لا استقروا على البقاء ، ولا أقدموا على الهجرة ، وارتضوا أن يدفعوا الجزية ، وأن يؤدوا الضرائب ، عشر دخلهم كل صيف ، مادام الذين استولوا على المدينة يحمونها ، وأصبح المسلمون مواليهم ، ولا يقنع بالندب والنوْح **وإنما يدعو إلى نبذ السلم ، والدعوة إلى الحرب فهى وحدها التى تغسل عار الهزيمة** ، وتجبر العظم الكسير :

يُؤَدِّى مَغرمٌ فى كل شهرٍ ويُؤخذُ كل صائفةٍ عُشُورُ
فهم أحْمى لحوزتنا وأوْلى بنا ، وهم الموالى والعشير
لقد ذهب اليقينُ فلا يقين وغر القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكنْ غرورٌ بالمعيشة ما غرور
رضوا بالرقّ يالله ماذا رآه وما أشار به مشيرُ
مضى الإسلامُ فابك دمًا عليه فما ينفى الجوى الدمع الغزيرْ
ونحْ واندبْ رفاقًا فى فلاةٍ حيارى لا تحطُّ ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم وحارب عسى أن يُجبرَ العظم الكسير

ويقارن بين موقف العدو وموقف المسلمين ، وكان نصيب أولئك الرشد ، وحظ هؤلاء عمى البصيرة ، وكيف يلقون منهم واحدا ويفرون عنه جمعا ، ويدعو المسلمين إلى الثبات عند اللقاء ، والصبر عند الشدة ، لأن كثرة العدد وحدها لا تغنى شيئا . ويختم قصيدته يبكى دولة الإسلام الضائعة فى بطاح الأندلس ، ويندب أهله المضيعين فى بلاد الشرك ، ويتمنى لو وجدت الجموع الحائرة قائدا مقتدرا ، ينصح الرأى ، ويعطى المثل ، ويحسن الطعن ، ويتقدم عند اللقاء ، فإنه لكبير أن يكون سكان الأندلس إما قتيل أو أسير :

أنعمى عن مراشدنا جميعا وما إنْ منهمُ إلاّ بصيرُ

ونلقى واحدًا ويفرّ جمعٌ كما عن قانصٍ فرّت حميرُ
ولو أنَّا ثبتنا كان خيرًا ولكنْ مالنا كرمٌ وخيرُ
إذا مالم يكن صبر جميلٌ فليس بنافعٍ عددٌ كثير
ألا رجلٌ له رأىٌ أصيلٌ به مما نحاذر نستجير
يكرُّ إذا السيوفُ تناولتْهُ وأين بنا إذا ولَّتْ كرور
ويطعن بالقنا الخطَّار حتى يقول الرمح ماهذا الخطير
عظيمٌ أن يكون الناس طرا بأندلسٍ قتيلٌ أو أسير

أكثر الشاعر من التنديد والتقريع فى قصيدته ، ولكنه لا ينتهى بها إلى تثبيط العزائم ، أو إشاعة اليأس ، وإنما يهدف من ورائه إلى استنهاض الهمم وإثارة الحمية ، ودفع الناس إلى التماسك والوقوف فى وجه العدو ، ويختمها وقد فتح لهم طاقة من الرجاء ، ويتفاءل بالنصر فى أحلك ساعات المحنة ، مستمدًا ذلك من إيمان بالله ، وثقته فى نفسه وقومه رغم تطامن البلايا :

ونرجو أن يتيح الله نصرًا عليهم ، إنه نعم النصير

●

لم يورد أى من المصادر الأندلسية التى بين أيدينا القصيدة أو أبياتًا منها ، وانفرد **المقرى** بإيرادها كاملة ، على مايبدو من أبياتها ، فى كتابه **نفح الطيب** ، ولم يصرح كعادته كثيرًا باسم المصدر الذى نقل عنه ، وقد تأملت الأبيات طويلا ، وبدا لى أن قائلها من طليطلة قطعا ، واحد أكيدا ، فهى متساوية النغم والبناء والمشاعر ، يؤكد على بعض الأفكار بتكرارها أحيانًا ، لكن لا شىء فيها يمكن أن ينصرف إلى مدينة أخرى ، أو أضيف لها فيما بعد .

الشاعر من طليطلة إذن ، شهد وقائع الأحداث الأولى على الأقل ، وفارقها قبل التسليم النهائى فيما أرجح ، لأنه يصور لنا حالتها حينئذ تصوير خبير ، يتحدث عن الأخبار الواردة على أهل طليطلة ، وعن يأسهم ، وطول انتظارهم للنجدات التى يأملونها ، وعن

سقوطها أخيرًا . ويعتذر لأخوان له فيها بأنه إذا كان قد هاجر فهو حاضر معهم بأحزانه وأشجانه :

لئن غبنا عن الإخوان إنَّا بأحزانٍ وأشجانٍ حضورُ

ويلمح إلى ماكان لطليطلة من دور ثقافى فيجىء تعبيره دقيقًا محددًا ، لا يقول إنها كانت منارة الأدب ، ولا مهبط الشعر ، ولم يكن لها هذا الدوْر ، وإنما يصفها بأنها كانت منارة العلم ، وحصن الدين ، ومهبط الإيمان ، وهى كذلك واقعًا . ويتحدث عن مناعتها الجغرافية ، ومعها كان الظن بأنها لا تسقط فى يد غاز أبدا ، وأن العدو أرغم جانبًا من أهلها على الهجرة ، وأن مساجدها أصبحت كنائس ، وأصاب كبد الحقيقة حين ألمح إلى محاولات العدو فى اجتذاب سكان طليطلة إليه بعد أن استولى عليها ، مما أوجزه **المقرى** فى جملة مبينة : « وبسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحبّب التنصّر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك مالا يطاق حمله » . ورغم تقريعه الشديد لأهل طليطلة عد ماوقع نذرًا من الأيام ، ولم يرجع به إلى غيبية محزنة ، تصاحب دائمًا فترات السقوط الفكرى ، والانحطاط العقلى ، وتجعل العصيان والفسوق وراء كل هزيمة ، دون تحليل النتائج وردّها إلى أسبابها العلمية المباشرة ، بل ودافع عنهم ، وذكَّر من جعل المعاصى سببًا ، وأن السقوط عقوبة ، بأن غيرهم يفعل مثلهم ، وأشد منهم ، وإذن فعليهم أن يحذروا لأن الدائرة سوف تدور عليهم إذا لم يفيقوا وينتبهوا . وهو لا يضغط على هذا المعنى كثيرًا كما نجد فى القصائد الأخرى التى تجىء فيما بعد .

الشاعر أصيل فى أفكاره واتجاهه ، لأن قصيدته أوّل ما قيل فى بابها ، وليس عالة فيها على أحد سبقه ، ولا تنسحب تجربتها على أحداث أخرى مماثلة أو مشابهة ، ونلمح فيها على استحياء تصويرا عابرًا لداخله ، وتطل مشاعره الشخصية من بيت لانجد له شبيهًا عند رفاقه من بعد ، فقد أهمه الأمر وكان له معه ليل كليل امرىء القيس أو النابغة من قبل :

يطول علىَّ ليلى ، رب خطبٍ يطول لهوله الليلُ القصيرُ

وهو متمكن من أدواته ، عروضًا ولغة ونحوًا ، ليس فى قصيدته اضطراب أو ركاكة ، ولا فى إيقاعها تكلف أو إسفاف . ولكنه فيما يبدو ليس فنانًا هوايته الإبداع ،

ولا شاعرا صناعته القريض . وإنما يشغل الشعر حيزًا محدودًا من اهتماماته فحسب ، . إلى جانب هموم علمية أخرى ، فصوره الشعرية قليلة ، وماورد منها جاء بسيطا ساذجًا ، وهو يعتمد على ألوان التشبيه والاستعارات المألوفة ، إلى جانب المحسنات اللفظية ، ومن بينها الجناس بخاصة ، كاملاً أو ناقصًا ، ثم الطباق ، والموقف يستدعيه فنيا ، لأن المقابلة بين الفكرتين أو الموقفين تعطى التصوير الذى يهدف إليه بعدا ، والمعنى مزيدا من التأكيد .

ومع غيبة الوثائق القاطعة باسم الشاعر إثباتًا أو نفيًا ، آثرت أن أعتمد على الظن الراجح فى الوصول إلى قائل هذه الأبيات ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وتتبعت أخبار الشعراء فى طليطلة فى هذه الفترة فلم أجد من يمكن أن تنسب إليه هذه القصيدة غير **أبى الوليد هشام بن أحمد الوقشى** ، فقد عاصر هذه الأحداث ، وهو أصلا من طليطلة وأعطانا ابن بشكوال خطوطًا عريضة لحياته ، وملامح من اتجاهاته ، تنبىء بأنه صاحب القصيدة ، وسنأتى على ذلك فيما بعد (٧) ، ويرجح بظنى أن **المقرى** نقل له أبياتًا أخرى قصيرة ومتعددة ، فى مناسبات مختلفة ، وسنلتقى به مرة ثانية فى **بلنسية** يبكيها فى قصيدة أخرى ، حين سقطت فى يد السيد القنبيطور (٨) ، وتعرضت لمحنة شبيهة تمامًا بما تعرضت له طليطلة من الحصار والتجويع ، وفى هذه المرة وصلنا اسمه محرفا تمامًا ، وتوصلنا إليه ، أما القصيدة نفسها فضاعت ، وصلتنا فى صورة طريفة . لا نظير لها فى تاريخ الأدب العربى ، مكتوبة بعامية أهل الأندلس ، وفى حروف لاتينية ، ومترجمة عن ترجمة الأصل إلى اللغة القشتالية ، وسوف ندرسها تفصيلا فى فصل خاص : « مرثية بلنسيَّة ضائعة » .

○ المعتمد يرثى دولته :

بدأت دولة العبابدة فى أشبيلية ، قبل أن ينتثر عقد الخلافة الأموية ، على يد القاضى **أبى القاسم محمد بن عباد** (ت٤٣٣ هـ = ١٠٤٢ م) وثبتت أركانها على يد ابنه عباد الذى

---

(٧) انظر فصل : « مرثية بلنسية ضائعة » فى الكتاب ، ص ٢٧٨ .

(٨) أتينا على تاريخ السيد ، وما أصاب بلنسية على يديه تفصيلا ، فى كتابنا : ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٣ .

تلقب بالمعتضد (٤٠٣ – ٤٦١هـ = ١٠١٢ – ١٠٦٩م) ، وكان متناقض المزاج ، يجمع بين الدهاء اليقظ ، والقسوة البالغة ، والإحساس الرقيق ، والعلم الواسع ، والذوق الرفيع ، إلى ذاكرة واعية وقريحة شاعرة ، وأحاط نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مديحه ، وأسرف فى الانفاق فبدأ فى هيئة خلابة من العظمة ، إلا أن ابنه المعتمد (٤٣٢ – ٤٨٨هـ ١٠٤٠ – ١٠٩٥م) وقد خلفه على عرش أشبيلية احتل فى دنيا الأدب والتاريخ مكانة أعظم من مكانة أبيه ، فقد فاقه فى الشعر ، وبرىء من أوزاره فى السياسة ، وكان يمثل الشعر خير تمثيل من وجوه ثلاثة : ينظمه على نحو يثير الإعجاب ، وكانت حياته نفسها شعرًا حيًا ، وكان راعى شعراء الأندلس أجمعين ، بل الغرب الإسلامى كله .

ظل سلطان **المعتمد** فى ازدهار زهاء عشر سنين ، لكن سقوط طليطلة وضغط النصارى على أشبيلية وبقية الحواضر الإسلامية ، جعل ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد – يستنجدون بالمرابطين فى أفريقيا ، وعبر المرابطون إلى الأندلس ، وانتصروا على النصارى فى معركة **الزلاقة** ، لكنهم فى نهاية الأمر انقلبوا على ملوك الطوائف أنفسهم ، وأخذوا يستولون على معاقلهم واحد إثر آخر ، وسقطت أشبيلية فى أيديهم بعد كفاح مرير من **المعتمد** وأبنائه ، وقتل منهم **المأمون والراضى** ، ومن قبلهم **الظاهر** ، ومن بعدهم **عبد الجبار** ، ولما صار المعتمد فى أيدى المرابطين « جُمع هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشئات ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العمر ، والناس قد حشروا بضفتى الوادى ، وبكوا بدموع كالغوادى فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم[9] » .

كان **المعتمد** فى حياته شاعرًا أكثر منه حاكمًا ، إلا أن عراقة الأصل ، ونبل المحتد ، وحمية العربى ، تجلت واضحة فى مواقفه من ضغط المسيحيين فى الشمال ، فكان أول من اقترح دعوة المرابطين لمواجهة جيوش النصارى الزاحفة ، وحين خوفه المنتفعون بالفساد فى

---

(٩) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٣ .

وطنه بأنهم إذا جاءوا لن يرحلوا ، كانت قولته الشهيرة « رَعْيُ الجمال خير من رعْى الخنازير » ، وقاتل فى معركة **الزلاقة** قتالاً محمومًا شجاعًا ، وسار إليها على رأس جيشه واثقًا بالنصر ينشده :

لابد من فرج قريبٍ يأتيك بالعجب العجيب
غزْوٌ عليك مباركٌ سيعود بالفتح القريب
لله سعْدُك إنَّهُ نُكْسٌ على دين الصليبِ
لابد من يوم يكونُ له أخا يوم القليبِ(١٠)

وألقى **ألفونسو السادس** ملك قشتالة بثقل جيشه كله على المعتمد ، لأنه وراء هذه الحرب ، ومال عليه بكل جموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، وحمى الوطيس ، واستحر القتل فى أصحاب ابن عباد ، وصبر المعتمد صبرًا لم يعهد مثله لأحد ، وعضته الحرب ، واشتد عليه ومن معه البلاء ، وانكشف بعض أصحابه ، وفيهم ابنه عبد الله ، وأثخن جراحًا ، وضُرب على رأسه ضربةً فلقت هامته ، حتى وصلت إلى صدغه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قُدم له آخر ، وهو يقاسى حياض الموت ، ويضرب يمينًا وشمالاً ، وتذكر ابنًا صغيرا له ، كان مغرمًا به ، تركه عليلا فى إشبيلية ، يكنى **أبا هاشم** :

أبا هاشم هشمتْنى الشفارْ فلله صبرى لذاك الأوارْ
ذكرتُ شُخيصك تحت العجاج فلم يَثْنِنى ذكره للضرارْ

وحين أطبقت جيوش المسلمين مجتمعة ، من مرابطين وأندلسين ، على جيش ألفونسو وأصحابه ، ونصرائه من كل بقية دول أوربا ، وصدقوا الحملة عليه ، « ولّوا ظهورهم ، وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم ، والرماح تطعنهم ، وتفرق جيش ألفونسو شذر مذر ، وغطت جثث جنوده ساحة المعركة ، فما يستطيع المرء أن يتحرك خلالها إلا على الجثث خوضًا فى الدماء .

---

(١٠) يوم القليب هو معركة بدر .

« ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهُنِّئَ بالفتح ، وقرأتْ القرّاء ، وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم ، وأعددتُ قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ « إلا تَنْصروهُ فقد نصره الله »[11] ، فقلت : بُعْدًا لى ولشعرى ، والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به » .

لكن ابن تاشفين لأسباب سياسية إرتآها ، وليس هنا موضع مناقشتها ، قرر أن يزيح أمراء الطوائف عن عروشهم ، وبدأ بالمعتمد لأنه أعظمهم وأقواهم ، ولقرب عاصمته من عدوة المغرب ، وسهولة الوصول إليها إبحارًا ، ودافع المعتمد وبنيه عن ملكه ، وترامى على الموت بنفسه ، غير أن ذلك لم يجده نفعًا ، وخرج الناس من منازلهم ، وقد شُنَّتْ الغارة عليهم ، « يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكُشفَتْ وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ، ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع ماله ، لم يصحب معه بُلْغة زاد ، ولا بقيّة مراد » .

وأدرك المعتمد واعيًا أن دولتهم انهارت ، وملكهم تلاشى ، وبدأ شاعرًا يرثى ، ولا أقول يبكى ، مجدًا ضائعًا ، فى أبيات شرقتْ وغرّبت ، لأنها تصوّر المثل الأعلى فى حياة العربى ، أميرًا على عرش ، أو راعيًا وراء قطيع : السمّ ألذ مذاقا من الخضوع ، والشرف الرفيع لا يُسلب ، لم يتخلّف عن القتال ، ولا ضنّ بنفسه عن الاستشهاد ، ولئن عاش بعده فلئن له عمرًا لم ينقض ، فما سار يومًا إلى معركة وأمّل أن يعود منها حيًا ، تلك هى أخلاقه ، وهى أخلاق أهله من قبل :

لمَّا تماسكتِ الدموعْ ... وتنبَّه القلبُ الصديعْ
وتناكرتْ هِمَمى لما ... يستامُها الخطبُ الفظيعْ
قالوا الخضوعَ سياسةٌ ... فليبْدُ منك لهم خضوع
وألذُّ من طعمِ الخضو ... عِ على فمى السمُّ النقيع
إنْ تَسْتلبْ عنى الدُنا ... ملكى وتُسْلمُنى الجموع

---

(١١) سورة التوبة ، الآية ٤٠

فالقلبُ بين ضلوعهِ لم تُسْلم القلبَ الضلوع
لم أستلبْ شرفَ الطبا عِ أيُسلبُ الشرفُ الرفيع
قد رمتُ يومَ نزالهم أنْ لا تحصِّنني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميـ ـصِ على الحشا شيءٌ دفوع
وبذلتُ نفسى كىْ تسيـ ـلَ إذا يسيلُ بها النجيع
أجلى تأخَّرَ لم يكنْ بهواى ذُلِّى والخضوع
ما سرتُ قط إلى القتا لِ وكان من أملى الرجوع
شِيَمُ الألى أنا منهمُ والأصل تتبعه الفروع

وحين انفضت المعركة ، وخسر كل شيء إلا الشرف ، تطلع فإذا ابنه **سراج الدولة أبو عمرو** قتيل **ابن عكاشة** فى **قرطبة** ، **وأبو خالد يزيد** الملقب **بالراضى** قتله **قرور اللمتونى** غدرا برندة ، **وأبو نصر الفتح** الملقب بالمأمون قتيل فى قرطبة أيضًا ، وفى طريقهم إلى مقرهم النهائى أسرى ، لم تتوقف أمهم ، اعتماد الرميكية ، ولا أخواتهم بكاء عليهم ، وصور لنا حاله تكبله القيود وذل الأسر ، وحال زوجه يغلبها الحزن ، وتزجرها التقوى ، وتذللها الذكرى ، وتفزع للبكاء ، وتصبر أحيانًا ، وهى مضيعة بين تلاطم هذه العواطف :

يقولون صبرًا لا سبيل إلى الصبر سأبكى وأبكى ما تطاوَل من عمرى
هوى الكوكبانِ : الفتح ثم شقيقه يزيدُ ، فهل بعد الكواكب من صبرِ
ترى زُهْرَها فى مأتمٍ كل ليلةٍ تخَمِّشنْ لهفًا وسْطهُ صفحةُ البدر
يَنُحن على نجمينِ أُثكلْن ذا وذا وأصبرُ ما للقلب فى الصبر من عذْر
أفتحُ لقد فتَّحتَ لى بابَ رحمة كما بيزيدَ اللهُ قد زاد فى أجرى
توليتما والسنُّ بعْدُ صغيرةٌ ولم تلبث الأيامُ أنْ صغَّرت قدْرى
توليتما حين انتهتْ بكما العُلا إلى غاية . كلٌّ إلى غايةٍ يجرى
فلو عُدتما لاخترتما العَودَ فى الثرى إذا أبصرتمانىَ فى الأسر
يُعيدُ على سمعى الحديدُ نشيدَه ثقيلاً فتبكى العين بالحسِّ والنقْرْ

معى الأخواتُ الهالكاتُ عليكما وأمّكما الثكلى المضرَّمةُ الصدر
فتبكى بدمعٍ ليس للقطر مثلهُ وتزجُرها التقوى فتصغى إلى الزجرِ
أبا خالدٍ أورثتنى الحزن خالدًا أبا النَّصرِ مذ وُدِّعتَ ودَّعنى نَصْرى
وقبلكُما قد أوْدَعَ القلْبَ حسرةً تَجدَّدُ طولَ الدهر ، ثُكْلُ أبى عمرو

ودخل عليه ابنه أبو هاشم ، والأب « يرسف فى قيوده ، ويتقلب فى حديده ، فخنقت الطفلَ العَبْرةُ ، وكان أحب أبناء المعتمد إليه ، وأحظاهم على صغَره لديه ، فناجى القيد ، جعله شخصًا يخاطبه ويعتب عليه قسوته ، لقد شَرب منه الدم ، وأكل اللحم ، ويودّ أن يهشم العظم ، لا يبالى بطفل جاء يسترحمه ، ولا بأخيات له جرعهن السم والعلقم ، من يعى تكاد دموع الحزن تذهب ببصره والصغير لا يفهم يلوذ بالرضاع :

قيدى ! أما تعلمنى مُسْلمَا أبَيْتَ أنْ تشفقَ أو ترحمَا
دمى شرابٌ لك واللحمُ قد أكلته لا تهشمِ الأعظُما
ارحمْ طُفَيلاً طائشًا لُبُّه لم يخش أنْ يأتيك مُسْترحما
وارحم أخيَّاتٍ له مثله جرَّعتهن السمَّ والعلْقما
منهن مَن يفهم شيئا فقد خفْن عليه للبكاء العمى
والغر لا يفهمُ شيئًا فَما يفتحُ إلا للرضاع فَما

وهى صورة بالغة الحزن ، جعل منها التشخيص شيئًا نحسه ونشعر به ، ويتسرب إلى أعماقنا خفيًا ، فيجسد التجربة أمامنا حية ، ويستل الدموع من أعيننا غزيرة ، كأننا نرى المشهد أمامنا .

وقد أورثته قسوة المحنة ، وهوْل الاعتقال ، وفداحة الآلام تطوّق بنيه بعد السعد ، ويعانون المهانة بعد العز ، زهدًا جليلاً ، وتأسيًا نبيلاً :

أرى الدنيا الدنيّةَ لا تواتى فأجملْ فى التصرُّف والطِّلاب
ولا يغرْركَ منها حُسْنُ بُرْدٍ له علَمانِ من ذَهَبِ الذَّهابِ
فأولُها رجاءٌ من سرابٍ وآخِرُها رداءٌ من تراب

جاءت قصائد المعتمد فى رثاء دولته ، وبكاء واقعه ، كثيرة وفريدة ، ولم يحدث قبله

أن فاضت ينابيع الشعر فى أعماق أمير فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسيه ، وصاغ التجارب موحية مثيرة من واقعه ومآسيه ، كما صنع المعتمد ، فى نبرة صادقة ، ومعاناة حقيقية ، وإيقاع حزين ، ولكنه فى كل الحالات ينبض نبلاً ، وينضح بكبرياء عجيب .

« لم يكن **المعتمد** حاكمًا عظيمًا بحال ، فقد تولى مقاليد شعب أفسد الترف طبعه ، فلم يصرف شيئًا من العناية إلى أمور رعيته ، وترامى على ملذات نفسه ، ومن ثم كان عبء الحكم عليه ثقيلاً ، كان بطبعه ميالاً إلى الراحة ، تشغله تلك الأشياء الخارجية التى تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم ، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على النحو المطلوب . لكن أحدًا من الناس لم تنطو نفسه على قدر من الحساسية والفيض الشاعرى الدافق كالذى ضمته نفس المعتمد ، وأتفه الأشياء فى حياته وكل متعه وأحزانه ، كانت تأخذ على الفور شكلا شعريًا ، ويمكن كتابة تاريخ حياته ، أو على الأقل حياته الشعورية ، اعتمادًا على شعره وحده ، على بوحات قلبه ، إنها طافحة بالحزن والابتهاج الذى يأتى ويذهب كل يوم مع إشراقة الشمس أو تلبد الغيوم . ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسى الأصل يحمل فى جلال علم ثقافة فكرية وقومية قُدِّرَ لها أن تنطوى ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد ، لقد أحاط به عطف خاص لأنه كان أصغر وآخر فرد من أفراد تلك الأسرة الكثيرة العدد . أسرة الأمراء الشعراء الذين حكموا الأندلس . لقد أسف **عليه الناس** أكثر مما أسفوا على أى شخص آخر دون استثناء ، تمامًا كما يأسف الإنسان على آخر وردة فى الموسم ، وآخر يوم جميل فى الخريف . وآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة »(١٢) .

○ ابن اللبانة يبكى دولة العبابدة :

هذا الهبوط من السمو إلى الحضيض ، من سدة الملك إلى وهدة السجن . أثار كوامن الشعر فى نفس شاعر المعتمد . **أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبانة** (ت ٥٠٧ هـ —

---

(١٢) Dozy: Histoire de Musulmans d'Espagne, Vol. II, p.422, Trad. espagnole.

١١١٣ م)[١٣] فبكى دولة العبابدة فى شعر صادق طافح بالأسى . عدّد فيه مآثرهم وما صاروا إليه . فى عبارة رقيقة . وتصوير دقيق ، خال من المبالغة والتهويل :

تبكى السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادِ ... على البهاليل من أبناء عبَّاد
على الجبالِ التى هُدَّتْ قواعدها ... وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتادَ
والرابياتُ عليها اليانعات ذوتْ ... أنوارُها فغدتْ فى خَفْضِ أوهاد
عِرّيسةٌ دخلتْها النائباتُ على ... أساودٍ لهمُ فيها وآساد
وكعبةٌ كانت الآمالُ تعمرها ... فاليومُ لا عاكفٌ فيها ولا باد
ياضيفُ أقفرَ بيتُ المكرماتِ فخذْ ... فى ضمِّ رحلك واجمعْ فضلة الزاد
ويامؤمِّلَ واديهمْ ليسكنَهُ ... خفَّ القطين وجف الزرع بالوادى
وأنتَ يافارسَ الخيلِ التى جعلتْ ... تختالُ فى عُدَدٍ منها وأعداد
ألقِ السلاح ، وخلِّ المشرفِّى فقد ... أصبحتَ فى لهواتِ الضيغم العادى
لما دنا الوقتُ لم تخلف له عدَةٌ ... وكلُّ شىء لمقياتٍ وميعاد

ثم يلتمس العذر لخلعهم . فقد خلع بنو العباس من قبل ، وكانوا أعز سلطانًا ، وأعظم ملكًا . فأقفرت منهم بغداد ، كما أقفرت من هؤلاء إشبيلية :

إنْ يُخلعوا فبنو العباس قد خُلعوا ... وقد خلتْ قبل حمصٍ أرضُ بغداد

لكنه لا يطيل الوقوف بهذه المقارنة ، ولا يتجاوزها إلى غيرها ، وإنما يخلص إلى موضوع القصيدة نفسه ، فيصور مشهد ركوب بنى عباد السفن فى طريقهم إلى المنفى ، لقد سيقوا إليها منظومًا بعضهم إلى بعض بالحبال ، وضمتهم السفن فى جوفها كما تضم القبور أمواتها . كل الأحداث يمكن أن تنسى إلا ذلك اليوم ! ، ولقد رأى الناسُ وهم على

---

(١٣) ابن اللبانة ، نسبة إلى أمه وكانت تبيع اللبن ، ويقال له الدانى نسبة إلى بلده دانية denia ، مدينة أندلسية على شاطىء البحر الأبيض ، لترجمة حياته انظر :

- ابن سعيد المغربى ، المغرب ، جـ ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها ، تحقيق شوقى ضيف .
- المراكشى ، المعجب ص ١٤٧ وما بعدها ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ط . الأولى .
- ابن خاقان ، قلائد العقيان ص ١٥١ .

ضفتى نهر الوادى الكبير نساء المعتمد ، هن اللؤلؤ جمالا ورونقًا وبياضًا ، يشرين من نفس الكأس ، وقد سفرن من هول الفاجعة ، ومزقن وجوههن بأظافرهن من شدة الحزن :

حَمَوْا حريمَهمْ حتى إذا غُلبوا ... سيقوا على نسقٍ فى حبل مقتاد
نسيتُ إلا غداةَ النهر كونهمُ ... فى المنشآتِ كأمواتٍ بألحاد
والناسُ قد ملأوا العبرينِ ، واعتبروا ... من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد
حُط القناعُ ، فلم تُستر مُخدَّرةٌ ... ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيق أبراد

ثم يصف توديع الناس لهم على نحو من الصدق والدقة يخيل إلينا معهما أننا نرى الناس يتزاحمون على ضفتى الوادى الكبير ليروا السفن تبتعد عن الشاطئ بأصحابها وسط فيض هتون من العبرات :

حان الوداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ ... وصارخٍ من مفداةٍ ومن فاد
سارتْ سفائنهمْ والنوْحُ يصحبها ... كأنَّها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمعٍ وكم حملتْ ... تلك القطائعُ من قطعاتِ أكباد

كان ابن اللبانة أصدق شاعر رثى دولة فى الأندلس ، ولم يتوقف بكاؤه لها بزوالها وفقدان الأمل فى عودتها ، وحاول أن يستخرج من مأساتها العظات والعبر ، يوقظ بها نائمًا أو يذكر غافلا ، وألف فى ذلك قاصدًا كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك » ، وبقى حياته يتردد على أغمات حيث المعتمد أسير ، يمدحه ويواسيه . ويبكى أيامه البوالى . وقال عن روحلته تلك ، إنها « وفادة وفاء لا وفادة اجتداء » . وأشعاره فى الدولة العبادية كثيرة ، وكلها بمنزلة عالية ، وإذا كان المجال لا يتسع لأن نأتى عليها جميعها ، فإن نفسى لا تطاوعنى أن أمضى دون أن آتى على شئ من قصيدة مطولة منها . وقالها بعد أن أنفذ القدر سهامه ، وانتهى كل شىء إلى غايته ، فجاءت أقل صريخًا ، وأهدأ نفسًا ، وأعمق تأملا ، وأحفل بالحكمة والرضى ، فكل شىء مرهون بأوانه ، والدهر حول قلب ، ونحن بيده أحجار من الشطرنج يحركنا كيف شاء ، والعاقل من ينفض يديه من الدنيا بعد أن رأى المعتمد فى سماء عزه ، ثم أتت عليه فهو فى حمأة السجن والأسر . ويجمل ما حدث

لإشبيلية بعده فى بيت واحد من الشعر ، انطوى على مبالغة مقبولة : الأرض بعدهم أقفرت والناس قد ماتوا :

لكلِّ شىءٍ من الأرض ميقاتُ وللمنى فى مناياهن غاياتُ
والدهرُ فى صفة الحرباء منغمسٌ ألوانُ حالاته فيها استحالات
ونحن من لُعَبِ الشطرنج فى يده وطالما قُمرتْ بالبيدقِ الشاةُ
انفض يديك من الدنيا وزينتها فالأرضُ قد اقفرتْ والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضىّ قد كتمتْ سريرةَ العالم العُلْوى أغمات

●

وفى عام ٤٨٨ هـ = ١٠٦٥ م ، تُوفى المعتمد بأغمات ، وورى التراب هناك ، ونودى فى الدعاء للصلاة على جنازته : « الصلاة على الغريب » ، وبعد أيام وافى قبره شاعره المخلص **أبو بحر ابن عبد الصمد** ، « فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحىً ، وظهر كل متوارٍ وضحا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزينتهم وحلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه :

ملكَ الملوكِ أسامعٌ فأنادى أم قد عدتك عن السماع عوادى
لما خلتْ منكَ القصور فلم تكنْ فيها كما قد كنت فى الأعياد
قبَّلتُ فى هذا الثرى لك خاضعًا وتخذتُ قبركَ موضع الإنشاد

وهى قصيدة أطال إنشادها ، فبكى وأبكى ، « وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام لا تدع حيًا ، ولا تألوا كل نشر طيا ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتفرق مناياها كل جمع » . ومع ذلك بقيت مأساة المعتمد وإباؤه حية فى وجدان الأدب العربى ، لم يقترب منها النسيان لحظة ، يرتادها القاص ، والشاعر والمؤرخ والمتذوق ، يستلهمها إبداعًا ، أو يذرف عليها دمعًا ، أو يتخذها وثيقة ، أو يتخذ منها محورًا لرواية تدور حول أحداثها .

ونسى التاريخ بقية الملوك والطغاة ! .

○ **ابن عبدون يرثى بنى الأفطس :**

وإلى الشمال من دولة العبابدة فى إشبيلية Sevilla قامت مملكة **بنى الأفطس** فى بطليوس Badajoz ، وكانوا يسابقون جيرانهم فى رعاية العلم ، وإشاعة الثقافة . والإغداق على الأدباء ، وبلغت المملكة أوجها على أيام **المظفر** ، **محمد بن عبد الله ابن الأفطس** ، وحكم فيما بين ٤٣٧ و٤٥٦ هـ = ١٠٤٥ = ١٠٦٣ م[١٤] وابنه **المتوكل** ، **أبو محمد عمر** ، وحكم من ٤٦٠ إلى ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ ، وإذا كان المعتمد وأبوه من قبل قد شهرا بالشعر ، فقد عرف **المظفر** بالعلم ، فكان راوية أدب ونحو وشعر ونوادر وأخبار ، وألف منها موسوعته **المظفرى** وجاءت فى خمسين مجلدًا ، ورسخ ابنه **المتوكل** فى الشعر والنثر ، إلى شجاعة مفرطة ، وفروسية عالية . فكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شىء . وعرف بلاطهم – كبلاط جيرانهم – عددًا كبيرًا من الشعراء والكتاب ، **كابن السيد** ، **وابن القبطورنة** ، **وابن سارة** ، **وابن البين** ، **وابن عبدون** ، **وابن عبد البر وغيرهم** .

وكما جمع القدر بين الدولتين فى المنزع ، ومواجهة زحف النصارى الداهم من الشمال ، والاستنجاد بجيرانهم الأفريقيين وأخوتهم فى الدين ، جمع بينهم فى النهاية التعسة ، فكان زوال ملك بنى الأفطس – كبنى عباد – على يد المرابطين . وفى نفس العام ، وعلى نحو أشد قسوة وعنفًا إذ قتل المرابطون المتوكل ، ثم قتلوا ولديه الفضل والعباس من بعد ، قتلوا صبرًا . وضُربتْ أعناقهم فى غرة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٤ م[١٥] .

وعندما طويت صفحة بنى الأفطس قال فيهم **ابن عبدون** ، **أبو محمد عبد المجيد**

---

(١٤) حتى زمن قريب كان المعتقد أن المظفر حكم إلى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م ، ولكن عثر أخيرا فى أسبانيا على عملة باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور مؤرخة فى ٤٥٦ هـ ١٠٤٥ م ، فصححنا تاريخ وفاته بما يتفق وهذا الاكتشاف الحديث .

(١٥) ذكر المراكشى فى كتابه المعجب ص ٧٥ أنهم قتلوا عام ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م وهو وهم منه وقد ذكر ابن الآبار التاريخ صحيحا ، وعنه نقلنا ، فى كتابه الحلة السيراء جـ ٢ ص ١٠٢ .

قصيدته التى يصفها عبد الواحد المراكشى بأنها « أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلت عن أن تُسامى ، وأنفت من أن تُضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر إليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير »(١٦) .

بدأ ابن عبدون قصيدته بمطلع تقليدى يشكو فيه الدهر الفاجع ، والدنيا الخادعة ، والليالى القلب ، فكم من دولة هيأت لها الأيام أسباب النصر والتأييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل ما منحت ، ولم تبق لها على خبرٍ :

الدهرُ يُفجع بعد العينِ بالأثرِ ... فما البكاءُ على الأشباحِ والصورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظةً ... عن نَوْمةٍ بين نابِ الليثِ والظفُرِ
فلا تَغرنْكَ من دنياك نومتُها ... فما صناعةُ عينيها سوى السهرِ
ما لليالى ، أقال الله عثرتنا ... من الليالى ، وخانتها يدُ الغيرِ
كم دولةٍ وليتْ بالنصر خدمتها ... لم تُبْقِ منها — وسل ذكراك من خَبرِ

ومضى يذكر الدول والأسر والرجال الذين عدت عليهم صروف الليالى ، من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الفرس إلى اليونان ، فيشير إلى دارا والإسكندر ، وإلى طسم وعاد وجرهم ، وإلى ترف اليمنيين وحضارتهم ، وأهداف المضريين وغاياتهم ، وإلى كليب ومهلهل ، وامرئ القيس وأبيه ، وعدى بن زيد ومقتله ، وحرب داحس والغبراء ، وإلى يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وهربه عن عرشه وقاعدة ملكه حين وطئ جيش سعد بن أبى وقاص أرض بلاده ، وإلى يوم القادسية وغزوة بدر ، ويشير إلى الكثيرين من صرعى المسلمين على امتداد تاريخهم ، كعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وإلى نكبة الأمويين ثم

---

(١٦) الوزير أبو محمد عبد المجيد ، من مدينة يابرة Evora ، كان شاعرا ناثرا لمع فى بلاط بنى الأفطس ، ودخل بعد ذهابهم فى خدمة المرابطين . انظر ترجمته فى :

- عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٤ وما بعدها .
- ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ص ١٠٢ وما بعدها .
- ابن خاقان ، القلائد ، ص ١٥١ .

وكان المراكشى ، من بين هؤلاء وغيرهم ، هو الوحيد الذى أورد القصيدة التى نحن بصددها كاملة .

البرامكة من بعدهم ، والمستعين والمعتز من الخلفاء العباسيين ، ويختمها بالحديث عن مصرع المعتمد وبنيه ، وهو فى ذلك كله لا يلتزم ترتيبًا تاريخيًا معينا ، إنما يستشهد بما يقع فى ذاكرته من معلومات وسيعة ، يمهد بها للحديث عن نكبة بنى الأفطس ، معتذرًا لهم أو عنهم ، ومتأسيًا بما حدث لسابقيهم :

هوتْ بدارا وفلّتْ غرْبَ قاتله ... وكان عَضْبًا على الأملاكِ ذا أثرِ
واسترجعتْ من بنى ساسان ما وهبتْ ... ولم تدعْ لبنى يونان من أثر
وألحقت أختها طسْمًا ، وعادَ على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ
وما أقالتْ ذوى الهيئات من يَمَنٍ ... ولا أجارت ذوى الغايات من مُضَر
ومزّقت سبأً فى كل قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكر
وأنفذتْ فى كُلَيْبٍ حكمَهَا ورمتْ ... مهُلْهَلاً بين سمْعِ الأرضِ والبصر
ولم تَرُدَّ على الضلّيلِ صحتهُ ... ولا ثنتْ أسدًا عن ربِّها حُجُر
ودوختْ آل ذُبْيانٍ وإخوتهم ... عَبْسًا ، وغصَّتْ بنى بدرٍ على النهر
وألحقتْ بعدىٌّ بالعراقِ على ... يدِ ابنِه أحمرَ العينين والشعَر
وبّلغتْ يزدْجُرْد الصينَ واختزلتْ ... عنه سوى الفرُسِ جمعَ الترك والخزَر
وخضّبتْ شيْبَ عثمانٍ دمًا وخطتْ ... إلى الزبَيْرِ ولم تَستَحى من عُمر
وليتها إذْ فدتْ عمرًا بخارجةٍ ... فدت عليًّا بمن شاءتْ من البشر
وما وفتْ بعهودِ المستعين ولاَ ... بما تأكّدَ للمعتز من مِرَر
وأوثقتْ فى عُراها كلَّ معتمدٍ ... وأشرقت بقذاها كل مُقْتدر
وروعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ ... وأسلمتْ كلَّ منصورٍ ومنتصر
وأعثرتْ آل عبّادٍ لعاً لهمُ ... بذيْلِ زبّاءَ لم تَنْفرْ من الذعُر

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ الشاعر حديثه فى رثاء بنى الأفطس ، فيلعن اليوم الذى ذهبوا فيه ، ويبكى من بعدهم الأدب والكرم والشجاعة والحدود لا تجد من يحميها ويذود عنها :

بنى المظفَّرِ . والأيامُ لا نُزِلتْ	مراحلٌ . والورى منها على سَفَرِ
سُحقا ليومكُم يومًا ولا حملتْ	بمثله ليلةٌ فى غابرِ العُمُرِ
مِن للأسرةِ . أو من للأعنَّةِ . أو	من للأسنَّةِ يُهديها إلى الثغرِ
مَن لليراعة . أومن للبراعة . أو	من للسماحة . أو للنفع والضررِ
أو دفْع كارثةٍ ، أو ردع آزفةٍ	أو قمْع حادثةٍ تعيا على القُدَرِ

ويذكر فضل المتوكل أبو محمد عمر ، وابنيه الفضل والعباس ، وقد قتلهم المرابطون حين اجتاحوا أرض بطليوس ، ويأسى على أيامهم الطيبة ، ويبكى فيهم الجلال والإباء والوفاء :

وَيحَ السماحِ وويْحَ البأسِ لو سَلِما	واحسرةُ الدين والدنيا على عمرِ
سقتْ ثرى الفضلِ والعباس هاميةٌ	تُعزَى إليهمْ سماحا لا إلى المطرِ
....	....
ومر من كل شيءٍ فيه أطيبهُ	حتى التمتُّع بالآصال والبُكَرِ

القصيدة طويلة . تبلغ أبياتها خمسة وسبعين . وتنم عن علم واسع واطلاع متبحر . ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل من قصيدته مجرد صرخة حزينة . تعبر عن لوعة صادقة . فى أبيات ذات جرس جميل . وإنما جعل منها معرضًا لكبار الرجال الذين أخنى عليهم الدهر . وعظام الدول التى عصفت بها يد الحدثان . فى أسلوب صحيح يخالطه تأنق بين الحين والحين ، وهو يجهد القارئ ، ويبعث فى نفسه الملل . بما يلجأ إليه من اللعب بالألفاظ ، وما يستخدمه من الأخيلة البعيدة التصور ، فهى ليست قصيدة تثير كوامن المشاعر بقدر ما هى عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة ، وعندما نقارن بين قصيدة ابن اللبانة فى بنى عباد ، وقصيدة ابن عبدون فى بنى الأفطس ، نجد الأولى أحر عاطفة وأصدق مشاعر ، وعلة ذلك فيما يبدو أن ابن اللبانة كان يدين بحياته وشهرته لبنى عباد . فارتبط معهم شعوريًا على نحو وثيق . أما عبدون فكان وزيرًا متمكنًا . لا يدين بجاهه لأحد . ولم يربط مستقبله بمستقبل الذين كان يعمل فى بلاطهم . وآية

ذلك أنه دخل بعد ذهاب دولتهم . فى خدمة من ذهبت الدولة على يديه . ومن قتل ممدوحيه : الأمير المرابطى سير بن أبى بكر.

وعلى الرغم من ذلك نالت قصيدة ابن عبدون شهرة غامرة ، وأصبحت مادة لشروح وتعليقات كثيرة ، أكبرها وأذيعها شرح عبد الملك بن عبد الله المعروف **بابن بدرون** من أدباء القرن السابع الهجرى . الثالث عشر الميلادى . وقد درس المستشرق الهولندى دوزى هذا الشرح ونشره فى لايدن عام ١٨٤٦ . كما طبعت القصيدة فى مصر بشرحها على نحو تجارى عام ١٣٤٠ = ١٩٢١ .

●

وفى نفس العام الذى أزاح فيه المرابطون دولة بنى الأفطس . كان **السيد القنبيطور** يقتحم مدينة **بلنسية** . عام ١٠٩٤ م . وبقيت تحت حكمه أعوامًا عانت فيها من الشقاء والذل . ألوانًا . مما عرضنا له فى كتابنا **ملحمة السيد**[١٧] تفصيلاً . ويحدثنا التاريخ الإسبانى عن مرثية بليغة قالها شاعر عربى فى المدينة . ولكن التاريخ العربى . أو ما وصلنا من مصادره . صمت عنها تمامًا . ولعلها ضاعت فى غمار الأحداث . ومن خلال المصادر الإسبانية أتينا على خبرها تفصيلاً وأفكارها تقريبًا . وشغلت الفصل التالى كله .

---

(١٧) انظر : ملحمة السيد . دراسة مقارنة . الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .

مرثية بلنسيّة ضائعة !

وجاء الدور على بلنسية !

أكبر مدن شرق الأندلس ، على البحر الأبيض المتوسط ، وأعظم مرافئ الأندلس الإسلامى ، وكانت كما يصفها **الحجارى** المؤرخ فى كتابه « **المسهب** » : « مطيب الأندلس ، ومطمح الأعين والأنفس ، خصها الله بأحسن مكان ، وحفها بالأنهار والجنان ، فلا ترى إلا مياها تتفرع ، ولا تسمع إلا أطيارًا تسجع ، ولا تستنشق إلا أزهارًا تنفح ، وما أجلت لحظك فى شىء إلا قلت هذا أملح » وتميزت بوديانها المثمرة ، وخيرها الوفير ، ونظمها الدقيقة فى الزرع والإرواء ، كانت مهبط كثير من الأسر العربية العريقة ، ومنتدى لجمع من الكتاب والأدباء والشعراء ، **كابن الأبار وابن خفاجة وابن الزقاق** .

وسقطت رسميا فى يد **السيد** فى ١٥ يونية ١٠٩٤ م ، وكانت قبل ذلك تحت سيطرته الفعلية . أو تحت حماية **ألفونسو ملك قشتالة** ، منذ دخلت فى حوزة **بنى ذى النون** أصحاب طليطلة عام ١٠٦٥ م . أى أن التاريخ بين سقوط طليطلة فى يد ألفونسو ، وبلنسية فى يد السيد لا يتجاوز تسعة أعوام .

وكانت النتائج التى أدى إليها سقوط المدينتين واحدة فى مجال السياسة ، فبعد سقوط **طليطلة** عبر **يوسف بن تاشفين** أمير المرابطين فى المغرب **مضيق جبل طارق** . ولأول مرة ، لكى يثأر لذل المسلمين ، وبلغ بانتصاره فى **معركة الزلاقة** على الجيوش المسيحية جاهًا ومجدًا خالدين . وبعد سقوط **بلنسية** أحس بنفس المرارة التى أحس بها عند سقوط طليطلة ، وربما على نحو أعنف وأشد ، فحشد جيشًا من المغرب ، وكتب إلى قواده فى مدن الأندلس ، أن يمدوه بما يستطيعون من المئونة والجنود ، وجاء الجيش وعلى رأسه أكبر قواده ، ابن أخيه **سير بن أبى بكر بن تاشفين** ، وحاصر بلنسية ، ودام الحصار طويلا ، ونازل **السيد** فى عدد من المعارك ، خسر بعضا منها وربح بعضا ، وأخيرًا استطاع المرابطون

أن يحرروا المدينة فى أوائل مايو ١١٠٢ م ، أى بعد ثمانية أعوام من احتلال السيد .

ولقد عانى أهل بلنسية من أهوال الاحتلال مالم يعانه أحد قبلهم ، ذلا وجوعًا واسترقاقًا ، ومع ذلك فإن سقوط بلنسية لم يكن له من الصدى بين الشعراء ماكان لسقوط طليطلة . وليس بين أيدينا من شعر فى المصادر العربية ، يتحدث عنها ، ويعرض لما أصابها غير أبيات قليلة ، أربعة أبيات **لابن خفاجة** (١٠٥٨ - ١١٣٩ م) ، هى بالوصف ألصق منها بالرثاء ، ويبدو صاحبها مسرفًا فى الحياد والموضوعية ، لا تنضح بعاطفة ، ولا تنم عن تأثر ، ولا توحى بالمناسبة التى قيلت فيها ، وهى كما تصدق على بلنسية اجتاحها العدو ، وعبث بجلال أهلها المسيحيون ، يمكن أن تنطبق على أية مدينة أخرى دهمها السيل أو عاثت بها الحرائق قدرًا وعلى غير تدبير . وهى أقرب لأن تكون مقدمة طللية لقصيدة جاهلية ، تبكى رسومًا دوارس فى صحراء مرملة ، من أن تكون رثاء لبلنسية ذات الجنان النضرة ، والحضارة الخضرة ، والمرفأ الزاخر بالحياة وبالناس :

عاثتْ بساحتك الظِّبا يادارُ ومحا محاسنَك البلى والنارُ
فإذا تردّد فى جنابك ناظرٌ طال اعتبارٌ فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخَّضت بخرابها الأقـــدار
كتبت يدُ الحدثان فى عَرَصاتها لا أنتِ أنتِ ، ولا الديار ديارُ

عجيب أن يكون ذلك رثاء ابن خفاجة لبلنسية موطنه ، وهو الذى وهب مغانى الأندلس شعره ، ووقف على تصويرها فنه ، وعب من لذاذتها حياته ، وتعلق بها أرضًا وماء ، وشجرًا وسماء ! .

لكن مرثية أخرى أتصورها رائعة ، لأن صاحبها كان أديبًا وشاعرًا وعالمًا ولغويًا ، ولأن مناسبتها كانت مثيرة وملهمة ، ضاعت فى زحام الأحداث ولم يصلنا عنها شىء فى المصادر العربية ، حتى ولا مجرد إشارة ، واحتفظت بها اللغة القشتالية نصًا مترجمًا إليها فى أقدم مدوناتها .

كان دوزى (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) أول من وقعت عينه على هذه المرثية ، ذلك أن

المستشرق الهولندى العظيم عكف زمنًا طويلا على دراسة ما يسمى فى اللغة الإسبانية باسم « المدونة الأولى للتاريخ العام Primera Cronica General وكتبتْ فيما بين أعوام ١٢٦٠و ١٢٦٨ م ، بإشراف **ألفونسو العاشر** ملك قشتالة ، والملقب بالعالم ، فلحظ أن الجزء الأخير من هذه المدونة ويختص بحياة السيد ، تتسم المعلومات الواردة فيه عن السيد وحصار بلنسية بالإطناب فى سرد الحقائق ، والدقة فى وصف البيئة الإسلامية فى كبرى شرق الأندلس ، وهى خصائص تميز هذا الجزء عن بقية الأجزاء ، وانتهى فى دراسته إلى أن الرواية الواردة عن هذه الفترة فى « مدونة التاريخ لعام » نُقلت مباشرة من كتاب تاريخ لمؤلف مسلم من أهل بلنسية ، وكتبه فى بلنسية نفسها ، فى الفترة التى كانت فيها تحت حكم السيد أو زوجه دونيا خمينا ، ثم تتبع صلات القربى بين الأصل العربى والمدونة الأولى للتاريخ العام ، فوجد عبارات عربية التركيب ، فى أكثر من مكان ، نقلها إلى اللغة القشتالية مترجم تنقصه البراعة ، قليل الدراية بالتراكيب والتعبيرات التى كان يتوخاها المسلمون فى الأندلس .

وتشير المدونة صراحة إلى اسم مُؤلف تنقل عنه ، تسميه Abenalfarex ، وهو اسم لا يرد فى أى من كتب التراجم الأندلسية . وقد انتهى **دوزى** ، ووافقه من بعد العالم الإسبانى الكبير **منديث بيدال** ، إلى أن صاحب الكتاب العربى الذى نقلت عنه المدونة هو **ابن علقمة** ، **محمد بن الخلف بن الحسن إسماعيل الصدفى** ، **ويكنى أبا عبد الله** ، وتُوفى عام٥٠٩ هـ = ١١١٦ م ، وله أخبار وافرة ، فقد ترجم له ابن الأبار فى تكملة الصلة (الترجمة رقم ٥١٤) . ولم يكن شاعرًا متقدمًا ، ولا كاتبًا بليغًا ، غير أن أهم أثر ذكره من ترجموا له تاريخه فى تغلب السيد على بلنسية وأسماه : « **البيان الواضح فى الملم الفادح** » وقد ضاع هذا الكتاب ، فلم يصلنا منه إلا ما نقلته المدونة عنه فى اللغة القشتالية ، وإلا بضع صفحات نقلها عنه مؤلفون متأخرون .

لندع **دوزى** نفسه يقص علينا تجربته مع هذا النص . يقول : « هذه المرثية ذات أصل عربى دون شك ، لأنها تحمل طابعًا خاصًا يجعل المرء يحكم عليها للوهلة الأولى بأنها تنتمى إلى الشعب العربى ، وفيما يبدو لى ، فإن ابن الأبار كانت عينه على نفس القصيدة

وهو يسجع مرثيته البليغة فى بكاء بلنسية عندما سقطت فى يد **ملك أرجون** » .

« جاءت المرثية فى « **المدونة العامة** » مرفقة بتفسير ، وكان **ألفونسو العالم** مغرمًا بتأليف مقطعات من هذا اللون ، ويجوز لى أن أنسبها إلى واحد من الكيميائيين العرب ، وكان الملك يحب أن يحيط نفسه بعدد منهم ، وأن يعمل معهم فى كتابة مؤلفات مختلفة . غير أننا نقرأ على رأس هذه القطعة العنوان التالى : «كلمات الحاجب الفقيه » ، مما يوحى بأنها ترجمة لأصل عربى . ويبدو لى أن ألفونسو كان يعرف من العربية ما يتيح له أن يترجم بدقة وبسرعة النصوص النثرية ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم الشعر أو يترجمه بنفس المستوى ومن المؤكد أنه عندما وصل إلى هذه القصيدة ، وقد وجدها فى تاريخ لبلنسية أمر واحدًا ممن يعملون فى بلاطه بترجمتها ، ولسوء الحظ فإن الذى وقعت عليه الترجمة لم تكن لديه أية معرفة بالشعر ولغته ، فلم ير فى معانيها إلا مجرد إشارات غريبة وغامضة » .

« لم يعثر أحد بعد على النص العربى للمرثية ، ولكن المركيز بيدال يعتقد أنه وجده ، لا فى مخطوط عربى ، ولا فى نسخة من المدونة العامة ، وإنما داخل كتاب ذى صبغة عالمية ، فى ستة أجزاء ، ألفه خوان فرنانديث دى إرِديا Juan Fernandez de Eredia ، ومخطوطة هذا الكتاب نسخت فى Avignon خلال عام ١٣٨٥ م ، وتوجد الآن فى مكتبة دوق دى أسونا Daque de Osuna ، وتضم إلى جانب النص الإسبانى للمرثية نصًا عربيًا آخر ، كتب فى حروف عادية ، وقد نشره بيدال ، واعتقد أن هذا النص العربى هو أصل المرثية ، وعده لونًا من الشعر الشعبى » .

« وفى البدء اقتنعت بالفكرة ، وآمنت بهذا الرأى ، لأن وجود النص الأصلى للمرثية البلنسية سيكون برهانًا جديدًا على ما ارتأيته من أن أخبار المدونة العامة كانت مجرد ترجمة لكتاب عربى . ولكنى عندما تأملت الأمر فى روية غيرت رأيى ، لأن النص الذى نشره بيدال لا يمكن أن يكون من القرن الحادى عشر ، لأنه كتب فى عامية منحطة للغاية ، مليئة بالأخطاء النحوية والصرفية ، فهو يستخدم كلمة « متاع » بدلا من ضمير الملكية ، ومهما يكن من تسامح عرب الأندلس إزاء الشعر الشعبى ، كالأزجال التى أوردها كتاب

« المغرب فى حلى المغرب » ، فلا يمكن أن ينتهى بهم الأمر أن يلغوا قواعد اللغة تمامًا فى مثل هذا الشعر » .

« ومن جانب آخر هذا النص لا يمكن أن يكون شعرًا لأنه ليس مقفى وقد لاحظ مالودى مولينا Malo de Molina وبحق ، أننا إذا اعتبرنا هذه العبارات شعرًا فإنها تجئ على بحور خاصة ، غير معروفة لنا ، لأنها لا تسير على أى من البحور العربية المعروفة لنا ، إنى أعتقد أن هذه القطعة ليست شيئًا آخر غير ترجمة لنص إسبانى ، تمت فى نهاية القرن الرابع عشر ، وفى هدى من نسخة خوان فرنانديث يمكن القول أن الذى قام بها يهودى يعرف اللغة العامية على نحو متواضع ، من خلال رحلاته فى العالم الإسلامى ، وإلمامه باللغات المتكلمة هناك »(١) .

حاول مننديث بيدال (١٨٦٩ - ١٩٦٩ م) أن يدرس الأمر من جديد فى ضوء معلومات جديدة ، ففى عام ١٨٥١ م أعلن المركيز بيدال أنه يعكف من زمن على دراسة مخطوطة فريدة فى مكتبة دوق دى أوسونا تضم النص العربى للمرثية ، فى كلمات عربية وحروف لاتينية ، وقام من جانبه ينشر هذا النص غير أن التاريخ الذى أعطاه له كان خاطئًا ، ولأنه نشر النص اعتمادًا على مخطوطة وحيدة فقد جاء مليئًا بالأخطاء ، ولم يستطع المستشرق جيانجوس Gayangos رغم تضلعه فى العربية أن يتغلب عليها ، وحاول مالو دى مولينا من جانبه أن يكتبها فى رسم عربى فذهبت جهوده هباء . وقد وجد مننديث بيدال أن النص الذى عثر عليه المركيز لا يوجد فى مجموعة التاريخ التى ألفها خوان فرنانديث ، والتى نسخت عام ١٣٨٥ م ، وإنما يوجد فى مخطوطة أخرى ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى أيضًا . لقد شك دوزى فى صحة وقدم النص العربى لأن العثور عليه لم يكن فى مخطوطة عربية ، ولا حتى فى نسخة « المدونة العامة » ، ومؤلفوها كما هو معروف كانوا يكتبونها وتحت أعينهم كتاب عربى يصف حصار بلنسية من قبل السيد ، ومن ثم فهم يعرفون نص المرثية . وقد وجدت -- أى مننديث بيدال -- أن المخطوطة التى ظنها

---

(١) Dozy: Recherches..., Tome II, Appendice XXIV, 3me édition, Leyde 1881.

المركيز جزءًا من تاريخ خوان فرنانديث ، ليست إلا مخطوطة « المدونة العامة » ، وقد بقى لنا منها القليل مما يشير إلى السيد ، وقد درست بقية مخطوطاتها ، وهما ثنتان ، فوجدت فيهما كلتيهما نص المرثية العربى ، والمادة المتعلقة بحصار بلنسية . أى أن المرثية توجد فى مخطوطات « مدونة التاريخ » الثلاث : الأولى ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومحفوظة فى دير الأسكوريال . والثانية ، توجد فى المكتبة الوطنية بمدريد ، وترجع إلى النصف الثانى من نفس القرن . ثم الأخيرة ، وتوجد فى المكتبة الملكية ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر[٢] .

وقفت القضية عند هذا الحد ، دون أن يتقدم أحد بالبحث خطوة أخرى إلى الأمام ، وكان أعقد ما واجه الباحثين معرفة الشاعر الذى أنشد المرثية ، أو تحديد شخصيته فى القليل . لأن اسمه يرد فى مخطوطات « المدونة » الثلاث بل وفى داخل المخطوطة الواحدة مرسومًا فى كل مرة على نحو مخالف ، فهو Alfaraxi ، وثانية Alhugi ، وأخيرًا Albataxi ، وهى أسماء مجهولة لنا تمامًا ، وغير واردة فيما بين أيدينا من معاجم الأدباء والشعراء ، وكتب الأدب والتاريخ ، لكن الأسماء الثلاثة ترد دائمًا مقترنة بأوصاف ثابتة ، فصاحبها فقيه وأديب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ ولغوى ، فطن جيد الفهم والتفكير ، أحبه السيد وكان يُكثر من رؤيته ، وعينه حاكما على مسلمى بلنسية ، فوحد أهلها وحافظ على أموالهم .

إلى أن جاء العالم الإسبانى الجليل ، المستشرق خوليا رِبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤ م) ، وهو أصلا بلنسى ، فحل طلاسم هذه المشكلة المعضلة وكانت وجهة نظره أن هذه الأسماء الثلاثة هى لشخص واحد ، وما بينها من خلاف إنما هو تحريف من النساخ أو المترجم ، وهو أمر يحدث كثيرًا للأسماء العربية ذات الشهرة ، فى الكتب الإسبانية القديمة ، فبغداد Bagdad ترد مكتوبة Belcad ، وزبيدة Zobeide زوج هارون الرشيد ترسم Seleyde ومن الجائز أن يحدث هذا لأسماء أقل شهرة ، وأكثر صعوبة

(٢) Menéndiz Pidal: Sobre Aluacxi Y la elogia árabe de Valenicia, en " Homenaje a Codera", P. 393-409.

عند القراءة . ومضى يفتش عن شخص يجمع الصفات التى أشارت إليها « المدونة » ويرد اسمه بها محرفًا ، وانتهى إلى أنه أبو الوليد الوقشى Abulgualid Aluacaxi نسبة إلى وقش Guacax قرية قريبة من طليطلة تحمل اليوم اسم Huecas وهو بتحريف بسيط يمكن أن يقرأ كما فى « المدونة » . فالوقشى Alguacaxi يمكن أن تقرأ الوطشى Alguataxi أو البطشى Albataxi أو الوشى Alhugi أو حتى الفرشى Alfaraxi .

ويرى عكس دوزى ، أن النص الإسبانى ليس ترجمة للنص العربى المرافق له ، وإنما هو ترجمة لمفهوم المرثية ، وأن النص العربى المرافق هو ترجمة للترجمة ، ويبنى رأيه على أن النص العربى الذى فى « المدونة » ليس شعرًا ، والثابت أن المرثية أنشدت من فوق أسوار بلنسية شعرًا ، فضلا عن أنه نثر ركيك للغاية لا يمكن أن يكون أسلوب كاتب عظيم كالوقشى ، بل ولا حتى أسلوب عادى ، وأن الترجمة الإسبانية جميلة ، وخالية من الاضطراب الموجود فى النص العربى . إن كل كلمة عربية وضعت تحت اللفظ المقابل لها فى اللغة الإسبانية حتى لو اصطدم هذا مع بناء الجملة العربية ، فمثلا إذا كان الفاعل يسبق الفعل دائمًا فى اللغة الإسبانية فهو كذلك فى الترجمة العربية على الرغم من أن النظم العادى للجملة العربية أن تبدأ بالفعل ثم يليه الفاعل ثم المفعول ، وبعض المعانى تقتضى دقة التعبير فى الإسبانية التعبير عنها بأكثر من كلمة ، فيترجمها فى العربية كذلك من غير ما ضرورة مثل y no Puede dar Flor يترجمها : « وليس تقدر تعطى نوار »[٣] وهى عربية ركيكة للغاية لأن كلمة « لا يزهر » تعطى معنى الجملة كلها .

ومن الواضح أن الترجمة العربية قام بها رجل لا يحسن التحدث باللغة العربية ، ولعله كان كاثوليكيًا استعان بمسلم يسأله عما يقابل الكلمات الإسبانية من أخرى عربية ، ويكتب ما يمليه عليه فى الحال ، أو لعل الكاثوليكى كان يعرف شيئًا من العربية : بعض الألفاظ ، وتركيب الجملة البسيطة ، وقام بالترجمة مستعينًا فى بعض الحالات بالقاموس ، والترجمة

---

(٣) انظر الفقرة رقم ١٠ من نص المرثية .

العربية فقيرة للغاية فى القواعد واللغة ، ويستخدم المترجم للإضافة لفظ « متاع »[٤] و « شوَى » بدل قليل ، ولا يحسن من أدوات النفى إلا ليس ، ولم يستخدم ولا مرة واحدة أداتى النفى « لا » و « ما » ، مع أنهما يستخدمان كثيرًا فى اللغة العامية ، ولا يعرف العطف بين الجمل ، وإنما يربط بينها على الطريقة الإسبانية .

●

فى ضوء مخطوطات « المدونة » ، الثلاث قام السنيور ربييرا بكتابة النص العربى المدون فى حروف لاتينية بالحروف العربية على النحو التالى :

١ - بلنسية بلنسية جاءت عليك كسرة كثيرة أنت فى وقت عن موتانك فإن كان يكون قدرك أن تفلت من هذا يكون عجبًا كبير لمن يريك .

٢ - وإن أراد الله أن يعمل خير لموضع خص عن خير جاءك عن يعمله إليك إن كنت أبدا مليحة ومسرورة وبهجة فشىء كان أذكره المسلمين ويشوقه .

٣ - وإن أراد الله بالجملة أن كتخسر من هذه المرة يكون عن ذنوبك الكبار وعن الجسر الكبير الذى كان معك بتجبّرك .

٤ - أوائل أربعة حجار كبار الذى كنت عليها مبنية هايريدوا يجتمعوا عن يعملوا عزاء عنك وليس يقدروا .

٥ - السور العظيم متاعك الذى بنى هؤلاء الأربعة حجارها يرتج . . . ويريد يقع أن قد خسر القهرة متاعه .

٦ - الأبراج العالية متاعك الملاح الذى ظهر من بعيد تسلى الفواد متاع أهلك شوى شوى تريد تقع .

٧ - الشرائف البيض متاعك الذى من بعيد كتشرق قد خسرت شرقها الذى كتظهر لشعاع الشمس .

٨ - الوادى المليح متاعك الكبير وادى الويار مع الأشياء الأخر الذى كنت منها جيد مخدوم قد خرج من عدو ويمشى اين ليس كان يمشى .

(٤) يساوى فى العامية المصرية لفظ « بتاع » ومازال مستخدما فى المغرب والجزائر.

٩ – سواقيك الصافية الذى كثير كتنتفع أنت بها كترجعت منكدرة وعن نقصان التنقية هى تمشى مال متاع حمئ .

١٠ – الجنانك الملاح الفاكهة الذى عن حوليك السبع المسعور حفر له الأصول وليس تقدر تعطى نوار .

١١ – مروجك الملاح الذى يكون فيها النوار الكثيرة الملاح الذى كيأخذ فيها أهلك سرور الكبير هى كانت ييست .

١٢ – مرسيك المليح الذى كتاخذ أنت منه كرامه الكبيرة يكون ناقص متاع الملاحة الذى كانت تجئ منه .

١٣ – واقطاع من الكورة الكبار الذى كتتسمى سلطانة من قديم النار قد أحرقها وقد يصل إليك الدخان .

١٤ – ومرضك الكبير ليس يوجد بدوى والحكماء قد خسروا الياس من مرضك ليس يقدروا يدويك .

١٥ – بلنسية بلنسية هذا القول الذى قلت عليك قلتها بكسرة العظيمة ما فى قلبى .

وتوجد فقرة منفصلة عن النص السابق ، ورسمها بحروف عربية على النحو التالى :

١٦ – إن مشيت شمالا يغرقنى الماء الكثير إن مشيت يمينًا يكلنى الأسد إن مشيت يمينًا يمتنى البحر إن رجعت لخلفى يحرقنى النار .

بلنسية هذا قلت أنا لك إنى ليس قدرت قلت لعاد الذى أخرب . . . (٥)

●

لم يكتف مؤلف « تاريخ إسبانيا العام » بالترجمة الإسبانية للمرثية الأندلسية ولا بترجمته ، وإنما أتبع كل فقرة إسبانية بشرح إسبانى يوضح المقصود منها ، ولما كانت المرثية تنشر لأول مرة فى العالم العربى . وكانت ترجمتها العربية ركيكة وغير مفهومة ، فقد ترجمت النص الإسبانى للمرثية مستعينًا بالشرح الإسبانى على توضيح ما قد يكون غامضا

---

(٥) Iulian Ribera y Torrogon: Disertaciones y Opusculos, Tomo, II, p. 275. ss., Madrid 1928.

من الإشارات ، دون تجاوز للنص نفسه ، لأن الشارح كثيرًا ما يذهب إلى مفاهيم بعيدة غير مرادة من النص ، ويهمل أخرى واضحة فيه ، لأسباب تتصل باتجاهه السياسى وعقيدته الكاثوليكية :

١ - بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . مصائب كبيرة تحدق بك ، أنت تحتضرين ، وإذا قُدر لك النجاة ، فسيراه عجيبًا من يعيش ويراك .

٢ - وإذا أراد الله خيرا لهذا البلد ، فأملى كبير أن يتولاك برحمته ، فلقد كنت دوامًا موطن الجمال والسرمد ، حيث يعيش المسلمون جميعًا فى بهجة ومتعة .

٣ - وإذا أراد الله أنك تخسرين كل شىء هذه المرة ، فسوف يكون تكفيرًا عن خطاياك الكبيرة واجتراءاتك الأثيمة ، وماكنت عليه من تجبر .

٤ - العُمُد الأربعة التى تنهضين عليها ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك ، وما هم بمستطعين .

٥ - سورك العظيم الذى بنى مع العمد الأربعة ، ترتج حجارته ، ويريد أن يقع بعد أن تضعضع أساسه[٦] .

٦ - أبراجك السامقة الارتفاع ، الرائعة الجمال ، والتى تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب أهلك ، تقع شيئا فشيئا .

٧ - شرفاتك البيضاء ، تشرق من مسافات بعيدة ، فقدت أمانها عندما بدت لأشعة الشمس .

٨ - نهرك الجميل الفياض ، نهر الوادى الأبيض ، وكل المياه الأخرى التى تسقيك بوفر ، وتصدر عن ينبوع واحد ، تمضى ولا تعود .

٩ - سواقيك الصافية التى ينتفع بها أناس كثيرون عادت كدرة ، لا أحد يعنى بنظافتها فتحولت إلى مياه حمئة .

١٠ - جنانك الجميلة ، من حواليك مهملة ، عبثت الذئاب المسعورة بأشجارها فلم تعد تثمر شيئا .

---

(٦) هذه الفقرة لم ترد ترجمتها الأسبانية فى النص الذى بين يدى فأصلحتها على مقتضى السياق .

١١ – مروجك الرائعة ، ذات الأشجار الجميلة الكثيرة المثمرة ، يجنى أهلك ثمارها فى سرور ، عادت يابسة .

١٢ – مرساك الجميل ، الذى تشرفين به كثيرًا أصبح عاريًا عن الجمال ، خاليًا من السفن الكثيرة التى تعودت أن تجئ إليه .

١٣ – ضياعك الواسعة ، وكنت تسمينها « سلطانة » التهمتها النيران ، ويصلك دخانها عاليًا .

١٤ – لا يوجد دواء لمرضك العصى ، والأطباء يائسون ، وليس فى وسعهم أبدا أن يعيدوا لك صحتك كاملة .

١٥ – بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . كل هذه الأشياء التى عددتها لك أو من بها ، قد قلتها وألم أسيف يملأ قلبى[٧] .

لم تكن مرثية الوقشى الضائعة والمجهولة لدينا تمامًا كذلك فى عصرها ، وإنما كانت بمضمونها وما أحاط بها من ملابسات متداولة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، وليست « مدونة تاريخ إسبانيا » وحدها هى التى جاءت بها كلها أو بشئ من نصها ، إنما نجدها شعرًا إسبانيًا كاملا ودقيقًا ، فى الأغنيات الإسبانية الشعبية ، وبدأت تزدهر فى الجانب الكاثوليكى من الأندلس بعد سقوط بلنسية فى يد السيد ، وجعلت من شخصيته بطلا لا يقاوم ، تنسج حوله الأساطير وتحكى عنه المعجزات ، وهو شعر شعبى لا ينسب إلى قائل فرد ، وليس له من صانع غير الشعب نفسه ، وحفظ شفاها بالرواية على طريقة الشعر الجاهلى - عبر أربعة قرون كاملة ، وفيما صاغ حول بطولات السيد احتفظ لنا بنص المرثية الأندلسية شعرًا بالإسبانية ، وكانت الرواية الشعبية فى احتفاظها بالمرثية الأندلسية مترجمة إلى القشتالية ، أصدق تعبيرًا فى المحافظة على روح الشاعر ، وأقرب إلى النص العربى متصورا ، من النص النثرى الذى جاءت به « مدونة تاريخ إسبانيا العام » ، وقبل

---

(٧) النص الأساسى الذى قمت بترجمته لا يضم الفقرة السادسة عشرة ويوجد فى :

Andrés Piles Ibárs: Valencia Arabe, tomo I, P. 297 ss., Valencia 1901.

أن نقارن بين النصين . يحسن أن أورد النص الشعرى مترجمًا ، وقد عثرت عليه منزويًا ضائعًا فى ديوان يضم قصائد شعرية تحمل اسم « ديوان السيد » :

١ ، ٢ - بلنسية ، بلنسية !

٣ - إذا لم يحزن الله من أجلك ، وأنت دائمًا أهل لأن تسودى ، فإن شرفك سيتضاءل ، ومعه الراحة والهدوء ، وقد تعودنا أن نستمتع بهما .

٤ - عمدك الرئيسية الأربعة ، حيث ذهب المسلم ليجلس ، ويبكى إن استطاع ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها .

٥ - أسوارك العالية . . . ما أقوى الذين فوقها ! ، كثيرون يقاتلونهم ، ورأيتهم جميعًا يرتعشون .

٦ - قلاعك ، وقد تعود أهلك أن يتأملوها من بعيد ، وجلالها الرائع الصافى ، عودهم أن يتأسوا بها ، تتهاوى شيئًا فشيئًا ، دون أن يستطيع أحد إنقاذها .

٧ شرفاتك البيضاء ، تلمع مثل البللور ، فقدت أمانها ، ومنظرها الجميل .

٨ ونهرك الفياض ، نهر الوادى الأبيض ، مع مياهك الأخرى ، تفيض من ينابيعها .

٩ وجداولك ذات المياه الصافية ، عادت كدرة إلى الأبد . وعيونك وينابيعك جفت كلها .

١٠ - جناتك الخضراء المهملة ، لم تعد تثمر شيئًا ، وأشجارها وأعشابها رعتها حيوانات ضالة .

١١ مروجك ، ذات المائة ألف زهرة ، لم تعد تعبق بأى أريج ، تتماثل ذابلة وفى عصبية ، بلا لون ولا رائحة .

١٢ الاستغلال الشريف لشاطئك وبحرك ، عاد ملؤه الأذى والفضيحة .

١٣ الجبال والحقول والوديان وقد تعودت أن تأمرها ، دخان حرائقها أصبح يعمى عينيك .

١٤ – داؤك عصى وخطير ، وأمراضك عديدة ، ويئس الرجال من أن يعيدوا إليك صحتك .

١٥ – بلنسية ! ، بلنسية ! لعل الله أراد علاجك ، وفى أحايين كثيرة يعرف سلفا ما نبكى منه نحن الآن(٨) .

يتفق النصان ، النثرى والشعرى ، فى المعنى العام ، ويكمل ، أحدهما الآخر فى بعض التفاصيل ، فنص « المدونة » يرى أن ما أصاب بلنسية كان عقابًا لها من الله على ما ارتكبته من آثام ، وهو معنى تكرر فى مرثية طليطلة التى وصلتنا مجهولة القائل ، ورجحت أنا أعتمادا على التحليل الداخلى للنص أنها للوقشى نفسه صاحب هذه المرثية ، وقد عرضت لها من قبل(٩) .

وأغفل نص « المدونة » شجاعة الذين كانوا يقاتلون فوق أسوار بلنسية دفاعًا عنها وعرضت له « الأغنية » ، وأضافت أن مقاتليهم من أعدائهم كانوا يرتعشون على الرغم من كثرتهم ، وجعلت « المدونة » عبث الذئاب المسعورة سببًا فى خراب البساتين ، أما الأغنية الشعبية فكانت أكثر واقعية ودقة فعزته إلى رعى الحيوانات الضالة الجائعة فقدت من يُعنى بها .

هل كان الوقشى وحده هو الذى رثى بلنسية ، أم أن آخرين شاركوه نفس المشاعر والأحاسيس ؟ ولماذا غفل التاريخ الأندلسى عن مرثياتهم جميعًا فلم يعرض لها من قريب أو بعيد ، على حين عنى بمرثيات أخرى كثيرة ضاعت أسماء قائليها أو طواهم النسيان ، بينما بقيت قصائدهم نفسها تتردد على كل لسان ؟

التعليل ، فيما أرى ، أن السيد لم يكن غازيًا يخيف دولة ، وإن كان قاسيًا يرهب مدينة ، لأنه لا يمثل أمة طامعة ، ومطامحه شخصية ومحدودة ، ورغم تحويله مسجد المسلمين الجامع إلى كنيسة ، تحت ضغط راهب فرنسى متعصب ، هو جيروم دى بيريجور فلم يكن هو نفسه يحيا حياة كاثوليكية ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ، وبين يديه يتنافس

---

(٨) Romancero del Cid, 207, Barcelona 1884.

(٩) انظر ص ٢٢٩ وما بعدها من هذا الكتاب

الشعراء مسلمون ومسيحيون كل بلغته ، ينشدونه قصائدهم التى يتغنون فيها بالحب العذرى ، وعلى الرغم من بطشه بعلية القوم فى بلنسية وقتلهم حرقًا ، كان خط سياسته الواضح يستهدف إرضاء العامة من سكان المدينة واحتواءهم إلى جانبه .

مثل هذا الاتجاه خفف من وقع أحداث بلنسية على المسلمين الأندلسيين خارج المدينة ، ولم يكونوا يرون فيه خطرًا عاجلا أو قائمًا ، ومن ثم لا يحظى احتلال بلنسية إلا بإشارات بسيطة فى المؤلفات العربية العامة ، فبينما – مثلا – يخص **عبد الله بن زيرى** ملك غرناطة **ألفونسو السادس** فاتح طليطلة بصفحات ضافية لا يشير إلى فتح **السيد** لبلنسية إلا فى سطور قليلة(١٠) لكنه بالنسبة إلى أهل بلنسية نفسها كان خطرًا ماحقًا ، فقد لاقى الناس جميعًا خلال حصاره لها أهوالا من العذاب ، ولقى خاصتها بعد الفتح ألوانًا من الذل . ومن هنا كان أهل بلنسية وحدهم هم الذين بكوها ، وضاع بكاؤهم فيما ضاع من مؤلفات تدور حول محنة المدينة وسقوطها .

وإذا كانت المصادر العربية ، دون استثناء ، لا تشير إلى القصيدة من قريب أو بعيد ، فالمعلومات التى لدينا عن الشاعر منشد القصيدة ، بعد الاهتداء إليه ، جد شحيحة . وربما كانت أفضل ترجمة له بين أيدينا تلك التى أوردها **ابن بشكوال** فى كتابه « **الصلة** » ، فهو القاضى **أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشى** ، ولد فى بلدة **وقش** عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٦ م ، من محافظة طليطلة ، وتوفى فى **دانية** على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، جنوبى بلنسية ، عام ٤٨٩ هـ ، ١٠٩٦ م . وكان « أحد رجال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم » ، « ضليعًا فى النحو واللغة ومعانى الأشعار ، وعلم العروض وصناعة البلاغة ، شاعرًا متقدمًا حافظًا للسنن وأسماء نقلة الأخبار ، بصيرًا بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذًا فى علم الشروط والفرائض ، متحققًا بعلم الحساب والهندسة ، مشرفًا على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب » .

وكان فى **بلنسية** عندما احتلها **السيد** ، وتولى رياسة القضاء على أيامه ، وتخرج على يده

---

(١٠) عبد الله بن زيرى ، مذكرات الأمير عبد الله ، صفحات ٦٩ وما بعدها وص : ١٥٧ . طبعة دار المعارف ، بتحقيق ليفى بروفنسال .

جلة من تلاميذ بلنسية وما صاقبها . وكانت له مكانة ملحوظة فى المدينة ، لما اتسم به من فضائل أوجزها ابن بشكوال . وقد استطاع أن ينال ثقة السيد وأن يكون موضع تقديره ، ولعل ما كان بين القائد المحتل والقاضى المسلم من ود وتجاوب ، لم يقع عند كثير من المسلمين موقع الرضا ، ولربما كانت الصلة بينهما عاملا من عوامل ضياع شعره وخبره ، ذلك أننا نجد فى نهاية ترجمة ابن بشكوال إشارة غامضة لا تفصح عن شىء ، ولكنها تلقى على سلوك الرجل ظلا غير صاف ، يمكن أن يفسر فى ضوء ما نعرفه عن علاقته بالسيد . يقول : « وقد نُسبت إليه أشياء ، والله أعلم بحقيقتها ، وسائله عنها ، ومجازيه بها » . وربما كان مفيدًا أن ألمح إلى أن « المدونة العامة » ، وهى فى غير ما نقلت عن المؤلفات العربية تفيض بالخرافات والأساطير ، أفاضت الثناء على الرجل ، وجعلت منه إنسانًا ممتازًا ودودًا ، أخذ بالكاثوليكية فاعتنقها ، وزادت فجعلت منه راهبًا لجأ إلى دير **كاردينيا** ، قريبًا من **برغش** ، وحيث كانت زوجة السيد وبناته من قبل ، وتفضلت عليه باسم مسيحى ، هو **خيل دياث** Gil Diaz ، ودفن هناك فيه بجوار فرس السيد الشهير . ويقول **منينديث بيدال** « إن هذا الخبر أسطورة خالصة ، لأن **الوقشى** توفى مسلمًا ، ودفن فى بلد مسلم ، وفى تاريخ معلوم للجميع » ، وكان له فى دانية قبر معروف يُزار من قبل أصدقائه وعارفيه .

شعر الاستصراخ والاستغاثة

عادت **بلنسية** من جديد إلى يد **المرابطين** ، ولاية أندلسية مسلمة ، وبذهاب هؤلاء ومجيء **الموحدين** أصبح الأندلس الإسلامى جزءًا من إمبراطوريتهم الشاسعة ، تمتد من طرابلس فى الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسى ، ومن لشبونة إلى السنغال ، وكان ذلك يلقى على كواهلهم أعباء ثقالا فى الدفاع عن هذه الإمبراطورية المترامية ، وكانت الأندلس من بين مقاطعاتهم أضعف الجبهات وأحفلها بالخطر ، تماسكت بعد تضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت أيام الرابع منهم ، **محمد الناصر بن أبى يعقوب يوسف المنصور** ، الذى تولى الخلافة من ١١٩٩ إلى ١٢١٥ م وظهر هذا التداعى فى صورة انهيار سريع بعد معركة العقاب[1] وكانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين فى الأندلس والمغرب معًا ، فقد خسر المسلمون المعركة ، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة ، وبلغ الشهداء عددًا لم تعرفه أية معركة أخرى فى تاريخ الإسلام ، حتى أن السائر فى ريف المغرب كما يقول ابن أبى زرع كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى ذلك اليوم الأسيف .

ويبدو أن الذهول تغشى عقول المسلمين بعدها ، وقد استحسن **المقرى** ، فى كتابه **نفح الطيب** ، أبيات أبى إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلى ، لأنها تصور هذه الحالة أفضل تصوير :

وقائلة أراك تطيل فكرًا   كأنكَ قد وقفتَ لدى الحسابِ
فقلتُ لها أفكر فى عقابٍ   غدا سببًا لمعركة العقابِ

(١) معركة العقاب وتسمى فى الأسبانيه معركة Las Navas de Tolosa كانت بين الموحدين وجيوش الكاثوليك مجتمعين من ملوك قشتالة وليون ونبرة وأرجون ، تساعدهم قوات أجنبية ، وكان البابا وراء ترتيب الخطة وجمع كلمة هؤلاء الملوك ومدهم بالمساعدة ، كما بارك الجيوش الذاهبة إلى ساحة القتال ، وقد جرت المعركة فى ١٦ يولية ١٢١٢ م .

فما فى أرض أنْدلسٍ مُقامٌ وقد دخل البلا من كل بابِ

بعد معركة العقاب تقاسم ملوك الكاثوليك جبهات الأندلس ، وكان شرقيه من نصيب خاتمة الأول Jaime I (جاقمة فى المصادر العربية) الملقب بالكونكستادور El Conquistador أى الفاتح ، فقد احتل جزر ميورقه ومنورقة وإبيسة ، ثم اتجه بعدها إلى بلنسية ، ورابط قريبًا منها فى عام ٦٣٤ هـ = ١٢٣٧ م ، وأحس **أبو جميل زيان** أميرها أنه لن يستطيع الثبات وحده . فقرر إرسال سفارة إلى **أبى زكريا الحفصى** صاحب أفريقية ، أى تونس الحالية ، يطلب منه العون والنجدة ، وندب لها ابن الأبار (أبا عبد الله بن أبى بكر القضاعى)[٢] . الشاعر والأديب والمؤلف ، صاحب كتاب «**الحلة السيراء**» و«**تكملة الصلة**» و«**تحفة القادم**» وغيرها .

آثر ابن الأبار أن يكون حديثه عن بلده وطلب الغوث من صاحب أفريقية شعرًا ، وأفرغ فى قصيدته كل ما يملك من شاعرية وفن ليثير نخوة الأمير ، وليبرهن فى نفس الوقت على أن ما فى الأندلس من شعراء ليسوا دون الآخرين قامة . وحتم موضوع القصيدة ألا تكون كالمراثى السابقة فأولئك يبكون فحسب ، أما هو فيبكى ويستنجد ، ومن ثم بدأها بدعوة حارة إلى الأمير الحفصى أن يدرك الأندلس بجيوشه ، وأن يعينه على النصر فى معركته . وأن ينقذ دولة الإسلام فيه مما تعانيه :

أدركْ بخيلك خَيْلِ الله أندلسا إن السبيل إلى مَنْجاتِها دَرَسَا
وهَبْ لها من عزيزِ النصرِ ماالتمست فلم يزلْ منكَ عز النصرِ مُلْتمسا
ياللجزيرة أضحى أهلها جَزرًا للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعسا

وبعد هذه المقدمة القصيرة بدأ يقدم صورة لما يجرى فى أرض الجزيرة بعامة : طوقت المصائب أهلها . وأحالت جدهم تعاسة . وتقاسم الروم عقائلها . وعرض لما يجرى فى بلنسية وقرطبة بخاصة ، مما يميت كل غيور كمدا . لقد حل بها الشرك ، ورحل عنها

---

(٢) انظر ترجمته فى

- المقرى ، نفح الطيب . جـ ٢ ص ٥٨٩ - ٥٩٣ . طبعة احسان عباس .
- ابن شاكر الكتبى . فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ٤٥٠ . القاهرة ١٩٥٣ .

الإيمان ، وحولتْ مساجدها إلى كنائس . وخلفتْ فيها دقاتُ الأجراس نداء المؤذّن ، ولم تعد موضعًا للعلم والمدارسة وبكى حدائقها المورقة . ومرابعها النضرة ، وأيامها الخوالى :

تقاسم الرومُ . لا نالتْ مقاسمهم   إلا عقائلها المحجوبةَ الأنسا
وفى بلنْسية منها وقرطبةٍ   ما ينسفُ النفسَ أو ما ينزفُ النفسا
مدائنٌ حلّها الإشراكُ مبتسمًا   جذلانَ ، وارتحل الإيمانُ مبتئسا
ياللمساجد عادتْ للعدا بيعًا   وللنداء غدا أثناءها جَرَسَا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها   مدارسًا للمثانى أصبحت دُرُسا
كانت حدائق للأحداقِ مونقةً   فصوّح النضر من أدواحها وعسا
فأين عيشٌ جنيناهُ بها خضرًا   وأين عصرٌ جَلَيْناهُ بها سلسا

ثم عدد ما فعل الطاغية بأرضها . ليجعله تمهيدًا لدعوة الأمير الحفصى إلى الإسراع فى عونها ، وأن يُحيى بها من معالم الإسلام ما طمس الأعداء ، كما أحيا دعوة المهدى فى أفريقية . ونصر الحق فيها . وقام بأمر الله غير متردد . وانتصر على دعاة التجسيم ، ويصف رحلته إليه عبر البحر عجلا . رغم الأنواء والأمواج ، ويعدد مآثر الأمير ، ويمدحه بما كان يوصف به قرناؤه فى ذلك الزمان من عزيمة وعدل وإحسان وشجاعة ، فى أبيات طويلة تجاوز ثلث القصيدة :

محا محاسنها طاغٍ أتيح لها   ما نام عن هضمها حينًا ولا نعسَا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى   إدراك مالم تطأ رجلاهُ مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفردًا   ولو رأى راية التوحيد مانبسا
صِلْ حبلها أيها المولى الرحيم فما   أبقى المراسُ لها حبلاً ولا مرسا
وأحى ما طمستْ منها العداةُ كما   أحييت من دعوة المهدى ماطمسا

....

هذى رسائلها تدعوك من كثب   وأنت أفضلُ مرجوٍ لمن يئسا
وافتك جارية بالنجحِ راجيةٌ   منك الأمير الرضى والسيد النَّدُسا
خاضتْ خضارة يُعليها ويخفضها   عبابه فتعانى اللين والشرسا

وربما سبحتْ والريحُ عاتيةٌ كما طلبتَ بأقصى شدّةٍ الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبِّلةٍ من تُرْبهِ القدسا
ملكٌ تقلدتِ الأملاكُ طاعتهُ دينًا ودنيا فغشاها الرضا لبسا

ويختمها مناديًا الأمير بأن يقدم ، فنى إقدامه حياة الأندلس ، وإن يرسل لها الجيوش ويطهرها من الشرك ، ويقتص من ملوكها « الصفر » ، ويومئ إليه أن تكون الجبهة الشرقية فى الأندلس مقصد عونه – وكانت هناك جبهات أخرى كثيرة تحتاج إلى هذا العون – ومن يدرى فلعل نهاية الأعداء تكون على يديه :

يا أيها الملكُ المنصورُ أنتَ لها علياءُ توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباءُ أنك منْ يحيى بقتلِ ملوكِ الصفرِ أندلسا
طهرْ بلادَك منهم أنهم نجسٌ ولا طهارةَ مالم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلقَ الجرار أرضَهمُ حتى يطأطئ رأسًا كلُ من رأسا
وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شرقتْ عيونهم أدمعًا تهمى زكا وخسا
هم شيعةُ الأمرِ وهى الدار قد نهكت داءً متى لم تباشر حسمُه انتكسا
فاملأ هنيئًا لك التأييد ساحتها جردًا سلاهبَ أو خطيةً دعسا
واضربْ لها موعدا بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادى قد أتى وعسى (٣)

كان ابن الأبار فى قصيدته صادق العاطفة ، يتحدث عن وطنه الكليم ، ويستحث بالكلمة المنغومة أميرًا بعيدًا لينقذه ، فجاءت أفكاره مرتبة ونظمه محكمًا ، وإن شابه شيء من صنعة تتمثل فيما تناثر بين أبياته من ألوان البديع ، وخالف من قبله فى أشياء اقتضتها طبيعة الموقف ، فلم يعرض لما درس من ممالك وديار وأمم على طريقة ابن عبدون ، ولم يجعل الغزو عقابًا لأهلها على معاصى اقترفوها كما صنع راثى طليطلة من قبل ، والوقشى فى رثاء بلنسية على أيام السيد ، ولم ينح على أهله باللائمة ، يتهمهم بالقعود ويصمهم

(٣) يوجد النص الكامل للقصيدة فى : المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٤٥٧ وما بعدها .

بالجبن ، لأن ذلك لا يخدم هدفه من إثارة الأمير ودفعه إلى نصرة الأندلسيين ، ولأن بلنسية لم تكن سقطت بعد فى يد الكاثوليك .

وزاد على سابقيه ففصل ما أجملوا ، ولم يقنع بالحديث عن المساجد التى أصبحت كنائس ، وإنما تحدث عن الأجراس التى خلفت دقاتها فى المساجد أصوات المؤذنين ، ونعى - وهو الأديب الشاعر - حلق العلم التى توقفت فيها ، وكانت عامرة بالشيوخ والطلاب ، وتشير قصيدته إلى معنى جديد هو تأكيد وشائج القربى والتضامن بين الأندلس والمغرب ، وحق المستضيم منهما أن يطلب العون من الآخر كلما ضيم أو حاق به الخطر .

ومن القصيدة كلها يبدو الجزء الخاص بمدح الأمير الحفصى - ويشغل من أبياتها الثلث تقريبًا - حافلاً بالصناعة ، واضح التكلف ، لا ينبض بأية أحاسيس حقه أو مشاعر صادقة ، وما كان يتأتى لابن الأبار أن يسلك غير هذا النهج ، فهو غريب عن تونس ، قليل العلم بأحوال أميرها ، لا يعرف من أمره شيئًا ، ولا يربطه به من الود والأحداث ما يثير ويلهم ، ولم يكن وراء رحلته مطامع شخصية تعود عليه بالنفع وتسوق إليه شياطين الشعر ، وإنما كان رسول وطنه أجاد فى تصوير حاله ومأساته ، فلما تجاوزها إلى الأمير قال عنه ما يمكن أن يقوله أى شاعر عن أى أمير ، فهو طلق المحيا ، ماضى العزيمة ، كأنه البدر ، عادل ، محسن ، مبارك هديه ، نوّر الله بالتقوى بصيرته ، وطهر سيفه ، وصاغ من ساطع النور جوهره . ولعل ابن الأبار عبر البحر طالبًا النجدة وهو كاره فى دخيلة نفسه ، لأن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت قمة ازدهاره الثقافى والعلمى ، فامتلأ الأندلسيون بها زهوًا وأنفة وتكبرًا ، وأحسوا أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، وأولى بالتكريم ، وأجدر بالعون من غير طلب له ولا إلحاح فيه .

هزت قصيدة ابن الأبار من الأمير عطفه ، وحركت جنانه ، ولشغفه بها وموقعها من نفسه أمر شعراءه بمجاوبتها ، وحقق ابن الأبار هدفه من إنشادها ، فقد تحمس الأمير الحفصى لمعاونة شركائه فى الدين ، فأرسل إلى بلنسية أسطولا مشحونًا بالمال والعتاد والأقوات ، ووصل الأسطول أثناء حصار المدينة ، فحاول النزول فى « جراو » ، موضع قريب من بلنسية ، فى الرابع من محرم عام ٦٣٦ هـ = ١٨ من أغسطس ١٢٣٨ م ، ولكنه

وجد الموضع حافلا بجند الكاثوليك فأرسل قائد الحملة **أبو يحيى بن أبى حفص عمر الهنتاتى** المعروف بالشهيد إلى أبى زكريا الحفصى يعلمه بالحال ، واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها فى الثانى عشر من محرم ٦٣٦ هـ = ٢٦ من أغسطس ١٢٣٨ م ، وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كانا يحملها ، وعاد بالمال لأنه لم يجد مسئولا يتسلمه .

استمر حصار بلنسية قائمًا ، وكل يوم يزداد ضراوة حتى « نفدت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، وتغشى المسلمين يأس قاتل ، فرأى **أبو جميل زيان** أمير بلنسية أن يفاوض **خايمة الأول** على تسليم المدينة ، وكان رسوله وكاتب العقد هو **ابن الأبار** ، ونص فى الاتفاق على أن يتسلم الملك الكاثوليكى – أو الطاغية كما ينعته **ابن الأبار** – المدينة سلمًا لعشرين يومًا ، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم . « وابتدىء بضعفة الناس وسُيروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم برًا وبحرًا ، ودخلها الروم صبيحة الجمعة السابعة والعشرون من صفر ٦٣٦ هـ = سبتمبر ١٢٣٨ م .

وذهبت ، وربما إلى الأبد ، درّة مدن الأندلس ، وكبراها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

لكن أمل المسلمين فى النصرة لم يذهب بضياع بلنسية ، فبقى من الشعراء من يستنهض عزائم المسلمين فى الأندلس وفى الشمال الأفريقى لاستردادها ، وحفظ لنا المقرى واحدة من قصائد هؤلاء الشعراء ، طويلة النفس مجهولة القائل ، توجه بها صاحبها إلى أبى زكريا عبد الواحد بن أبى حفص أمير تونس الذى أنشده ابن الأبار قصيدته السابقة ، وهى فى تسعين بيت ، وحين درست النص للمرة الأولى انتهيت إلى أن قائلها واحد ، وأن مناسبتها كانت بلنسية ، فالشاعر لا يشير إلى غيرها من نكبات المسلمين العديدة ، التى صحبت أو سبقت سقوط عاصمة شرق الأندلس وكبرى مدنه ، ثم رجحت على استحياء أن تكون لابن الأبار نفسه ، لتوافق النغم ، وتقارب الإيقاع . فالمناسبة واحدة ، وتوجهتا بالنداء إلى رجل واحد ، ومطلع هذه قريب من مطلع تلك ، ونداءات الاستغاثة ، وصيحات الاستنفار قسمة بين القصيدتين ، غير أنى ، فى غيبة الشواهد الحاسمة ، لم أقطع بهذه

النسبة . وفى إحدى زيارتى للمغرب ، وترددى على خزانة القصر الملكى الحافلة بكل جليل ونادر من التراث الأندلسى ، اطلعت على مخطوطة ديوان ابن الأبار ، وهى فريدة ووحيدة ، وكانت مجهولة تمامًا حتى زمن قريب ، وحين تصفحتها عثرت فيها على القصيدة نفسها كاملة ، وإذن فهى له فعلا ، ومثله ، ولمثلها ، لا يسقط اسمه من الذاكرة فى سهولة ، ولعل وراء إهمال المقرى نسبتها إلى صاحبها سببا آخر غير النسيان .

توجه ابن الأبار فى مطلع قصيدته هذه ، وأراها تالية لتلك تاريخًا ، إلى الأمير الحفصى بأن الأندلس تناديه وتأمل أن يستجيب لها ، ويحطم ما بها من طواغيت الصليب ، إنها تستصرخه النجدة وتنتظر من فرسانه مددًا تدفع به أرزاءها ، وأن بلنسية على نأيها عنه داره ، يرجو المتخلفون بها نصرته ، كما وجد النازحون من أهلها عنده المأوى :

نادتكَ أندلسٌ فلبِّ نداءها   واجعل طواغيتَ الصليب فداءها
واشدُدْ بجلبكَ جُرْدَ خيلكَ أزْرها   تردّد على أعقابها أرزاءها
هى دارُك القصوى أوتْ لإيالة   ضمنتْ لها مع نصرِها إيواءها
وبها عبيدُك لإبقاء لهم سوى   سبل الضراعة يسلكون سواءها
دُفِعوا لأبكارِ الخطوب وعُونها   فهمُ الغداةَ يصابرون عناءها

ثم يتجه إلى الأمير ، ويمهد لذلك ببيت واحد يقول فيه ، إن مصير الإسلام فى الأندلس إلى زوال إذا لم تسعد بفتح جديد يعيد لها ما فقدت ، وأن آمالها تعلقت بيحيى يبقى للإسلام بها حياته ، وعليه أن يستجيب لندائها :

تلك الجزيرةُ لا بقاء لها إذا   لم يضمن الفتحُ القريبُ بقاءها
طافتْ بطائفةِ الهدى آمالها   ترجو بيحيى المرتضى إحياءها

ومن الأمير إلى حديث طويل عن بلنسية وما يثيره تذكرها من أحزان وأشجان ، وقد حال الكاثوليك بين أهل المدينة ومعاهدهم التى شبوا فيها ، ومساجدهم ذات المدارس

العامرة بالعلم ، وقد أصبحت كنائس تدق أجراسًا ، ومصانعها المعطلة تبدو مع الصباح متوقفة خاوية كما لو كان الليل يلفها :

إيهٍ بلنسية ! وفى ذكراك ما ... يُمرى الشئون دماءها لا ماءها
كيف السبيلُ إلى احتلال معاهدٍ ... شب الأعاجمُ دونها هيجاءها
بأبى مدارس كالطلولِ دوارسٌ ... نسخت نواقيسُ الصليبِ نداءها
ومصانعٌ كسفَ الضلالُ صباحَها ... فيخاله الرائى إليه مساءها

ويصف حال الكاثوليك فى بلنسية ، ويقول للأمير إنه سبق أن سمع أنباء بلنسية ، ولكنه يعيدها عليه لعل فى ذلك إنقاذا لبنيها ، ثم يدعوه إلى أن يجرد سيفه لفتحها وإخراج الأعداء منها :

عجبًا لأهلِ النار حلوا جنةً ... منها تمد عليهمُ أفياءها
مولاى هاكَ معادة أنباءها ... لتنيل منكَ سعادة أبناءها
جرِّدْ ظُباك لمحو آثار العدا ... تقتلْ ضراغمها وتسبِ ظباءها

ثم يتوجه إلى المسلمين جميعًا فيما وراء البحر يدعوهم أن يهبوا لنصرة الأندلس ، فإن العدو يطوقها من أطرافها يبغى الاستيلاء عليها كلها ، وأن استرداد بلنسية وبالتالى شرقى الأندلس الشمالى ، يجعل من البحر الأبيض بحيرة عربية :

هُبوا لها يامعشرَ التوحيدِ قد ... حان الهبوبُ وأحرِزُوا علياءها
أوْلوا الجزيرةَ نُصرةً إن العدا ... تبغى على أقطارها استيلاءها
نُقصتْ بأهلِ الشرك من أطرافها ... فاستحفظوا بالمؤمنين نماءها
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم ... رَهْوًا وجُوبوا نحوَها بيداءها

وينتقل إلى مدح الأمير ، فانتظارُه ترقب للفرصة السانحة ويبشر الأندلس الصابر المنتظر بمجيئه ، وأن شفاءه سيكون على يديه ، ويعدد مآثره على نحو ما عهدنا فى قصيدته الأولى : فنوره يضىء الدنيا ، وقوته تخضع لها الملوك الجبابرة ، ويده قابضة على البسيطة ، وأن الأرض والزمان ضاقا عن جلاله ، وهو أعلى من النجوم ، راسخ كالطود ، كريم كالغيث ، نبيل المحتد :

وتحسبها أنّ الأمير المرتضى مترَقبٌ بفتوحها آناءها
بُشْرى لأندلسٍ تحب لقاءه ويحب فى ذات الإله لقاءها
ملك أمدّ النيرين بنوره وأفاده لألاؤه لألاءها
وسع الزمانَ فضاقَ عنهُ جلالةً والأرْضُ طُرا ضنكهَا وفضاءها
كالطوْد فى عصف الرياح وقصفها لا رَهْوَها يخشى ولا هوجاءها

ويختم القصيدة معتذرًا للملك بأن أنعمه لا تحصى ، وفضائله لا تعد ، وأن القوافى تقف دون تصويرها عاجزة ، ويأمل منه أن يصغى إليها ، وأن يغضى عن هفواتها :

صفحًا جميلا أيها الملكُ الرضى عن محكماتٍ لم نطق إحصاءها
تقف القوافى دونهن حسيرةً لا عيَّها تُخفى ولا إعياءَها
فلعل علياكمْ تسامحُ راجيًا إصغاءَها ومؤمِّلاً إغضاءها

والقصيدة طويلة ، فى تسعين بيت ، كثيرة الصناعة من جناس وطباق ، يمل الإنسان قراءتها ، واعتمد ابن الأبار فى أغلب معانيها على قصيدته الأولى ، واستخدم الكثير من إلفاظها ، مثل : مولى ، ورحيم ، وعقائل ، والمدارس ، وحشاشة ، وغيرها ، وزاد معانى قليلة اقتضتها طبيعة الأحداث نفسها ، فهو يستحث الأمير الحفصى النصرة ، ويشكر له إيواء النازحين من بلنسية بعد أن استولى عليها خايمة الأول ، ذلك أن أسرًا أندلسية عريقة ، بعيدة الأثر فى تاريخ الأندلس السياسى والثقافى قد نزلت أرض تونس بعد ضياع مسقط رأسهم ، فوجدت كثرتهم من أهله برا وعطفًا ومواساة ، واضطربت الأمور بآخرين فكان حظهم تعسًا ، وإقامتهم ضيقًا ، وأشار إلى مصانع بلنسية وقد توقفت فشابه صباحها مساءها ركودًا وصمتًا ، وأبرز فكرة أن العدو لن يقنع ببلنسية ، وإنما يطمع فى غزو الجزيرة كلها ، وأن إنقاذها منه يبدأ باسترداد ما استولى عليه .

لم تؤد استغاثة ابن الأبار الثانية إلى شئ ، ولا نسمع له بعدها شيئًا عن وطنه ، ويبدو أن اليأس أو الخوف ، أو هما معًا ، سيطرا عليه ، فترك الأندلس نهائيًا ، ورحل إلى تونس ، ولمع فيها كاتبًا وشاعرًا ومؤلفًا ، وكانت خاتمة حياته مأساة قاصمة ، فقد حيكت

حوله الدسائس ، ووشى به إلى الأمير ، وحكم عليه بالموت قعصا بالرماح ، وسط محرم من سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شلوه ، وأحرقت معه كتبه وأوراق سماعه ودواوينه .

كان سقوط بلنسية من بعد طليطلة بداية انحسار الإسلام أمام جحافل الكاثوليكية الزاحفة من الشمال ، تدعمها المساعدات الأجنبية من كل العالم المسيحى ، ومن ورائها البابا بكل تعصبه ونفوذه وهيبته ، فانهارت الجبهة الشرقية وبدأت قواعدها تسقط واحدة وراء أخرى ، فسقطت مرسية Murcia عام ٦٤٠ هـ — ١٢٤٣ م ، وجيان Jaén وشاطبة Jativa فى ٦٤٤ هـ — ١٢٤٦ م ، ولم يكن حظ وسط الأندلس خيرًا من شرقية ، فسقطت قرطبة Cordoba ، عاصمة الخلافة القديمة فى يد فرناندو الثالث Fernando III وبعدها أصبح الطريق مفتوحًا أمامه إلى إشبيلية Sevilla كبرى مدن تلك الجهة ، وعاصمة الدولة على أيام المرابطين والموحدين ، فحاصرها برًا وبحرًا ، فانهارت أمام الجوع واستسلمت فى ٢٢ من ديسمبر ١٢٤٨ = ٦٤٥ هـ ، وباستيلائه عليها ، إلى جانب قرطبة ، استحق من مواطنيه لقب القديس El Santo ، وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعده الهامة قد سقطت فى قبضة الدول الكاثوليكية ، خلال ظروف دامية من المحن والاختلافات والفوضى والشقاء ، وانكمشت رقعة الإسلام فى الأندلس ، وكانت تضم على أيام المنصور العظيم ثلاثة أرباع الجزيرة ، إلى حيز ضيق يقع فى أواسط جنوبى الأندلس ، فيما بين نهر الوادى الكبير Guadalquivir والبحر فى الأندلس ، واستطاعت فى كنف المحنة وغمر الفوضى أن توطد دعائمها وأن تطاول التلاشى أكثر من مائتى عام .

وخلال حركة الجزر هذه توقف شعر الاستصراخ أو كاد ، وحل مكانه نثر مسجوع سخيف ، يفتعله الكتاب فى الرسائل الرسمية ، طافح بالزينة المفتعلة ، والصناعة المنهكة ، لا يحرك مشاعر ولا يثير انفعالا ، ولا يحسن تصوير الأحداث ، وانكفأت مملكة غرناطة على نفسها تواجه مصيرها بمفردها ، فالمغرب ليس أفضل حالا ، ومصر الساعد فى لحظات الشدة لكل العالم الإسلامى خرجت من الحروب الصليبية منهوكة القوى ، ومالبث اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إليه أن أتى على ازدهارها

الاقتصادى ، وخلا الجو لصغار الأمراء العابثين فى مملكة غرناطة ، يتعاونون مع العدو . ويتآمر الابن على أبيه . والأخ على شقيقه . ويتقاتلون بجيوش أجنبية ، ويدفعون الجزية لأعدائهم عن يد وهم صاغرون ، نعم نلمح بينهم واحدا أو اثنين يبرقان وسط الظلام الغامر ، فيحييان موات القلوب ، ويجددن غائر الأمل ، ولكن إلى حين ، وهيهات ! . . .

وإذا لم يستصرخ الشعراء من حولهم من المسلمين يأسًا أو احتقارًا أو جهلا ، فقد وجدت المحن نفسها وكانت فادحة وقاصمة ، من يخلدها فى شعر مُبكٍ حزين ، وكان شاعر النكبة بحق هو : أبو البقاء الرندى ، وسنأتى على حياته ، وندرس نونيته فى الفصل التالى .

أبو البقاء الرندى
ونونيته فى رثاء الأندلس

○ **عصر وشاعر :**

جاء أبو البقاء مع آخر أيام الموحدين فى الأندلس ، وعاصر وقعة العقاب[1] المشئومة على حد تعبير المقرى ، وجرت عام ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م ، وترد فى المدونات الإسبانية تحت اسم Las Navas de Tolosa ، وكانت هزيمة الموحدين فيها ساحقة ، وأدت إلى طردهم من الأندلس بعد أن ضعفت قوتهم ، وعجزوا عن حمايته ، وتراجعوا أمام النصارى فى شماله ، وتركت صدى أليما على امتداد العالم الإسلامى كله ، وكانت فى حقيقتها لقاء بين المسيحية والإسلام .

كان الجيش المسيحى فيها بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويضم جنودا من أرجون بقيادة ملكها ، وجاءت نبرة بملكها أيضًا ، والبرتغال بفرق من فرسان المعبد ، إلى جانب جماعات من الصليبين الفرنسيين والإيطاليين ، ومن وراء هؤلاء جميعًا البابا إنوسينسيو الثالث ، يشجع ويخطط ، يهب الجنة ، ويمنح البركات . وكان يقود الجنود المسلمين الملك الناصر بنفسه ، محمد بن المنصور ، أمير الموحدين ، وبلغ عددهم ستة مئة ألف ، فداخله الإعجاب بكثرة من معه ، وأخطأ التدبير ، فكانت الدائرة عليه ، وخلا بسببها أكثر المغرب من السكان ، واستولى النصارى على أكثر الأندلس ، ولم ينج من الست مئة ألف مقاتل غير عدد يسير جدًا ، وعاد الناصر بعدها إلى مراكش ، وفيها مات كمدًا عام ٦١٠ هـ - ١٢١٤ م ، « ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد » .

كانت الهزيمة ساحقة إذن ، وحاول المؤرخون المسلمون أن يتبينوا أسبابها علميًا ، فردها

---

(١) مكان قرب حصن سالم بين جيان وقلعه رباح

عبد الواحد المراكشي فى كتابه « **المعجب فى تلخيص أخبار المغرب** » إلى اختلاف قلوب الموحدين ، لأن الأمير تأخر فى دفع مرتبات الجند ، وخصوصًا فى هذه السفرة ، فخرجوا إلى الحرب وهم كارهون « فبلغنى من جماعة منهم ، أنهم لم يسلوا سيفا ، ولا شرعوا رمحا ، ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك ، وثبت أبو عبد الله هذا (يريد الناصر أمير الموحدين) فى ذلك اليوم ، ثباتًا لم ير لملك قبله ، ولولا ثباته لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسرًا » .

ويردها **الحميرى** فى كتابه « **الروض المعطار** » ، **والمقرى** فى كتابه « **نفح الطيب** » ، إلى أن الأمير أخطأ التدبير حين أساء إلى الأندلسيين ، وهم العارفون بقتال الإفرنج ، استخف بهم ، وشنق بعضهم ، ففسدت النيات ، وتفرقت الكلمة ، ويضيف **ابن خلدون** إلى هذا كله سببًا آخر ، وهو خيانة ملك ليون حليف الناصر ، وتخليه عنه فى اللحظة الحرجة .

أما النصارى ولم يكونوا يحلمون بنصر كهذا فأرجعوا الأمر كله إلى إلى المعجزات : فأحد الرهبان الذين شاركوا فى المعركة ، وقاتل فيها ، كان يرفع الصليب ، وتوجهت إليه شتون سهمًا فلم تصب منه مقتلا ، وأحد الفلاحين كان يتقدم المقاتلين يقودهم ويرشدهم ، وبعد أن أدى دوره فى المعركة اختفى ولم يظهَر له أثر ، وكان الله يرد نيران المسلمين عليهم ، ويذكر المؤرخون الفرنسيون أن النصر يعود إلى عذراء روكامدور ، وجاءت من فرنسا بمعجزة وكانت وراء الانتصار ، وأن الصليب ظهر فى السماء طوال أيام القتال ، وأن راهبًا شق طريقه وسط الجيش الإسلامى يحمل صليب المطران دون أن يصيبه أذى ، وأن قتلاهم فى المعركة يتراوحون بين ٢٥ و ٥٠ قتيلا ، وأن المئتى ألف مسلم الذين قتلوا فى المعركة لم تسح منهم نقطة دم واحدة .

كان **أبو البقاء** فى الثامنة من عمره تقريبًا حين حدثت **وقعة العقاب** ، وليس ثمة شك أن صدى المهانة التى لحقت بالمسلمين ظل يتردد بعدها لسنوات طويلة ، وأن فداحة أحداثها اختلطت مع الأيام بالأساطير والقصص ، وتسرب ذلك كله إلى أعماقه ، فكان إحساسه وجيله بالمأساة أليما فادحًا ، وزاد من قسوة ذلك أنها كانت الخطوة الأولى فى طريق طويل انتهى بسقوط دولة الإسلام فى الأندلس .

وشهد فى شبيبته أبا عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى يحاول فى مدينة مرسية وما حولها عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م ، أن يجمع شمل المسلمين ليواجه بهم النصارى فى الشمال ، فلم يسعفه الحظ ، ولم تواته الفرصة ، وفى ذلك الوقت كان القشتاليون يقيمون زعيما مسلمًا ليحارب زعيما آخر مسلمًا أيضًا ، فيتحطم الاثنان معًا ، فوضعوا ثقلهم إلى جانب **محمد بن يوسف بن نصر** المعروف **بابن الأحمر** ، وهو عربى أصيل ، من قبيلة الخزرج الشهيرة فى المدينة ، فأقام لنفسه دولة حول غرناطة ، أتيح له فيها إلى حد ما أن يُحيى عظمة إشبيلية على أيام بنى عباد ، وظلت غرناطة على مدى قرنين ونصف من الزمان حامية حمى الإسلام فى صراعه الدفاعى ضده قوة المسيحية الصاعدة فى الأندلس .

وأمضى **أبو البقاء** زهرة حياته فى عهد الأمير محمد (١٢٣٢ – ١٢٧٣ م) ، وكان يلقب بالغالب بالله ، وهو الذى أسس الدولة ، وأقام دعائمها ، وجعل غرناطة عاصمتها ، وبنى الحمراء ذات الشهرة العالمية على أنقاض قلعة أموية قديمة ، وعاصر شيخًا تجاوز السبعين من عمره اللقاء الحاسم بين الأندلسيين والمرينيين من جانب ، والقشتاليين بقيادة **دون نونيو دى لارا** Don Numo de Lara صهر ألفونسو العاشر الملقب بالعالم ، ملك قشتالة ، من جانب آخر . وكان المسلمون بقيادة السلطان المرينى أبى **يوسف يعقوب** الذى باشر القتال بنفسه وجعل ابنه على المقدمة ، وكان انتصار المسلمين فى الموقعة حاسما ، أعاد إلى أذهان الأندلسيين ذكريات موقعتى **الزلاقة والأراكة المجيدتين** لقد هزموا الجيش القشتالى ، وتشتت جنده ، وقُتل قائده ، ولكن ما عجز القشتاليون عن تحقيقه فى ميدان الحرب حققوه عن طريق الدسيسة فى مجال السياسة ، فأوقعوا بين الأميرين الغرناطى والمرينى ، غير أن عقلاء المسلمين سرعان ما انتبهوا إلى الأمر ، وتجاوزوا دفاعًا عن وجودهم عما وقع بين الأميرين من خلاف ، وتفاهم المغاربة والأندلسيون ، وأصبحت مالقة قاعدة لبنى مرين ، ومحطًا لقواتهم التى تعبر إلى الأندلس مجاهدة ، ونزحت مجموعة من خيرة المغاربة للإقامة فيه لتكون على أهبة الاستعداد دومًا ، ودخلت التاريخ تحت اسم **مشيخة الغزاة** ، وكان رئيسها يعرف باسم « **شيخ الغزاة** » .

ومع ذلك يؤخذ على محمد الأول مؤسس مملكة بنى نصر ، أنه كان يذهب فى مهادنة

النصارى واتقاء شرهم حدًا مهينًا ، يدفع لهم الجزية ، ويأخذ رضى صاحب قشتالة فيما يفعل ، ويعينه بالجند والسلاح حين يقاتل غيره ، وفى سنة ٦٤٣ هـ = ١٢٥٤ م صالح ملك قشتالة ، وعقد معه معاهدة سلم تنازل بمقتضاها عن عدد من المدن والحصون والقلاع ، من بينها جيان ، وشريش ، والقلعة ، والمدينة ، وغيرها .

فإذا تركنا الحرب والسياسة إلى الفكر والأدب والثقافة ، وجدنا الموحدين يقفون إلى جانبها ، ويشجعون عليها ، وإن اهتموا بالعلوم العملية والفلسفية بخاصة ، فازدهر الطب على أيامهم ، وأنشأوا المدارس الحربية ، وعرف الأندلس عددًا من علماء النبات ، وشهدت الفلسفة أوج عصرها ، أنه العصر الذى عاش فيه ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ، ومن بين أروع ما حققوه فى هذا المجال وسبقوا إليه الدعوة إلى التزام المفكر بمنهج فكرى معين ، يصدر عنه فيما يقول ويعتقد ويدعو ، لا يحيد عنه مع الهوى ، ولا يميل به مع الريح ، فقد أخذ علماء الأندلس ، فيما يروى **بن خلصون** على الغزالى ، « أنه خلط النهاية بالبداية ، فصارت كتبه أقرب إلى التضليل منها إلى الهداية » ، ويزيد **ابن طفيل** الأمر تفصيلا فيقول : « وأما أبو حامد فإنه مضطرب التأليف ، يربط فى موضع ويحل فى آخر ، ويتمذهب بأشياء ويكفر بها »[٢] ، ويأخذ عليه **ابن رشد** أنه « لم يلتزم طريقة فى كتبه ، فنراه مع الأشعرية أشعريًا ، ومع المعتزلة معتزليا ، ومع الفلاسفة فيلسوفا ، ومع الصوفية صوفيًا ، حتى كأنى به :

يومًا يمانٍ إذا لاقيتَ ذا يمنٍ ... وإن لقيتَ معديًا فعدنان »[٣]

وبقى الأدب فى الذروة فنًا ، وإن أدى به الترف إلى الانحطاط فى بعض ما عالج من موضوعات ، وانهارت سلطة الفقهاء على أيام الموحدين ، ومنعوا جملة من التدخل فيما لا يعنيهم من شئون الدولة ، ثم أخرجوا من الأندلس[٤] ، غير أن الإسلام الأندلسى ،

---

(٢) فصل ابن طفيل اتهامه هذا ، ومن أراده كاملا فليرجع إلى : ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٦ .

(٤) لدراسة هذه القضايا تفصيلا يمكن العودة إلى : الدكتور حكمة على الأوسى ، الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين ، القاهرة ١٩٧٩ .

على حد تعبير غرسية غومث ، «كان يأكل آخر زاده »(٥) .

واختلفت مملكة غرناطة فى هذا المجال عما سبقها ، فقد غادر الأندلس كثيرون قبل قيامها ومعه ، تناثروا فى أفريقية أو المشرق ، يبحثون عن الأمن وراحة البال ، أو يطلبون الشهرة ونباهة الذكر ، وجاءها مئات آخرون من العلماء والفقهاء والأدباء ، وفدوا من مختلف المقاطعات التى سقطت فى يد النصارى ، ولكن الأندلس كان قد أوفى على غايته ، إجادة وإبداعًا وأصالة ، فظلوا يعيشون على تراث الأعصر الذاهبة ، يفصلون المجمل ، ويجملون المبسوط ، ويحررون الهوامش على الشروح ، وأصبح الشعر بعامة « معانيه شاحبة ومعروقة ، غير أن أشكاله الرائعة لم يصبها أى تلف . نعم ، لم يبق ثمة عسل فى الشهد ، ولا زهور حوله ، ولكن بعض نحلات تخلفتْ ، تمسح الخلايا الفارغة وتلمعها ، على نحو لم يحدث يومًا(٦) » ، وكان أبو البقاء واحدا منها .

جاء أبو البقاء واسطة العقد بين جيلين من الشعراء : مجموعة سبقته تنتمى إلى عصر الموحدين ، وأبرز شعرائها **أبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية** ، وعرضنا لهما فى موضع آخر من هذا الكتاب ، **وأبو بكر بن زهر** ، المتوفى ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ م ، واشتهر وشاحًا أكثر منه شاعرًا ، **وأبو بحر صفوان من إدريس** ، صاحب كتاب « زاد المسافر » والمتوفى عام ٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م ، وآخرون كثيرون مقلون شعرا ، أو ضاع إبداعهم مع الزمن ، أو فى مرتبة غير عالية منه . وبين طبقة أخرى تلته ، وكان لها طابع أنغامه فى الموسيقا ، وتلتقى معه فى عدد من الموضوعات دارت حولها قصائدهم ، وفى مادة التصوير نفسها . بعضهم يقف معه على خط واحد ، والآخرون سبقوه ، على الأقل فى ضوء ما وصلنا من شعره ، وهم ليسوا كثيرين على أية حال ، ويجيء فى مقدمتهم **ابن خاتمة** شاعر ألمرية ، وخصته المستشرقة الإسبانية الفاضلة الدكتورة **سوليداد خيبرت** Soledad Gibert بدراسة عميقة

(٥) الشعر الأندلسى الترجمة العربية ، ص ٦٥ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .

(٦) غرسية غومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة د . الطاهر أحمد مكى ، ص ٢٢٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٣٩٨ ١٩٧٨

وجيدة ، وترجمنا نصها إلى العربية فى هذا الكتاب ، **وابن زمرك**[٧] ، **وابن الخطيب** أخيرًا ، وبعد هؤلاء الثلاثة بدأت شمس الشعر الأندلسى ، مع دولة الإسلام نفسها ، تنحدر نحو الغروب .

أما الذين عاصرهم من الشعراء فعلا فهم : أبو عبد الله محمد بن أدريس المعروف بمرج الكحل ، المتوفى عام ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م ، وابن سهل الإشبيلى ، المتوفى عام ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م ، وعلى بن سعيد المغربى ، المتوفى ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م ، وكان إلى جانب الشعر مؤرخًا ومؤلفًا ، وثمة آخرون كانت تصطخب بهم الحياة فى إشبيلية ، عاصمة الموحدين ، وأرجح أنه التقى بهم ، أو ببعضهم فى الأقل ، ورندة لا تبعد كثيرًا عن إشبيلية . وعاصر أيضًا ابن الأبار الشاعر والمؤرخ ، وصاحب قصيدتى الاستصراخ اللتين عرضنا لهما من قبل ، ولا أظنهما تلاقيا ، لأن ابن الأبار من بلنسية ، وفارق الأندلس إلى تونس مع سقوط مدينته فى يد النصارى عام ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م ، وأرجح أن أبا البقاء عرف قصيدتيه ، إن لم نقل الكثير من شعره ، وأنه استوحاهما فى نونيته التى سنعرض لها فيما بعد .

○ مصادر دراسته :

حتى زمن قريب كان أبو البقاء الرندى شاعرًا مغمورًا لا يتحدث عنه الناس إلا حين يذكرون نونيته ، فإذا تحدثوا وقفوا عندها معجبين متأثرين أو ناقدين مقومين ، أو محللين يستخرجون النتائج والأسباب . ولا يتجاوزونها إلى حياته نفسها لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل . وربما كان المقرى مسئولاً عن هذا إلى حد بعيد ، فرغم أنه أورد قصيدته كاملة ، فى كتابيه **نفح الطيب** ، **وزهر الرياض** ، ونقل عنه أبياتًا أخرى متفرقات ، وجاء له بقصيدة ثانية مطولة ، لم يشر إلى حياته بحرف واحد ، وحين يسكت المقرى صاحب الموسوعة الأندلسية الكبرى يحتذى الناس خطاه مسلمين .

---

(٧) : مما كانت أفضل دراسة لابن زمرك ، حتى هذه اللحظة ، هى التى قام بها غرسية غومث ، وترجمناها إلى العربية ، انظر : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

كان المؤرخ المصرى الكبير الأستاذ **محمد عبد الله عنان** أول من حاول أن يمزق حجب الصمت حول هذا الشاعر الأندلسى ، فتحدث مطنبا عن عصر الرجل ، وموجزًا عن حياة الشاعر ، فى الجزء الأول من كتابه « **نهاية الأندلس** » ، وهى خطوة كان من الضرورى أن تتلوها خطوات ، فى ضوء ما ينشر من مخطوطات كانت مغمورة ، أو ينتهى إليه البحث العلمى من كشوفات ، غير أن الأمر وقف عند دراسة الأستاذ عنان ، ولم يتجاوزه أحد ، إذا استثنينا تعريفًا موجزًا بالشاعر ، وتعليقات مفيدة على قصيدته ومؤلفاته ، أتى بها البحاثة المغربى الأستاذ **عبد الله كنون** ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو يعرف بكتاب أبى البقاء « **الوافى فى نظم القوافى** » ، فى مقال له بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد[٨] .

والترجمة الوحيدة الوافية نسبيا لأبى البقاء ، أوردها **ابن الخطيب** فى كتابه **الإحاطة فى أخبار غرناطة** ، المجلد الثالث بتحقيق محمد عبد الله عنان ، ونُشر فى مصر للمرة الأولى عام ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م ، واعتمد فيها ابن الخطيب على جانب مما أورده **ابن الزبير** ، المتوفى عام ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م ، فى كتابه « **صلة الصلة** » ، وعلى **ابن عبد الملك** ، المتوفى عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٥ م ، فى كتابه « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة »[٩] ، وأتى على أخبار تتصل بحياته ، وبمقتطفات عديدة من شعره ، لا نجدها فى نسخة الذيل التى بين أيدينا ، لأن ترجمة أبى البقاء فيها غير كاملة ، سقط آخرها ، وعدد آخر بعده من التراجم[١٠] .

---

(٨) المجلد السادس ، ص ٢٠٥ – ٢٢٠ ، عام ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م .

(٩) الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، نشر ليفى بروفنسال الجزء الثالث منه ، فى الرباط عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ ، وهو مبتور الأول ، وعثر أخيرا على هذه الأوراق المبتورة ، وأوراق من الوسط والآخر ، فى مكتبة القرويين بفاس ، وتحمل تحبيس الكتاب على الخزانة ، ولكنه احتال منها من الدوس والاستبداد ، وتحمل هذه الأوراق تاريخ نسخ الكتاب وهو ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧ م ، أى فى زمن المؤلف نفسه ، ولا يستبعد المؤرخ المغربى عبد السلام بن سودة المرى أن تكون بخط المؤلف ذاته ، ويوجد بدار الكتب المصرية النصف الأول من السفر الثانى مخطوطا .

[illegible] عبد السلام بن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، جـ ١ ص ٢٧٧ ، الطبعة الثانية ، الدار البيضاء ، ١٩٦٠ م .

(١٠) توجد مخطوطاته موزعة على عدد من مكتبات العالم ، ومن سنوات بدأ الدكتور احسان عباس فى نشر ما تيسر له منها ، نشر السفر الخامس كاملا ، والقسم الثانى من السفر الأول بتحقيق الدكتور محمد شريفة ، وقسم من السفر الرابع .

○ **حياته :**

نعرف مما أورده لنا ابن الخطيب أن أبا البقاء ولد فى محرم من سنة ٦٠١ هـ = سبتمبر ١٢٠٤ م ، وتوفى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م ، يذكر ذلك صراحة ، وليس مع النص اجتهاد ، أى أنه عاش قريبًا من اثنين وثمانين عامًا ، أدرك معها أوائل إمارة محمد الثانى ، وطالت حياته حتى لامست القرن الثامن الهجرى ، وشهد من الدولة أيام استقرارها ، وإن لم تكن على ما يتمنى لها الأندلسيون من القوة والثبات .

واسمه كاملًا ، اعتمادًا على ابن الخطيب أيضًا : صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم بن على بن شريف النفزى ، ويُكنى عنده أبا الطيب ، ويكنيه المقرى **أبا البقاء** ، وهى الكنية التى اشتهر بها ، وشرقت وغربت رفق نونيته . ويبدو أن له أكثر من كنية ، ولم يكن وحيدًا فى هذا ، فقد أشار ابن الخطيب إلى والده فى موضعين ، كناه بأبى الحسن فى واحد ، وكناه بأبى خالد فى الثانى منهما : ونعرف من هذا النسب أنه نفزى ، ونفزة قبيلة من البربر ، ولكنها تذهب بأنسابها إلى حمير فى اليمن .

ونعرف من لقبه أنه من **رندة** ، وهى مدينة قديمة ، على قمة جبل مرتفع ، بها آثار كثيرة ، ويشقها نهر ينسب إليها ، وتحيط بها الوديان من كل جانب ، وأتاح لها ذلك كله أن تكون فى أحوال كثيرة شبه مستقلة ذاتيًا ، وقامت فيها خلال عصر الطوائف ، كغيرها من كبريات المدن وإن لم تكن كبيرة ، إمارة مستقلة على رأسها بنو إفران ، وهم ينحدرون أيضًا من أصول بربرية ، ودام حكمهم لها عشرين عامًا . وخلال الدولة النصرية كان هناك من يلوذ بها ثائرًا أو هاربًا أو متوثبًا ، ومن بين كل مدن الأندلس لما تزل تحتفظ فى حاضرها المعاصر بروح عربى واضح ، فى المبانى والشوارع وحياة وأخلاق الناس ، وزرتها أكثر من مرة ، فما أحسست بما أحس به المتنبى قبل أكثر من ألف عام وهو يزور شعب بوان .

---

(١١) الذيل والتكلمة ، بقية السفر الرابع ، نشر احسان عباس ، الترجمة رقم ٢٦٣ ، ص١٣٦ – ١٣٩ .

وحياة أبى البقاء ، حتى وهو فى طور الرجولة ، وتحت أضواء الشهرة ، تجئ غامضة ومجملة ، فلا نعرف شيئًا عن أسرته ، أبيه وأسلافه من قبل ، ولا عن بنيه وزوجه ، والحنان العائلى غائب فى شعره تمامًا ، ونعرف من الإشارة إلى شيوخه ، وسنعرض لهم فيما بعد ، أنه أمضى شطرًا من صباه فى إشبيلية يدرس على **الدباج وابن الجد** ، وأقام **بمالقة** زمنًا درس فيه على **ابن الفخار الشريشى** ، وقرأ على **ابن الزبير** صاحب كتاب « **الصلة** » ، وتلقى العلم فى **غرناطة** على **ابن قطرال وابن زرقون** ، وظل يتردد على عاصمة الإمارة حتى بعد أن نضج وتجاوز مرحلة الطلب ، يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها ، ويذكر **أبو عبد الله اللوشى** ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، أنه نظم قصيدته التى مطلعها :

أواصلتى يومًا وهاجرتى ألْفا ‌ ‌ ‌ ‌ وصالُكِ ما أحلى ، وهجرك ما أجفا (١)

باقتراح السلطان يعارض قصيدة ابن هانئ ، وأمره ألا يخرج من بساتين القصر الملكى قبل أن يكملها . وقد جاء فى طالعة كتابه « الوافى فى نظم القوافى » : « قال الشيخ الجليل ، الفقيه القاضى أبو الطيب . . . » ، واستنتج منها العالم المغربى الأستاذ عبد الله كنون أنه ولى منصب القضاء ، ولا أراه حتما ، فقد يلحق به اللقب وجاهة ، أو لأن الذين حوله يقصدونه لحل مشاكلهم إخاءً وودًا ، دون أن يكون قد ولى المنصب رسميًا .

وندرك من أشعاره أن حياته لم تكن سهلة ميسرة ، ولا تسير على وتيرة واحدة ، وإنما تعاورتها لحظات سعيدة وأخرى مضنية ، وتوارد عليه النجاح والإخفاق فتغزل سعيدًا ، وشكا الليل مهمومًا ، وألغز فى أشعاره خلى البال يتسلى . ونفهم من شعره أنه كان يتردد على السلطان محمد الغالب ويمدحه ، وأن جفوة قامت بينهما ، وأنه ابتعد عن البلاط النصرى زمنًا ثم عادت الأمور إلى طبيعتها ، واتصل مديحه من جديد :

نأيتُ عنه اضطرارًا ثم عدتُ له ‌ ‌ ‌ ‌ كما اقتضى المُبْرمانِ الحلَّ والسفر
فإن قضى الله أن يقضى به أملى ‌ ‌ ‌ ‌ فحسْبى المُحْسبان الظلَّ والثمر

---

(١٢) وهى قصيدة طويلة ، وأوردها ابن الخطيب كاملة ، انظر : الإحاطة ، جـ ٣ ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ . والفقرة الخاصة بشعر أبى البقاء من هذه الدراسة

ويبدو أنه تغرّب كثيرا ، ونلمح هذا واضحًا فى شعره ، وسنعرض له حين نتحدث عن شاعريته ، وتعرض لأزمات مالية قاهرة ، وعانى من الفقر أشده ، وتمنى الموت على حياة هذه حالها ، واكتشف أن المال يستر العيوب ، وأن الفقر يكشفها :

وقد لذ الحِمامُ وطابَ عندى ... وعيشى ٍ لا يلذُّ ولا يطيبُ
لَحَى اللهُ الضرورةَ فهى بلوى ... تهين الحرَّ والبلوى ضروب
رأيتُ المالَ يسترُ كل عيْبٍ ... ولا تخفى مع الفقرِ العيوب
وَفقْدُ المال فى التحقيق عندى ... كفَقْدِ الروحِ ذا من ذا قريب

وهى غربةٌ ليس مردها أيام الطلب فى إشبيلية أو مالقة ، وإنما جاءته أواخر حياته فيما يبدو ، لأننا نجده فى القصيدة نفسها يحن إلى الصبا ، وإلى الشباب على السواء ، وأثارها فى نفسه حادث لم يفصح عنه :

ومما هاج أشواقى حديث ... جرى فجرى له الدمعُ السكوبُ
ذكرتُ به الشبابَ فشقَّ قلبى ... ألم تر كيف تنشقُّ القلوبُ
على زمن الصبا فليبكِ مثلى ... فما زمنُ الصبا إلا عجيب
جهلتُ شبيبتى حتى تولّتْ ... وقدرُ الشىء يُعرَفُ إذ يغيب

ويبدو أنه كان فى غربته يلتمس عيشًا أفضل لم يبلغه ، وحياة أطيب لم تواته ، فهو يعتذر لنفسه بأنه لم يدع من جهده شيئًا ، وأن أمور العيش لا تخضع لمنطق ولا تجرى على قياس ، وأن العاقل بها لاحظ له ، كأنها تعادى كل أريب ، وأن الحظ وراء كل نجاح ، ومع غيبته تصبح حسنات المرء سيئات :

وقد أجهدتُ نفسى فى اجتهادٍ ... وما إن كلُّ مجتهدٍ مصيبُ
وقد تجرى الأمور على قياسٍ ... ولو تجرى لعاش بها اللبيب
كأن العقل للدنيا عدوٌّ ... فما يقضى بها أربًا أريبُ
إذا لم يُرزق الإنسانُ بختًا ... فما حسناته إلا ذنوبُ

ولكن . . أين كانت غربة أبى البقاء هذه ؟ لم يفصح عنها ، غير أننا نعرف أنه عاش فى مدن مملكة غرناطة الكبرى كلها ، إشبيلية ومالقة وغرناطة ورندة ، طالبًا أو ناشئًا أو

مترددا ، وفى كل الحالات كان يتحرك رَجُلاً على رقعة صغيرة فى أيامه ، هى كل ما بقى للمسلمين فى الأندلس ، ولا يعد معها فى حركته غريبًا يشكو ، أو نائيًا يحن ، لأنها فى أقصى أطرافها على مسافة أيام قليلة من أى مكان يشتاق إليه . وقد نفهم من اعتذاره للسلطان فى أبيات سبقت بأن الغربة هى التى نأت به بأنه كان خارج بلاده ، وهو ما يمكن أن نفهمه أيضًا من الأبيات التالية يتحدث فيها عن نفسه غريبًا يحن إلى بلاد لا يضيع بها الأديب ، رائقة الطبيعة ، طيبة الهواء ، خلف فيها حبه وقلبه ، وإذا استثنينا هذا الأخير ، فبلاد الأندلس كلها سواء فى ألوان الطبيعة وتقدير الأديب :

ألا ذكر الإلهُ بكل خَيْرٍ ... بلادًا لا يضيع بها أديبُ
بلادٌ ماؤها عذب زلالٌ ... وريحُ هوائها مسك وطيبُ
بها قلبى ، الذى قلبى المعنَّى ... يكاد من الحنين له يذوبُ

أين كان إذن ؟ بدءا أستبعد أنه ذهب إلى الجانب المسيحى من الأندلس ، رغم أن العلاقات السياسية بين غرناطة وجيرانها كانت فى فترات كثيرة قوية ومسالمة ، والجزية التى كان يدفعها محمد الغالب لقشتالة جعلت منه تابعًا لها من حقه أن يكون عضوًا فى برلمانها ، (الكورتس Cortes) ، ومن حقه أن يحضر اجتماعاته ، ورغم أن هذه البلاد كانت حتى تلك اللحظة عامرة بالمسلمين الذين حملوا اسم المدجنين Los Mudejares ، ويسهمون بنشاط فعال فى حركة الحياة اليومية ، من اقتصاد وزارعة ومعمار وفن وثقافة ، بعيدًا عن السياسة ومشاكلها ، لأن قصيدته هذه ، وواقع حياته بعدها ، لا يشي بشيء من هذا على الإطلاق .

لم يبق إذن إلا أن نفترض أنه عبر المضيق إلى العدوة الأخرى ، إلى مغرب بنى مرين ، أرجح هذا حدسًا وليس معى من الوثائق ما اعتمد عليه ، ولا من الإشارات ما يدعم ظنى ، غير ما استنطقته من أبياته السابقة ، ومن ظاهرة أخرى لا أجد لها ، ولم يجد غيرى ، تفسيرًا ، وهى أن نونية أبى البقاء ، وفى مجملها إدانة لحكام الأندلس وتحريض عليهم ، لم ترد ، كما سنرى ، فى أى مصدر أندلسى رغم شهرتها ، وكان كتاب **الذخيرة السنية ، فى تاريخ الدولة المرينية ، العبد حقية** » المصدر الوحيد الذى جاء بها كاملة ، وهو

كتاب مغربى مؤلفا ومادة ، وعنه نقلها المقرى التلمسانى ، وهو مغربى أيضًا . أتراه باح بها هناك ألمًا ممضا لم يستطع أن يتفوه به هنا ؟ ربما . ومع ذلك ، فما أراه مجرد ظن ألقى به ، دار بخاطرى ، لم أستطع له طردا ولا نفيًا ولا تأكيدًا ، وأدع الوثائق ترجح أو تؤكد فى قابل الأيام أحد الاحتمالين .

وصفوة القول فى أبى البقاء ، أوجزها لنا ابن الزبير ، وكان أستاذا له على نحو ما : «كان فى الجملة معدودًا من أهل الخير ، وذوى الفضل والدين » ، ويضيف ابن عبد الملك : وكان نبيل المقاصد متواضعًا ، مقتصدًا فى أحواله .

○ **شيوخه :**

يلعب الأستاذ دورا كبيرًا فى حياة الطالب ، توجيهًا نحو منهج محدد ، وترغيبًا فى مادة معينة ، وإيثارًا لسلوك خاص ، وذلك حين يملك الأستاذ وسائل التأثير من العلم والاستقامة وحب الطلاب ، يكون أهلاً للاحتذاء ، وأراه مفيدا هنا أن نعرف شيئًا عن شيوخ أبى البقاء ، وقد جهلنا الكثير عن حياته ، وسنلمح من سلوكهم ، ومن مواقفه وإبداعه ، أنهم تركوا فيه أثرًا باقيًا .

أورد لنا ابن الخطيب طائفة من شيوخ أبى البقاء ، ولا نعرف على التأكيد إذا كان قد جاء بهم على سبيل الحصر ، أو جاء بالكبار منهم إجمالا ، ولم يقدم لنا ماذا درس هؤلاء ، وماذا تلقى الطالب على أيديهم من مواد ، وأول ما يذكر منهم أبا الحسن يزيد ، والد أبى البقاء ، وهو أمر بدهى ، ولكنى لم أجد له ذكرًا فى أى من المصادر الأندلسية الأخرى ، ويبدو أن مشيخته لابنه اقتصرت على تعليمه الابتدائى ، مما درج الأطفال فى الأندلس على تعلمه فى الكتاب ، على يد معلم خاص ، أو من آبائهم أنفسهم ، إذا كانوا على شىء من ثقافة ، وهو ما لا يعدو القراءة والكتابة وتجويد الخط ، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، وشىء من الشعر ، وقليل من النحو .

والثانى من شيوخ أبى البقاء هو **الدباج** ، هكذا ذكره ابن الخطيب ، دون كنية تسبقه أو لقب يلحق به ، ولكنه لا ينصرف حين يجئ هكذا إلا إلى **أبى الحسن على بن جابر**

اللخمي الإشبيلي ، وُلِد سنة ٥٦٦ هـ = ١١٦٩ م ، وكان علمًا فى إشبيلية ، أديبًا وعالمًا وصالحًا ، وأماما فى فنون العربية ، يقرئ كتاب سيبويه ، والقراءات السبع ، وشهر بتدريس كتب الأدب ، كالكامل للمبرد ، ونوادر أبى على القالى ، وما أشبه ذلك . وتتلمذ عليه عدد من شعراء الأندلس وكتابه ، من بينهم **على بن موسى** ، مكمل كتاب « **المغرب فى حلى المغرب** » ، ومؤلف كتاب « **المقتطف من أزاهر الطرف** » ، و « **الغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة** » ، و « **المرقص والمطرب** » ، « **الطالع السعيد فى أخبار بنى سعيد** » و « **رايات المبرزين** » وغيرها . ومن تلاميذه أيضًا الشاعر الرقيق **ابن سهيل الإشبيلى** .

وكان إلى جانب هذا أستاذًا فكها ، لطيف المعشر ، حلو الروح ، قريبًا إلى نفوس طلابه ، يتندر معهم ، ويصحبهم للنزهة خارج إشبيلية ، وينشدهم شيئًا من أشعار لطيفة تجيء عفو الخاطر ، فيها ظرف ورقة ، وبريئة من أوزار شعر العلماء فى سخفه ونظمه ورتابته وثقل دمه ، وذات يوم خرج يتنزه مع طلابه ، وأحضرت لهم مجبنات [١٣] « ماخبا نارها ، ولا هدأ أوراها ، فما خام عنها ولا كف ، ولا صرف حرّها عن اختضابها البنانَ والكف ، فقال فيها :

أحلى مواقعها إذا قرّبتَها ... وبخارُها فوق الموائِد سامِ
إنْ أحرقتْ لمسًا فإن أوارَها ... فى داخل الأحشاء بردُ سلام

« وقال أحد تلامذته لغلام جميل الصورة : بالله أعطنى قبلة تمسك رمقى ، فشكاه إلى الشيخ وقال له : ياسيدى ، قال لى هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ ، فقال : لا ، فقال له : ما هذه الثقالة ، أما كفاك أنك حرمته حتى تشتكى به أيضًا » ! .

وكان يتذوق الشعر الجيد ، يطرب لسماعه ، ويشجع على قوله ، وكان الشاعر الوشاح **أبو بكر ابن الصابونى** ينشده موشحاته ، يسمعها منه غير مطنب ولا معلق ، فلما أسمعه الدور التالى من موشحة له ، صاح به مردِّدًا «لله درُّك» ! ، والأبيات رقيقة حقًا :

---

(١٣) المجبنات نوع من العجائن المحشوة بالجبن ، ثم تنضج على النار وتأكل ساخنة ، وكانت ذائعة فى الأندلس ، وتتردد كثيرا فى الشعر الأندلسى .

قسمًا بالهوى لذى حجْرِ ما لليلِ المشوقِ من فَجْرِ
خَـمَـدَ الصبحُ ليس يطرِدْ
مــا لِــلَيلى فيما أظنُ غَــدْ
صحّ يــالـيــلُ أنّك الأبــدْ
أو تقضّتْ قوادم النسرِ فنجومُ السماء لا تسرى

وقد أعجب على بن سعيد بالبيتين التاليين من شعر شيخه ، فأوردهما له فى الكثير من كتبه ، كالمغرب ، ورايات المبرزين ، والقدح المعلى ، وربما فى غيرها ، وعنه بالتأكيد نقلهما المقرى فى نفح الطيب :

لمَّا تبدتْ وشمسُ الأفق بادية أبصرتُ شمسين من قُرْبٍ ومن بُعدِ
من عادة الشمس تعشى عينَ ناظرِها وهذه نورها يَشفى من الرَمدِ

وأورد له الرعينى الإشبيلى الأبيات التالية ، فى الترجمة التى خصه بها فى برنامجه :

ما جاء عفوًا فخذهُ ومـــا أبى فــتـجـنَّبْ
ولا تَرِدْ كلَّ مرعى ولا تَردْ كلَّ مشرَبْ
فــربّما لــذَّ طـعـم وفـيـه سمٌّ مُقَشَّبْ

وهى أبيات كما ترى من الحكم المنظومة ، وأورد له ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة أبياتًا أخرى ، وبعضها يتكرر فى المصادر التى عرضت له ، ويغلب على جانب كبير منها طابع شعر العلماء .

وكان إلى جانب هذا شيخًا جليل القدر ، مشهورًا بالفضل ، قدمه أهل إشبيلية للصلاة بهم فى جامع العدبّس ، وهو من المساجد الكبيرة والشهيرة ، وتوفى فى آخر حصار إشبيلية ، يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان ، عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م ، وكان من دعائه ألا يخرج عنها . وألا يمتحن بما امتحن به من عاش بعده عند إخراج العدو لأهلها ، فكانت وفاته قبل استيلاء العدو عليها بتسعة أيام ، ولم يحضر الصلاة عليه إلا ثلاثة نفر ، لما حل بالناس يومئذ من الموت وباءً وجوعًا . ويقول ابن السراج إنه توفى عند دخولهم لم يمهل ، ودُفن بداره ، وحُفر قبره بالسكاكين استعجالاً لموارته ، واشتغالاً عن التماس

آلات الحفر بهول اليوم . ويرى ابن الأبار فى كتابه التكملة أنه « تُوفى بعد دخول الروم البلد صلحًا بنحو من ثمانية أيام ، هاله نطق النواقيس ، وساءه خرس الأذان ، فما زال يتأسف ويضطرب إرتماضًا لذلك إلى أن قضى » . وهى رواية يوهن من أمرها أن تحويل مساجد إشبيلية إلى كنائس لم يحدث لحظة الفتح مباشرة ، وإنما جاء تدريجًا مع الزمن ، وأن الأذان لم يختف دفعة واحدة ، لأن المسلمين ظلوا فى المدينة سكانًا لزمن طويل .

وثالث الشيوخ ، بترتيب ابن الخطيب ، **هو ابن الفخار** ، أورد اسمه هكذا ، ثم ترجم له فى مكان آخر من الإحاطة ، وأعطى عنه معلومات لا بأس بها ، واسمه : محمد ابن عبد الرحمن . . بن الفخار الجذامى ، ويكنى أبا بكر ، وأصله من مدينة أركش Arcos . وهى حصن أندلسى قديم على نهر لكّه ، على مقربة من مدينة شريش ، ولما استولى العدو على قصبتها خرج منها إلى هذه ، فاستوطنها ، وقرأ على كبار شيوخها وهم كثير ، وروى عن علمائها وهم جلة ، ثم أقرأبها ، ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء فقرأبها ودرّس ، ثم عبر المضيق إلى سبتة وصنع بها الشىء نفسه ، يتعلم ويعلم أيان يمضى ، ورجع إلى الأندلس ثانية ، وذهب إلى غرناطة ، فأخذ عن علمائها ، ثم استوطن مالقة فى نهاية المطاف ، وتصدر للإقراء بها .

كان ابن الفخار متنوع المعارف ، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث ، عظيم الصبر ، مُستغرَق الوقت ، يدرّس من لدن صلاة الصبح إلى الزوال ، ثم يسند ظهره إلى طاقة المساجد بعد ذلك فيقرىء وتأتيه النساء من خلفه للفتيا ، فيفتيهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى ، ثم يأتى المسجد الأعظم بعد الغروب ، فيقعد للفتيا إلى العشاء الآخرة ، من غير أن يقبل من أحد شيئا ، ومارئى فى وقته أورع منه . وكان يتخذ رومية مملوكة ، لا يشتمل منزله على سواها ، فإذا أنس منها الضجر للحصر وتمادى الحجاب أعتقها ، وأصحبها إلى أرضها .

وكان مغرماً بالتأليف ، فألف نحوا من ثلاثين كتابا فى فنون مختلفة ، فى التفسير والحديث والقراءات والفتوى والنحو ، ويستأهل الإشارة من بينها كتابه « **الجواب المختصر المدوم فى تحريم سكنى المسلمين ببلاد الروم** » .

وإلى ذلك كان شاعراً ، وشعره كثير ، وفيما يرى ابن الخطيب « غريب النزعة ، دالٌ على السذاجة ، وعدم الاسترابة والشعور ، والغفلة المعربة عن السلامة ، من ارتكاب الحواشى ، واستعمال الألفاظ المشتركة التى تتشبث بها أطراف الملاحن والمعاريض ، وولع كثير من أهل زمانه بالرد عليه ، والتملح بما يصدر عنه » ، ولم يورد له ابن الخطيب غير أبيات ثلاثة فى وصف الوردة ، رآها خير ما عنده ، وأراها نظمًا مصنوعًا ، ثم بيتين من الشعر ، قالها ولما يزل طالبا فى شريش ، أنشدهما فى فتى وسيم فى حانوت سراج ، يقابل باب المسجد ، يرقم جلدًا كان فى يده ، وألح عليه الطلبة ألا يبرح الباب قبل أن يقول فيه شيئًا فأنشدهما :

وربَّ معذّر للحب داعٍ . يروق بهاءُ منظره البهيجِ
وشى فى وجنتيه الحسنُ وْشيًا كوشْىِ يديْه فى أدم السروجِ

ونشأت بينه وبين فقهاء مالقة خصومة ، فى أمور أدى إليها اجتهاده فى مناط الفتوى ، وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس مجلسًا ، فظهر عليهم ، وتجلى فى إقحامهم ، وكانت محنة خلصه الله منها ، وبلغ من تعظيم الناس إياه ، وانحيازهم إليه ، مبلغًا لم ينله مثله ، وانتفعوا بتعليمه ، واستفادوا من أدبه ، على نُسْكه وسذاجته .

ويصفه **ابن الخطيب** فى كتابه « **عائد الصلة** » بأنه «كان رحمه الله خيرًا صالحًا ، شديد الانقباض ، مغرقًا فى باب الورع ، سليم الباطن ، كثير العكوف على العلم والملازمة ، قليل الرياء والتصنع » . وتوفى بمالقة عام ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م ، وكانت جنازته مشهورة .

ورابع شيوخه **ابن قطرال** ، وكالعادة لم يزد ابن الخطيب عن هذا شيئًا ، لكنه ترجم له فى الأحاطة فى مكان آخر من الكتاب ، أورد اسمه كاملا : محمد بن على بن محمد . . . بن قطرال الأنصارى ، وذكر أنه من مراكش ويكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن قطرال . وأورد قائمة وافية بشيوخه فى المغرب والأندلس ، ولم يشر إلى مجالات تخصصه ، وأشار إلى أن شعره كثير بديع . غير أنه لم يورد منه شيئًا ، سوى بيتين مصنوعين رد بهما على بيت من الشعر كتب له به القاضى أبو بكر بن شبرين ، ويبدو أن أبا البقاء لقيه وتلقى عنه حين

جاء غرناطة لمدة ليست طويلة فيما يبدو ، ويصفه ابن الخطيب فى « عائد الصلة » ، بأنه : «كان رحمة الله فاضلا صوفيًا ، عارفًا ، متحدثًا ، فقيها ، زاهدًا ، تجرد عن ثروة معروفة ، واقتصر على الزهد والتخلى ، وملازمة العبادة ، والغروب عن الدنيا ، وله نظم رائق ، وخط بارع ، ونثر بليغ ، وكلام على طريقة القوم ، رفيع الدرجة على القدر » . وشرح قصيدة ابن سهل الإشبيلى ، « وتجول فى لقاء الأكابر على حال جميلة من إيثار الصمت ، والانقباض والحشمة » ، ورحل إلى المشرق حاجًا عام ٧٠٣ هـ = ١٣٠٣ م ، ثم تُوفىَ هناك بحرم الله ، عاكفًا على الخير وصالح الأعمال ، معرضًا عن زهرة الحياة الدنيا ، عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م

وخامس شيوخه **أبو الحسين**(١٤) **بن زرقون** ، ولم يورد عنه ابن الخطيب شيئًا ، ولكن الرعينى فى برنامجه أورد له ترجمة لا بأس بها ، فهو محمد ابن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر الأنصارى . ويصفه ابن الأبار فى كتابه « التكملة » ، بأنه «كان فقيها مالكيًا حافظًا مبرزًا ، متعصبًا للمذهب قائمًا عليه ، حتى امتحن بالسلطان من أجله ، واعتقل مدة بسبتة » .

وكان من مفاخر إشبيلية ، وبها ولد عام ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م ، وكتب فى شبيبته لأحد ولاة إشبيلية ، وتولى القضاء فى بعض مدنها .

كان يدرس الحديث ، وله تأليف فى الجمع بين الصحيحين ، وآخر فى « تهذيب المسالك لمذهب مالك » ، وتأليف كبير سماه « المعلى فى الرد على المحلىّ والمجلىّ » ، **وكان يقرىء قصيدة ابن عبدون فى بكاء بنى الأفطس « ويحدث بها عن أبيه ، عن ناظمها ،** ويدرس المقامات ، فقد كان مليئًا من الأدب ذاكرًا له ، واختصر كتاب الأموال لأبى عبيدة .

وكان من أحسن الناس خلقا ، وأجملهم إشارة ، وأشدهم تواضعا ، وكف بصره فى آخر عمره ، وتوفى على أحسن عمل من تدريس العلم ، ضحوة يوم السبت ٤ من شوال

---

(١٤) فى الإحاطة ٣ ، ص ٣٦٠ ، أبو الحسن ، وهو خطأ .

سنة ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م ، بداره التى وُلد فيها ، وحبَّس جملة من ماله فى سبيل الخير ، ودفن فى قبلة مسجد إقرائه .

السادس والأخير من شيوخ أبى البقاء هو **أبو القاسم بن الجد** ، وجاء به ابن الخطيب على هذه الصورة مختصرًا ، وبيت بنى الجد أصحاب نباهة وذكر فى إشبيلية ، منهم الكتاب والشعراء والفقهاء ، ومن تولى الوزارة والخطط والقضاء ، ولكنى لم أجد لمن يعنيه ابن الخطيب ترجمة فيما بين يدى من المصادر ، على حين تتوارد أسماء أسلافه كثيرًا فى المصادر الأندلسية المتعددة ، كالمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ، ومؤلفات ابن الخطيب نفسه ، ونفح الطيب للمقرى وغيرها . وأشك فى أن أبا القاسم هذا ، الذى كان أستاذًا لأبى البقاء ، دون ترجمة ، ولعلها فيما لم يطبع من كتب ابن الخطيب وغيره ، أو فيما عبثت به يد الزمان من تراث الأندلس فلم تصلنا .

●

من تاريخ هؤلاء الشيوخ ندرك أنهم كانوا يدرسون كل العلوم التى يقبل عليها طلاب عصرهم بعامة ، وعليها عماد الثقافة ، وفيها حاجة الإدارة ، وهى علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث ، وعلوم اللغة من نحو وصرف وأدب ، وأنهم جميعًا يقرضون الشعر ، وبعضهم تميز فيه على نحو ما ، وأرجح أن **أبا البقاء** أخذ بحظه من هذه العلوم كلها ، ولكنه تجلى فى مضمار الأدب بعامة ، وفى الشعر منه على نحو خاص .

○**مؤلفاته** :

لم يكن أبو البقاء شاعرًا فحسب ، وإن اشتهر بهذه الصفة ، وإنما أسهم فى جوانب أخرى من ثقافة عصره ، فألف جزءًا على حديث جبريل ، مجهول المكان فى يومنا هذا ، وصنف فى الفرائض وأعمالها مختصرًا نافعًا ، وله كتاب كبير سماه « **روضة الأنس ، ونزهة النفس** » ، كتبه برسم السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، ولا أعلم أن الكتاب موجود ، ولكن لسان الدين بن الخطيب نقل فقرة منه فى كتابه الإحاطة ، وكانت ردًا على رسالة مداعبة بعث بها إليه مواطنه أبو بكر البرذعى يصف فيها

جارية رآها بسوق الرقيق وصفًا حسيًا يتناول ما فتنه من جمالها ، وكيف أنها استولت على لبه ، وأخذت بمجامع قلبه ، ثم « جاء فتى صادق فى حبه ، لا يبالى بفساد ماله فى صلاح قلبه ، فعد المال عدًا ولم يجد من التسليم بدًا » .

وذكر أبو البقاء فى مقدمة هذه القصة أنها مما يتعلق بالباب الذى وردت فيه ، ولم يعقب ابن الخطيب على النص بشىء ، ولا نعرف أكيدًا هل كان هذا الباب من الكتاب يدور حول الرقيق بعامة ، أم عن الجمال الإنسانى وما يتعلق به من غزل وحب واشتهاء ، وأرجح فى ضوء جملة وردت بآخر النص أنه كان عن « الفكاهة » ، فهو يسلم على صاحبه « ما كانت الفكاهة من شأن الوفا ، والمداعبة من شيم الظرفا » . والرسالة مسجوعة على نهج النثر فى ذلك العصر ، ومتخففة تُعجب وتُسلى ، ولم يتجاوز رد أبى البقاء عليها القضية نفسها موضوعًا ، ولا السجع أسلوبًا واستخدم مواهبه فى رسم صورة أخرى للجارية ، يقابل بها تلك ، تزخر بألوان البديع ، وزاد عليها نصيحة لصاحبه بأنه « لا ينبغى لمن قلبه رقيق ، أن يدخل سوق الرقيق ، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال ، يتنافس فى العالى ، ويسترخص بالثمن الغالى » .

الكتاب إذن ، فيما أرجح ، من الكتب التى تستهدف الإمتاع والتسلية ، بالحكايات المتخيرة من التراث القديم ، أو الملتقطة من الحياة المستحدثة ، وهى أصدق فى تصويرها للمجتمع ذوقًا واهتمامات من كتب التاريخ نفسها وقلّ ما تعنى بغير ما يدور فى فلك الحاكمين .

أما كتابه الذى وصلنا فعلا فهو « **الوافى فى نظم القوافى** » ونجد فى بعض المخطوطات لفظ « الكافى » بدل « الوافى » ، و « علم » بدل « نظم » ، ووصلنا فى عدة مخطوطات أعرف منها أكيدًا .

○ مخطوطة ضمن مجموع ، فى الخزانة العامة بتطوان ، تحمل رقم ٤٩١ ، وتقع فى ٨٣ ورقة ، من الحجم المتوسط ، ومسطرتها ٢٦ سطرا . وخطها مغربى واضح ، صحيح فى الجملة ، ولم يسم ناسخها نفسه ، ولا ذكر تاريخ النسخ فى آخره .

○ وثانية محفوظة فى الخزانة العامة بالرباط ، عاصمة المغرب ، تحت رقم ١٧٣٠ ك ، وهى قديمة ، وتقع فى ١٨٧ صفحة كبيرة ، وكُتبت فى خط مغربى جميل .

○ وثالثة توجد فى دار الكتب المصرية ، فى المكتبة التيمورية ، تحت رقم ٦٠٣ أدب ، وجاءت فى ١٨٨ صفحة ، وكُتبت بخط أندلسى ، ويرجع تاريخها إلى عام ٧٣٨ هـ ، أى بعد وفاة المؤلف بأربعة وخمسين عامًا لا غير ، وأراها أقدم النسخ الثلاث .

○ وثمة مخطوطة رابعة توجد فى مجمع التاريخ الملكى الإسبانى ، تحت رقم ٤٨ ، وآلت ملكيتها إليه من مجموعة المستشرق الإسبانى بسكوال جيانجوس ، ولم أتوصل إلى رؤيتها ، لأن المجمع درج من سنوات على أن يحجب مخطوطاته عن الدارسين العرب ، ومن ثم فلا أستطيع أن أقدم وصفا لها .

وأشار المؤلف صراحة فى مقدمة الكتاب إلى أن اسمه « **الوافى فى نظم القوافى** » ، وقسمه على أربعة أجزاء .

كسر الجزء الأول منها على أربعة أبواب : تحدث فى أولها عن فضل الشعر ، ومن تكلم به ، وأثاب عليه ، وفى الثانى عن الشعراء وطبقاتهم ، وجعلهم أصنافًا ثلاثة : جاهليين ومخضرمين وإسلاميين . وقسم هؤلاء إلى ثلاثة : مُحدث ، ومولد ، وبعد ذلك كل عصر ينسب إليه أهله . وفى الثالث عن عمل الشعر وآدابه ، وفيه أخبار طريفة مما يدخل فى باب البديهة والإجازة والمماطلة . وفى الرابع عن أغراض الشعر وأبوابه ، وحصرها فى ثمانية أنواع : النسيب ، والمدح ، والتهنئة ، والرثاء ، والاعتذار ، والعتاب ، والذم . وأورد فى كل قسم منها ما يناسبه من تعريف أو تقسيم ، ونماذج من قصائد الشعراء المتقدمين عنه ، والمعاصرين له ، ومن شعره هو على الخصوص .

وأوقف الجزء الثانى على محاسن الشعر وبديعه ، وجاء فى أربعين بابا هى : الابتداء ، والانتهاء ، والاستطراد ، والمطابقة ، والمقابلة ، والمناسبة ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتخييل ، والتفريع ، والتوجيه ، والتمثيل ، والتمثيل الذى قبله نوع من التشبيه ، والتجنيس ، والمضارعة ، والترديد ، والتصوير ، والاتباع والتبديل ، والتضمين ، والاطراد ، والتفسير ، والمبالغة ، والتتميم ، والتسهيم ، والتحرز ، والالتفات ،

والتحريف ، والاستثناء ، والاستدراك ، والقلب ، والتصحيف ، والترصيع ، والتسجيع ، والتسميط ، ولزوم مالا يلزم ، والتفصيل ، والتختيم ، واللغز .

ودرس فى الجزء الثالث عيوب الشعر ، وردها إلى ثلاثة أنواع : الإخلال ، والسرقة ، والضرورة . ولم يخص الإخلال بفصل مستقل ، وإنما جعله تسعة أضرب تكلم عليها واحدا فواحدا ، وعقد للسرقة ثلاث فصول : فى ضروبها وألقابها ، وفى مراتب الأخذ ، وفيما يشبه السرقة وليس منها ، وتحدث فى آخر هذا الجزء عما يجوز فى الشعر لغير ضرورة .

أما الجزء الرابع والأخير ، فأوقفه على حد الشعر والعروض والقافية ، وفيه فصل فى ألقاب البيت تختلف باختلاف أحواله ، وفصل فى أنواع الشعر وألقابها ويعنى بها عروضه . ورأى أنها أربعة وعشرون بحرًا : خمسة عشر قديمة تكلمت بها العرب ، وتسعة محدثة ولّدها المحدثون . وقد تكلم على البحور القديمة المعروفة ، أعاريضها وضروبها ، وما يعرض لها من زحافات وعلل ، وختم ذلك كله بذكر الأجزاء التى يتركب منها كل بحر منظومة فى شطر ، وشطر آخر من عمله ، يبين فيه اسم البحر نفسه ، كقوله فى بحر الطويل :

ومثلُ طويلِ الشعرِ ما أنا قائلُ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلُ

وأتى بعد ذلك على الأوزان المحدثة ، وهى : الوسيط ، والوسيم ، والمعتمد ، والمتئد ، والمسرد ، والمطرد ، والخبب ، والفريد ، والعميد . وذكر أجزاء تفاعيلها وأمثلتها . ثم فصل القول فى القافية . وختمه بآخر أتى فيه على عيوب الأعاريض والقوافى .

ولكن أهمية الكتاب لا تقف عند هذا الحد . فهو ينثر خلاله كثيرًا من أشعار معاصريه ، وبعضها يكاد يكون المصدر الوحيد عنها[١٥] . وحكايات عنهم ، وأخبار ومساجلات تتصل بالموضوع الذى يكون فيه .

---

(١٥) انظر مثلا : غرسية عومث ، مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص ٨٠ ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٧

ويشير الذين ترجموا له إلى أن له « مقامات » بديعة ، فى أغراض شتى ، ولكنها لم تصلنا فيما أعرف . وقد يكون المراد فيها ما كتبه مسجوعًا فى كتابه « روضة الأنس » ، ذلك أن الأندلسيين وغيرهم يطلقون أحيانًا اسم « مقامة » على كل نص مسجوع .

ديوانه :

يقول ابن الزبير عن شاعرية **أبى البقاء الرندى** ، وكان أستاذًا له على نحو ما : « شاعر مجيد فى المدح والغزل » . ويذكر عنه **ابن عبد الملك** فى كتابه « الذيل والتكملة » ، وأجازه أبو البقاء فى رواية ما ألفه نظمًا ونثرًا : « كان خاتمة الأدباء بالأندلس ، بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره » . ويقول أيضًا : إن نظم أبى البقاء ونثره مدون . ولكن شيئًا من ذلك لم يصلنا ، فيما أعلم . ونعرف منه أخيرًا ، أن أبا البقاء أودع جملة وافرة من نظمه فى كتابه « الوافى » ، وأورد منها فى كتابه « الذيل » قصيدة من أربعة عشر بيتًا ، أوردها أبو البقاء هناك فى باب التشبيه ، ومطلعها :

علّلانى بذكْر تلك الليالى وعهودٍ عهدتها كاللآلى

ونقل له قصيدة أخرى ، من باب التشبيه أيضًا ، فى ثلاثة عشر بيتًا ، ومطلعها :

وليل صبابةٍ كالدهرِ طولاً تنكَّر لى وعرّفه التمام

وبعد القصيدة أصاب مخطوطة « الذيل » خرم سقطت معه بقية ترجمة أبى البقاء ، ويعسر علينا أن نتنبأ بما فقدنا مع ضياعها . ولكن الأبيات على أية حال من قصيدة طويلة فى مدح السلطان محمد بن الأحمر ، وجاء بها ابن الخطيب كاملة ، وهى فى خمسة وأربعين بيتًا ، ومطلعها :

سرى والحبُّ أمرٌ لا يُرام وقد أغرى به الشوق والغرام

وأورد له ابن الخطيب جملة من شعره ، تبلغ الستة والعشرين ، ما بين قصائد ومقطوعات ، أقلها فى بيتين ، وأطولها فى ستة وأربعين بيتًا ، وقال عنه : إنه كثير ، « سهل المأخذ ، عذب اللفظ ، رائق المعنى ، غير مؤثر للجزالة » .

وأورد له المقرى ، فى كتابيه **نفح الطيب** وأزهار الرياض ، قصيدته النونية كاملة ، واختص بذلك ، نقلا عن الذخيرة السنية ، وسندرسها مستقلة وتفصيلا فيما بعد ، ثم قصيدة طويلة فى خمسة وثلاثين بيتًا ، جاء بها فى نفح الطيب فحسب ، ومطلعها :

سلِّم على الحى بذات العرارْ وحيِّ من أجل الحبيب الديارْ

واختار ابن الخطيب أبياتًا عشرة منها أعجبته ، من مقدمتها الغزلية ، وقدم لها بأنها « مغربة فى الأحسان » . أما الأبيات الأخرى التى أوردها له المقرى ، وهى بيتان فى وصف البحر ، وبيتان فى وصف سكين الكتابة ، وبيتان فى وصف المقص ، وستة أبيات فى الغزل ، وثلاثة فى وصف غلام ، وأراه نقلها كلها من الإحاطة ، لأنه حرر كتابه النفح فى القاهرة ، وكان ابن الخطيب قد أوقف بنفسه نسخة من كتابه فى حياته على طلاب العلم فى مصر ، واطلع عليها المقرى وأفاد منها .

○ **مدائحه** :

ثلاث قصائد مما وصلنا فى **مدح** السلطان **محمد بن الأحمر** ، وهى من النظم الجميل ، على نحو ما نجد عند معاصره **ابن زمرك** ، فكأنهما يغترفان من نبع واحد ، الأولى فى ٤٦ بيتًا ، ومطلعها :

سرى والحبُّ أمر لا يرامْ وقد أغرى به الشوق والغرامْ

ويبدؤها بمقدمة غزلية ، يناجى فيها محبًا فارق ، ويشكو ليلا طال ، ويملؤها بكل ما فى طاقته من صور جلها معاد مكرر ، وإن جاءت فى إيقاع جميل محبب ويخلص منها بعد أربعة وعشرين بيتًا إلى مدح الأمير ، بما اعتاده شعراء هذه الفترات ، وكل فترة فى الحقيقة ، فالشمس كوجهه سطوعا ، وهو يشبه البدر ملاحة وتماما ، شجاع مقدام ، عريق من بنى نصر الكرام ، الذين ينتسبون فى الأنصار الذين نصروا الرسول وآووه ، وهم الذين قادوا الجيوش ، ومنحوا الجزيرة الأمن ، وبالأمير محمد عز الدين ، وقويت شوكة الإسلام ، وقد تلتقى فى القصيدة بصورة طريفة ، حين يمدح الأمير بالجود والسخاء ، إذا قلنا إن فى يده غمامًا ، بخسنا حق اليد ، وضللنا الغمام :

إذا ما قيل في يده غمامٌ فقد بُخستْ وقد خُدِعَ الغمامُ

وأحيانًا يمضى بالصورة إلى لون من المبالغة المنفرة ، تذهب بالمعنى . وتترك فى النفس عكس ما يريد من تصوير :

إذا ما ضاقتْ الدنيا بحُرٍ كفاهُ لَثْمُ كَفِّكَ والسلام

والقصيدة الثانية فى المديح أتى بها **المقرى** كاملة فى **نفح الطيب** . ولم يشركما هو حاله كثيرًا إلى المصدر الذى نقلها عنه ، وجاءت فى خمسة وثلاثين بيتًا ، بدأها بمقدمة طللية شغلت خمسة عشر بيتًا ، سلم فيها على الحى ، وحيا الديار ، جاء بذلك فى بيت واحد تجاوز بعده الإيقاع الجاهلى ليدافع عن العشاق ، ويَجْبَه من لامهم ، ويدعوا إلى حياة أبيقورية ، لأن العيش لمن رامه ، وليالى الأنس قصار ، وبين الكأس والوصل يجب أن تمضى الحياة ، وتغزل بظبى غرير تعذب فى حبه ، وفارق النوم فى فكره ، ورغم أن الأبيات محافظة ، جاءت تقليدًا لنهج ملتزم ، إلا أنها معنى وصورة تعكس فى هذا النطاق روحا أندلسيًا خالصًا .

واختار ابن الخطيب الأبيات التى تلى هذه المقدمة ، وعددها عشرة ، أعجب بها ، ورآها « مغربة فى الإحسان » ، رغم أنها تنضح افتعالا وصناعة ، فهى تصف معركة ضارية بين الليل والنهار ، حين تفجر الصبح ، وانهزم الليل ، وأسرعت الشهب هاربة ، وانزوى السها خيفة . وثار النجم ، وشابت نواصى الدجى ، وطارح النسر أخاه ، وغيّر السفر من القمر . فصار فى آخر الشهر كأن عنقودًا تثنى به ، أو عرجونا تدلى ، وكأن الثريا تسبكه دينارا ، وكفها يفتل منه سوارا ، وتحكم الفجر فى الظلمة فجار عليها ، وتلقى الصبح المشتاق إليه . فسعد به . كما يسعد المرء بإقبال الدنيا ، بعد أن ذاق ذل الفقر :

ولـيـلـة نـبَّهتُ أجفانَها والفجرُ قد فجّر نَهرَ النهارْ
والليلُ كالمهزومِ يوم الوغى والشعبُ مثل الشهبِ عند الفرار
كأننا استخفى السها خيفةً وطولبَ النجمُ بثارٍ فثار
لذاكَ ما شابتْ نواصى الدجى وطارحَ النسرُ أخاه فطار
وفى الثريا قمرٌ سافرٌ عن غرّة غيّر منها السفار

كأن عنقودا تثَّنى به ... إذ صار كالعرجون عند السرار
كـأنها تسبك ديناره ... وكفُّها يفتل منه السوار
كـأنما الصبـح لمشتاقه ... عزٌّ غنىٍ من بعد ذُلّ افتقار
كأنما الشمسُ وقد أشرقتْ ... وجه أبي عبد الله استنار

واستغنى ابن الخطيب عن تكملة أبيات المدح التالية للبيت الأخير ، لأن هذه تحفل على أية حال بعدد من الصور البلاغية ، وهى مفتعلة ، ومنحوتة ، ولكنها صور فى نهاية والمطاف ، أما التى أعرض عنها فقد خلت حتى من الصناعة ، مجرد نظم لا فن فيه ولا روح ، من مثل قوله :

محمـدٌ محمـدٌ كـاسمهِ ... شخص له فى كلّ معنى يُشارْ
اليمْن من يمناه حكم جرى ... واليسْر من شيمة تلك اليسار

ويَشغل هذا السخف من القصيدة عشرة أبيات كاملة ، تدور حول مدح الأمير بأنه من لخم وبه تزهو ، وفرع من قيس وإليه تنتمى ، وأنه أجود من البحر ، يدور معه السعد حيث دار ، ويختمها بهذا البيت :

الحافـظ الله وأسماؤهُ ... لذاك الجارِ وذاك الجوار

واختيار ابن الخطيب لما سجل منها ، يومئ إلى أنه فى كتابه « الإحاطة » كان يتذوق ما يدون من شعر ، وليس حاطب ليل يجرى قلمه بأى قصيد تجرى عليه عيناه .

وقصيدة المدح الثالثة ، والأخيرة ، جاءت فى سبعة وعشرين بيتًا ، بدأها بمقدمة غزلية رائقة ، محكمة النظم ، فلا حشو فى ألفاظها ولا زيادة ، جميلة الإيقاع . فلا نشوز فى موسيقاها ولا اضطراب ، تميل إليها النفس ، وتعلق سريعًا بالذاكرة ، وأعجب بها ابن الخطيب كثيرًا ، وقال عنها إنها ذات نزعة غريبة ، وسبق بها غيره .

ياطلعةَ الشمسِ إلاّ أنه قمرٌ ... أما هواك فلا يبقى ولا يذرْ
كيف التخلّص من عينيك لى ومتى ... وفيهما القاتلان : الغنج والحور
وكيف يُسلى فؤاد عن صبابته ... ولو نهى الناهيان : الشيب والكبَرْ
أنتَ المنى والمنايا فيك قد جُمعتْ ... وعندك الحالتان : النفع والضرر

ولى من الشوق مالا دواء له ومنك لى الشافيان : القرب والنظر
وفى وصالك ما أبقى به رمقى لو ساعد المسعدان : الذكر والقدر
وكان طيفُ خيالٍ منك يقنعنى لو يذهب المانعان : الدمع والسهر
يانابيا لم يكن إلا يملكنى من بعده المهلكان : الغم والغِيَرُ
ما غِبْتَ إلا وغاب الجنس أجمعه واستوحش المؤنسان : السمع والبصر
بما تُكنُّ ضلوعى فى هواك بمن يعنو له الساجدان : النجم والشجر
أدركْ بقية نفسٍ لست مدركها إذا مضى الهاديان : العين والأثر

وقد انتقل من المقدمة إلى مقصده فى سهولة دون افتعال ، وألحق بها مدح السلطان ، وهو غايته ، دون جفاء ، يكنيه أبا عبد الله ، ولا تفترق المعانى هنا عما فى قصيدته الأولى ، وإن اتخذت صورا مختلفة ، وسار فى بنائها على نهج مغاير ، كالذى نلحظه فيما أوردنا من مقدمتها ، فالأمير كريم يهب الخيل آلافًا ، شجاع فارس الجمع عند اللقاء ، أسد عند الخطر ، وربما كان المعنى الجديد الذى وقع عليه ، وقل ما يعرض له الشعراء فى أمداحهم ، أن رعيته باتت فى أمان ، فما يخشى الناس فى حياتهم راحلين أو مقيمين شيئًا :

تأمَّن الناسُ فى أيامه ومشوا كما مشى الصاحبان : الشاة والنمِرُ
وزال ماكان من خوفٍ ومن حذرٍ فما يرى الدائلان : الخوف والحذرَ

لا جديد من المعانى فى مدائح أبى البقاء ، وإن جاءت بعض أبياتها فى ثوب قشيب ، وفى صورة تختلف عما عند غيره من الشعراء ، إن الشاعر والشعر هنا ، وربما فى عصور كثيرة ، لا يتجاوز غالبا وصف الممدوح بصفات عامة ، مبالغ فيها ، يمكن أن يُلبسها الشاعر لمن يريد ، دون عناء كبير . وليس وراءها دافع قوى من عاطفة أو حب أو شكر ، ومن ثم جاءت باردة روحًا ووقعًا ، لا تثير فى النفس شيئًا ، لأنها صدرت عن نفس خاوية غير مستثارة حقًا .

○ **تغزله :**

نلتقى بشعر الغزل عند أبى البقاء على ضربين ، تقليدًا يجئ فى مقدمة قصائد المديح ،

وعرضنا له من قبل ، وقلة من الشعراء فحسب تتخفى وراء هذه المطالع ، لأسباب اجتماعية أو دينية ، فتتغزل حقًا ، وتعبر عن عاطفة مشبوبة ، ولكنها توهم غيرها بأنها تحتذى نهجًا متبعًا ، أما الكثرة الغالبة فيجئ غزلها فى هذا المقام صناعة خالصة ، وأخال مقدمات أبى البقاء من هذا اللون .

والضرب الثانى مقطعات غزلية خالصة ، بعضها لا يمكن الجزم بصفته هذه ، فقد يكون مطلعًا لقصائد اختارها الجامع أو المدون لأنها أعجبته ، وأعرض عن بقية القصيدة لأنها لم ترضه أفكارا أو شكلا ، ويبدو ذلك واضحا حين يسبقها بقوله : « قال فى . . . » ، والبعض الآخر يشير صراحة إلى أنها مقطوعة ، وفى هذه الحالة يكون الشاعر قد استهدف بها التغزل بدءا ، وتعبيرًا عن مشاعر مكنونة ، أو إظهارًا لقدرته على النظم فى هذا المجال أحيانًا .

وتدور معانيه فى الغزل حول محاور عديدة ، منها : أن يهجره الحبيب فيطول ليله كأنه سرمد ، أو يقبل عليه فيمضى الليل كأنه لحظة . وجاء المعنى الأول فى أبيات ستة صور فيها حاله ، وأشواقه ملتهبة ، **وأدمعه متدفقة** ، وصبره نافد ، وتحس معها أنها غير كاملة ، وربما كانت مطلعًا لقصيدة ذهب آخرها ، لأنك مع البيت الأخير منها تتوقع أن يقول شيئًا لم يجئ ، وأن يمضى بك إلى فكرة مقنعة ، ولكنه يقف بك حيث انتهى جلده :

أطال ليلى الكمدْ ... فالدهر عندى سرمدْ
وما أظنّ أنه ... لليلة الهجر غدٌ
يا نائما عن لوعتى ... عوفيت مما أجدْ
أرقدْ هنيا إننى ... لا أستطيع أرقد
لواعجٌ ما تنطفى ... وأدمعٌ تضطرد
وكبدى كبدُ الهوى ... وأين منى الكبد
ولا تسلْ عنى جلدى ... والله مالى جلدٌ

أو يصف فى بيتين حال متيم تثير الشفقة ، كثر عليه العشاق فضاع بينهم ، وكأنما أراد

أن يشارك شعراء عصره حتى فى الشذوذ فوصف لنا غلامًا فى أبيات ثلاثة ، وهى المقطوعة الوحيدة التى وصلتنا فى شعره من هذا اللون ، وتعكس خصائص الشعر الأندلسى فى مرحلة توهجه ، حين جعل من جمال الطبيعة والجمال الإنسانى شيئًا واحدًا ، ويتراسلان الخصائص والصفات ، ولكنه اكتفى بأن يصف ، وأن يقف عندما رأى ، وأن يقول إن جمال الغلام يعجب عشاقه ، أما هو فلم يتجاوز الحديث عنهم وعنه ، وهو شىء يُحمد له على أية حال :

وافى وقد زانه جمالٌ فيه لعشّاقه اعتذارْ
ثلاثةٌ مالها مثال الوجه والخد والعذار
فمن رأى رياضا الورد والآس والبَهار

وأخيرًا نجد له أبياتًا ثلاثة فى وصف امرأة خارجة من الحمام ، عدّها ابن الخطيب من النسيب وأراه حقًا . وهى صورة نادرة قل أن نجد لها شبيها فى الشعر الأندلسى ، ولو أن معاصره **ابن خاتمة** عرض لمثلها فى صورة أخرى ، فقد تشفع عند القاضى فى أبيات عذبة رقيقة ، فى شأن جارية عزرها القاضى لأنها أخذت حمامها من غير إزار[١٦] ، وأبيات أبى البقاء لا تقل عنها عذوبة وعفوية :

برزت من الحمّام تمسح وجهَها عن مثلِ ماء الورد بالعُنّابِ
والماءُ يقطرُ من ذوائبِ شعرِها كالطلِّ يسقط من جناح غُراب
فكأنها الشمسُ المنيرةُ فى الضحى طلعتْ علينا من خلال سحاب

وكان أبو عثمان ، سعد بن ليون التجيبى ، شيخ لسان الدين بن الخطيب ، ينشد الأبيات التالية فى مدينة المرية ، من شعر أبى البقاء . وعنه أوردها المقرى فى « نفح الطيب » . ولم يوردها لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة ، وهى من الغزل الرقيق حقًا ، بسيطة وسهلة . وغنية عن أى شرح أو تمهيد :

أيّها العاذلُ بالله اتئدْ لك قلب فى ضلوعى أو كبدْ

---

(١٦) انظر هامش رقم ٣٦ ص ١١٥ من هذا الكتاب .

هى أجفانى فذرها تنهمى هى أحشائى فدعها تتقدْ
لا تظنَّ الحبَّ شيئًا هيّنًا ليس فى الحب قياس يطرد
أنتَ خلو وأنا صبٌّ شجٍ فإذا حدثت عنى قل وزدْ
فاترك اليوم ملامى إنَّه يُتْرَكُ الشىء إذا لم يفد
أنا أَسلو عن حبيبى ساعةً ياعذولى ، قل هو الله أحد

كان حظ أبى البقاء من الغزل فى شعره قليلاً للغاية ، على الأقل فيما وصلنا منه ، وربما مرد ذلك أن غزلياته ضاعت فيما ضاع له من شعر ، أو لأن الظروف الاجتماعية حوله لم تتح له أن يعبر عن مكنون عاطفته ، فلا أخال فنانا لا تستهويه المرأة جميلة أو أنثى ، فى عصر كانت هى أجمل ما فيه ، وملهمة أى إبداع ، ومن يدرى ، ربما يكمن السبب فى أنه واجه الحياة فقيرًا ، وأمضاها مكدودا ، فشغلته ضرورات العيش عن دواعى الهوى ، وأنضبت فى أعماقه ينابيع الغزل .

○ شعر الوصف :

ويجئ عنده إدراكًا خارجيًا لما كان يرى ، وربما صنعه مهارة وجريا على سنن الشعراء فى عصره ، حتى لا يكون دونهم ، يصف النهر فى أربعة أبيات ، لا يخرج فيها عن المعتاد من الأوصاف الأندلسية ، فالزهور تحف به . ويسيل على مثل الجمان ، كالسيف سل من غمده ، وكسر النسيم صفحته ، وصافحت الأدواح سطحه ، ثم يصف البحر فى بيتين :

البحرُ أعظمُ مما أنت تحسبُهْ من لم ير البحرْ يوما ما رأى العجبا
طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زَرَقٍ مثل السماء إذا ما مُلِّئتْ شُهُبا

ويصف الجيش تحرك لمعركة ، الجنود المدرعين . والقضب تعلوها الرايات ، فرحين بلقاء العدو ، ليوث لا يخافون ، سيوفهم ماضية ، قاتلوا حتى انتصروا ، وتركوا العدو وراءهم ، وقد ارتاع ناقوسه ، وبكى صليبه . وأصبحوا خبرا من الأخبار :

وارتاع ناقوسٌ بخلع لسانه وبكى الصليبُ لذلّة الكفارِ
ثم انثنوا عنه وعن عبَّاده وقد أصبحوا خبرا من الأخبار

ويصف السيف والقلم ، ويجرى مفاخرة بينهما ، وسكين الدواة ، والورد ، والخيرى ، وكان شائعًا ومحبوبًا وتغنى بوصفه كثيرًا شعراء مملكة غرناطة ، والريحان والرمان والجزر . وكلها تجئ فى مقطوعات قد تكون بيتًا أو بيتين أو أكثر ، ولكنها لا تجاوز الستة الأبيات ، ويبدو فى بعضها على الأقل أنها مأخوذة من قصائد أطول منها ، أعجب بها ابن الخطيب فانتزعها ، وترك ما عداها ، وربما كان وصف السيف أجملها :

وأبيضُ صيغ من ماءٍ ومن لهبٍ على اعتدال فلم يَخْمدُ ولم يَسلِ
ماضى الغرار يهاب العمرَ صَولتُه كأنما هو مطبوعٌ من الأجل
أبهى من الوصلِ بعد الهجر منظرُه حُسْنا وأقطعُ من ديْنٍ على مال (؟)
وأسمر ظن ماكل سابغة فخـ ـاض كالأيْم يستشفى من النهل(؟)
هام الكماةُ به حبًا ولا عجبٌ من لوعةٍ بمليح القدِّ مُعتدل
إذا الطعينْ تلقاه وأرعفه حسبته عاشقًا يبكى على طلل

وأورد ابن الخطيب أيضًا أبياتًا جميلة لأبى البقاء ، فى وصف ساقية وحديقة ، انتزعها من قصيدة مطولة فيما يقول ، ولا يوحى جوها بأنها كانت مقدمة لقصيدة مدح ، ووصفه بأنه « تفنن فيها » ، ويبدو أن بعض كلماتها أصابه التحريف فى المخطوطة أو النسخة المطبوعة[17] فلا نكاد نتبين المراد منها إلا بجهد ومشقة ، وبخاصة أنها تزدحم بالصور البلاغية البعيدة المطارح ، ومثلها يعسر تبين المراد منه مالم يلمح الراوى بدءا إلى ما يتحدث عنه الشاعر أو يصفه ، ومع ذلك يمكن أن نفهم من الأبيات أنه يتحدث عن ساقية ، صوتها أجمل من العود ، تسق وهى تجرى ، وتجرى وهى تسق ، تجر النهر كوشاح أبيض ، يرف على حافته الزهر ، وتهز الأدواح كتائب خضراء ألويتها بيضاء ترتفع فوق أغصان سمراء .

لقد رماها قزحٌ بألوانه ، فجردت سواقيها السيوف على ماء النهر ، وهب النسيم فجفف ما على الزهر من طل ، وبدأ الروض وكأنه صحيفة مكتوبة ، أشجاره قائمة كالألفات ،

---

(١٧) الاحاطة ، جـ ٣ ص ٣٧٠ ، بتحقيق محمد عبد الله عنان .

وسطحها فى صفرة التبر ، وبدت زهرة الأقحوان كخاتم من فضة تزينه فصوص من ذهب ، وتناثر الطل حول النرجس الغض فكان كالعيون يترقرق الدمع فى أجفانها ، واختار « الخيرى » أن يعبق بشذاه ليلاً كالعشاق ، لأن الليل أكتم للسر ، على حد تعبير ولادة بنت المستكفى :

وغانيةٍ يُغنى عن العود صوتُها وجارية تسقى ، وساقيةٌ تجرى
بحيث يجر النهُر ذيْلَ مِجَرةٍ يرف على حافاتها الزهر كالزهر
وقد هزت الأدواحُ خُضر كتائبٍ بألوية بيض على أسلِ سمر (١٨)
رمى قزحٌ نبلا إليها فجردت سيوفا ، سواقيها على دارع النهر
وهبَّت صَبا نجدٍ فجرت غلائلا تخفف دمعَ الطل عن وجنة الزهر
كأن بصفح الروضِ وَشْىَ صحيفةٍ وكالألفاتِ القضبُ ، والطرسُ كالتبر
كأن به النرجسَ الغضَّ أعينٌ ترقرق فى أجفانها أدمُع القطر
كأن شذا الخيرى زورةُ عاشقٍ يرى أن جُنحَ الليل أكتمُ للسر

الأبيات بديعة التصوير ، تكثر فيها الصور البلاغية ، وبعضها جديد من صنع أبى البقاء ، كتشبيه شذًا « الخيرى » يعبق ليلا بزيارة العشاق لا تتم إلا فى الظلام ، أو تشبيه زهر الأقحوان بخاتم من فضة . ولكن ؟ . . أين هو من هذا كله ؟ بماذا أحس ؟ ما صدى هذا الجمال فى نفسه ؟ لا يشى بشىء من حقيقة مشاعره ، والحق أنه ليس فردًا فى هذا الطريق ، فجل شعراء العربية يقفون على الحياد بإزاء جمال الطبيعة حين يعرضون لها ، غير أنه تجافى عادة أندلسية شائعة ، فرفاقه فى وطنه لا يتحدثون عن الرياض إلا ويعرضون للشراب فى ظل أشجار ، وبين طيب هوائها ، ولا يذكر الشراب إلا ومعه السقاة والصبايا الفاتنات ، وقد يجمعون إلى هذا كله الموسيقا والغناء . أم تراه كان يقصد بدءا أن يصف الساقية فحسب ، مهارة وإظهارًا لمقدرته ؟ لا يمكن الجزم بشىء من هذا ، فى غيبة بقية القصيدة ، وقدم لها ابن الخطيب بأنها من المطولات .

---

(١٨) فى الأصل :

« وقد هزت الأرواح خضر كتائب » ، ولا أراه مفهوما .

○ همومه إنسانا :

وثمة أبيات تتصل بهموم الشاعر الإنسانية ، وصلاته الاجتماعية ، تجيء أيضًا فى مقطوعات قصيرة ، لا يمكن القطع بأنها كذلك فى الأصل ، لأننا نعتمد فيها على ابن الخطيب ، وهو يتحكم ذوقه فيما يختار ، ولعله التقطها من قصائد مطولة لم تعجبه ، وعرفنا فيما سبق أنه وصم أبا البقاء شاعرا بأنه « غير مؤثر للجزالة » وكانت محببة إلى أديب غرناطة الكبير . فأبو البقاء يشكو ، فى بيتين ، أخوة السوء لا نفع فيهم ، ويورد فى بيتين آخرين أنه عجم الزمان ، وعرف أهله ، فإذا هم يقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع ، كلامهم كثير ، وإقبالهم على الدراهم شديد :

ولقد عرفتُ الدهر حين خبرتُه وبلوتُ بالحاجاتِ أهلَ زمانى
فإذا الأخوة باللسان كثيرةٌ وإذا الدراهم مَيْلق الإنسان

أو يدعو ، فى بيتين ، إلى الصبر ، ويبشر به ، لأن الدهر يقبل ويدبر ولا يبقى على حال . ويحدثنا أخيرا عن الموت ، وقلة من الشعراء تتحدث عنه كظاهرة ، وانفعالا به ، لأنه تجربة لا تحدث إلا مرة واحدة فى العمر ، وحين تحدث يكون صاحبها عدمًا ، لا يحس ولا يشعر ، بالنسبة لنا على الأقل ، وأن تعيش التجربة تخيلًا ، أو ترتد إليها تصورا ، يتطلب الأمر حين تكون شابًا حالة نفسية معتمة ، أو واقعًا اقتصاديًا ضاغطا ، تصبح الحياة معه عبئا مضنيا تود التخلص منه ، أو أن تتقدم بك السن ، وتشرف على النهاية ، فأنت على بعد خطوات من الموت لا محالة ، وذلك ما نراه مع أبى البقاء ، فقد امتدت به الحياة ، وحين دنت ساعته تحدث عن الموت حديث الواعظ ، فما بَعْده عسير ، وطاعات المرء هى التى تحسب له ، ويدعو غيره لأن يعرض عن اللذات ، وأن يتعظوا ، ويتبعوا أوامر الله ، كل من على الدنيا رحل ومضى ، حتى الملوك ، ولم يحمل أى منهم غير كفنه ، ولم يحز من أرضها غير قبره :

الموتُ سر اللهِ فى خلقهْ وحكمةٌ دلّت على قهرِهْ
ما أصعب الموت وما بعده لو فكَّر الإنسانُ فى أمره

أيامُ طاعاتِ الفتى وحدها هي التي تحسبُ من عمره
لا تُلهك الدنيا ولذّاتها عن نَهْيِ مولاك ولا أمره
وانظر إلى من ملك الأرض هل صحَّ له منها سوى قبره

ثم يرثى نفسه ، يكتب شاهده الذى سيوضع على قبره ، ينظمه شعرًا ، ويطلب فيه من صحبه ، ومن يمر عليه ، أن يطلب له الرحمة ، وأن يدعو له بالمغفرة ، فما أشد حاجته إليهما :

خليلى بالودِّ الذى بيننا اجعلا إذا متُّ قبرى عرضةً للترحُّمِ
عسى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمةٍ فإنِّىَ محتاجٌ لدعوةِ مُسْلمِ

وهى فكرة نجدها عند ابن الزقاق[١٩] أيضًا ، ولو أن هذا اعترف ، وذكّر صحبه بأنهم أمضوا حياة هنيئة ، وأن دنياهم كانت رائقة العيش ، فياضة بالصفاء والمتع .

وما نقل إلينا من شعر أبى البقاء خالٍ من أى نبض عائلى ، صحيح أن قلة من الشعراء تحدثوا عن زوجاتهم ، ولكن الكثيرين منهم تحدثوا عن آبائهم وأمهاتهم ، وبخاصة إذا كانوا فى حالة اجتماعية مرموقة ، وإنما يصمتون عنهم إذا جاءوا من غمار الناس ، فليس فى أنسابهم ما يزهون به . أترى صمت عنهم أبو البقاء لأنهم كانوا من هذا القبيل ؟ ربما . ولكن لماذا صمت عن بنيه أيضًا ؟ .

○ **فنه الشعرى :**

من الظلم الواضح ، ومما يجافى قواعد النقد الحقة ، أن نقوّم شاعرًا فى ضوء بعض شعره ، وربما كان أقله ، وفى غيبة الكثير الذى أبدعه ، وربما كان أجوده ، وهو ما ينطبق على أبى البقاء تمامًا ، ولا يشفع له ، ولا يصلح عذرًا لنا ، أن ما وصلنا من شعره كان فى جملته اختيار عالم أديب ، وهو ابن الخطيب ، لأن الاختيار يعكس ذوق المختار ، فى

---

(١٩) انظر الفصل الخاص بابن الزقاق فى : غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

نطاق بيئته ومزاجه وعصره وظروفه ، ولا يعنى بالضرورة أن ما اختار له أفضل ما قرأ أو سمع من إبداعه ، إلى جانب أن ابن الخطيب نفسه لم يكن مجرد مؤرخ كاتب ، أو أديب شاعر ، وإنما كان قبل هذا وزيرًا أول ، ورجل دولة مسئول ، ويضع فى اعتباره هذه الجوانب كلها حين يختار أو يكتب ، وما أكثر ما ألمح فحسب ، أو صمت تمامًا ، أديب غرناطة الكبير . ولكن ذلك لا يحول دون أن نبدى ملاحظاتنا على القليل الذى بين أيدينا ، وأن نقول رأينا فى ضوئه ، وهو رأى قابل للتغيير إن جد مع الزمن ما يجعل مراجعته ضرورة .

أول ما يلفت النظر فى شعر أبى البقاء هذه اللغة البسيطة السهلة ، تكاد أن تكون عامية ، مما يجرى على ألسنة الناس عادة ، وهو أمر لا يجئ عنده عن عجز أو تقصير ، لأن بعض مقطوعاته التى آثر فيها جانب الصناعة ، حفلت بالألفاظ المعجمية ، وإن جرت بين أنداده من شعراء عصرى الخلافة والحجابة بوجه خاص ، وإذن فهو يسلك هذا الطريق اقتناعا منه ، وإيثارا له ، وليس مساقًا إليه . ويدعم رأيى هذا أننا لا نقع فى كل ما لدينا من شعره على لفظ واحد غير عربى ، رغم أنه عاش فترة المد والجزر العنيفة بين الإسلام والمسيحية على بطحاء شبه الجزيرة ، وهو تجاذب يتجاوز الحرب إلى الاجتماع والاقتصاد ، وحتى الثقافة ، على السواء ، ومع ذلك ليس ثمة لفظ رومانثى واحد فى أى من قصائد أو مقطوعات أبى البقاء .

يميل أبو البقاء إلى الألفاظ الجارية ، ويؤثرها على غيرها ، وإن أدت هذه المعنى نفسه ، وجاءت فى ذات الإيقاع ، فهو يستخدم كلمة « بخت » ، بدلا من « حظ » ومعناهما واحد ، ووزنهما العروضى واحد ، وذلك فى قوله :

إذا لم يُرزق الإنسانُ بختا فما حسناته إلا ذنوب

وقد يجئ شطر البيت كله من هذا الكلام الدارج :

ولا تسل عن جَلدى والله مالى جلدْ

ولو أن شعراء عصره أوغلوا فى القديم ، وآثروا الألفاظ الصعبة ، على طريقة ابن هانئ أو ابن دراج القسطلى ، لفسرت موقفه بأنه كان رد فعل ضد هذا الإيغال ، ولكن شعراء

عصره كانوا ، فى الحق ، على مقربة منه فى لغتهم ، وإن لم يهبطوا بها حيث اختار أبو البقاء أن يكون ، وإذن فهى طبيعة العصر نفسه .

أتُراه كان يكتب لأبناء زمنه ، لا يهمه من يأتون بعد ، وليس فى حسبانه من ذهبوا من قبل ، وأن أبناء زمنه شُغلوا وسط عواصف السياسة الهوج عن العربية وإجادتها والفصحى وغريبها ، وإيثار ما جزل من ألفاظها ؟ . افتراض يقف فى طريقه أن الشعوب فى لحظات المحن تحرص أكثر من أى وقت آخر على مقوماتها الأساسية من لغة ودين وتقاليد وعادات ، ونجد الحرص على اللغة واضحًا فى انتشار فن المقامات والرسائل المسجوعة ، وكتابتها فى صناعة فنية محكمة ، لا تتأتى إلا لمن يجيد العربية وتمكن من أسرارها ، وقد شارك أبو البقاء فى هذه اللعبة بكتابه « روضة الأنس ، ونُزهة النفس » ، ويصفه ابن الخطيب بأنه كان كبيرًا . وأخيرًا فإن موقف المسلمين فى الأندلس فى فترة إبداع أبى البقاء ، لم يكن ساء إلى حد ينسى المسلمين لغتهم ، وفى نونيته نفسها شاهد على ما أقول . ومن هنا أرجح أن أبا البقاء آثر السهولة فنًا ، وارتضى لشعره أن يجئ لغة فى مرتبة وسط ، يصبح فيها زاد المتعلم ، وغنوة الأمى .

يكثر أبو البقاء من استخدام التشبيه ، وأحيانًا يجئ عنده قلقًا ، يصطدم آخره بأوله ، فالجنود المسلمين يذهبون إلى القتال متهللين ، فرحين بلقاء العدو ، فإذا مضيت مع الصورة إلى نهايتها ، وجدته يشبه هذه الوجوه بالقمر :

متهللين لدى اللقاء كأنهم خُلقتْ وجوههمْ من الأقمار

والقمر يرتبط فى ذهن القارئ العربى ، منذ كان هناك شعر وأدب ، بجمال وجه المرأة ، به تشبه ، وبين جماله وجمالها نوازن ، ولا أراه يثير غير السخرية أن تصف جنودًا ذاهبين إلى القتال بأنهم أقمار .

ومثله أيضًا ، حين يصف السيف ، فيشبه من أصابته طعنة منه فأرعفته ، وأسالت دمه ، بأنك تحسبه عاشقًا يبكى على طلل ، والصورة هنا لا تستقيم ، وشتان ما بين صريع فى حرب أو نزال ، يفيض داخله بالقهر والذل والهزيمة ، وبين عاشق يفيض صبابة ، ويقف على ربع حبيبه ، يسترجع ذكريات مضت ، نشوى بالسعادة والرضا :

إذا الطعينْ تلقّاه وأرعفه حسبتَه عاشقا يبكى على طلل

ونجد ذلك التناقض النفسى أيضًا حين يصف الماء يقطر من ذوائب شعر أسود جميل ، لامرأة خارجة من الحمام ، بأنه كالطل يسقط من جناح غراب ، وحتى مع افتراض أن الجارية كانت تقص شعرها على نحو « غلامى » ، وهى طريقة شاعت فى الأندلس زمنًا ، على نحو ما عليه الحال فى عصرنا ، إلا أن لفظ الغراب لا يستخدم ، ولا يثير ، فى العصر الوسيط ، وحتى قريب من أيامنا ، وفى بوادينا حتى الآن ، غير التشاؤم والقلق ، وتوقع الشر .

فإذا تركنا الجانب السلبى من فنه ، إلى ما هو إيجابى وجديد عنده ، وجدناه فى قصيدة المديح الثالثة ، التى توجه بها إلى السلطان محمد الغالب ، وعرضنا لها فيما سبق ، يسير على نهج جديد فى نظمه ، لحظه ابن الخطيب نفسه ، فقدم لها بقوله : « ومن نزعاته العجيبة قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره » . ويقوم الجديد فيها على أن الشطرة الثانية من كل بيت ، فى القصيدة كلها ما عدا المطلع ، تتكون من جملة اسمية خبرها شبه جملة مقدم ، والمبتدأ مثنى مؤخر ، أو فعلية وفاعلها مثنى . وفى الحالين يُبادل من المبتدأ أو الفاعل مضمونه مفردين معطوفا أحدهما على الآخر ، لا يشذ فى ذلك ولا مرة واحدة ، وهى ظاهرة إن دلت على التمكن والمقدرة فإنما تدل فى الوقت نفسه على أن الصناعة بلغت عنده غايتها .

ويستخدم المحسنات البديعية قليلاً ، على غير عادة الشعراء فى عصره ، ونجد منها عنده « اللف والنشر » ، كما فى الأبيات التى يصف فيها غلامًا ، وذكرناها من قبل ، والطباق أحيانًا ، ويستخدم الجناس نادرًا .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له أنه عنى **بالموشحات** ، أو أبدع فيها شيئًا ، أو أعارها جانبًا من اهتمامه ، وهى ظاهرة لافتة للنظر ، فقد بلغ هذا الفن فى عصره ، والعصور التى سبقته ، قمة توهجه ، شيوعًا وفنًا وإقبالاً ، ومن يدرى ، فربما قال فيها شيئًا ولم يصلنا .

○ **نونية أبي البقاء** :

أروع شعره على الإطلاق ، وتجيء فى مقدمة القصائد التى عرضت لمثل هذا اللون من الأحداث ، والقاعدة النقدية تقرر : « إذا أراد الشاعر أن يبكينا فعليه أن يبكى أولاً » ، ومن الواضح أن أبا البقاء بكى صادقًا وعميقًا ، لأن قصيدته تثير الشجى فى نفس كل من يقرؤها أو يسمعها ، ولم تفقد شيئًا من جدتها وتأثيرها حتى يومنا ، وحين تعود إليها ثانية بعد قراءتها ، تحس كأنك تقرؤها للمرة الأولى ، لقد استطاع شاعر الأندلس أن ينقل إلينا تجربته كاملة ، فى إيقاع شجى ، ذى تأثير عجيب .

أول ما يعرض لنا ونحن ندرس النونية إهمال المصادر الاندلسية التى بين أيدينا إهمالاً كاملاً لها ، لم تشر إليها من قريب أو بعيد ، فضلاً عن أن تأتى بها كاملة ، أو بأبيات مختارة منها ، رغم أنها ترجمت لأبى البقاء ، واختارت له بعضًا من أشعاره ، إذا كانت محدودة عند ابن عبد الملك وابن الزبير ، فهى كثيرة ومتنوعة عند ابن الخطيب .

وكان المصدر الذى أوردها كاملة مغربيا ، وهو كتاب « **الذخيرة السنية** » ، لمؤلف مجهول ، ويتحدث عن فترة كان فيها بنو مرين على أوثق الصلات بمملكة غرناطة ، فى حالى التحالف والاختلاف على السواء ، ونقلها لنا المقرى كاملة فى كتابيه « **نفح الطيب** » و « أزهار الرياض » ، وكعادته كثيرًا لم يشر إلى المصدر الذى نقل عنه ، وأرجح أنه نقلها عن الذخيرة أيضًا .

ومؤلف « الذخيرة » مجهول ، ولكننا نعرف أنه عاش فى عصر السلطان أبى سعد المرينى ، وحكم من ٧١٠ إلى ٧٣١ هـ - ١٣١٠ ١٣٣١ م ، أى أنه ألف كتابه بعد ستة وثلاثين عامًا ، على الأقل ، من وفاة أبى البقاء ، وأكبر الظن أنهما تعاصرا ، وسبق أن ألمحت فى هذه الدراسة إلى احتمال أن يكون أبو البقاء قد عبر المضيق إلى المغرب فى وقت نجهله ، وربما كان بعد إنشاد القصيدة ، شيخا تجاوز الستين من عمره ، ولزمن كان قصيرًا على التأكيد ، غير أنى لا أعتقد أنه لقى مؤلف كتاب « الذخيرة » ، لأنه فى هذه المرحلة لم يكن يعدو أن يكون طالبًا فتيًا يتردد على حلق الدرس ، ولعل الأقرب إلى التصور أن

القصيدة بموضوعها المثير ، وإيقاعها الجميل ، سواء أكان صاحبها هو الذى حملها ، أم عبرت البحر بنفسها ، شقت طريقها إلى أسماع وقلوب جمهرة المسلمين فى الأندلس والمغرب على السواء .

ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن أبا البقاء أنشدها بمناسبة نزول محمد الغالب سلطان غرناطة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية للملك قشتالة عام ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م ، وهى أحداث ثابتة تاريخيًا ، أى أن أبا البقاء قالها وهو فى الخامسة والستين من عمره تقريبًا . ومن المؤكد أن السلطان ضاق بها ، وعمل على حصارها ، فهى تندد بالقواعد التى سقطت على عهده فى يد المسيحيين ، وتستثير جمهرة المسلمين فى الأندلس وخارجها ، لاستعادة ما ذهب والدفاع عما يوشك أن يذهب ، والقواعد الكبرى التى ندبها فى قصيدته هى : إشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وكلها سقطت بين عامى ٦٣٥ و ٦٥٠ هـ = ١٢٣٧ - ١٢٥٢ م ، إلى جانب مئات من الحصون والقرى ، وإذن فهى تدينه دون أن تعرض له ، وتجعله مسئولا دون أن تذكر اسمه ، وليس ثمة شك فى أن أحفاده كانوا أحرص منه على عدم تداولها بين الناس ، وكان ابن الخطيب وزيرًا أول لهم ، وليس بوسعه أن يضمن كتبه شيئًا لا يرضون عنه ، ولا أرى سببًا آخر لإهمال ابن الخطيب لها ، رغم الترجمة المستفيضة ، والأشعار العديدة ، التى خص بها أبا البقاء ، ولا يرد فى الخاطر أنه لم يسمع بالقصيدة ، وهى جميلة تسترعى الانتباه ، وتعلق بالذاكرة ، وكانت متداولة بين الناس ، وابن الخطيب ذواقة فى الشعر ، موسوعى الثقافة ، ومثلها لا يخفى عليه .

كان أبو البقاء مهيأ نفسيًا وثقافيًا لأن يبدع قصيدة حول هذه القضية ، بمثل هذا المستوى ، فقد درس على أستاذه ابن زرقون قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ، وعاصر ابن الأبار صاحب قصيدتى الاستصراخ ، وكل هذه القصائد درسناها من قبل ، وارتبط عاطفيا بمعظم المدن التى سقطت ، إن لم يكن بها كلها ، وله فيها ذكريات من أيام الطلب أو ما بعدها ، فلا غرو أن تفجرت أبياته من نفس كليمة وفؤاد محزون .

استهل أبو البقاء قصيدته بتقرير قاعدة إنسانية مستمدة من واقع الحياة نفسها ومؤداها أن كمال أى شيء بداية نهايته ، ما يكاد يبلغ ريعان شبابه حتى تدركه الشيخوخة فتضعفه وهنا على وهن ، حتى تسلمه إلى الفناء ، وهو أمر يصدق على الحضارات والأمم كما يصدق على الأفراد . فلا يغرن إنسان جبروته مهما عظم ، ولا تبطرن أمة قوتها مهما بلغت ، فسبيل ذلك كله إلى فناء . . كله إلى زوال .

ويضرب الأمثال لما قرره : ذهب ملوك اليمن فما بقى لهم تاريخ ، وأتى الزمان على حصون إرم فما أبقى منها على حجر ، وذهب بحكم ساسان وكسرى ، وبملك سليمان ومدخرات قارون ، أتى عليهم جميعًا فما عادوا غير تاريخ يروى شاحبًا ، أشبه بحلم رآه نائم فما يتذكر منه إلا بقايا باهتة ، وفجائع الدهر ألوان ، وكل ذهب بسبب ، وَفَنَى فى ظروف تغاير الآخر ، ولكل حادث أحوال تخفف من وقعه ، أما فجيعة الإسلام فى الأندلس فقاصمة .

ويفصل ما أصاب الأندلس : لقد دُهيت الجزيرة بما لو سقط على أُحد لذهب به ، أو على ثهلان لهدّه ، لقد سعدت بالإسلام وارتقت ثم أصابتها العين ، وتوالت عليها البلايا ، وانحسر الإسلام عن أقطارها ومدنها ، عن بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان قرطبة وإشبيلية ، وهى قواعد الإسلام الحصينة ، ومدنه الزاهرة .

ويصور أسف الناس الحزين على بلاد عمها الكفر ، وأقفرت من الإسلام ، وصارت مساجدها كنائس ، تزخر بالنواقيس والصلبان ، بعد أن كانت عامرة بالعلم والإيمان ، مما يبكى حتى الجماد من محاريب ومنابر ، ويذكر بقايا المسلمين فيما ظل لهم من مدن ، وغفلوا عن الأحداث فما يتعظون بها ، والعدو من حولهم متربص بهم ، ويحث أولئك الذين اطمأنوا على دنياهم الواسعة ، فى مملكة غرناطة المزدهرة ، أن يكون لهم فى ذهاب إشبيلية عظة ، وكانت قبل دنيا عريضة من اللهو والترف واقتناص الملذات . إن فجيعة الإسلام فى الأندلس أنست الناس بهولها كل ما أصابهم قبل من كوارث وفى أى مكان ، وستعلو عن النسيان على امتداد الزمان .

ثم يتجه إلى مسلمى أفريقية ، أصحاب الخيل الضامرة الدربة كأنها عقبان ،

والسيوف المرهفة تلمع كأنها نيران ، يعيشون فى أمن ورغد ، وتظلهم أوطان عزيزة منيعة ، يسألهم مستنكرا : ألم تسمعوا بما أصاب الأندلس من كوارث ومحن أضحت حديث الركبان ، وقتلى الإسلام وأسراه على أرضه يئنون فما يستجيب لهم إنسان ، وهم أخوة لهم ، أليس فيكم أبى يثور لما أصاب قومه ، ويعينهم على دفع الشر ، ورد العدوان .

ويختم القصيدة بوصف ما أصاب المسلمين فى أحداثهم الرهيبة : أحال الكفرةُ عزهم ذلا ، وجعلوا أحرارهم عبيدًا ، وتشابهت عليهم السبل فهم حيارى لا يدرون ما يصنعون . ويفصل حالهم وهم يباعون رقيقًا ، يحال بين الأم وطفلها ، ويباع كل منهما لسيد ، وصبايا فاتنات جميلات ، فى زهوة الشباب ، يقودهن العلج للمكروه وقد أسرهم فى الحرب ، أو اشتراهن رقيقًا من السوق ، وكلهم يبكى ، فيذيب بكاهم القلوب حزنا وكمدا .

○ **نص القصيدة :**

لكلِّ شىء إذا ما تم نُقصانُ ... فلا يُغرّ بطيب العيشِ إنسانُ

هى الأمورُ كما شاهدتُها دُوَلٌ ... من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

وهذه الدارُ لا تُبقى على أحد ... ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

يمزق الدهرُ حتمًا كل سابغةٍ ... إذا نَبَتْ مشرفياتٌ وخرصان

وينتضى كل سيفٍ للفناء ولو ... كان ابن ذى يَزَنٍ والغمدُ غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأين ما شاده شدّادُ فى إرمٍ ... وأين ماساسه فى الفرس ساسان

وأين ما حازه قارونُ من ذهبٍ ... وأين عادٌ وشدَّادٌ وقَحطان

أتى على الكل أمرٌ لا مرد له ... حتى قضوْا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ

دار الزمانُ على دارا وقاتله ... وأمّ كسرى فما آواه إيوانُ

كأنما الصعبُ لم يسهل له سببٌ ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان

فجائعُ الدهر أنواعٌ منوعةٌ   وللـزمـانِ مسراتٌ وأحـزان
وللحـوادث سلوان يسهِّلها   وما لِما حلَّ بالإسلام سلوان

●

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له   هوى له أحدٌ وانهد ثهلانُ
أصابها العينُ فى الإسلام فامتُحنتْ   حتى خلتْ منه أقطارٌ وبلدان
فاسألْ بَلَنْسية ما شأن مُرْسيةٍ   وأين شاطبةٌ أم أين جيَّانُ
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم ، فكم   من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَهٍ   ونهرها العذبُ فيّاضٌ وملآن
قواعدُ كَنَّ أركانَ البلادِ فما   عسى البقاءُ إذا لم تبق أركانُ
تبكى الحنيفيةُ البيضاءُ من أسف   كما بكى لفراقِ الإلفِ هَيْمان
على ديار من الإسلام خالية   قد أقفرتْ ولها بالكفر عمران
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما   فيهنّ إلا نواقيسٌ وصُلبانٌ
حتى المحاريب تبكى وهى جامدةٌ   حتى المنابرُ ترثى وهى عيدان
ياغافلاً وله فى الدهر موعظةٌ   إن كنتَ فى سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنُه   أبعدَ حِمْصٍ تغر المرءَ أوطان
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها   وما لها مع طولِ الدهرِ نسيان

●

ياراكبين عتاقَ الخيلِ ضامرة   كأنها فى مجال السبقِ عقبانُ
وحاملين سيوف الهندِ مرهفةً   كأنها فى ظلام النقعِ نيرانُ
وراتعين وراء البحر فى دعةٍ   لهم بأوطانهم عز وسلطانُ
أعندكم نبأ من أهل أندلس   فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم   قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكُمْ   وأنـتـمْ ياعبادَ اللهِ إخوان
ألاَ نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ   أما على الخير أنصارٌ وأعوان

يامن لذلة قومٍ بعد عزهمُ أحال حالهمُ كُفْرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا فى منازلهمْ واليوم همْ فى بلادِ الكفرِ عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمْ عليهمُ من ثيابِ الذل ألوان
ولوِ رأيت بكاهم عند بيعهم لهالكَ الأمرُ واستهوتك أحزان
يارب أم وطفلٍ حيل بينهما كما تـفـرقَ أرواحٌ وأبدان
وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعتْ كأنما هى ياقوتٌ ومَرْجان
يقوذها العلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيران
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمد إن كان فى القلبِ إسلامٌ وإيمان

○ **تعليق على القصيدة :**

قُيض لمرثية أبى البقاء من الشهرة والذيوع ما لم يقيض لمرثية أخرى . وهى شهرة مردها الصدق الذى تحتويه ، وحرارة العاطفة التى تجرى بين أبياتها ، قالها مكلومًا يخاطب الأندلسيين من قومه ، والمسلمين أنى وجدوا ، ولم يتوجه بها إلى أمير ، ولم ينشدها فى بلاط . ومع أن الجديد فى مضمونها قليل . إلا أن هذا القليل يرجح فى ثقله وقيمته كل ما تضمنه القصائد الأخرى ، لأنه يمس جانبًا إنسانيًا يستدر شفقة أقسى القلوب ، وأشدها جمودا وضراوة . وهو يفعل ذلك فى واقعة بسيطة مؤثرة ، ولعله شاهد بعض ، أو كثيرًا . مما وصف ، فهو يلتقط صوره من عمق المأساة ، تنم على ذلك بعض عباراته السهلة والصادقة فى الوقت نفسه ، مثل : « ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... » ، فليس أقسى على الحر من أن يباع عبدًا ، أو وصفه للطفلة يقودها العلج ، أو الأم تباع لسيد وطفلها لسيد آخر ، فليس أقسى ولا آلم من فراق جبرى ، لا تعرف له نهاية ، بين أم وطفلها ، تودعه وتعلم أنها قد لا تعود إلى رؤيته أبدا ، ومنظر فتاة فاتنة ، لا يد لها فى الحرب ، تساق للمكروه مكرهة دون أن تستطيع دفعًا لمغتصبها . ومثل هذه المشاهد الحزينة المؤثرة كانت تحدث على التأكيد فى أية معركة يخسرها المسلمون فى الأندلس ، ولكن أبا البقاء أول من عرض لها . واتخذها سبيلا لإثارة حمية المسلمين فى الأندلس وأفريقيا على السواء .

وما عدا ذلك من معان شريك فيها لمن سبقوه أو فاقهم فى الإيجاز ، والبعد عن الحشو المملل ، وجاء فى قصيدته ذات الاثنين وأربعين بيتًا بكل المعانى ، وبأكثر منها ، التى جاءت فى مرثية طليطلة المجهولة القائل ، أو ما قاله ابن الأبار فى بلنسية ، وحين استعبر الماضىّ لم يحاول ، كما فعل ابن عبدون من قبل ، أن يجعل منها معرضًا لعلمه الواسع ، وإنما قنع بأمثلة قليلة ، فى أبيات محدودة ، وأفكاره مرتبة ترتيبًا بديعًا ، واستطاع أن يلون عباراته ، وأن يعطيها إيقاعًا يميزها عن سواها رغم تشابه المضمون ، وكانت هذه الحكم ، تدور حول الاعتبار بما مضى ، خير مدخل مهد به الشاعر لموضوعه ، ثم انتقل منه إلى حادثه الخاص .

وأكد أبو البقاء ، شأن غيره فى هذا ، على الطباق النفسى والتصويرى فى القصيدة ، لتبدو المفارقة واضحة ومثيرة ، يصور ما كانت عليه المدن الذاهبة وما آلت إليه ، ويبرز ما تعرضت له المقدسات الإسلامية من امتهان : المساجد التى أصبحت كنائس ، والنواقيس التى حلت مكان الآذان ، والأعراض التى استبيحت علانية . وعبر القصيدة كلها لا تجد بيتًا قلقًا ، ولا كلمة زائدة ، ولا لفظًا نابيًا ، وكان أبو البقاء مستجيبًا فى إنشاد القصيدة لإحساس ذاتى غامر ، ومن هنا خلت أبياته من أية صناعة لفظية ، وكانت طابع كل من سبقوه .

●

وحين طار ذكر هذه القصيدة ، وتداولها الناس فى الأندلس وأفريقيا على السواء ، ووجدوا فيها صدى واقعهم صادقًا أضافوا إليها ، مع الزمن ، أبياتًا تتحدث عن مدن أخرى استغلب عليها الكاثوليك ، مثل بسطة ، والمرية ، ومالقة ، ووادى آش ، وغرناطة ، وكلها سقطت فى أيديهم بعد موت أبى البقاء . وهى أبيات ، إلى جانب استحالة أن يكون أبو البقاء قائلها تاريخًا ، دون القصيدة روحا وفنا وإثارة ، ولحظ ذلك المقرى فى نفح الطيب ، فعقب على القصيدة بعد أن أتى عليها كاملة : « انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدى الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من المدن بعد موت صالح بن شريف ، وما اعتمدته منها نقلته من خط يوثق به على ما كتبته ، ومن

له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها فى البلاغة ، وغالب ظنى أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذكان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب . فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك فى « أزهار الرياض » فليراجع » .

ولكن نسخة « أزهار الرياض » التى بين أيدينا ليس فيها أية إشارة إلى هذه الأبيات ، ونحن نادين بالفضل فى معرفتها إلى العالم المغربى الأستاذ عبد الله كنون ، فقد نشرها فى « صحيفة المعهد المصرى » فى مدريد ، على ما أشرنا إليه فى البدء ، نقلاً عن قطعة مخطوطة متداخلة من أزهار الرياض والنفح معًا ، توجد ضمن مجموع قديم فى خزانته الخاصة . فالأبيات التالية جاءت بعد البيت : « وأين حمص وما تحويه من نزه . . » فى القصيدة الأصلية :

وأين غرناطةٌ دار الجهادِ فكم ... أسدى الشدى وهم فى الحرب فرسانُ[٢٠]
وأين حمراؤها العليا وزخرفها ... كأنها من جنان الخلد عدنانُ
والماء يجرى بساحات القصور بها ... قد حف جدولها زهرٌ وريحان
وأين جامعها المشهور كم تُليتْ ... فى كلِّ وقتٍ فيه به آىٌ وقرآن
وعالم كان يهدى للجهول هدىً ... مدرّس وله فى العلم صبيان
وعابد خاشع لله مبتهلٌ ... والدمعُ منه على الخدين طوفان
ووادى شنين يحكى فى تخنّشه ... سيوف هند لها فى الجو لمعان
وأين بسطة دار الزعفران فهل ... رأى شبيهًا لها فى الحسن إنسان
كذا المرية دار الصالحين فكم ... قطب بها ، علمُ غوثٍ له شان
وأين مالقةٌ مرسى المراكب كم ... أرستْ بساحلها فلكٌ وغربان
وكم بداخلها من شاعر فطنٍ ... وذى فنونٍ له حذْقٌ وتبيان
وكم بخارجها من منزه فرجٍ ... وجنة حولها زهرٌ وبستان

(٢٠) كذا فى الأصل ولعلها أسد الشرى ، ويبقى المعنى مع ذلك غير تام .

وأين جارتها الزهرا وقبتها وأين ياقوم أبطالٌ وفرسان
وكم شجاعٍ زعيم فى الوغى بطلٌ بدا له فى العدا فتكٌ وإمعان
وكم جُدِّلَتْ يدهُ من كافر فغدا تبكيه من أرضه أهلٌ وولدان
ووادىْ آش غدتْ بالعزِّ عامرةً وردَّ توحيدها شركٌ وطغيانُ

وجاء فى المخطوطة نفسها زيادة بيت بين قوله « تلك المصيبة » وقوله « ياراكبين » ونصه :

ياأيها الملك الحمراءُ رايتُه أدركْ بسيفك أهل الكفرِ لاكانوا

وفى الختام ألحق بالقصيدة الأبيات الثلاثة التالية :

هل للجهاد بها من طالب فلقد تزخرفت جنة المأوى بها شان
والشوق للحورِ والولدانِ نحوكما(٢١) فازت لعمرى بهذا الفضل شجعان
ثم الصلاة على المختار من مضرٍ ما هب ريحٌ الصبا واهتز أغصان

ويذكر الشهاب الخفاجى ، المتوفى عام ١٠٦٩ هـ - ١٦٥٨ م ، دون أن يشير إلى المصدر الذى اعتمد عليه ، أن شاعرًا اسمه يحيى القرطبى شهد آخر صفحة من تاريخ الدولة الإسلامية فى الأندلس ، فنظم قصيدة على نسق قصيدة الرندى فاختلطت بها ، غير أنى لم أعثر للشاعر أو قصيدته على أثر فيما هو منشور من المصادر الأندلسية .

○ بين التأثير والتأثر :

إذا تركنا ما للقصائد الأندلسية الشبيهة من صدى فى نونية أبى البقاء . وسبقته أو عاصرته ، فمن المفيد أن نذكر أيضًا أن أنغامها وجوها بعكس صدى . لا يقل وضوحًا ، لنونية **أبى الفتح البستى** ، المتوفى عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م ، وهى مثل قصيدة أبى البقاء ، شرقت وغربت على أيامها ، ونالت شهرة عريضة . وسجلتها مخطوطات عديدة ، وكانت موضع شروح كثيرة ، واتفقا فى عدد من الخطوط الرئيسية ، وإن اختلفا فى الدافع والمناسبة ، ومطلع قصيدة أبى الفتح :

---

(٢١) كذا فى الأصل.

زيادةُ المرءِ فى دنياه نقصانُ ورِبحُهُ غيرَ محضِ الخيرِ خسرانُ

كما أن أحمد شوقى ، المتوفى عام ١٩٣٢ ، عارض قصيدة أبى البقاء فى نونيته الرائعة ، التى قالها فى ذكرى محنة دمشق على يد الاستعمار الفرنسى ومطلعها :

قمْ ناجِ جلّق وانشدْ رسمَ من بانوا مشتْ على الرسمِ أحداثٌ وأزمانُ

ولكن أمير الشعراء ، كما هو متوقع منه ، حلق فى سماء الشعر عاليًا ، وترك الكل دونه على الأرض ، بما فيهم أبو البقاء .

ولم تقف شهرة مرثية أبى البقاء عند العالم الإسلامى وإنما جازت شهرتها إلى العالم الكاثوليكى فى الأندلس . ويرى الدكتور ليون كارلونيرو إى سول Léon Carlonero y Sol، وكان يعمل أستاذًا للغة العربية فى جامعة إشبيلية فى أواخر القرن الماضى ، أن مرثية الشاعر الإسبانى خورخى منريكى Jorge Manrique (١٤٤٠ - ١٤٧٩ م) فى رثاء والده ، متأثرة إلى حد كبير بقصيدة أبى البقاء الرندى . وأن الشاعر الكاثوليكى لابد أن يكون قد عرف قصيدة الشاعر المسلم . فى نصها العربى أو مترجمة إلى الإسبانية ومتداولة شفاها ، مع مراعاة الفارق فى الدافع إلى كل منهما . ويشاركه فى هذا الرأى خوان باليرا Juan Valera من كبار أدباء الإسبان فى العصر الحديث (١٨٢٤ - ١٨٠٥) ؛ وقد قام باليرا بترجمة مرثية أبى البقاء إلى اللغة الإسبانية ، نقلا عن الترجمة الألمانية ، على نفس الوزن الذى نظمت فيه أشعار خورخى منريكى .

ونظرة عابرة إلى قصيده الشاعر الإسبانى يتبين منها المرء أن ثمة أمرين كان فيهما مقلدا للشاعر العربى على التأكيد . الأول هو الحديث عن تلون الحياة ، وارتفاعها وانخفاضها ، وتعاور الحزن والسرور على الإنسان ، وثانيهما استمداده العبرة من التاريخ واتخاذه شاهدا . ولو أن الشاعر الإسبانى استمدها من تاريخ أمته قديمًا وعلى أيامه ، من ملوك الرومان والقوط فى الماضى . والإسبان المعاصرين له ، على حين انحصرت إشارات الشاعر العربى فى ملوك الشرق القديم . والجدير بالذكر أن عدد فقرات القصيدة الإسبانية تساوى عدد أبيات قصيدة أبى البقاء . وبعيد عن التصور أن الأمر جاء صدفة واتفاقًا .

ولكى تكون لدى القارىء العربى فكرة عن قصيدة خورخى منريكى ، أورد ترجمة لمطلعها إلى العربية :

□

نبِّه النفسَ النائمة ،
وأيقظ العقلَ وأشعْ فيه النشاط ،
متأملا ،
كيف تمضى الحياة ،
وكيف يجىء الموت
صامتًا .
يا للسرور ، كم هو خفيف فى ذهابه ،
مؤلمٌ عند تذكر ساعاته ،
وكيف يبدو لنا
أن أىّ زمنٍ مضى
خيرٌ من الحاضر .
وفى لحظةٍ ، نرى الحاضرَ ماضيا ،
ومنتهيًا ،
ولو حكمنا فى فطنة
لاعتبرنا ما فى ضمير الغيب
ماضياً .
لا ينخدعن أحدٌ أبدًا
ظانًا أن الدوام حتم
لما يؤمله ،
لأن ما رآه لم يدم ،
وكل شىء عليه أن يمضى

عبر نفس الطريق ! .
حياتنا أنهار
تمضى لتصب فى بحر ،
هو الموت .
إلى هناك يذهب السادة ،
توًا لكى يفنوا
ويتلاشوا .
هناك الأنهار الفياضة ،
والأنهار الجارية ،
والأنهار الضحلة ،
لحظة وصولها تصبح متساوية ،
كالذين يعيشون من سواعدهم
يتساوون مع الأغنياء .

●

عاشت مملكة غرناطة زهاء قرنين من الزمان بعد عصر أبى البقاء ، وبها لاذت الحضارة الإسلامية فى شبه الجزيرة ، لكن الجماهير فقدت حيويتها كجماعة مؤثرة ، وإن تميزت ببطولات فردية مناضلة ، تحاول بعزم أن تؤخر النهاية القاصمة ، وفقدت القيادة الموجهة الحازمة ، فكان الأمراء والحكام دون مستوى الأحداث تفكيرًا وشجاعة وخلقًا وعنادًا فى النضال ، يستخدمون العدو لتحطيم بعضهم البعض ، ويشترون بخيانة أمتهم عروشًا صغيرة ذليلة ، وعبر هذه الفوضى الغامرة كان من الطبيعى أن يكون هناك من يأسى لحال الإسلام فى الأندلس ، يندب حاله وينعى أيامه ، لكن لم يصلنا من ذلك القليل ، أو على التحديد لم تصلنا إلى مرثية واحدة كانت مجهولة تمامًا ، وسوف ندرسها فى الفصل التالى .

مرثية أندلسية مجهولة

○ مرثيات ضائعة :

البعد عن الوطن يثير الشجى دائمًا ، ويهيج الذكريات ، وأمل المرء أن يعود يومًا إلى البلد الذى شب فيه ، وسط أشخاص أعزاء عليه ، وأشياء حبيبة إلى نفسه ، يخفف عادة من حسرات المهاجر وآلامه ، أو الراحل إلى آفاق بعيدة . وتصبح الحسرة أكثر إيلاما كلما كان هذا الأمل أشد استحالة ، أو ضاع إلى الأبد .

وليس ثمة شك فى أن المصير الذى كان ينتظر مسلمى الأندلس حين وجدوا أنفسهم جماعات خارج بيوتهم وربوعهم ، وقد أكرهوا على ترك ديارهم ، قد أذرف دموع آلاف التعساء ، وأثار مشاعر الشعراء ، غير أن صدى النبرات الخالدة لبعضهم ، وزفرات الآخرين ، لم يصلنا منها إلا القليل .

ضاعت مثلا مرثية شعرية كتبها **موريسكى مجهول** ، فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، أرسلها إلى شمال أفريقيا ، وحملها من يدعى داود ، ومعها رسالة ، ويطلب فيها العون والمساعدة ، ولكن الإسبان اعتقلوا داود فى الطريق ، وأخذوا الأوراق التى معه ، ومنها المرثية والرسالة ، وأرسلها المركيز مونديخر Mondéjar إلى **الملك** ، النص العربى وترجمة له . ولا أدرى أين استقر النص العربى ، ولكن **مرمول كربخال** Marmol Carvajal أورد ترجمة لها فى كتابه : « ثورة الموريسكيين Rebelion de lós Moriscos وعنه نقلها **فون شاك** فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » ، وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، ونشرت المجلد الثالث منه وهو الخاص بالفن ، بعنوان : « **فن العرب** فى إسبانيا وصقلية »[1] ، ووردت فيه المرثية كاملة هناك ، وترجمتها نثرا بداهة وأحاول جاهدا أن أعثر على نصها العربى.

---

(١) صدر عن دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

ومنها هذه المرثية التى بين أيدينا ، وكانت مجهولة حتى وقت قريب ، وإليك تاريخها كاملا .

○ **تاريخ المرثية :**

كان الباحث الجزائرى الدكتور **محمد صوالح** أول من وقعت عينه على مخطوطة هذه المرثية ، فى مطلع هذا القرن . فنشرها فى « المجلة الأفريقية Revue Africaine عام ١٩١٤ ، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية ، وقدم لها بترجمة فرنسية أيضا ، ولم يهتد إلى قائلها ، فحاول أن يُشرك معه بقية أدباء العالم العربى فى شمال أفريقيا ، وبعضا من المستشرقين . فكتب إليهم فى الجزائر وتلمسان وفاس والرباط وتونس وإسبانيا ، يطلب العون منهم فى التعرف إلى قائلها . لكن أحدا منهم لم يقدم له جوابا شافيا ، ونشر أحد أصدقائه ، مجاملة له ، الأسئلة التى طرحها عليه ، ومعها أبيات من القصيدة . فى مجلة الزهراء التى تصدر باللغة العربية فى تونس . وطلب إلى العلماء والقراء أن يوافوه بكل ما يمكن أن يكون فى حوزتهم من معلومات مفيدة ، غير أن نداءه بقى دون صدى . وما لبثت الحرب العالمية الأولى أن اندلعت . وأصاب كل الناس ويلاتُها ، وشغلتهم عن العلم والثقافة ، وتمخضت نهايتها عن عالم جديد ، مختلف تماما عما سبقها . وصمت الدكتور صوالح ، لسبب لا أعلمه ، ونُسيت القضية تماما .

وبعد ذلك بثلاثة وعشرين عاما أرسل الأديب المغربى **عبد الرحمن حجى** القصيدة إلى مجلة الرسالة فنشرتها فى عددها رقم ١٣١ . السنة الرابعة ، بتاريخ ١١ من شوال ١٣٥٤ ٦ من يناير ١٩٣٦ ، الصفحات ٢٢ - ٢٤ . وقدم لها بهذه الفقرة :

« . . قصيدة بليغة من الأدب الأندلسى الرائع ، تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية ، لم نعثر على قائلها . وقد طبعها لأول مرة على ما يظهر الأستاذ الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤ مع ترجمة فرنسية ، وبعض تعليقات بالفرنسية ، ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان **بايزيد العثمانى** بقصد الاستغاثة ، وأشار إلى أن **صحيفة** الزهرة التونسية نشرت نتفا منها منذ سنوات ، وطلبت من الأدباء أن يعلنوا

عن صاحبها إذا عرفوه ، ولكن لم يجب الصحيفة أحد ، فبقى مجهولا ، وقد عرضتها على المؤرخ المغربى الكبير السيد **محمد بن على الدكالى** السلوى ، فذكر لى أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة فى كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الإسكوريال . ولقد أحببت أن أرسل إليكم نصها لكى تنشروه فى مجلتكم الحافلة ، إذا راقكم ، لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسى من له معرفة بقائلها » .

ومن الواضح أن هذه المعلومات تجاوزها الزمن ، وتحتاج إلى إعادة تحرير ، ومن المؤكد أن الأستاذ **حجى** ، وكتبها فى شبابه ، لو عاد إليها الآن لأصلح منها ، ولكتبها على نحو آخر . أول ما يقع فى الخاطر تعقيبا عليها ، أننا لا نعرف من المقدمة ما إذا كان النص الذى أرسله إلى الرسالة نقلا عما نشره **الدكتور صوالح** ، أم أنه عثر عليه فى مخطوطة أخرى لم يشر إليها ، وإن كنت أرجح أنه حصل عليها من مخطوطة أخرى ، لأن مخطوطة الجزائر ، وقد رأيتها عبثت بها الأرضة أحيانا ، حتى ليستحيل ملء الفراغ الذى تركته وراءها . كذلك فإن بعض القضايا تحتاج إلى إعادة تحرير ، لأن عددا من الناشرين غير الباحثين يقعون على هذا النص ، فيأخذون كل ما ورد فيه على أنه قضية مسلمة ، ينطلقون منها ، ويبنون عليها نتائج تجيء خاطئة بالضرورة ، فالدكتور صوالح لم ينشر القصيدة مستقلة وإنما نشرها فى مجلة تصدر باللغة الفرنسية ، وصحيفة الزهرة لم تنشر ما نشرت بدافع ذاتى منها ، أو لأنها وقعت على القصيدة فى كتاب أو مخطوطة ، وإنما كان نشرها بطلب من الدكتور صوالح نفسه ، لعله يجد معينا يسهم معه فى الوصول إلى صاحبها . ولم يذكر فى بحثه عن القصيدة أنها فيما أرسله الأندلسيون إلى السلطان العثمانى يطلبون الإغاثة ، وإنما تحدث عن قصائد رثاء أندلسية كثيرة مجهولة ، أو ضائعة ، وأن من بينها واحدة بعث بها المسلمون الذين ظلوا فى إسبانيا بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م إلى السلطان العثمانى **بايزيد الثانى** . يعرضون فيها وضعهم المحزن . وكانت هذه القصيدة موجودة فى المكتبة الوطنية فى الجزائر ، تحت رقم ١٦٢٠ (781·b) ولكنها مع الأسف الشديد ضاعت ، أو سرقتْ إن شئت ، من المجموع . ورغم ذلك حاول الدكتور **صوالح** أن يحصل على نسخة منها ،

وحصل عليها ناقصة . واكتفى بهذه الإشارة . فلم يقل أين حصل عليها . ولا من قالها . ولا ما هى طبيعتها ، ولم ينشرها ، ولعله وجد أنها نفس القصيدة التى أوردها ، **المقرى** فى كتابه **أزهار الرياض** . الجزء الأول ص ١٠٩ ، وتوجد أيضًا فى مخطوط **تكميل أزهار الرياض للقنطرى** ، أبى عبد الله محمد بن عبد الله ، ص ٤٧ ، ويوجد بالخزانة العامة بالرباط . ضمن مجموع يحمل رقم ٢٨ ل . وهى ذات قيمة تاريخية فحسب . وتعكس المستوى الذى انحدرت إليه اللغة العربية وأدبها بين الموريسكيين حين سقطت دولة الإسلام فى الأندلس . وقد يكون من الخير أن نأتى على مطلعها ليقف القارىء على مستواها :

سلامٌ كريمٌ دائمٌ متجدد   أخصّ به مولاى خير الخليفةِ
سلامٌ على مولاى سلطان مكة   وسلطان دار المصطفى خير بقعةِ
سلام على مولاى من حاز ملكه   قبور كرام الرسل فى أرض أيلة
وحاز بلاد الشام والمسجد الذى   به صخرة المعراج أفضل صخرة
سلام على من دارُ مصر مقيله   ومسكنه ، أكرم بها من مدينة

كذلك قد يكون صاحب القصيدة من المرية ، على ما سنعرض له فيما بعد . ولكن بعيد جدا أن يكون **ابن خاتمة** . لأن هذا كان شاعرا مشهورًا . ووصلنا ديوان شعره بخط يده . وعرض له عدة من المؤرخين فى عصره . ولا تتفق روح القصيدة مع مزاجه . وقبل هذا كله فإن الرجل توفى عام ٧٧٠ هـ ١٣٦٩ م . أى قبل سقوط المرية فى يد المسيحيين بمئة وعشرين عاما كاملة . ومثلها فى ذلك كل المدن التى وردت فى القصيدة بلا استثناء . وأما كتابه « **مزية المرية** » فضائع . حتى يومنا . ولم يحدث أن كانت مخطوطته فى الإسكوريال . ولا أعرف أنه عُثر عليها فى مكان آخر [٢] . ولعل بين علماء المغرب من يعطيها شيئا من جهده . فقد يقف عليها فى إحدى المكتبات الخاصة . لأنها من الأهمية بمكان .

---

(٢) [illegible] ابن خاتمة ، فى هذا الكتاب ص ٩٧ وما بعدها

ومهما يكن من أمر فلم يستجب لدعوة العالم المغربى غير المؤرخ الجليل الأستاذ محمد عبد الله عنان ، فتناول القصيدة من الناحية التاريخية ، أحداثها ودلالاتها ، وحاول أن يحدد زمنها ، دون أن يمس الجانب الأدبى منها ، أو يضيف إليها جديدا يعين على تحقيق شخصية قائلها .

○ **مخطوطة المرثية :**

توجد هذه المخطوطة فى مكتبة الجزائر الوطنية تحت رقم ١٦٢٧ . وتتألف من ثمانى ورقات طولها ٢٠ سم ، وعرضها ١٥ سم ، والصفحة الأولى منها بيضاء ، وبقية الصفحات مكتوبة ، وفى كل صفحة عشرة أبيات ، ما عدا الثانية فتضم تسعة ، والأخيرة وتحتوى على خمسة أبيات فحسب ، أى أن مجموع أبيات القصيدة مئة وأربعة وأربعون ، وكتبت بحبر أسمر اللون ، ويصنع من الصوف المحروق والماء ، وخطها مغربى ، وأسماء المدن ، واسم الله والنبى ، والألفاظ الدينية ، وصيغ التعجب مكتوبة بحروف أكبر ، وأضاف الناسخ بحبر أحمر بعض التعليقات المفيدة والمختصرة ، ولكن التعليقات تطول إلى حد مافى ما بين البيت ١٠١ والبيت ١٤٠ ، وجاءت فى شكل سطور منحدرة على الهامش ، منظمة ودقيقة ويروق العين منظرْها ، غير أن المعلّق كان يتجاوز الفقرات المجملة ، أو التى تحتاج إلى تفسير ، فلا يعلِّق عليها بشىء .

والمخطوطة ليست أصلا ، ولكنها نُسخت عن أم لا نعرف عنها شيئا ، وتاريخ نسخها « يوم الأحد فى العشر الثانى من شهر شعبان سنة ٨٩٧ - ١٠ يونية ١٤٩٢ م) . ورغم العناية التى بُذلت للمحافظة عليها ، بوضع ورق مشمع بين الصحائف .ووضعها فى غلاف أخضر من الورق المقوى المغطى بالجلد ، فإنها تأثرت بالإرضة على نحو ملحوظ ، فثقبتها فى أكثر من مكان فى الصفحة الواحدة ، ويتسع حجم البعض منها حتى يبلغ فى الصفحة الأولى خمس سنتمترات طولا ، وخمس عشرة مليمتر عرضا . والتلف فى بقية الصفحات أقل عددا وجسامة ، ولكنه مزعج على أية حال ، لأن بعض فقرات القصيدة أو التعليقات اندثرت تماما ، مخلفة وراءها ثقوبا واسعة ، لا يمكن ملء ما ضاع معها

إلا تخمينا وافتراضا . وثمة أخطاء وهفوات ترجع إلى جهل الناسخ ، وهذه من السهل الوصول إلى حقيقتها .

○ أفكار القصيدة :

تدور القصيدة حول محاور خمسة ، تختلف فيما بينها أفكارا ، ومستوى ، وعدد أبيات .

المحور الأول يدور حول بكاء **رُندة** ، وجاء فى ثلاثة وستين بيتًا ، وقد سقطت رندة فى يد النصارى عام ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م ، ويبدؤها الشاعر متسائلا مذهولا : أحقا إن مدينة رندة المنيعة سقطت فى يد المسيحيين . وغربت عنها شمس الإسلام ، وأظلمت أرجاؤها ، وتزلزلت منازهها وقصورها ، وأزعج عنها أهلها ، وهدّت مبانيها ، وثُلث عروشها ؟ . ويقارن بين ما كان عليه أمرها ، وما انتهى إليه حالها ، كانت عُقابًا فهوت ، وعقدا فانتثرت ، ويصف حالها مسلمة موحدة ، وأصبحت فى قبضة النصارى وهى مثلثة . تعبد فيها التماثيل والصور من دون الله ، وارتفع فيها صوت النواقيس ، ودارت على أهلها صروف الليالى ، فتوزعتهم بين قتيل وأسير. وصور وقع المأساة على القلوب ، وحال الناس لحظة الهزيمة : عويل صارخ . وبكاء لا يجدى ، ورسم صورة مفصلة لما أجمله فيما سبق . أطال فيها الحديث وأطنب ، وفصل القول وأسهب ، فالمساجد التى حُولت إلى كنائس صمت فيها نداء المؤذن وأخرس صوت المرتل ، ويشكو محرابها الجوى لمنبرها ، والفتيان الذين قاتلوا فى بطولة ، وكان الموت أحب إليهم من الحياة ، والفتيات الجميلات اللائى انتهى بهن المطاف جوارى ومحظيات فى بيوت الكافرين ، يستغثن ولا مغيث ، ويستجرن ولا مجير ، ونساء عجائز يكابدن الجوع والظمأ ، وشيوخ شاب شيبهم . وسيدات شابات تمنين الموت قبل أن يشهدن الذل . وأطفال انتزعوا من حجور أمهاتهم . وأكرهوا على تبديل دينهم ، ويختم قصيدته بأنه كان يتمنى لو لم يولد فلا يلفحه حر مصابها . فلا خير فى عيش أعذب منه الموت ، ثم يتساءل : أتبعث رندة من جديد ؟ أتعود مسلمة كما كانت . ويُسمع فيها صوت المؤذن عاليًا ؟ . لقد أحدث سقوطها رجة فى

بطاح الأندلس ومدنها وثغورها ، ولبس الجميع الحداد عليها ، وأحياؤها تبدى الأسى ، جمادها يبكى لفرط حزنه ، ولو كان الفراق يهلك لذابت جبالها ، وغاضت بحارها ، حزنا على فرقة دينها .

والمحور الثانى يدور حول **رثاء مالقة وما حولها** ، وكانت أهم مدينة بقيت فى أيدى المسلمين ، فى جنوب الأندلس على البحر الأبيض . والميناء التجارى والحربى الأول لمملكة غرناطة . وسقطت فى يد النصارى عام ٨٩٢ ١٤٨٧ م ، أى بعد سقوط رندة بعامين ، وبسقوط هذه المدينة الحصينة توالى سقوط المدن والحصون حولها ، فسقطت **الغربية وبلش** عام ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م ، والمنكب وهى على البحر الأبيض . وكانت مصيف بنى نصر ملوك غرناطة ، وسقطت عام ٨٩٤ هـ - ١٤٨٩ م ، **ووادى آش** . وسقطت فى يناير ١٤٩٠ م ، **وبسطة** وسقطت عام ٨٩٥ هـ ١٤٨٩ م . وغرناطة وسقطت فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢ ، وهى آخر مدينة سقطت . ومعها سقطت دولة الإسلام فى الأندلس . ولو أن الشاعر سبق بها ذكرا كلا من بسطة ووادى آش . ويبدأ الشاعر هذه القسم فجأة ، بعد أبيات سبقته تشى بأن القصيدة انتهت . وعدد أبياته اثنان وعشرون ، عرض فيه لسبع مدن . من مملكة غرناطة ، خص كل واحدة ببيتين ، وذهبت غرناطة وحدها بعشرة أبيات ، وفى حديثه عن المدن السبع لم يتجاوز بأفكاره أن مغانيها أقفرت ، وعاد سكرها علقماً ، وأسكرها الهول ، أما غرناطة فهى دار العلى ، وقرار الملك ، والحضرة العليا ، ليس لها مثيل فى العراقين ، ولا فى بلاد الله أجمع ، غالها الأسى ، فالأمام والمأموم ، والزائر والمقيم ، كلهم فى مأتم ، والناس فى صعق من الهول ، والبنيات بواكى الأعين مذعورات .

والمحور الثالث كان **رثاء المرية** ، وسقطت كما قلنا قبل عام ٩٨٤ هـ ١٤٨٩ م ، أى قبل سقوط غرناطة بأزيد من عام تقريبا . والحديث فيها متصل بما قبله لا فجوة فيه ، ولو أن الترتيب التاريخى غير مراعى ، ومن الصعب تحديد نهاية الأبيات بها مباشرة ، ويمكن القول أنها شغلت من القصيدة كلها ثمانية عشر بيتا . وجعل منها خاتمة المطاف ، رغم أنها سقطت قبل مدن أخرى سلفت . وهو لا يريد أن ينساها لأنها موطن آبائه

الكرام ، وأول أرض غذاه خيرها ، ويطلب من أصدقائه أن يودعوها ، أو أن يكلوا أمرها لمن يحسن الدفاع عنها ، ثم يحمل الذاهبين إليها تحيته ، وهنا يأخذ فى بيان أسباب النكبة : لقد ضاعت الأمانة ، وأضاع الناس حقوق الرب ، وكان العصيان وراء استيلاء العدو على بلادهم ، فسلب منهم أوطانهم ونفوسهم ، وأصبحت أموالهم فيئا له . ويشير إلى أن استيلاء العدو عليها كان بلا ثمن ، لم يأخذها فى حرب ، ولم يقدم لها تضحيات ، وإنما هبط عليهم فى أعداد كثيرة ، كموج البحر لا تنتهى ، نذرت قتال المسلمين ووفت بنذرها ، وأن ما وقع للمسلمين كان نتيجة لمقدمات وقعت ، ولن تتغير الأولى إلا إذا تغيرت الثانية .

والمحور الرابع يدور حول **استنفار** المسلمين فى الأندلس وخارجها لإنقاذها ، وجاء فى ستة وعشرين بيتا ، ويبدؤها بدعوة أهل الدين أن يهبوا ، لأن الدين هُد من ركنه ، وزُعزع من أكنافه ، ودبت الأفاعى إلى كل مؤمن ، وغصّت أكباد كل تقى ، وينادى المسلمين عربا وعجما ، يستنفرهم للجهاد ، فهو فرض ، ويهيب بهم أن يرجعوا إلى الدين ، وأن يتوبوا ويصدقوا ويصبروا ويردوا الظلامات ، وأن يطهروا نفوسهم ويستعدوا ليوم اللقاء ، أسودا على خيل ضامرة ، يرعب الأعداء زئيرها ، شجعانًا يودون لقاء الله تحت ظلال السيوف ، وأن يضربوا كالهام ، ويطعنوا فى المهج ، ويؤكد على أن الله لن يخذل أمة تدين بالحق ، ثم يحذر : أما إذا لم تفعلوا فترقبوا سخط الله ، وأياما تفيض بالذلة والفرقة واهتضام الحقوق ، وحينئذ يأخذ المشركون كرائمهم وخير أموالهم ، ومعها لا خير فى العيش ، وقد مر أطيبه ، وبقى أمره وأسوأه ، ويومها لا يبقى أمامهم إلا أن يمدوا أكف الذل خائفين ومرعوبين ، وإذا لم يُقلْ رب العباد عثارهم ، فهذا العدو الضخم سوف يأتى عليهم .

والمحور الخامس والأخير : **دعاء** . وجاء فى خمسة عشر بيتًا ، توجه فيها إلى رب العالمين ، يطلب غوثه ، ويستشفع برسوله ، ويصلى على المختار من آل هاشم ، ويطلب عونه وعفوه وتأييده ، وأن يرسل على العدو الرزايا ، وأن يشتت شمل الكفرة ، ويختمها بالصلاة على خير البرية وصحبه .

○ من صاحب القصيدة ؟

والبحث عنه هنا لا يعنى ذكر اسمه ، فذلك لا يتأتى إلا إذا ذكره التاريخ صراحة وهو ما لم يفعله ، أو أشار المؤرخون إلى ما يعين عليه وهو ما نفتقده ، لأن هذه القصيدة لم ترد ، فيما أعلم ، حتى هذه اللحظة فى غير مخطوطة الجزائر ، والفترة كلها لم تجد مؤرخا يدون أحداثها بعد وفاة **لسان الدين بن الخطيب** ، وسبقت الأحداث بمئة عام تقريبا ، إذا استثنينا فقرات تجئ هنا أو هناك ، من كتب ضاعت ، أو وثائق سياسية لم تظهر ، وكلها تتصل بالتاريخ السياسى ، وما نهدف إليه هو تحديد هويته وموطنه عن طريق تحليل القصيدة ، وفى هدى من أبياتها .

أول ما يرد فى الخاطر : هل القصيدة لشاعر واحد أو لجملة من الشعراء ؟ لا شيء يحول تاريخًا دون أن يكون واحدًا ، لأن الفارق بين سقوط رندة أول مدينة ذكرها ، وغرناطة آخر مدينة استسلمت ، لا يتجاوز سبعة أعوام . ولكن من جانب آخر يدرك المرء للوهلة الأولى أن القصيدة ليست بمستوى واحد فنيا وحرارة عاطفة ، فالقسم الأول الذى بكى فيه رندة جيد متسق ، وتعكس أبياته حزن مكلوم حقا ، وجاء أطول أقسام القصيدة ، ويأتى بعده ودونه مرتبة وعدد أبيات ، القسم الذى رثا فيه مدينة المرية ، وأما الأبيات التى بكى فيها مالقة وما حولها ، وغرناطة وأقسامها فباردة فاترة ، والشاعر فيها عجل يريد أن يخلص من واجب إلى غاية ، فهو يسجل سقوط هذه المدن عجلا لينتهى منها إلى غيرها ، ولذلك جاءت رغم كثرة المدن التى تعرضت لسقوطها أقل الأقسام أبياتا ، وفيما يبدو جاء بها ليصل ما بين شعره فى سقوط رندة وحديثه عن المرية ، وبكاء هذه الأخيرة أجود مما سبقه ، ولكنه دون الشعر الذى أنشده فى رندة . ثم حاول أن يرتفع بإيقاعه شيئا وهو يستنفر المسلمين للجهاد ، ولكنه لم يبلغ من الجودة ما بلغه فى أول القصيدة وإن تجاوز الثانى وكان فى مستوى القسم الثالث . ومع الأخير منها يلوذ بدعوات عادية ليس فيها من الشعر إلا أنها جاءت فى أوزانه وقوافيه .

ورغم هذه التفاوت بين انفعال وآخر فى أجزاء القصيدة ، فإن قائلها واحد ، فيما

أرى ، وأرجح ظنا يقرب من اليقين أنه من المرية ، يذكر ذلك صراحة فى القسم الذى أوقفه عليها :

فيا أصدقائى ودعّوها كريمة أو استودعوها من إليه أمورها
منازل آبائى الكرام ومنشئ وأول أوطان غذائى خيرها
واقروا عليها من سلامى تحية يجدّدها آصالها وبكورها

نعم إن ناسخ القصيدة ، وكان معاصرا للشاعر ولأحداثها ، علق على هامش هذه الأبيات عند كلمة « أو استودعوها » قائلا إن الشاعر يشير إلى مدينة الغربية ، وهو لا يتأتى ، لأن الضمير نحويا يجب أن يعود على أقرب مذكور ، إلا لقرينة ملزمة ، وبين هذا الضمير والغربية أورد أسماء مدن أخرى مثل : المنكب ، والإقليم ، وغرناطة ، ووادى آش ، وبسطة ، ثم المرية أخيرًا فلا يمكن أن نتجاوز به هذه الأخيرة ، ونرده إلى مدينة سبقتها بغير مبرر منطقى ، أو شاهد تاريخى ، وبخاصة أن لغة الشاعر سليمة ، وجريه على سنن الإعراب مستقيم .

فالشاعر من **المرية** إذن ، ولكنه قال القصيدة قبل سقوطها بأعوام ، قالها حين سقطت رندة ، وأثاره أن يستولى النصارى على هذا المعقل الحصين من معاقل الإسلام ، يقوم على قمة جبل الوصول إليه سلمًا مشكلة وعسير ، وربما رأى فى ضياعها ، رغم صفاتها هذه ، نذير شؤم ، وبداية هزائم لا تتوقف ، وكان هذا ما حدث فعلا ، ولذلك جاء حديثه عنها حديث مذهول غير مصدق ، وربما كان من دوافعها صدى قصيدة **أبى البقاء الرندى** ، وهو من المدينة نفسها ، وقالها قبل ذلك بأكثر من مئة عام ، وجاءت قصيدته مثيرة ، وتعبر عن انفعال صادق ، وأخذت مكانها اللائق بها من ذواكر الناس ، وربما من حلقات الدرس ، غير أن هذا لا يمنع أن الشاعر تردد طلبا للعلم ، أو استجابة لدواعى العيش ، على أكثر من مدينة فى هذا الجانب من الأندلس ومدنه متقاربة ، وجعلت منها الأخطار المحيطة وحدة ، وأكدت المآسى صلات الود والقربى بين الناس فيها .

وقال الشاعر قصيدته ، فيما أرجح ، بعد سقوط رندة مباشرة ، وكانت وقفًا عليها فى البدء ، وجاءت متميزة فى نطاق الكل الذى وصلنا ، ويحس المرء أن قائلها إنسان قهرته

الهزيمة ، لكنها لم تقض عليه لأنه خارج دائرة الخطر المباشر ، وغلبه التشاؤم ولكنه لم يذهب بإيمانه ولا أضاع أمله ، وأن فيه بقية من رمق ، ويعمل جاهدا على إثارة العزائم وإنهاض الهمم ، ولهذا سلمت هذه الأبيات بناء ولغة ، وارتقت تعبيرا وصورا ، وجاءت أصيلة فى الجانب الأكبر من أفكارها . لا تقع فيها إلا على قليل من أفكار وأثر الذين سبقوه .

ولكن الهزائم توالت ، وسقطت مدن أخرى ، وسقطت المرية نفسها ، مسقط رأسه ، ومنازل آبائه على حد تعبيره ، سقطت بعد رندة بأربع سنين وخمسة شهور ، ويبدو أن الشاعر فارقها إلى العاصمة غرناطة فرارا ، تركها بعد أن سقطت فعلا ، وذلك يعنى أنه لم يكن نكرة فى مجال الحياة العامة ، لأن غمار الناس أشد التصاقا بمواطنهم ، ويواجهون الأحداث فى أماكنهم عادة ، لا يفكرون فى الهجرة اختيارا ، ولا يستطيعونها لو أرادوا ، وليس لديهم ما يخشون ضياعه خارج حياتهم ، وهى مهددة على الدوام ، إن لم يكن بالموت قتلا فى ساحة اللقاء ، فبالموت جوعا أو مرضا تحت ضغط الفقر والحاجة ، والحرب لا تجئ وحدها ، وإنما تأتى معها ، وتخلفها ، على نطاق واسع شتى الأوبئة مادية ومعنوية على السواء .

متى قال الشاعر بقية القصيدة ؟ أظنه قالها فى **غرناطة** ، بعد أن استقر فيها لاجئا ، ولكن غرناطة ما لبثت أن لحقت ببقية المدن التى حولها ، وبين سقوطها كلها وسقوط **المرية** عامان فحسب ، فعاد إلى قصيدته عن **رندة** يريد أن يكملها ببكاء المرية مدينته ، ولكنه رأى مجاملة ، أو فنا ، أو احتراما للتاريخ ، أن يشير إلى بقية المدن الأخرى ، وهكذا نفاجأ به يتحدث عن مالقة دون تمهيد ، وبعد أبيات سبقتها توحى أنها نهاية قصيدة ، ويستعرض فى الأبيات الجديدة موجزا أحوالها ، وأحوال المدن التى حولها ، ثم يعرض لغرناطة وما يصاقبها فى أبيات قليلة ، باستثناء العاصمة وكان حظها من الأبيات أوفر ، على نحو ما أشرنا . وحين بدأ يتحدث عن المرية مدينته ، كان متعب الروح ، مستنفد القوى ، رغم كل دواعى الإثارة ، فارتفع بأبياتها عما سبق ، ولكنه لم يبلغ بها أبياته الأولى

فى رندة ، وسرعان ما تجاوزها داعيا إلى الجهاد ، ولم يصبر عليه ، فانحدر إلى الجانب السلبى يدعو ويصلى وينتظر قضاء الله .

يمكن إذن أن نقول إن الشاعر بدأ قصيدته بعد سقوط رندة ، وأنه أكملها عام ١٤٩٢ م ، فى تاريخ يمكن تحديده بدقة ، لأن مخطوطة الجزائر تحمل تاريخ نسخها ، على ما أشرنا ، وهو يوم الأحد ، العشر الثانى من شعبان ٨٩٧ هـ (= ١٠ من يونية ١٤٩٢ م) ، وغرناطة ، وعرض الشاعر لسقوطها ، وخصها بعشرة أبيات ، سقطت فى اليوم الثانى من ربيع الأول ٨٩٧ = ٢ من يناير ١٤٩٢ ، وبين هذين التاريخين يكون الشاعر قد أكمل قصيدته ، ومع النص الصريح يصبح استنتاج الأستاذ محمد عبد الله عنان . وهو قريب من الدقة ، فى أنها كتبت حول عام ٩٠٤ أو ٩٠٥ غير ذى أساس . ومع أن الناسخ لم يشر إلى المكان الذى نسخ فيه القصيدة ، يبدو لى أنها نسخت فى غرناطة نفسها ، وأن أحد الموريسكيين الذين طردوا من الأندلس كرها عام ١٦١٣ ، أو الذين هاجروا قبلهم اختيارا ، حملها معه إلى الجزائر ، وقد استقر هؤلاء الموريسكيون المطرودون على امتداد ساحل شمال أفريقيا كله ، فى المغرب والجزائر وتونس ، ومن يدرى فلعل آخرين حملوها معهم أيضا . ولعلنا بشىء من البحث فى المخطوطات المسجاة فى المكتبات العامة والخاصة تنتظر الباحث والدارس ، يمكن أن نجد منها صورة أخرى ، أو ما يلقى على ما معنا شيئا من الضوء .

○ ملاحظات عامة :

يبدو الشاعر متمكنا من اللغة العربية ، وإذا كانت معانى بعض الأبيات غامضة ، فلأننا نعتمد فى نشرها على مخطوطة وحيدة ، بعض ألفاظها غير واضح ، وعبثت الأرضة ببعضها الآخر . ونعتمد فى الاهتداء إليها على التخمين ، واختيار اللفظ الأقرب إلى الصورة المكتوبة . دون أن نعطى أنفسنا حرية التغيير والتبديل ، وهى تجىء فى مستوى أرقى الشعر الذى نعرفه عن هذه الفترة ، وما سبقها بقليل ، عند أبى البقاء الرندى ، وابن

خاتمة ، وابن الخطيب وابن زمرك ، ولا نعرف شاعرًا أندلسيا آخر معاصرًا له كان فى مستواه .

وهو رجل مثقف ، ولا يبدو عليه أنه فقيه ، أى لم يتخذ هذا المجال حرفة له ، لأن الفقه كثقافة عامة كان مشتركًا بين الناس جميعًا ، لأن الدين الحياة نفسها فى تلك العصور ، فهو لا يقف طويلا عند الصور المكرورة التى نألفها فى قصائد الشعراء الفقهاء . وفى بكائه لرندة لا يرد هزيمتها إلى الفسق ومعصية الله ، رغم أنه أعطانا صورة مفصلة لما انتهى إليه حالها . ولم يحاول أن يبرر هذا السقوط على نحو ما فعل الآخرون ، ولم يرده إلى القضاء والقدر أو تقلب الأيام ، ولم يتأس بما حدث للآخرين من قبل . لأن الناس قد يجدون فى هذا مندوحة للتواكل والاستسلام .

وفى نهاية القصيدة حين استنفر المسلمين للجهاد رسم صورة دقيقة للعلاج ، وهو العودة عمليًا وبإخلاص للتعاليم الإلهية ، فيحض أخوانه فى الدين ينصحهم ويبصرهم بما يجب عليهم أن يقوموا به من التوبة ، وتطهير الأرواح ، والبعد عن المظالم ، وإصلاح الاقتصاد ، والقتال العنيد .

ويعرف داخل كنائس المسيحيين جيدًا ، حيث تماثيل القديسين ، وصورة العذراء ، ويلم بشىء من طقوسهم ، فأمام هذه التماثيل والصور يركعون ويسجدون ، ويدعون ويطلبون .

ونلحظ أنه بدأ قصيدته مباشرة ، دون مقدمة من أى لون ، وهو فى هذا نسيج وحده ، لأن القصائد التى سبقته مهدت لموضوعها بأبيات تقصر أو تطول ، ولكن بعض الأفكار مشتركة بينها كلها ، لأنها حدثت فى كل المدن التى وقعت فى يد النصارى تقريبا ، كتحويل المساجد إلى كنائس ، واسترقاق الفتيات الجميلات ، والتفرقة بين الأمهات والولدان ، ولكن تناول الشاعر المجهول مختلف عن تناول سابقيه .

نص المرثية

○ بكاء رندة :

أحقًا خبا من جوّ **رندة** نورُها ... وقد كسفتْ بعد الشموسِ بدورُها
وقد أظلمتْ أرجاؤها وتزلزلتْ ... منازُهها ذات العلا وقصورها
أحقا خليليِ أنّ **رندة** أقفرتْ ... وأزعج عنها أهلُها وعشيرها
وهُدّتْ مبانيها وثُلّت عروشُها ... ودارتْ على قُطبِ التفرقِ دورها
وكانت عُقابًا لا يُنالُ مطارُها ... ومَعقلُ عزٍّ زاحمَ النسرَ صُورها
هوت **رندةُ** الغراءُ ، ثم حصونها ... وأنظارُها شنعاءُ ، عزَّ نظيرها
وقد كنَّ عقدا زيّن القطرَ نظمها ... فقد فتح الآن البلادَ نثيرها
وفرّق شمل المؤمنين لهيبُها ... وقطّع من أرحامهم زمهريرها
تسلّمها حزبُ الصليب وقادها ... وكانت شرودا لا يُقاد نفورها
وقد ذهبتْ أديانها ونفوسها ... وقد دثرتْ تحت السباء دثورها
فباد بها الإسلام حتى تقطّعتْ ... مناسبُها واستأصل الحقَّ زورُها
وأصبحتْ الصلبان قد عُبدتْ بها ... تماثيلُها دون الإله وصورُها
لِقَرْعِ النواقيس اعتلى بمنارها ... كرائهُ أصواتٍ يروعُ صريرها
فَيا ساكني تلك الديارَ كريمةً ... سقى عهدَكم مزنٌ يصوب نميرها
أحقًا أخلائي القضاءُ أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورُها
فقتْلٌ وأسْرٌ لا يُفادى وفرقةٌ ... لدى عرصاتِ الحشر يأتى سفيرها
لعُمرِ الهدى مابالحشا لفراقكم ... سوى حُرَقٍ سُحْمٍ تلظّى سميرها
ولوعةُ ثُكْلٍ ليس يذهب رَوْعُها ... ولا تنقضى أشجانُها وزفيرُها
ونفسٌ على هذا المصاب حزينةٌ ... يذوبُ كما ذابَ الرصاص صُبورها
وقلبٌ صديعٌ ماج فيه بلاؤه ... سويداؤه سوداءُ جَم ثبورها

سأبكي وما يجدى على الفائت البكي بعبرةِ حُزْن ليس يرقا عبيرها
شآبيبُ دمعٍ بالدماء مشوبةٌ يساجلُ قطرَ الغادياتِ دُرورها
عويلا يوافى المشرقين بريحه وثُكْلا بأقمارٍ قد اطفئ نورها
فواحسرتا كم من مساجدَ حُولتْ وكانت إلى البيتِ الحرام شطورها
ووأسفا كم من صوامعَ أوحشت وقد كان معتادُ الأذان يزورها
فمحرابُها يشكو لمنبرها الجوى وآياتُها تشكو الفراقَ وسورُها
وكم من لسانٍ كان فيها مرتِّلٌ وحَفْلٍ بختم الذكْر تمضى شهورها
وكم من فتىً ثبتِ الجنان مهذبٍ يودُّ المنايا وهو كان يديرها
يصول على الأبطالِ صولةَ ضيغمٍ فيرهبه شبلُ الشرى وهصورُها
له فى سبيل الله خيرُ نقيبة تُزان له عينُ الجنان وحورُها
له فى جناب الكفرِ أجدى نكايةً وشعواءُ غاراتٍ يُثابُ مغيرُها
يُراع له دينُ الصليبِ وحزبه ويُجْزَىَ بها غنصالها ورَميرُها (٣)
وكم أنفسٍ كانت لديه أسيرةٌ فأضحى لعَمْرُ اللهِ وهو أسيرها
تحكمّ فيه الشركُ وهو موحِّدٌ كما قد قضىَ جبارُها ونذيرها
وكم طفلةٍ حسناءَ فيها مصونةٌ إذا سفرتْ يُسبى العقول سفورها
تَميل كغصن البان مالت به الصَّبا وقد زانها ديباجُها وحريرُها
فأضحتْ بأيدى الكافرين رهينة وقد هُتكتْ بالرغم منها ستورها
وقد لطمت – واحر قلبي – ! خدودها وقد أسبلتْ – وادمعَ عيني – شعورها
وإن تَسْتغثْ بالله والدين لا تُغثْ وإن تستجرْ ذا رحمةٍ لا يُجيرها
وقد حيل ما بين الشقيق وبينها وأسلمها آباؤها وعشيرُها
وكم من عجوز يحرِّم الماءَ ظمؤُها على الذلَ يُطوى لَبْثها ومسيرها
وشيخٍ على الإسلامِ شابتْ شيوبُه يمزِّق من بعد الوقارِ قتيرها

(٣) رميرRamero وغنصالب Gonzalvo ، من الأسماء الأسبانية فى الصورة التى كان ينطقها العرب ، وبها كان يسمى عدد من ملوكهم وقوادهم .

وكم فيهمْ من مُهجة ذاتِ ضجَّة تود لو انضمت عليها قبورها
لها روعةٌ من وَقْعةِ البين ، دائمٌ أساها ، وعين لا يكفُّ هديرها
وكم من صغير حيزَ من حجْر أمِّه فأكبادُها حرّاءُ ، لفْحٌ هجيرُها
وكم من صغير بدّل الدهرُ دينه وهل يَتْبع الشيطانَ إلا صغيرُها
وكم من شقى يسّرتْ هذه له سبيلا إلى العسرى يحيفُ كفورُها
كروبٌ وأحزانٌ يلين لها الصفا عواقبُها محذورةٌ وشرورها
فيافرْحةَ القلب الذى عاش بعدها ويالعمى عين رآها بصيرها
وياغُربةَ الإسلام بين خلالها وياعثرةً أنى يُقال عثورُها
وياليت أمى لم تلدنى وليتنى بليتُ ولم يلفح فؤادى حرورها
وما خيرُ عيشٍ يعذبُ الموت دونه ويغبط قِلَّ الأهلِ فيه كثيرُها
فياليتَ شعرى بعد ما صح موتها أيرجى على رغم العداةِ نشورُها
ويامِلّة الإسلامِ هل لك عودةٌ لأرجائها يشفى الصدور صدورُها
وهل تسمع الآذان صوت الأذان فى معالمها تعلو بذاك عقيرها
وياعزاء المؤمنين لفاقةٍ على الرغم ، أغنى من لديها فقيرُها
لأندلسَ ارتجّتْ لها وتضعضعت وحقٌّ لديها محوُها ودثورها
منازلُها مصدورة وبطاحها مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها وأحجارها مصدوعةٌ وثغُورها
وقد لبستْ ثوبَ الحداد ومزّقتْ ملابس حُسْنٍ كان يزهو حبورُها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادُها يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
لو أن ذا إلْف من البين هالكٌ لذابت رواسيها وغاضت بحورُها
على فُرقةِ الدين الذى جاءها به بشير الأنام المصطفَى ونذيرها

○ **رثاء مالقة وما حولها :**

فمالقةُ الحسناءُ ثكلى أسيفةٌ قد استُفرغتْ ذبحا وقتلا حُجورُها

وجُزَّت نواصيها وشُلَّت يمينها وبُدِّل بالويلِ المبين سرورها
وقد كانت الغربيةُ الجنَنَ التى تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلِّشُ قُطَّتْ رجُلها بيمينها ومن سريان الداء بان قطورُها
وضحَّت على تلك الثنيات حجرها فأقفر مغناها وطاشتْ حجورها
وبالله إن جئتَ المنكِّبَ فاعتبر فقد خفَّ ناديها وجف نضيرُها
وسكُّرها قد بدِّل اليومَ علقمًا لها رجَّةٌ ، نار الهيام تثيرها
وعَرجْ على الإقليم فابك ربوعَها بِسُحْبٍ يضاهى المعصرات خريرُها
وودع بها وفدَ النعيم فإنها لها أدمعٌ ، فيْنُ الدموعِ يميرُها

○ بكاء غرناطة وما حولها :

ألا ولتقفْ ركبُ الأسى بمعالمٍ قد ارتج باديها وضج حضورُها
بدار العلى حيث الصفاتُ كأنها من الخلدِ والمأوى غدتْ تستطيرُها
محلُّ قرارِ الملكِ غرناطةُ التى هى الحضرة العليا زهتها زهورُها
فما فى العراقين العتيقين مثلها ولا فى بلاد الله طُرا نظيرْها
تُرى الأسى أعلامُها وهى خُشَّعٌ ومنبرُها مستعبرٌ وسريرها
ومأمُومها ساهى الحجى وإمامها وزائرها فى مأتمٍ ومزورها
لها حالُ نفسٍ قد أصيب فؤادها وبتَّتْ لها اليمنى وحم تبورها
فأنفسها فى الصعْقِ دون إفاقةٍ كنفس كليم الله إذْ دُك طورْها
وقد ذُعِرتْ تلك البنياتُ حولها فهن بواكى الأعين الرمْدِ مُوْرُها
وقد رجفتْ وادى الأشى فبقاعُها سكارى وما استاكتْ بخمرٍ ثغورُها
وبسطة ذات البسط ماشعرت لما دهاها ، وأنى يستقيم شعورُها
على عظم بلواها وطول وبالها وماكابدتْ من ذا المصاب نحورها

○ **رثاء ألمرية :**

وما أنس لا أنس ألمرية إنها قتيلةُ أوجالٍ أُزيل عِذارها
فلو أحرق الثكلُ المصابين أصبحتْ تأجّج من حر الوجيف بحورُها
فيا أصدقائى ودّعوها كريمةً أو استودعوها مَنْ إليه أمُورها
منازلُ آبائى الكرامِ ومنشئُ وأول أوطانٍ غذانى خيرُها
واقروْا عليها من سلامى تحيَّةً تجدِّدها آصالها وبكورها
أماناتُها ضاعتْ فضاعتْ رقابها لقله عميتْ عينٌ تبدد نورها
أضعنا حقوقَ الرب حتى أضاعنا وُفضتْ عرى الإسلام إلا يسيرُها
وملّتنا لم نعرف الدهرَ عرفها من النُّكر فانظر كيف كان عريفها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلانُ صاحب جمعَنا وبؤنا بأحوالٍ ذميمٌ حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا وعاثتْ بنا أسدُ العدا ونمُورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا وأموالَنا فيئًا أبيحتْ وفورها
علوها بلا مهارٍ وما غمزتْ لهم قناةٌ ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الإفرنج من كل شاهقٍ علينا فوقّت للصليب نذورُها
وقد كشرتْ ذؤبانها وكلابها وقد كسرتْ عقبانها ونسورُها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا جيوشٌ كموج البحر هبَّتْ دبورها
علاماتْ أخْذٍ مالنا قِبلٌ بها جناياتُ أخْذٍ قد جناها مثيرها
فلا تنمحى إلا بمحو أصولها ولا تنجلى حتى تحط أصورُها

○ **استنفار :**

معاشرَ أهل الدين هبُّوا لصعقةٍ وصاعقةٍ وارى الجسومَ ظهوُرها
أصابت منارَ الدين فانهد ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرُها

أدارت على غربيّه الدهر أكؤسا فظاعا بسُكْرِ الدهرِ تقضى خمورها
ودبتْ أفاعيها إلى كل مؤمن وعضّ بأكباد التقاةِ عَقورُها
أنادى لها عُجْمَ الرجالِ وعُرْبها نداءَ سراة القفر إذ ضل عيرُها
وأستنفرُ الأدنى فالأدنى فريضةٌ على زمنِ الإسلامِ جلّت أجورُها
على كل محتاجٍ لفضلٍ دفاعها فليس يؤدى الفرضَ إلا نفيرُها
ألا وارجعوا يا آل دين محمدٍ إلى اللهِ يغفرْ ما اجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا وردوا ظُلامات يبيد نقيرُها
ومن كل ما يُردى النفوس تطهروا فليس يُزكى النفس إلا طهورها
ألا واستعدوا للجهاد عزائما يلوح على ليلِ الوغى مستنيرها
بأسْدٍ على جُردٍ من الخيلِ سُبَّقٍ يدعُّ الأعادى سبقها وزئيرها
بأنْفُس صدقٍ موقناتٍ بأنها إلى اللهِ من تحت السيوفِ مصيرُها
ترومُ إلى دار السلام عرائسًا على الله فى ذاك النعيم مهورُها
وضَرْبٍ كأن الهام تَحْتَ ظلالها حثالةُ نورِ الوْردِ ذَرّ ذرورُها
وطَعْنٍ يرى الخطىَّ فى مُهجِ العدا كأقلامِ ذات الخط خُطّت سطورُها
يمين هدىً إنْ تتقوا الله تُنصروا وتحظوْا بآمالٍ يشوق غريرُها
فلا يخذلِ الربُّ المهيمن أمةً تدينُ بدينِ الحق وهو نصيرها
وإنْ أنتم لم تفعلوا فترقبوا بوادر سُخطٍ ليس يرجى فتورُها
وأيامَ ذل واهتضام وفرقةٍ يطاولُ آناء الزمانِ قصيرها
وأهدُوا لدين الشركِ كل خريدةٍ خبتها على طول الليالى خدورها
وكل نفيسٍ من نفوسٍ كريمةٍ وأعلاقِ أموالٍ خطيرٍ خطيرُها
وحق العظيمِ الشانِ لا عيش بعدها بلايا يُمر الطيباتِ مرورُها
فترفع شكواها لعالم سرها فليس لها فى الخبرِ إلا خبيرها
تمد أكف الذل فى باب عزه بأفئدةِ خوف الفراق يُطيرُها
فإن لم يُقلْ رب العباد عثارنا فهذا العدو الضخمُ حتمًا يبيرها

○ دعاء :

إله الورى ، ندعوك ياخيرَ مرتجى ... لكالحةٍ هزّ الصليب سرورُها
وشقّت جيوب المؤمنين وأسخنت ... عيونهمُ والكفرُ ظل قريرُها
وليس لها ياكاشف الكرْبِ ملجأ ... إذا لم يكن منك التلاق ظهيرُها
أغث دعوات المستغيثين إنهم ... ببابكَ موقوفو الحشاشات بورُها
وليس لهم إلا الرسولُ وسيلة ... شفيع الورى ، يوم التنادى بشيرُها
أمامُ الهدى ، بحر الندا ، قامعُ العدا ... وأول رسْلِ الله فضلا أخيرُها
محمدُ المختارُ من آل هاشمٍ ... سراجُ السموات العلى ومنيرُها
دعوناك ، أمّلناك ، جئناك خُشَّعا ... بأنفسٍ استولى عليها قصورها
بجاه العظيمِ الجاهِ أدرك ذماءنا ... برحمى يُحلى المؤمنين شذورُها
وعفوٌ وتأييد ونصر مؤزرٌ ... وعزة سلطانٍ يروق طريرُها
ولطفٌ وتسديدٌ وجبرٌ لما مضى ... يدلٌّ به من كل عادٍ كسيرُها
وأرسلْ على هذا العدو رزيّةً ... يروح ويغدو بالبوار مبيرها
يُشتّت شَمْلَ الكفر تشتيت نقمةٍ ... وينظم شملَ المؤمنين حصيرُها
وصلٍّ على خير البريةِ أحمدٍ ... وأكرمْ من قد أنجبته ظهورُها
وأصحابه الشهبُ الهداة وآله ... صلاةً مع الآناء يزكو عبيرُها

○ زاهد من المرية :

أبو العباس بن العريف
وكتابه محاسن المجالس

● نشر أسين بلاثيوس هذه الدراسة فى مجلة جامعة مدريد عام ١٩٣١ . المجلد الثالث ، الصفحات ٤٤١ – ٤٥٨ ، وأعيد نشرها ثانية فى أعماله المختارة ، المجلد الأول ، الصفحات ٢١٧ – ٢٤٢ ، مدريد ١٩٤٦ . وترجم الدراسة نفسها إلى اللغة الفرنسية ف . كفليرا F. Cavallera وجعل منها مقدمة لترجمته لكتاب محاسن المجالس ، ونشر مع الترجمة النص العربى ، وكان الكتاب الثانى فى سلسلة « النصوص غير المنشورة المتصلة بالتصوف الإسلامى » . باريس ١٩٣٣ .

● حياته (١٠٨٨ – ١١٤١)[١] :

اسمه كاملا : أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ، يكنى **أبا العباس** ، ويعرف **بابن العريف** ، من قبيلة صنهاجة ، بطن من حمير العربية فى الغرب ، وأبوه محمد أصلا

---

(١) المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة هى :

● ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ١٧٥ (١٧٦ فى طبعة القاهرة ١٩٦٦) .

● الضبى ، بغية الملتمس ، الترجمة رقم ٣٦٠

● المعجم لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٤

● أحمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص ٣٠

● ابن خلكان ، وفيات ، ١ /٩٣ ، وترجمة دى سلان ١ /١٥٠ ، والمخطوطة رقم ٧٦ ، الورقة ٣٧ وجه ، ورقم ٢٠٢ ، الورقة ١٤ ظهر ، من مجموعة جيانجوس ، وتوجد فى مجمع التاريخ فى مدريد . . وتوجد معلومات متفرقة عن علماء الحديث الذين تلقوا عن ابن العريف فى :

● تكملة الصلة لابن الأبار ، ص ٥٦ – ٧٢ و ١٧٤ و ٢٠١ و ٢٠٣ و ٢١٠ و ٢١٩ و ٥٦٠ و ٥٧٠ و ٦٤٥ و ٦٦٣ و ٧٠٢ . وانظر طبعة ابن شنب ، الصفحات : ٧٤ و ١٠٣ و ١٣٤ و ١٨٥ و ١٩١ . وانظر أيضا : جامى ، النفحات ، طبعة ليس ، ص ٦١٥ و ٦١٦ .

من **طنجة**[٢] ، وكان بقصبة المرية فى رجال ابن **صمادح** ، عندما كانت المدينة عاصمة إحدى إمارات الطوائف تحت حكم أسرة معن بن صمادح ، وحكمت من ٤٣٣ هـ = ١٠٤١ هـ = ١٠٤١ م إلى ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م .

وقد صرف الوالدُ ابنه إلى مهنة يدوية تحت ضغط بعض الصعوبات المالية ، فدفعه فى صغره إلى حائك يعلمه ، حتى يلتقط منه أصول المهنة ، ولكن الصبى كان ينفر من أى عمل إلا حفظ القرآن ودرسه ، والإقبال على الكتب بنهم . وبين التهديد والمنع أوشك الأب أن يضيع مواهب ابنه ، وأن يذهب بكل جهده فى الدرس والتحصيل ، وأخيرًا تركه حرا يمارس ما يريد تبعا لرغبته ، وأصبح الفتى « نسيج وحده »[٣] ، وفيما بعد ، مع الزمان وبعد مرور أعوام ، اعترف الوالد بخطئه ، وتعود أن يقول للمعجبين بابنه ، بعد أن يشير إلى خطاه الأولى فى طريق التعليم : « رأى ابنى كان أرشد من رأيى ، إنى لأعلم أنى به أكرم » . وفى **المرية قرأ ابن العريف** القرآن ، ودرس التفسير . وسمع الحديث ، على يد أساتذة ثقاة ، وتكون ذوقه الأدبى ومعارفه اللغوية فى كتاب **الفصوص لصاعد البغدادى**[٤] ، وسرعان ما تأهل وتصدى لتدريس هذه المواد ، **فاقرأ** فى **المرية** ثم فى **سرقسطة** ، **وبلنسية** ، وشغل فى هذه الأخيرة وظيفة محتسب بعضا من الوقت ، واشتهر بمهارته فى الكتابة ، وجودة الخط فكان يكتب سبعة خطوط لا يشبه بعضها بعضا .

ولكن شهرته لا تعود إلى هذه المهارات الفنية ، ولا إلى سعة ثقافته فى العلوم الدنيوية ، ولكن لأن « عنده مشاركة فى أشياء من العلم وعناية بالقراءات وجمع الروايات ، واهتمام بطرقها وحملتها » ، فهو فقيه ومحدث ، وعارف بطرق الإسناد

---

(٢) المخطوطة رقم ٧٦ من مجموعة جيانجوس ، الورقة ٣٧ وجه ، تقول : وإنما سمى والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب حرس الليل ، وعريف القوم القيم بأمره .

(٣) استخدم ابن الأبار هذه الكلمة فى معجمه ، الترجمة رقم ١٤ ، وفيها تورية ، فهى تشير إلى مهنة النسيج التى أرادها والده على تعلمها ، وإلى أنه تميز فى حياته ، دون مثيل .

(٤) ألف صاعد هذا الكتاب للمنصور بن أبى عامر ، وعاش فى بلاطه ، وحظى برعايته ، ويضم نصوصا عربية من الشعر والنثر ، علق عليها لغويا ونحويا ، فى محاولة منه لتقليد كتاب النوادر لأبى على القالى . انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، طبعة مرجوليوث ، فى ذكرى جب ، ٦ ، جـ ٤ ، ص ٢٦٦ .

والرواية . وإلى جانب ذلك هو شاعر مرتجل ، « وشعره فى طريقة الزهد كثير » . وفوق هذا كله ، يقول الذين ترجموا له : إنه « إمام فى الزهد ، عارف محقق » ، ويستهدون بولايته وفضائله المختارة ، وكافأه الله عليها بجمائله وكراماته .

وكانت مدينة **المرية**[٥] فى ذلك العصر البؤرة الأولى للصوفية والزهاد فى الأندلس ، ولم تتلاش المبادئ الصوفية لمذهب **ابن مسرة** ، وظلت قائمة دينيا خلال القرون التى تلت وفاة مؤسسه فى عدة مراكز ثقافية فى جنوب إسبانيا . وفى قرطبة بخاصة ، وفى بجانة أيضا ، وهى قرية صغيرة قرب المرية ، على الشاطئ الأيمن من النهر الذى يحمل اسم المدينة . وظهر فى المرية ، قبل **ابن العريف** بسنوات ، زاهد آخر ، هو **محمد بن عيسى** . ونال شهرة واسعة ، وكان يبشر فى الشوارع والميادين بفكرة صوفية قوامها الوحدة الصوفية بين الله والروح ، فى دعوة صريحة إلى تأليه الكون . ومع بداية القرن السادس الهجرى ، وفى أوج حكم المرابطين ، أصبحت المرية العاصمة الروحية لكل الصوفية الإسبان ، ومنها خرجت الصرخة الأولى والوحيدة فى احتجاج جماعى على إدانة **الغزالى** وإحراق كتبه . وقد حرمها فقهاء قرطبة التقليديين ، واعتبروها مؤلفات زنديقة ، وكانت هذه الكتب قد دخلت **إسبانيا** فى حياة مؤلفها ، غير أنها أسلمتْ إلى النيران بقرار رسمى من سلطان المرابطين **يوسف بن تاشفين** . ولكن علماء الكلام فى المرية بزعامة **البرجي** أصدروا فتوى أدانوا فيها موقف **ابن حمدين** قاضى **قرطبة** ، لأنه أمر بإحراق كتب الغزالى . ولم يحدث أن بلغ احتجاج الصوفية من أتباع الغزالى وأنصاره ، فى أية مدينة أخرى ، القدر من الجرأة الذى أظهره علماء المرية ، لا فى مراكش ولا فاس . ولا قلعة بنى حماد[٦] ، واكتفى صوفية هذه المدن بالاحتجاج فرادى ، وجماعة همسًا فى مجالسهم الخاصة .

---

(٥) انظر : أسين بلاثيوس : ابن مسرة ومذهبه ، مدريد ١٩١٤ ، ص ١٠٨ ، وص ٢٤٢ فى المجلد الأول من أعماله المختارة ، مدريد ١٩٤٦ . وجولد تسيهر : ابن البرجان ، فى ZDMG المجلد ٦٨ ، عام ١٩١٤ ، ص ٥٤٤ .

(٦) قلعة بنى حماد فى الجزائر المعاصرة ، وكانت عاصمة الدولة الحمادية فى العصور الوسطى ، وفيها حرر ابن خلدون تاريخه الشهير .

(المترجم)

فى هذ الجو من الحماسة الدينية تكونت روح **ابن العريف** ، ولو أننا لسوء الحظ لا نعرف أسماء شيوخه فى مجال التصوف ، لأن الذين ترجموا له من رجال الحديث والفقه بخاصة اهتموا بإيراد الأخبار التى تتصل بتكوينه فى المواد التى تهمهم هم أنفسهم فحسب ، تاركين جانبا كل ما يتصل بالمذهب الصوفى **لابن العريف** ، والمصادر التى استعملها . والشئ الوحيد الذى أشاروا إليه أنه أنشأ طريقة ، انخرط فيها سريعا عدد كبير من الأتباع ، وكانوا يتدفقون على المرية من مختلف بلاد الأندلس ليضعوا أنفسهم تحت إمرة شيخها .

لا يمكن القطع بأنه كان بين هذه المجموعة من التلاميذ المباشرين والمريدين الصوفيان اللذان سوف يضطهدان فيما بعد ، مع ابن العريف ، لأفكارهما الصوفية ، ولكن المؤرخين وكتّاب التراجم يصرحون نصا بأنهما كليهما كانا يمارسان الطريقة نفسها ، وأن الثلاثة خضعوا جميعا للخطر المشترك الذى أصابهم . وكان أحد الاثنين يقيم فى **غرناطة** ، ويدعى **أبو بكر محمد بن الحسين الميورقى** ، وهى نسبة مردها أن أصله من جزيرة ميورقة ، وهو فقيه ظاهرى ومحدث ، وأقام فى كل من **مكة والإسكندرية** عدة سنوات ، ليوسع معارفه هناك ، ولكنه فى ذلك الوقت سلك طريق **ابن العريف** : أوقف نفسه على الزهد ، وأدار نفسه للدنيا .

والثانى أبو الحكم **ابن برّجان** . وكان يقيم فى **إشبيلية** ، وهو أصلا من شمال أفريقيا ، وإلى جانب أنه محدث ، كان مثل زميليه صوفيا ومن علماء الكلام ، وصرف حياته أيضا إلى التقشف والتقوى ، ومن بين الكتب الكثيرة التى ألفها يشير الذين ترجموا له إلى عدد منها جدير بالذكر والتقدير ، مثل : شرح أسماء الله الحسنى ، وتفسير القرآن الكريم ، وهذا الكتاب الأخير لم يتمه ، ولكن ما كتبه منه وصلنا كاملا ، ولمّا يزل مخطوطا .

ويتميز ما عُرف من أفكاره الباطنية بالميل إلى حساب حروف الآيات القرآنية بطريق الجمَّل ، وإخضاع قيمتها العددية لعمليات حسابية مختلفة ، يستخدمها قاعدة للتنبؤ بأحداث المستقبل ، مبهجة أو محزنة ، وبخاصة الغزوات والانتصارات الحربية ، ويقال إن **ابن البرجان** تنبأ فى تفسيره باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس من **الصليبيين** .

وبالعام الذى حدث فيه الاستيلاء فعلا . هذه الإشارات هى الوحيدة التى أثارت الشك لدىَّ فى أن **ابن العريف** كان يقوم أيضا بهذه التنبؤات القائمة على حساب الجمل ، لأن الذين ترجموا له ، على نحو ما أشرنا ، ينسبون إليه طريقة صوفية شبيهة بتلك التى اتخذها ابن البرجّان ، ومع ذلك فإن كتابه **محاسن المجالس** لا يعكس أى أثر لمثل هذه التكهنات على نحو ما سنرى .

وقد أثارت كثرة تلاميذ **ابن العريف** وتعصبهم لشيخهم الخوف - ربما - فى نفس السلطان المرابطى **على بن يوسف بن تاشفين** من ثورة يمكن أن يقوموا بها لصالح شيخهم بهدف توليته الإمارة ، نقول « ربما » لأننا لا نعتمد على وثائق قاطعة ، كالتى اعتمدنا عليها فيما يتصل **بابن البرجان** ، والحق أن **الشعرانى** يؤكد فى طبقاته (جـ ١ ص ١٥) أن السلطان حكم على **ابن البرجان** بالموت لأن ما يقرب من مئة وثلاثين قرية اعترفت به إماما . والمعروف أن كثيرًا من الثورات السياسية فى الإسلام تأخذ صورة حركة دينية متعصبة مسالمة ، وهى شكوك تبررها الثورة التى قام بها « المريدون » ضد المرابطين بعد قليل من وفاة **ابن العريف** . وفى العام التالى لموت ابن العريف كوّن الشيخ الصوفى **أبو القاسم بن قاسى** فى كورة **الغرب** ، جنوبى **البرتغال** الآن ، فرقا من كتائب دينية من مريديه ، وكانوا يحتذون فى السر طريقة ابن العريف ، وبويع إماما فى الرباط الذى أقامه فى مدينة **شلب** على شاطئ الإطلنطى ، وحقق انتصارات عسكرية ضد المرابطين . وفيما بعد ضد الموحدين أيضا ، وحكم طوال عشر سنين كعاهل لكل الإقليم .

يمكن أن نفهم إذن ، دون مشقة ، المخاوف الشديدة التى أهمت السلطان **على ابن يوسف بن تاشفين** قبل ذلك باثنى عشر عاما ، من الثقة غير العادية التى بلغتها مواعظ **ابن العريف** بين سكان مدينة المرية ، والقرى المجاورة لها ، ولكننا لا نعتمد على نصوص حين نقول إن هذه المخاوف السياسية كانت الدافع وراء ملاحقة ابن العريف . ويؤكد الذين ترجموا له أن المبادأة فى هذا جاءت من **قاضى المرية ابن الأسود** ، حسدًا للنجاح الشعبى الذى بلغه ابن العريف ، ومع ذلك فمن الواضح أن القاضى وهو المسئول الطبيعى عن الجرائم التى ترتكب ضد العقيدة السنية كان عليه أن يرفع أمرها إلى السلطان .

ووصلت رسالة ابن الأسود . ورفع الأمر كتابة إلى بلاط مراكش . وأصدر السلطان أمره إلى حاكم المرية بأن يرسل إليه ابن العريف ، وفى الوقت نفسه أصدر أمرين شبيهين ضد تلميذيه ، أو رفيقيه ، اللذين أشرنا إليهما من قبل ، وهما **أبو بكر الميورقى وأبو الحكم بن برجان** ، وحُملا على أن يغادرا محل إقامتهما ، الأول فى غرناطة ، والثانى فى إشبيلية .

أورد لنا مؤرخو **ابن العريف** قصة سجنه وإشخاصه إلى مراكش فى تفصيلات وافية تماما ، وصُبغت ، كما هو طبيعى ، بتوابل من ألوان المعجزات والأساطير ، وقد أنفذ حاكم المرية أوامر السلطان فوضع ابن العريف فى سفينة اتجهت به إلى مدينة سبتة . ولكن القاضى **ابن الأسود** أقنع الحاكم بأن من الأوفق ألا يذهب المتهم مطلق السراح ، وإنما يجب وضع القيد فى قدميه . وحينئذ أسرع الحاكم فأرسل أحد وزرائه ليبلغ السفينة فى عرض البحر ، فصعد إليها ، ووضع القيود فى قدمى ابن العريف . وكانت هذه الطريقة مفاجأة مؤلمة له ، واكتفى بأن صاح : « فليرعبه الله كما أرعبنا » . ويضيف مترجموه : إن رسول الحاكم عندما أقلع عائدا إلى ميناء المرية ، بعد أن قيّد ابن العريف بالسلاسل ، اعترضته سفينة معادية ، مسيحية على التأكيد ، وحاصرته ، وأخذته أسيرا . وعندما هبط ابن العريف فى ميناء سبتة بلغه فى الوقت نفسه رسول من السلطان يحمل أوامر صريحة بإطلاق سراحه فى الحال ، وعندما وجد زاهد المرية نفسه حرا ، طليقا من القيود ، أدرك أن السلطان لا يريد أن يتحمل اثم المظالم العنيفة التى أوقعها عليه إلى ما لا نهاية .

لقد أسرف **حكام المرية** على أنفسهم دون شك ، وغيرتهم الواضحة أدت بهم إلى كراهية **ابن العريف** ، وقد انزعج منها السلطان حين عرف المزيد من الكرامات والفضائل التى يزدان بها ابن العريف ، ويقولون إن زاهد المرية صاح لحظتها : « أنا لا أريد من السلطان أن يعرفنى ، أما وقد عرفنى فعلا ، فمن الضرورى أن أراه » . وفى الحال أخذ طريقه إلى بلاط المرابطين فى مراكش ، واستقبله السلطان بكل مظاهر الحفاوة والإجلال ، وأفعمه بآيات التوقير والتكريم ، وعندما سأل ابن العريف ما إذا كان يرغب فى شىء كى يحققه له ، أجابه : « لا أريد شيئا ، فقط دعونى أذهب حرًا حيث أشاء » ، وسارع السلطان فأمر بأن يترك حرا كما يريد ، ولكن كل شىء فيما يبدو كان عبثا ، فبعد أيام

من وصوله ، أصابه المرض ، وتوفى فى مراكش نفسها ، ويقدم لنا المؤرخون تفسيرين لموته : بعضهم يراه موتا طبيعيا ، وآخرون يرون أنه مات مسمومًا .

لقد رأى **قاضى المرية** ، **ابن الأسود** ، فشل غاياته الحاقدة ضد **ابن العريف** . فالسلطان أحسن إليه ، وأغدق عليه ، ففكر أن يحتال فى أمره ، وأن يقدم له فى الطعام بذنجانا مسموما ، فمات منه فى مراكش عام ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م ، ولكن أحد تلاميذه المخلصين ، **أبا عبد الله الغزّال المريّى** ، يرى أن التفسير الأول هو الأصح والأدق ، وأن شيخه رحل عن دنيانا فى ظروف طبيعية ، وأن وفاته كانت فى مدينة سبتة نفسها ، قبل أن يُقاد إلى **مراكش** ، ولو أن كل الذين ترجموا له يجمعون على أنه دُفن فى هذه المدينة الأخيرة ، وأن قبره كان إلى جوار قبر **ابن البرجان** ، والذى توفى فى مدينة مراكش أيضا ، بعد أيام قليلة من دعوة السلطان له ، مثله فى ذلك مثل **ابن العريف**[٧] .

أحدثت شهرة ابن العريف وليا ، والظروف الغامضة التى توفى فيها ، أثرا عميقا فى نفس السلطان ، وبخاصة عندما دفن زاهد المرية ، فقد حزن عليه الناس حزنا عميقا . وتدفقوا فى أعداد هائلة يريدون أن يصحبوا النعش إلى مقره الأخير ، وندم على أنه أعار سمعه لاتهامات قاضى المرية ضد ابن العريف ، وشك فى أمر القاضى ، وأمر بإجراء تحقيق حول ما حدث وأسبابه . وجاءت التقارير تؤكد كلها اضطهاد قاضى المرية لابن العريف ، وترد ذلك إلى غيرته وسوء دخيلته ، وأنه افتعل التهمة بهدف إخراجه من المدينة وقتله ، وحين فشل فى تحقيق غايته دس له السم . وحلف السلطان حينئذ أن يطبق على ابن الأسود حكم القصاص ، وأصدر فعلا أوامره المناسبة بأن يقيد وأن ينفى إلى السوس الأقصى ، حيث مات مسموما ، بنفس الطريقة التى قتل بها ابن العريف .

---

(٧) تضيف المخطوطة رقم ٧٦ من مجموعة جيانجوس ، الورقة رقم ٣٨ وجه ، أن ابن العريف دفن قريبا من المسجد الجامع العتيق ، الذى فى وسط مراكش ، فى روضة القاضى موسى بن حمه الصنهاجي ويحدد ابن شكوال تاريخ وفاته الدقيق وأنه وقع « ليلة الجمعة ، صدر الليل ، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر ، سنة ست وثلاثين وخمسمائة » أى فى ٢٧ سبتمبر ١١٤١ م . أما تاريخ مولده فأشار إليه ابن خلكان ، وهو عام ٤٨١ هـ ، يوم الاثنين ٢ من جمادى الأولى أى فى ٢٤ يولية ١٠٨٨ م . وطبقا له أيضا ، توفى ابن العريف وله من العمر ثلاثة وخمسون عاما .

○ مؤلفات ابن العريف :

لم يشر أحد من الذين ترجموا لابن العريف ، إسبانا أو أفارقة أو من المشارقة ، إلى مؤلفاته . وكل ما هنالك أن **ابن خلكان** ذكر بصفة عامة ومبهمة أن له مؤلفات فى التصوف ، دون أن يذكر العناوين ، باستثناء عنوان واحد يشير فى اقتضاب إلى كتابه « **المحاسن** » ، ويمكن أن نرد صمت المؤرخين المغاربة إلى أنهم جميعا سنيّة محافظون أكثر منهم صوفية ، وبالطبع كانوا يهتمون بالكتب التى تتصل بدراساتهم بخاصة مهملين ما عداها . وعلى النقيض من ذلك كان **ابن خلكان** ، فقد أورد فى كتابه تراجم لحياة العلماء والأدباء والساسة وكبار الأولياء فى العالم الإسلامى ، وهو يهتم بكل فروع المعرفة دون تفرقة ، ولا يقف باهتمامه عند واحد معين منها . ومع ذلك فإن مجىء ابن خلكان وحده فى هذا المجال يثير فى النفس شبهة أن مؤلفات ابن العريف . إن كانت له مؤلفات أخرى كتبها غير **المحاسن** ، كانت قليلة الذيوع والانتشار بين الصوفية من مشارقة ومغاربة على السواء . ويمكن أن أؤكد أنه خلال قراءاتى الواسعة على امتداد أعوام طويلة لم أجد أحدا يذكر كتاب ابن العريف إلا **محيى الدين بن عربى المرسى** ، وفى كتابه الفتوحات فحسب ، أما الكتب الأخرى لصوفى المرية فلم أجد لها ذكرًا على الإطلاق . وليس مرد ذلك أن الظلام والنسيان ألقيا عليه ستارا حاجبا بعد موته . لأننا نجد فى الكتب التى ترجمت له ، مثل كتاب روض **الرياحين لليافعى**(٨) وهو من القرن الرابع عشر الميلادى . تشير إلى حالات من كرامات مثالية لابن العريف . ولكن دون أن تشير إلى مؤلفاته ولا مرة واحدة ، حتى ولا إلى كتاب المحاسن . إذن يجب أن نقف عند هذا الكتاب فضلا عن أنه الوحيد الذى وصلنا .

---

(٨) انظر : كتاب روض الرياحين لليافعى ، طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ ، ص ١٥٥ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢١٩ . ويذكر المقرى فى نفح الطيب ، طبعة القاهرة ، جـ ٣ ص ٣٦١ بعض أشعار ابن العريف .

○ **محاسن المجالس ومخطوطاته :**

أربع مخطوطات وصلتنا من كتاب « محاسن المجالس » ، الأولى ضمن المجموع رقم ٧٣٢ فى مكتبة الإسكوريال ، الأوراق من ٤٢ إلى ٥٤ ، وهى مغربية الخط ، وتحمل تاريخ عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م . والثانية توجد ضمن المجموع رقم ٨٧٢ فى مكتبة برلين ، وتشغل الأوراق من رقم ١٤٨ إلى ١٧٣ ، وخطها مشرق ، وتحمل تاريخ عام ٨٥٩ هـ = ١٤٥٤ م ، ونسخت فى **الجامع الأزهر بالقاهرة** (على يد محمد العجمى بن محمد ابن أحمد الفقاعى) . والثالثة ضمن المجموع رقم ٣٧ فى « فهرسة المواعظ » الورقة رقم ٨٢٦ ، فى مكتبة بلدية الإسكندرية . والرابعة ضمن مجموع فى المخطوطة رقم ١٧٣ ، الورقة ٣٨٧٦ فى فهرسة الفنون » فى المكتبة نفسها . ولم أستطع الوصول إلى المخطوطة الثالثة والرابعة ، أما المخطوطتان الأولى والثانية ، وأشير إليهما بحرفى E و B ، فهما يختلفان بينهما قليلا ، وقد اتخذت من المخطوطة E ، أو إن شئت مخطوطة الإسكوريال ، النسخة الأم فى الإعداد لطبع الكتاب ، لأنها ذات خط مغربى ، وأقرب تاريخا إلى وفاة المؤلف ، ولكنها على النقيض من الأخرى تقدم نصا مختصرا لكتاب المحاسن فيما يبدو .

وأما مخطوطة B ، أو مخطوطة برلين إن شئت ، فتحتوى على إضافات وتكملات لنص الإسكوريال ، وعلى الرغم من أنها متأخرة ، وجاءت بعد هذه بقرن من الزمان تقريبا ، وتمثل بخطها المشرق نسخة بعيدة عن الأصل الأندلسى ، ولكننا فى الحقيقة لسنا بصدد حواش أو هوامش زيدت على النص ، لأننا فى كل الحالات التى تختلف فيها مخطوطة برلين عن مخطوطة الإسكوريال بما أضافته ، نجد الزيادة ليست جملا أو أفكارا مستقلة يمكن عزلها عن محتوى مخطوطة الإسكوريال بل إنها تعطى انطباعا عاما بأنها جمل معترضة ضرورية لفهم المعنى الكلى للفقرة[٩] .

---

(٩) احترام كلتا المخطوطتين ، مخطوطة الاسكوريال ومخطوطة برلين ، له أصول تاريخية ، ففى زمن ابن عربى المرسى كانوا يتداولون نص الكتاب فى مخطوطتين أيضا ، انظر الملحق فيما بعد ، الفقرة التى نقلناها من الفتوحات ، حـ ١ ص ١١٩ .

والخلاف الجوهرى بين مخطوطتى الإسكوريال وبرلين يتصل بنهاية الكتاب ، فمنذ الورقة ١٦٦ ظهر إلى الورقة ١٧٣ ظهر ، تقدم مخطوطة برلين خاتمة طويلة لا نجدها فى مخطوطة الإسكوريال ، ونجد فى هذه بدلا منها فقرة موجزة للغاية فى الورقة ٥٢ ظهر ، ولو أنها توائم النص السابق عليها ، لكن ليست لها صلة على الإطلاق بالخاتمة التى توجد فى مخطوطة برلين . وأجرؤ على الظن بأن هذه الخاتمة وبخاصة الورقة ١٦٦ وجه ، تكملة من ناسخ مخطوطة برلين ، لأنها لا تعدو كلها أن تكون تعدادا طويلا للكرامات التى خص الله بها الصوفى فى حياته وفى الآخرة (الورقة ١٦٠ وجه إلى الورقة ١٧٠ وجه) وأضاف إليها أربع صفات جوهرية لمن يريد أن يبلغ حد الكمال : العلم بذات الله ، والعمل المتقن ، والإخلاص ، وخوف الله (الأوراق من ١٧٠ وجه إلى ١٧٣ وجه) .

ومن الواضح إذن أن مادة هذا التعليق ، وحتى أسلوب الكاتب ، ليس فيهما أى شئ خفى ، وإنما هى مجرد تعليق لمن كتبها ، بعيدة عن منهج **كتاب المحاسن** ولغته .

○ ترجمة الكتاب إلى الإسبانية :

حاولت فى ترجمتى الإسبانية لكتاب محاسن المجالس أن أعكس فكر المؤلف فى أصالته ، وأن أنقل مذهبه بكل أمانة ، وهو أمر صعب للغاية فيما يتصل بنص صوفى عربى تكثر فيه المصطلحات ، وليس لها دائمًا مقابل فى اللغة الإسبانية ، وكلمة عربية واحدة أترجمها أحيانا فى جملة طويلة إلى حد ما ، وقد آثرت هذه الطريقة على أخرى تكتفى بكتابة اللفظ العربى فحسب دون ترجمته ، وهذه الطريقة وهى شائعة وعامة بين المستشرقين الأوربيين تستهدف الدقة فى تحديد المصطلح ، وهى غاية محمودة بالتأكيد ، ولكنها تخيب أمل القارئ العلمانى ، فيما أرى ، لأنه يجهل اللغة العربية ، وتقنية الصوفية الباطنية ، وله الحق فى أن يأمل وينظر من المستشرقين أن يقدموا له انعكاسًا لمحتوى النص تقريبا على الأقل ، وليست ترجمة رياضية دقيقة للنص العربى . لأن مجرد كتابة اللفظ العربى فى أحرف لاتينية يدع القارئ العلمانى ، أى غير المتخصص ، فى غموض كامل ، وهو فى الوقت نفسه غير مفيد دائمًا للمتخصص ، الذى يستطيع فى كل الحالات أن يعود

إلى الأصل العربى ، وفضلا عن ذلك فإن الفقرات الغامضة والموجزة ، والتى تحتاج إلى توضيح علقت عليها أو فسرتها فى الهامش . والنصوص القرآنية التى ذكرها المؤلف دون أن يشير إلى السورة ورقم الآية وضعتها بين علامتى تنصيص ، وتكثر الهوامش التى أتيت بها لتساعد أيضا على التعريف بالشخصيات وعصور مؤلفى الصوفية ، ويفيض النص بالكثير من أخبارهم وحكمهم . والزيادة التى فى مخطوطة برلين على مخطوطة الإسكوريال رأيناها مفيدة ، وترجمناها فى المكان الذى وردت فيه ، ووضعناها بين خاصرتين ، ومثلها فى ذلك أية كلمة أخرى وُجدت فى الأول ولم توجد فى الثانى .

○ تحليل كتاب محاسن المجالس .

○ أهميته ، وأسلوبه الأدبى :

الموضوع الرئيسى لهذه الرسالة دراسة منازل طريق التصوف على النحو التالى : المعرفة ، والإرادة ، والزهد ، والتوكل ، والصبر ، والحزن ، والخوف ، والرجاء ، والشكر ، والمحبة ، والشوق . وفى الفصل الثالث عشر أوجز **ابن العريف** كل مذهبه ، وأضاف إلى هذه المنازل العشرة منزلتين أخريين لا يوجدان فى الفصول السابقة ، وهما : التوبة والأنس .

وإذا صرفنا النظر عن العدد ، وهو يختلف فى مؤلفات الصوفية من كتاب إلى آخر ، فإن المنازل التى يدرسها ابن العريف لا تقدم بأسمائها التقنية الخاصة ، ولا بمعانيها الجوهرية ، أى جديد يتصل بالمذهب التقليدى فى التصوف الإسلامى ، جدير بأن يلفت النظر إليه ، منذ **ذى النون المصرى** ، وهو الذى أبدع وأدخل الفكرة قبل ابن العريف بثلاثة قرون . وإنما تعود أصالة « محاسن المجالس » إلى التوجيه الباطنى لتطورها ، أكثر من عودتها إلى المذهب نفسه . والفصول الأول ، والثانى عشر ، والثالث عشر ، ذات فائدة قصوى فيما يتصل بهذا الأمر ، ويجب أن تدرس قبل بقية الكتاب .

نستنتج ، مع قراءة آنية ، أن ابن العريف لم يؤلف كتابه « محاسن المجالس » لعامة الذين يأملون بلوغ الكمال الصوفى ، حتى ولا لأولئك الذين لا يزالون يسلكون طريق

الكاملين ، وإنما للذين بلغوا غاية الاتحاد فحسب ، ويتمتعون بالحدس ، أو المعرفة الروحية ، ومن هنا ، فإن المنازل كلها ، فيما يرى ابن العريف ، ما عدا هذا الأخير ، ومنزل الحب ، درجات غير كاملة ، من خواص عامة العلمانيين . وهذا الموقف الأرستقراطى له سوابق فى التصوف المشرقى ، ولكن لم يحدث أبدًا ، فيما أعلم ، أن اتخذوه معيارًا وحيدًا عند دراسة الموضوع . وفى الحقيقة لا تنقصنا إشارات متناثرة تتصل بهذا الرأى بين الدارسين السابقين ، فأبو **نصر السراج** فى كتابه « **اللمع** » ، **والقشيرى** فى رسالته ، يشيرون إلى آراء الصوفية الذين يفسرون بعض المنازل بهذا المعنى ، ولكننا نعتقد أنه لا توجد دراسة منهجية تطبق ذلك المعيار فى تصنيف كل المنازل ، وبطريقة منظمة .

وطبقًا **لابن العريف** ، فإن العارف الذين يبلغ الاتحاد المحوِّل ، ويصل فيه إلى القناعة بأن الله وحده يوجد حقًّا ، ومن ثم فلا شىء مما نفكر فيه عنه ، أو نشعر به ، أو نريده ، أو نعلمه ، له وإنما منه . والمنازل ، وهى حالات فاضلة ممن يطمح فى الاتحاد ، تفقد فى نظره كل قيمتها ، ويراها أبعد ما تكون وسيلة صالحة لتحقيق الغاية ، وأنها عوائق وحواجز تمنع الاتحاد ، لأنها ليست الله قط . والمسافة اللانهائية التى تفصل الكائن الخالد ، عن الكائن الفانى ، والخالق عن المخلوق ، تضطرنا إلى أن نرفض أى شبه بين الطبقتين من الكائنات ، وتحول دون أية محاولة فعالة للوصول إلى الله بوسيلة ليست الله . وعظمة الكائن الخالد واللا نهائى هى كذلك ، حتى أنه وحده الكائن ، على حين أن المخلوقات عدم فى ذاتها ، ونفهم إذن ، فيما يرى **ابن العريف** ، أن أفعال التقى وأحوال أو منازل الصوفى ، ليست عبثًا فحسب ، وإنما هى مؤذية ، عندما يأمل معها تحقيق الاتحاد ، والتى تمتنع لعظمة الله على أى مخلوق . وفضلا عن ذلك ، فمن وصل إلى الله لا يمكن أن تكون له إرادة ، ولا أمل ولا رغبة ، فى أن يحصل على ما يملكه فعلا .

وإذا تأملناها كلها تحت هذا الموشور ، وفى الضوء النافذ لهذا المبدأ ، فإن كل المنازل تكتسى لونًا من الغموض والتناقض الظاهرى فى نظر **العارف** .

ويفقد **الزهد** معناه عند العوام فى أنه مجرد « حبس النفس عن الملذوذات ، وإمساكها بعد تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، وعن فضول الشهوات ، ومخالفة دواعى

الهوى ، وترك ما لا يعنى من كل شئ » ، ليأخذ فى طريق الخواص معنى دقيقًا وممتازًا ، يتمثل على الحقيقة فى « صرف رغبة القلب إليه ، وتعلق الهمة به ، والاشتغال به عن كل شيء » . **والتوكل** ، وهو ترك الإرادة ، والثقة فى الله ، ينتهى بتلاشى فضيلة الرضى السامية فى الإرادة الإلهية ، والروح خالية من أية رغبة شخصية فيما يتصل بأفعالها ، لا تحتاج إلى أن تتخلى فى الله إرادة لا تملكها . وليس **للصبر** معنى أيضًا فيما يتصل بالعارف ، لأنه مقتنع بأن القوانين الإلهية تستهدف فى النهاية خير البشر ، وحتى المصائب إذا نظرنا إليها كامتحان تنتهى إلى صالحهم ، ومن ثم فهى أخيرًا ليست مادة صالحة للصبر .

ولا يجد العقل الكامل أيضًا سببًا واضحًا للحزن ، لأن البهجة فى الاتحاد تبدد كل كآبة ، فمن كان مع الله لا يمكن أن يشتاق إلى أى شيء يفتقده أو يتمناه ، وفضلا عن ذلك ، فإن حزن العارف يمكن أن يعبر عن نفسه فى لحظات معدودة ، حين يشعر فيها بالعبودية التى لا يزال يخضع لها تحت نير الروح الحساس ، والشيء نفسه يقال عن الخوف ، فلا المصائب الحاضرة ، ولا العقاب المتوقع ، تؤثر فيه ، لأنه يتأمل فيها الله الذى أوقعها ، وذلك التأمل يبدد فى الروح كل الخوف ، ويحيله إلى بهجة حلوة ، وزد على هذا أن العارف يستشعر خوفًا وقورًا أمام جلال الله ، يظهر له خلال التأمل ، ولكنه ليس الخوف الذليل ، وهو من خصائص العبيد لا العاشقين . **والرجاء** والشوق أيضًا لا تجدان لهما طريقًا إلى روح الكامل ، لأنه متحد ، ليس عليه أن يأمل أو يرغب فى أن يحصل على ما يملك ، ولا أن يشتاق إليه ، كما لو كان يفتقده ، وأمله — إذا كان لديه شيء منه — عطشٌ لا يرتوى إلى الوحدة التى تسكره .

وبقى **الشكر** ، ولا يزال أقل تفسيرًا بالنسبة إلى الصوفى المتأمل ، غارقًا فى التفكير فى الله ، لا يمكن أن يرى فى الأشياء المخلوقة فائدة ولا نقيضها ، لأنها كلها من عند الله ، لأن جود المعطى وجماله المطلق يمنعه أن يميز فيها بين « المنحة والمحنة ، والنعمة والشدة ، ومن جانب آخر فإن الشكر يمثل محاولة غير وقورة لتعويض الله عن خيره ، ويراه الخواص « قيامًا بمكافأة المعطى ، وهربًا من رق المنة ، واستراحة من حق الجود ، وأداء لحق

النعمة » ، « مع أن الشكر لا طريق إلى القيام به ، ولا سبيل إلى الخروج عن عهدة واجبه ، فإنه يتناهى ولا ينتهى ، إذ شكرك لله تعالى على النعمة نعمةٌ مستجدة ، يجب له عنك فيها الشكر ، فالشكر يفتقر إلى الشكر ، فمتى تقوم بحقه » .

والمحبة وحدها هى المنزل الجدير بالأصفياء ، ولكن يجب أن تُستلهم لا فى الفوائد العائدة ، لأن هذا هو حب العامة ، وإنما فى جلال الله وجماله المطلق نفسه ، متأملا فى الاتحاد منذهلا ، وهذا الحب لا نهاية له ، ويجل عن الوصف « والمحبة الصادقة لا تظهر على المحب بلفظه ، وإنما تظهر بشمائله ولحظه ، ولا يفهم حقيقتها من الحب سوى المحبوب ، لموضع امتزاج الأسرار والقلوب » ، « وإنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون قائمًا بإقامة الحق له ، محبًا بمحبته له ، ناظرًا بنظره له ، من غير أن يبقى منه بقية تقف على رسم ، أو تناط باسم أو تتعلق بأثر ، أو توصف بنعت ، أو تنسب إلى وقت » . وبما أن هذا التجلى ، ولذة الحب التى تقع من المختارين فى الحياة الأخرى ، ليست ممكنة حتى يُفنى الموتُ فى التركيب الإنسانى العنصر الجسمانى ، وهو فان وهالك ، لكى يترك الروح باقية فحسب ، وهى خالدة ، فكذلك الأمر فى الحياة الدنيا ، لا يمكن تحصيل الاتحاد بالحب حتى تتلاشى الروح وتفنى ، وتقضى فى مجال الإحساس على كل ما هو هو متغير وفان ، سواء أكان إحساسًا أو جسديًا أو روحيًا لكى يترك باقيًا فحسب ما هو خالد من الروح ، أى الفكر وحب الله .

وهذا الموقف البطولى فى ترك كل ما هو غير الله ، بما فى ذلك الأحوال الصوفية ، والمنازل ، والألطاف ، والمواهب ، والكرامات ، التى تتلقاها الروح من عند الله ، جدير بأن نبرزه لأهميته الفريدة فى تاريخ الروحانيات الإسلامية .

لقد قلنا إنها لا تنقصها السوابق فى مذهب الصوفيين المشارقة ، الذين جاءوا قبل ابن العريف ، ولكن إليه يعود الفضل فى أنه أعطاها طابعًا منهجيًا ، وطبقها بقوة على كل منزل على حدة ، وعليها كلها مجتمعة ، من منازل الحياة الروحية . ودون شك فإن التصوف الأندلسى ، وورث فكر ابن العريف ، وتراث مدرسة المرية ، حافظ بقوة على هذا الموقف الزهدى نفسه ، عبر القرون ، وأورثه المدرسة الشاذلية ، وكان **ابن عباد**

الرندى ، من القرن الرابع عشر الميلادى واحدًا من أواخر ممثليها . وجعل منه جوهر كل الحياة الروحية الإسلامية ، وسبق بها بقرن كامل من الزمان **سان خوان دى لا كروث** ، قبل أن يجعل منها الشئ نفسه فى الحياة المسيحية .

ودون رغبة فى أن نأتى على المصادر البعيدة لهذا الزهد فى كل ما هو غير الله للوصول إلى الله ، وهى إنجيلية ، لا يمكن أيضًا أن نتوقف لنشير إلى الخطر البالغ من أن ذلك الموقف الذى عرضنا له ، من السهل إذا بالغنا فيه أن يتحول إلى « طمأنينة » . والواقع أنه فى الإسلام ، كما فى المسيحية ، تكثر الأمثلة لهذا الانحراف المؤسف . والحدود التى تفصل بين الطمأنينة وبين ترك الإرادة ، أو إسقاط التدبير ، فى المسيحية غير دقيقة ولا واضحة المعالم ، وليس من الغريب أبدًا أو غير المفهوم ، بين مثل هذه الآمال الروحية . فالروح مقتنع بالعدم ، وبتفاهة وجودها ذاته أمام الحقيقة اللا نهائية والكلية لفعالية الكينونة الإلهية ، وهى السبب الوحيد لكل ما هو موجود ، ومن السهل إذن أن ينتكس ذلك الشعور بالتواضع المسيحى ، وأن يفنى فى يقين عملى بألا فائدة ولا فعالية فى أى عمل مخلوق . وخدمة الله ، كما لو أن أعمالنا لا تساوى شيئًا ، تُلخص التفانى المسيحى ، على حين تتلخص كل خدمة الله بالنسبة إلى المطمئن فى « الترك » و « الفاقة » ، لأن أعماله الذاتية كلها لا تساوى شيئًا ، ما دامت نتيجة حتمية ، ولا مناص منها ، للسبب الإلهى وحده . ولهذا ثمة إبهام كامن فى كثير من الحكم الصوفية ، مسيحية كانت أو إسلامية ، التى تشير إلى هذا الموضوع الصعب ، ويقول **ابن العريف** : « إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون قائمًا بإقامة الحق له ، محسًا بمحبته له ، ناظرًا بنظره له ، من غير أن يبقى منه بقية تقف على رسم ، أو تناط باسم ، أو تتعلق بأثر ، أو توصف بنعت ، أو تنسب إلى وقت » .

الإبهام فى هذه ، وفى جمل أخرى كثيرة فى كتاب المحاسن ، حبلى بإيحاءات الطمأنينة ووحدة الوجود ، تفسر محاباة الصوفى المرسى **ابن عربى** لأستاذه **ابن العريف** صوفى المرية ، وأشرنا إليها من قبل ، وفى كتابه « الفتوحات المكية » بخاصة يشير إلى كتاب « **محاسن المجالس** » لابن العريف أكثر من مرة ، ليوثق ، أو يعطى قيمة ، أشد نظرياته جرأة عن فكرته فى وحدة الوجود الحضورية . وهو سبب آخر يجعلنا نعطى ابن العريف ورسالته أهمية

أكبر فى نطاق تاريخ التصوف ، فلا أحد يجهل التأثير الخصب الذى أحدثه ابن عربى فى تطور نظرية وحدة الوجود الإسلامية فى العالمين العربى والفارسى على السواء .

لقد أشرنا فى إيجاز خالص إلى الخطوط الرئيسية فى كتاب محاسن المجالس ، وأهميته لتأريخ التصوف الإسلامى ، وبقى القليل فيما يتصل بأسلوب ابن العريف الأدبى فى تحرير الكتاب ، لقد سار على الخطة التى فرضها على نفسه فى المقدمة ، فنمّى فكرة كل « منزل » بألوان من الوثائق المختلفة ، كآيات من القرآن الكريم ، أو أحاديث نبوية ، أو حكم من أعلام الصوفية ، وحكايات وأحوال الأنبياء ، والأولياء ، وقصائد غزلية استخدمها فى مواطن صوفية ، وجمل شخصية مقنعة كخيط رئيسى يربط بين الوثائق البعيدة .

وغنىٌ عن القول أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التى كان يستشهد بها فى كل خطوة ، كان يعطيها دائمًا تفسيرًا مجازيًا ، أو موافقًا لفكرته . والمؤلفون وأصحاب الحكم والأمثلة التى استشهد بها ، أو أشار إليها ، هم من الأنبياء : موسى ، ويوسف ، ويعقوب ، وداود ، وعيسى ، أو من الصوفية المشارقة أمثال : أبو يزيد البسطامى ، ورابعة العدوية ، وعتبة الغلام ، والشبلى ، والدقاق . أبيات الشعر ، وهى كثيرة على نحو ملحوظ بالنسبة لحجم الرسالة ، مجهولة القائل غالبًا ، ولأن بعضها قصير ، وفى غيبة العون الذى يقدمه محتواها ، تقوم صعوبات كثيرة دون تفسيرها ، ولست متأكدًا أننى تغلبت على كل الصعوبات . وأخيرًا فإن الجمل الموجزة التى أضافها ابن العريف لترتيب الشواهد البعيدة تتسم أيضًا بالغموض ، وهو غموض لا يعود إلى إيجازها فحسب ، وإنما إلى تقنيته الخفية ، وقد حاولت تفسيرها موضحًا فى هوامش جاءت أسفل صفحات ترجمة الكتاب .

○ **ملحقات :**

ألحق العلامة أسين بلاثيوس بدراسته هذه النصوص التى أشار فيها ابن عربى فى كتابه « الفتوحات المكية » إلى ابن العريف ، وهى : جـ ١ ، ص ١١٩ و ٢٢٧ و ٢٩٧ و ٣٦٣ . وجـ ٢ ص ١٢٨ و ٤٢١ و ٨١١ . وجـ ٣ ، ص ٥٢٠ وج ٤ ، ص ١٠٥ و ١١٧ و ٧١٤ ، طبعة بولاق ، القاهرة عام ١٢٩٣ هـ . ولم نر فائدة ملحة فى نقلها هنا ، ويمكن للقارئ أن يعود إليها إذا أراد فى هذه الطبعة ، وأصبحت الآن نادرة تمامًا ، أو إلى الطبعة الجديدة الرائعة التى أصدرتها الهيئة العامة للكتاب فى مصر ، بتحقيق الدكتور عثمان يحيى ومراجعة أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع اللغوى ، وهى متوفرة ، وجبّت ما قبلها من طبعات ، وتضم فهارس وافية ، ومن السهل الرجوع إليها دون صعاب .

(المترجم)

الفهـــرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كتب أخرى للمؤلف

- **امرؤ القيس، حياته وشعره**
الطبعة الخامسة، دار المعارف، ١٩٨٤ م
- **دراسة فى مصادر الأدب**
الطبعة السادسة، دار المعارف، ١٩٨٤ م
- **ملحمة السّيد، دراسة مقارنة**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٣ م
- **مع شعراء الأندلس والمتنبى**
ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث، الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- **بابلو نيرودا، شاعر الحب والنضال**
دار روز اليوسف، ١٩٧٤ م. [نفد وتعاد طباعته الآن]
- **طوق الحمامة لابن حزم، تحقيق**
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٢ م
- **القصة القصيرة، دراسة ومختارات**
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- **الشعر العربى المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته**
الطبعة الثالثة، دار المعارف، ١٩٨٥ م
- **الحضارة العربية فى إسبانيا**
ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى ليفى بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٤ م

- **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية**

ترجمة لكتاب المستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٤ م

- **التربية الإسلامية فى الأندلس، أصولها المشرقية، وتأثيراتها الغربية**

ترجمة لكتاب المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا، دار المعارف، ١٩٨٠ م

- **الأخلاق والسير فى مداواة النفوس لابن حزم (تحقيق)**

دار المعارف، ١٩٨٢ م

- **الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه**

دار المعارف.

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٤٩٠٣
الترقيم الدولى	٩-٢١١٣-٠٢-٩٧٧	ISBN

٣ / ٨٧ / ١١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)